غوميس أيانيس دي آزورارا

تاريخ اكتشاف و غزو غينيا

أو

تاريخ الغارات البرتغالية على سواحل غرب إفريقيا و بشكل خاص على سكان الساحل الموريتاني الحالي من 1441 إلى 1448

ترجمة الدكتور أحمد ولد المصطف

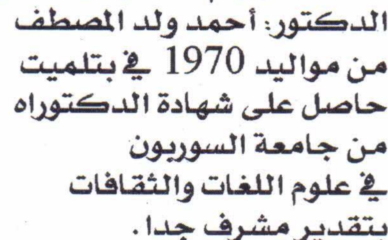


مكتبة القرنين 21/15 للنشر والتوزيع

... أما قيمته التاريخية [أي هذا الكتاب] بالنسبة لنا كموريتانيين فهي أنه يكشف، عبر معلومات دقيقة إلى حد كبير، سياسة الاستعمار البرتغالي إزاء سكان شواطئنا و بداية تفاصيل الأحداث الدرامية التي شهدها الساحل الموريتاني و التي أدت في المحصلة إلى قتل و سبي الآلاف من الأطفال و النساء و الشيوخ، و كذا مقاومة هؤلاء السكان التي لم تتوقف حتى جلاء هذا الاستعمار في مطلع ثلاثينات القرن السابع عشر.

[...] يمكن القول إذا بأن المعلومات الواردة في هذا الكتاب بخصوص ما وقع من أحداث إبان بداية الغزو البرتغالي لشواطئنا و لمختلف المناطق الداخلية من بلدنا، تشكل إضافة نوعية للذاكرة الجماعية لنا كشعب و أمة و ستساهم، مع أعمال أخرى سابقة و لاحقة، في تدوين التاريخ الوطني بعلمية و موضوعية، عبر ربط حلقاته بعضها ببعض، وخصوصا بعد العثور على هذه الحلقة التي ظلت شبه مفقودة، رغم أهميتها.

مترجم الكتاب في سطور



الدكتور: أحمد ولد المصطف
من مواليد 1970 في بتلميت
حاصل على شهادة الدكتوراه
من جامعة السوربون
في علوم اللغات والثقافات
بتقدير مشرف جدا.
يعمل كمدرس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط.
كما أنه خبير قضائي معتمد لدى المحاكم الموريتانية في مجال الترجمة.
سبق له أن ترجم رواية *Trois contes* للكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير إلى العربية (لم تنشر بعد).

ISBN 978-2-36-681077-6



تاريخ اكتشاف و غزو غينيا

أو

تاريخ الغارات البرتغالية على سواحل غرب إفريقيا، و بشكل خاص على سكان الساحل الموريتاني الحالي من 1441 إلى 1448

غوميس إيانيس دي آزورارا

تاريخ اكتشاف و غزو غينيا

أو

تاريخ الغارات البرتغالية على سواحل غرب إفريقيا، و بشكل خاص على سكان الساحل الموريتاني الحالي من 1441 إلى 1448

ترجمة الدكتور أحمد ولد المصطف

الناشر



مكتبة القرنين 21/15 للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 1558
الترقيم الدولي: ISBN : 978-2-36681-077-6

الطبعة الأولى
2015

الناشر



مكتبة القرنين 21/15 للنشر والتوزيع
عمارة المامي – شارع كندي
ص ب : 6425 – انواكشوط – موريتانيا
هاتف : 39 89 30 36 222 + / 39 89 30 22 222 +
E-mail : ahme65delmeki@yahoo.fr

مقدمة

لا شك أن كتاب غوميس إيانيس دي آزورارا[1] "تاريخ اكتشاف و غزو غينيا" يمثل مرجعا تاريخيا لا نظير له، و بالأخص لكونه يتناول أحداثا وقع جلها في العقدين الأخيرين من النصف الأول من القرن الخامس عشر، و تحديدا ما بين 1434 و 1448 في المنطقة الواقعة ما بعد رأس بجدور و حتى شواطئ السنغال و غينيا. ذلك المجال الجغرافي الذي يشمل بالطبع سواحل الصحراء الغربية و موريتانيا و جزر الرأس الأخضر و السنغال و سواحل غامبيا و غينيا، إضافة إلى جزر الكناري. ترتبط طبيعة هذه الأحداث بما اصطلح على تسميته ب "الكشوفات الجغرافية الحديثة" التي بدأ البرتغاليون يخططون لها منذ عشرينات القرن الخامس عشر بعد استيلائهم على مدينة سبته و إخفاقهم في حملتهم لاحتلال مدينة طنجة.

بيد أنه قبل التطرق باقتضاب لحياة مؤلف و بعض جوانب هذا الكتاب و ظروف العثور عليه في نهاية ثلاثينات القرن التاسع عشر، تجدر الإشارة بادئ ذي بدء إلى أن العنوان الأصلي للكتاب: *تاريخ اكتشاف و غزو غينيا* يحمل بعض اللبس، إذ رغم حقيقة أن البرتغاليين وصلوا فعلا إلى شواطئ غينيا، إلا أن أهم الأحداث التي وقعت عند ما بدأ هذا الغزو للشواطئ الإفريقية تمت على سواحل المجال الجغرافي الذي يمكن تسميته "أرض البيظان" أو "بلاد أزناكة" كما سماها البرتغاليون أنفسهم و التي تمتد من ما بعد رأس بجدور إلى مصب نهر صنهاجة / السنغال. فعلى سبيل المثال كانت غالبية المواجهات التي جرت بين البرتغاليين و السكان المحليين في الحيز الزمني الذي تمت فيه هذه الأحداث و المشار

---

[1] في الطبعات الجديدة لهذا الكتاب بالبرتغالية يكتب اسم المؤلف على النحو التالي : غوميس إيانيس دي زورارا / Gomes Eanes de Zurara

إليه أعلاه قد وقعت بين سكان هذا المجال الجغرافي المذكور والأساطيل الغازية. فكما سنرى، كانت العمليات الكبيرة والخسائر الفادحة التي تكبدها السكان الأصليون، هي في الغالب الأعم في صفوف البيظان[2]، وبشكل خاص في صفوف السكان الذين كانوا يقطنون ما بين رأس نواذيبو أو الرأس الأبيض و حتى نهر صنهاجة.

لذا فإننا نعتقد أن عنوان الكتاب كان هدفه بالأساس إظهار أبعد نقطة وصل إليها البرتغاليون في استكشافاتهم الجغرافية على الشواطئ الإفريقية أكثر من أي شيء آخر، ذلك أن الغزو البرتغالي في تلك الفترة تركز بالأساس على الساحل الموريتاني الحالي و بالأخص على أرخبيل آرغين، حيث كانت جزيرتا آرغين وتيدره أكثر النقاط التي استهدفها الاستعمار البرتغالي.

بخصوص حياة المؤلف[3]، هناك ثلاثة أنواع من الوثائق سمحت ببقاء آزورارا حيا في الذاكرة: الكتب التي ألفها هو نفسه و الوثائق الرسمية التي حملت توقيعه باعتباره موظفا عموميا، و بالأخص عند ما كان مسؤول الأرشيف الملكي، إضافة إلى شهادات المؤرخين. في القرن السادس عشر، ذكر باروس، و هو مؤرخ

---

[2] اعتمدنا هذه التسمية لأنها بحسب اعتقادنا تتماشى مع مدلول التسميات التي أطلقها البرتغاليون على سكان موريتانيا الحالية إضافة إلى سكان الصحراء الغربية و هي: Mouros، Azenagues، Alarves و تعني التسمية الأخيرة العرب.

[3] تم الاستئناس بشكل أساسي في هذه النقطة بما ورد في مقدمة الترجمة الإنجليزية للجزء الأول من كتاب آزورارا و الذي شمل الفصول من 1 إلى 40 ، راجع بهذا الخصوص مقدمة كتاب: غوميس إيانيس دي آزورار: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea ، ترجمة كل من: شارلز ريموند بيزلي، عضو معهد ميرلون، أوكسفورد و عضو مراسل لجمعية لشبونه الجغرافية و أدغارد برستيج، فارس من نظام القديس ثياغو الأنبل في البرتغال و عضو مراسل لأكاديمية لشبونه الملكية للعلوم و لمؤسسة لشبونه الجغرافية، الناشر: The Hakluyt Society، الجزء الأول، نيويورك، أكتوبر 1896، المنشور من قبل مشروع غوتنبرغ لاكتشاف الكتاب الإلكتروني، ابريل 2011 على موقعه: www.gutenberg.net.

جزر الهند الشرقية في تاريخه بعضا مما كتبه آزورارا و كذلك دمياو دي غونيس.
الاسم الحديث للمؤلف هو غوميس إيانيس دي آزورارا ، إذ أن هذا الأخير كان يوقع باسم "غوميس إيانيس" أو "غوميس آنيس" و هو ابن جوآو إيانيس دي آزورارا، نسبة إلى آزورارا و هي قرية تابعة للمجمع الكنسي في إفورا و كويمبرا. باستثناء هذه الأبوة، لا يعرف الشيء الكثير عن والد آزورارا، ثم إن اسم والدته لا يعرف إلا بالحدس. رغم ذلك فإنه يعتبر من أرومة نبيلة، لكونه تم قبوله في نظام فرسان المسيح. أما بخصوص تاريخ ميلاده و وفاته، كغيره من الكتاب البرتغاليين الذين عاشوا في تلك الفترة، فإنه غير معروف. مع ذلك فقد أشار في كتابه "تاريخ حصار و سقوط سبتة"، و الذي أنهاه سنة 1450، بأنه لما يتجاوز بعد "العقد الثالث من الرجولة" عند ما أنهى هذا الكتاب، و هو ما يمكن أن يفهم منه أنه ولد مع مطلع القرن الخامس عشر.
يذكر صديق المؤلف، ماتيوس دي بيزانو، أن آزورارا قضى شبابه في النشاط العسكري دون أن يدرس. رغم ذلك فقد حصل بين سنة 1433 و 1438 على وظيفة في المكتبة الملكية أثناء فترة حكم السيد ادوارت، و بعد ذلك بوقت قصير أصبح مساعد المؤرخ فرناندو لوبيس الذي خلفه سنة 1452 في عهد الملك أفونسو الخامس، حيث أنهى كتابه *تاريخ غينيا* سنة 1453 و هو في نفس الوظيفة. تفيد الروايات أن آزورارا خدم في نظام فرسان المسيح و تدرج في الرتب إلى أن وصل إلى رتبة قائد، بيد أن ضياع أرشيف هذا النظام في الفترات السابقة على مطلع القرن السادس عشر لم يسمح بمعرفة طبيعة الخدمة التي قام بها آزورارا و لا الظروف التي اكتنفت تقدمه في هذا النظام الذي أنشأه الملك دينيز سنة 1319 على أنقاض نظام فرسان الهيكل. لقد كانت تحكم نظام

فرسان المسيح ثلاثة مبادئ أساسية هي العفة و التقشف و الطاعة، و إن كانت هذه المبادئ تغيرت في فترة لاحقة.
لقد مثل استيلاء البرتغاليين على سبته، سنة 1415، بداية الرحلات الاستكشافية و كان منظرها الأول و راعيها هو الأمير هنريك (هنري) الملاح الذي يبدو أنه و بعد الإخفاق في الاستيلاء على مدينة طنجة، أراد أن يعوض ذلك بهذه الحملات.
و في سنة 1452 تلقى دي آزورارا أمرا من الملك أفونسو الخامس بجمع كل المعلومات المتعلقة بحياة الأمير هنريك، و الذي كان وقتها لا يزال حيا، و من ثم تأليف كتاب بخصوص أعمال هذا الأمير، و هو ما قام به آزورارا في كتابه: *تاريخ اكتشاف و غزو غينيا* الذي منحه شهرة كبيرة، حيث انتهى من تأليفه في 18 فبراير 1453 .و بعد خمسة أيام من انتهائه من تأليف هذا الكتاب، أرسل رسالة إلى الملك أفونسو الخامس يبلغه فيها بإكمال المهمة التي أسندت إليه. لم تتأخر مكافأة آزورارا على هذا العمل كثيرا، حيث عينه الملك أفونسو الخامس في السادس من يونيو 1454 كمدير للأرشيف الملكي[4] خلفا لفرناندو لوبيس، كما يبدو أنه حصل في نفس الوقت على وظيفة كبير المؤرخين[5].
أما بخصوص تاريخ وفاته، فلا يوجد تاريخ مضبوط، بيد أن الرواية الأكثر مصداقية هي ما قاله دامياو دي غونيس من أن آزورارا قد عاش عدة سنوات بعد 1472. بعد وفاته، خلفه في منصب مدير الأرشيف الملكي أفونسو آنيس دوبيدوس، غير أن قرار تعيين هذا الأخير قد ضاع، و أول وثيقة حملت توقيعه كانت مؤرخة في 31 مارس 1475.
فرغم أنه كان يحظر على آزورارا التزوج لكونه حائزا على رتبة فارس من نظام المسيح، فقد تزوج بالفعل من إنيز غونسالفيز

[4] Guarda Mór da Torre do Tombo بالبرتغالية.
[5] بالبرتغالية: Chronista-Mór

و أنجبت له ثلاثة أولاد: ابن هو غونسالو غوميس دي آزورارا، و ابنتان و هما كاترينا دا سلفيرا و فيليبا غوميس، وقد تمت تسوية وضعيتهم قانونيا برسائل ملكية سنة 1482 و 1483، أي بعد وفاة آزورارا بسنوات[6].

لقد ألف غوميس إيانيس آزورارا العديد من الكتب[7]، منها ما تم طبعه و منها ماضاع، كما أنه توجد أعمال تنسب إليه، لكن لا يوجد إجماع بأنه هو من ألفها.

بخصوص الكتب التي ألفها، يمكن أن نذكر:

أ/ *خوارق قديس كوندستبره السيد نونو آلفريس بريرا*[8]، و هو كتاب قد ضاع.

ب/ *تاريخ الملك جوآو الأول*[9]؛ توجد نسخة من هذا المخطوط في المكتبة الملكية[10] بلشبونه؛

---

[6] راجع بهذا الخصوص: غوميس إيانيس دي آزورار: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea ، ترجمة كل من: شارلز ريموند بيزلي، عضو معهد ميرلون، أكسفورد و عضو مراسل لجمعية لشبونه الجغرافية و أدغارد برستيج، فارس من نظام القديس ثياغو الأنبل في البرتغال و عضو مراسل لأكاديمية لشبونه الملكية للعلوم و لمؤسسة لشبونه الجغرافية، الناشر: The Hakluyt Society، الجزء الثاني، نيويورك، ابريل 1899 ، المنشور من قبل مشروع غوتنبرغ لاكتشاف الكتاب الإلكتروني، ابريل 2011 ، تكملة مقدمة الجزء الأول، ص.354 .

[7] لقد استقيناها هذه المعلومات المتعلقة بمؤلفات أزورارا من مقدمة ترجمة الجزء الأول من كتاب المؤلف إلى الإنجليزية و هو مرجع تم ذكره سابقا.

[8] MILAGRES DO SANTO CONDESTABRE D. NUNO ALVRES PEREIRA.

[9] CHRONICA DEL REI D. JOAM I DE BOA MEMÓRIA E DOS REYS DE PORTUGAL O DECIMO. Terceira parte em que se contém a tomada de Ceuta." Composta por Gomez Eannes D'Azurara Chronista Mór destes Reynos & impressa na linguagem antiga. Em Lisboa. Com todas as licenças necessarias. Á custa de Antonio Alvarez, Impressor del-rei N.S. 1644, pp. X-283 fol.

[10] بحسب تسمية هذه المكتبة في نهاية القرن التاسع عشر، إذ لا ندري بدقة ما هي تسميتها الآن.

ج/ *تاريخ اكتشاف و غزو غينيا*[11] و هو الكتاب موضوع الترجمة الحالية إلى العربية؛

د/ *تاريخ الكونت السيد بدرو دي منزيز*[12]، بدأ آزورار تأليف هذا الكتاب سنة 1458 و انتهى منه في الثالث و العشرين من يونيو سنة 1463، بدرو دي منزيز هذا كان حاكم سبته منذ أن استولى عليها البرتغاليون سنة 1415 و حتى وفاته سنة 1437، و هو كتاب تم طبعه؛

ه/ *تاريخ السيد ادوارت دي منزيز*[13]، توجد نسخ مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة لشبونه و في أرشيف توريه دو تومبو و في أكاديمية العلوم و هي نسخ ينقصها حوالي الثلث. من المحتمل أن آزورارا قد انتهى من تأليف هذا الكتاب سنة 1468 و يسرد فيه حياة السيد دوارته دي منزيز الذي هو الابن غير الشرعي للسيد بدرو، بطل كتاب "تاريخ السيد بدر ودي منزيز" ، فهذا الكتاب يكمل المعلومات التاريخية بخصوص تواجد البرتغاليين في سبته و كذلك تاريخ القصر.

إضافة إلى هذه المؤلفات، توجد أعمال أخرى تنسب إلى آزورارا و هي:

---

[11] CHRONICA DO DESCOBRIMENTO E CONQUISTA DE GUINÉ, escrita por direcção scientifica, e segundo as mandado de El-Rei D. Affonso V sob a instrucçoẽs do illustre Infante D. Henrique pelo Chronista Gomez Eannes de Azurara; fielmente trasladada do Manuscripto original contemporaneo, que se conserva na Bibliotheca Real de Pariz, e dada pela primeira vez á luz per diligencia do Visconde de Carreira, Enviado Extraordinario e Ministro Plenipotentiario de S. Majestade Fidelissima na corte da França; precedida de uma Introducção e illustrada com algumas notas pelo Visconde de Santarem ..... e seguida d'um Glossario das palavras e phrases antiquadas e obsoletas." Paris, 1841. Fol. pp. XXV-474.

[12] CHRONICA DO CONDE D. PEDRO DE MENEZES

[13] CHRONICA DO CONDE D. DUARTE DE MENEZES.

- *تاريخ السيد ادوارت*[14]، يعتبر البعض أن مؤلف هذا الكتاب هو روي دي بينا / Ruy de Pina و الذي خلف آزورار في وظيفة كبير المؤرخين؛
- *تاريخ الملك أفونسو الخامس*[15]؛
- *رواية عن أدب الفروسية*[16].

توجد نسخة من هذا العمل في المكتبة الوطنية بلشبونة.

أما حول المسار الذي اتخذه الكتاب منذ تأليفه و حتى العثور عليه في المكتبة الوطنية بباريس سنة 1837، فيعتقد دي شانترن أنه من المحتمل أن يكون ملك البرتغال ألفونسو الخامس قد أهدى هذا التاريخ لابن أخته، ملك نابولي أفونسو الكبير ما بين 1453 و 1457[17]، حيث أوفد إلى هذا الملك في هذه السنة سفيرا هو منديس دي بيريدو، فبواسطته أرسل هذه الوثيقة، ذلك أن ملك نابولي هذا كان يولي اهتماما كبيرا بالعلوم و يعرف اللغة الإسبانية

---

[14] Chronicle of D. Duarte، حيث ورد اسمه هكذا في مقدمة الترجمة الإنجليزية للجزء الأول من كتاب أزورارا: تاريخ اكتشاف و غزو غينيا، مرجع سابق.

[15] *Chronica del Rey D. Affonso V.*

[16] A ROMANCE OF CHIVALRY، يحمل الجزء الأول من هذا العمل العنوان التالي:
"Chronica do Invicto D. Duardos de Bertania, Princepe de Ingalaterra, filho de Palmeiry, e da Princeza Polinarda, do qual se conta seus estremados feitos em armas, e purissimos amores, com outros de outros cavalleiros que em seu tempo concorrerão. Composta por Henrrique Frusto, Chronista ingres, e tresladada em Portugues por Gomes Ennes de Zurara que fes a Chronica del Rey Dom AFonço Henrriques de Portugal, achada de novo entre seus papeis."
و كما يتضح من هذا العنوان، فإن المؤلف الأصلي انجليزي يدعى هنريك فروستو، ثم قام آزورارا بترجمة هذا الكتاب من الإنجليزية إلى البرتغالية.

[17] رغم هذا الرأي، فإن إشارات عديدة وردت في كتاب آزورارا توحي بأنه أضاف بعض المعلومات إلى الكتاب بعد الانتهاء من تأليفه بسنين عديدة، و بالأخص ما ورد في الفصل الرابع من أن الأمير هنريك توفي و هو أعزب، مما يدل على أن نسخة المكتبة الوطنية بباريس لم تغادر البرتغال إلا بعد سنة 1460 على الأقل. (المترجم).

و يهتم بالرحلات و الكشوفات"[18]. رغم الأبحاث التي قيم بها، لم يكن بالإمكان معرفة كيف وصل هذا الكتاب إلى فرنسا و إلى المكتبة الملكية بباريس بالذات. فهناك ما يحمل على الاعتقاد أن ذلك تم بعد الثورة الفرنسية و في فترة قريبة من بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر[19]. لقد عثر السيد فرديناند دينيس في أبحاثه على الكتاب في بداية 1837 و كشف عن ذلك في كتاب قدمه في نهاية 1839[20].

لقد أبدى دو فيسكونده دا كريرا، المبعوث فوق العادة و الوزير مطلق التفويض للعرش البرتغالي لدى عرش فرنسا، تحمسا كبيرا للمآثر التاريخية لبلده، فسعى إلى الحصول على الترخيص الضروري من الحكومة الفرنسية لنشر هذا التاريخ[21]. لقد تكفل بالهوامش السيد فيسكونده دي شانترن، الملحق بالأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونه و بعدد من المؤسسات العلمية في العديد من البلدان الأوربية و أمريكا، فساهمت هوامشه هذه في فهم بعض مقاطع الكتاب التي تحتاج إلى توضيح.

كما توجد نسخة أخرى من كتاب آزورارا في مكتبة ميونيخ و تحمل تاريخ 1507 و هي تعود إلى ناشر ألماني يدعى فالنتيم فرنانديس كان قد استقر في البرتغال منذ نهاية القرن الخامس عشر و حتى منتصف القرن السادس عشر. غير أن هذا المخطوط غير

---

[18] راجع بهذا الخصوص: غوميس إيانيس دي آزورار (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، الذي تم نسخه حرفيا من النسخة الأصلية الموجودة في المكتبة الملكية بباريس و نشر لأول مرة من قبل دو فيسكونده دا كريرا، المبعوث فوق العادة و الوزير مطلق التفويض لجلالة الملك لدى عرش فرنسا، مع التقديم و بعض الهوامش من قبل فيسكونده دي شانترن، الملحق بالأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونه و بعدد كبير من المؤسسات العلمية في إسبانيا و فرنسا و إيطاليا و إنجلترا و هولندا و السويد و أمريكا، دار النشر ج. ب أيو (J.P. Aillaud)، باريس 1841 ، ص. XIV.

[19] نفس المرجع السابق ص. XV

[20] *Chroniques chevaleresques de l'Espagne et du Portugal*، الجزء الثاني، الصفحات من 43 إلى 53 . نفس المرجع السابق ص. XV.

[21] نفس المرجع السابق ص. XV.

مكتمل، حيث تنقصه بعض المقاطع الخطابية، كما أن الفصل الأول و تقريبا الفصول من الثالث إلى السابع غير موجودة. لقد بدأ فالنتيم فرنانديس فصوله ابتداء من الفصل الثامن من مخطوط مكتبة باريس، كما أنه قلص حجم فصول الكتاب من سبعة و تسعين إلى اثنين و ستين[22].
من زاوية نقدية[23]، فقد كانت معارف آزورارا متنوعة، على غرار مؤرخي و كتاب القرون الوسطى، فكان ينزع إلى الاستشهاد في مؤلفاته بشكل متكرر بالإنجيل و بالعديد من المؤرخين و الكتاب القدامي من يونانيين و رومان و مسيحيين و عرب، من قبيل: هيرودوتوس، هوميروس، أرسطو، قيصر، ليفي، سيسرو، سولوست، فالريوس ماكسيموس، بليني، لوكان، الفرغاني[24]، سنيكا، فيجتيوس، يوسيفوس، بوطليموس. ثم إنه يقتبس من المسيحيين المتأخرين و من كتاب القرون الوسطى: أوروسيوس، القديس غريغوري، إسيدور الإشبيلي، لوكاس، ماركو بولو، ابن سيناء، رودريق الطليطلي، أجيديوس، القديس جروم، ألبرتيس الكبير، القديس برنارد، القديس توماس الإكويني، القديس أوغسطين، إلخ.، و هو ما كان يثقل أسلوبه في بعض الأحيان. رغم ذلك، فإن آزورارا يتمتع بقدرات أدبية و خطابية كبيرة.
يؤمن آزورارا إيمانا راسخا بتأثير علم الفلك في مصير كل شخص، و يحاول أن يفسر الأحداث التي تقع بحسب ذلك، كما سيظهر في مختلف فصول هذا الكتاب.

---

[22] راجع بهذا الخصوص مقدمة الجزء الأول المترجم إلى الإنجليزية: غوميس إيانيس دي آزورار: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea ، مرجع سبق ذكره .

[23] راجع بهذا الخصوص أيضا مقدمة ترجمة الجزء الأول من كتاب: *تاريخ اكتشاف و غزو غينيا* إلى الإنجليزية، مرجع سابق.

[24] هو أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني، فلكي عاش في العراق و مصر في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي و له كتاب في علم الفلك يدعى: *كتاب في علم جوامع النجوم*، ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر و كان له تأثير كبير في أوربا في القرون التي تلت تلك الفترة.

مما يؤخذ على آزورارا أنه بعد أن وافق الملك أفونسو على مطالب مجالس الأقاليم البرتغالية سنة 1459 بنسخ بعض الوثائق التي يضمها الأرشيف الملكي، و التي اعتبر أعضاء هذه المجالس أن كلفة صيانتها باهظة، أسندت المهمة إلى آزورارا الذي كان وقتها يشغل وظيفة مدير الأرشيف المذكور، بيد أن بعض المؤرخين اعتبر أن النسخ الذي قام به آزورارا للعديد من هذه الوثائق كان مقصرا، و الأهم من ذلك أن تدميره للعديد من الوثائق الأصلية بعد نسخها الجزئي كان مثار جدل بسبب ضياع الكثير من المعلومات التاريخية الهامة.

ثم إن آزورارا في كتابه *تاريخ اكتشاف و غزو غينيا*، موضوع الترجمة الحالية، و رغم تأكيده الدائم على توخي الموضوعية و البحث عن الحقيقة، كان غير محايد على الإطلاق بخصوص ما ساقه من تبريرات للأعمال الفظيعة التي مارسها البرتغاليون على السكان المحليين على امتداد الساحل الغربي الإفريقي، و التي تمثلت في القتل بلا هوادة و عمليات الاختطاف و السبي الجماعي بغية إفراغ هذه المنطقة من ساكنتها، و بالأخص إزاء سكان الساحل الموريتاني الحالي.

مع ذلك فإن المعلومات الواردة في هذا الكتاب تعتبر جد هامة من الناحية التاريخية، إذ إنها تسلط الضوء على حجم معاناة السكان المحليين لهذه المنطقة جراء هذا الغزو الاستعماري و أيضا على ما قاموا به من مقاومة باسلة ضده. لذا يعتبر هذا الكتاب أهم أعمال آزورارا على الإطلاق، و أول كتاب ألفه أوربي معروف عن منطقة ما بعد رأس بجدور. لقد عوض هذا الكتاب ضياع مؤلف سرفيرا الذي يحمل عنوان: *تاريخ الحملات البرتغالية على السواحل الإفريقية*، و الذي اقتبس منه آزورارا العديد من الأحداث التي جرت إبان هذه الحملات، كما عوض ضياع وثائق الأرشيف البرتغالي بخصوص بداية الكشوفات الجغرافية المعاصرة.

أما قيمته التاريخية بالنسبة لنا كموريتانيين فهي أنه يكشف، عبر معلومات دقيقة إلى حد كبير، سياسة الاستعمار البرتغالي إزاء سكان شواطئنا و بداية تفاصيل الأحداث الدرامية التي شهدها الساحل الموريتاني و التي أدت في المحصلة إلى قتل و سبي الآلاف من الأطفال و النساء و الشيوخ، و كذا مقاومة هؤلاء السكان التي لم تتوقف حتى جلاء هذا الاستعمار في مطلع ثلاثينات القرن السابع عشر. لقد رحل الاستعمار البرتغالي عن جزيرة آرغين، قاعدة تمركزه الرئيسية، بعد ما يمكن اعتباره أطول فترة استعمار شهده بلدنا، بل ربما تكون أطول فترة قضاها الاستعمار الأوربي في بلد عربي، حيث أحكم سيطرته على سواحلنا اعتبارا من سنة 1441 و إلى غاية 1633، مع محاولته التوغل في داخل البلد، و بالأخص في ودان، أي قرابة قرنين من الزمن. إن مصداقية المعلومات الواردة في هذا الكتاب يمكن إرجاعها إلى عدة عوامل، أهمها كون الكتاب يتناول حياة أهم شخصية سياسية في البرتغال كانت العقل المدبر للكشوفات الجغرافية الحديثة، ألا و هي الأمير هنريك (هنري) الملاح؛ أما العامل الثاني فهو أن تأليف هذا الكتاب تم بأمر من ملك البرتغال أفونسو الخامس نفسه، وفاء منه للجهود التي بذلها الأمير المذكور في توسع بلده، حتى أصبحت البرتغال بحق أقوى دولة أوربية بعد تحقق الكشوفات الجغرافية الأولى و التي واصلها الأمير المذكور حتى وفاته سنة 1460.

أما العامل الأخير فيتعلق بمكانة مؤلف هذا الكتاب، حيث إنه بالإضافة إلى أنه كان قائدا كبيرا في نظام فرسان المسيح الذي كان يقوده الأمير هنريك، فقد كان أيضا يتولى وظائف رسمية عالية في البلاط الملكي البرتغالي، من أهمها أنه كان يشغل وظيفة نائب كبير المؤرخين عند ما كان يعكف على تأليف هذا الكتاب، كما أنه عين بعد الانتهاء من تأليف هذا العمل كمدير للأرشيف الملكي، و هو

المنصب الذي شغله حتى وفاته. فهذه العوامل مجتمعة تجعل المؤلف في وضعية تسمح له بالحصول على المعلومات الأكيدة من مصادرها، و بالتالي تضفي عليها مصداقية أكثر من أي عمل آخر تم تأليفه في تلك الفترة أو في الفترات اللاحقة.
يمكن القول إذا بأن المعلومات الواردة في هذا الكتاب بخصوص ما وقع من أحداث إبان بداية الغزو البرتغالي لشواطئنا و لمختلف المناطق الداخلية من بلدنا، تشكل إضافة نوعية للذاكرة الجماعية لنا كشعب و أمة و ستساهم، مع أعمال أخرى سابقة و لاحقة، في تدوين التاريخ الوطني بعلمية و موضوعية، عبر ربط حلقاته بعضها ببعض، وخصوصا بعد العثور على هذه الحلقة التي ظلت شبه مفقودة، رغم أهميتها.

بخصوص ظروف عثوري على هذا الكتاب، فقد حدث ذلك أثناء البحث الذي كنت أقوم به منذ بعض الوقت بخصوص الوجود البرتغالي على الشواطئ الموريتانية، فقد اطلعت في البداية على ترجمة كتاب آزورارا *"تاريخ اكتشاف و غزو غينيا"* إلى الإنجليزية في شهر أغسطس من سنة 2014[25]، و بعد ذلك بحوالي شهر عثرت على النسخة الأصلية بالبرتغالية لنفس الكتاب، و هي النسخة التي تم تحقيقها من مخطوط مكتبة باريس المذكور أعلاه.
بعد مطالعتي للترجمة الإنجليزية و مقارنتها بالنص الأصلي بالبرتغالية، تأكدت من أنني عثرت بالفعل على "كنز تاريخي"، بالنظر إلى أن الأحداث التي تناولها هذا الكتاب لم ترد في أهم الكتب و الأبحاث التي تناولت التاريخ الموريتاني، سواء تلك التي ألفها موريتانيون أو تلك التي نشرها أجانب. في البداية فكرت بترجمة جزئية لهذا العمل، و خصوصا الفصول التي تتناول المجال الجغرافي الموريتاني، لكن و بعد قراءة ثانية متأنية لهذا

[25] على موقع هيئة غوتنبرغ للكتاب الإلكتروني، المذكور أعلاه.

الكتاب، أدركت أنه في غالبية فصوله كانت الأحداث الهامة تدور في هذا الحيز الجغرافي الممتد من رأس نواذيبو[26] إلى نهر صنهاجة/ السنغال، و بالتالي ارتأيت أن علي القيام بترجمة كاملة لهذا العمل.
و هكذا و بعد تفكير و تمعن، قررت المضي قدما في هذا المشروع الذي بدأت الترتيب له مع بداية شهر أكتوبر سنة 2014 و انتهيت منه مع بداية شهر ابريل 2015. لقد كان التحدي الأول يتمثل في عقبة اللغة، ذلك أن النص مترجم بإنجليزية القرن السادس عشر، إضافة لكونه ترجمة لنص من البرتغالية يعود إلى نهاية القرون الوسطى. لكن بعد جهد و مطالعة متكررة للترجمة الإنجليزية و بالاستعانة بالمناهج و النظريات الحديثة الخاصة بالترجمة، إضافة إلى الوسائط اللغوية المساعدة، و بالأخص المعاجم الخاصة بالإنجليزية الحديثة و القديمة، تم تذليل مختلف العقبات اللغوية بنسبة كبيرة. كذلك مكنتني مقارنة الترجمة الإنجليزية بالنص البرتغالي الأصلي، و الذي قمت بمطالعته و محاولة فهمه، مستعينا برصيدي من اللغة الإسبانية و معتمدا في أحيان كثيرة على بعض المعاجم المزدوجة[27] المرجعية، من فك العديد من رموز النص الأصلي، و هو ما سمح لي بتصحيح بعض ما اعتبرتها هفوات وقعت في الترجمة الإنجليزية أشرت إليها في مكانها من الترجمة الحالية.
فمن أجل أن يكون محتوى النص أكثر وضوحا، قمت بإدراج العديد من الهوامش التي تم اقتباسها من النص المترجم إلى الإنجليزية او من النص الأصلي بالبرتغالية، إضافة إلى الهوامش التي استحدثْتُ و التي أعتقد أنها قد تهم على حد سواء الباحث و القارئ غير المتخصص.

---

[26] أو الرأس الأبيض.

[27] البرتغالية / الإسبانية، البرتغالية / الفرنسية، البرتغالية / الإنجليزية.

رغم ذلك، فإنني أعتبر ما قيم به من ترجمة إلى العربية لا يعدو كونه مجهودا أوليا قابلا للتحسين باستمرار، كان من الأفضل أن يتم في إطار طاقم متكامل من الباحثين يضم تخصصات متعددة، غير أن توفر مثل هذا الإطار لم يكن مضمونا على الإطلاق، بل ربما أدت محاولة خلقه إلى المزيد من الانتظار. لذا تجاسرت على القيام بهذا العمل، معولا على ملاحظات و تصويبات كل من سيطلع عليه من باحثين و لغويين لتقديم ما قد يكون وقع من أخطاء و مثالب لتلافيها في الطبعات القادمة.

في هذا الإطار، لا يسعني إلا أن أقدم تشكراتي الخالصة لكل من الدكاترة: يحيى ولد البراء و محمد ولد بوعليبه و محمد الحسن ولد محمد المصطفى و محمد لمين ولد الكتاب من كلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط على مراجعتهم بشكل جزئي أو كلي لهذا العمل و كذا على ملاحظاتهم القيمة التي أثرته، كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الباحث البرتغالي الدكتور فرانسيسكو فرير من جامعة لشبونة الجديدة على ما قدم لي من إرشادات بخصوص ضبط كتابة بعض أسماء الأشخاص البرتغاليين الذين وردوا في النص الأصلي.

تجدر الإشارة أيضا إلى أنه و بعد أن كنت أضع اللمسات الأخيرة على ترجمة هذا الكتاب عثرت على ترجمة فرنسية[28] لنفس المؤلف مكنتني مطالعتها من إثراء بعض الهوامش، و بالأخص عبر التسميات الجديدة لبعض الأماكن الجغرافية الواردة في النص الأصلي، كما سمحت هذه الترجمة أيضا بالتحقق من بعض المقاطع التي كانت تبدو غامضة في النص المترجم إلى الإنجليزية.

في الختام، فإن ترجمة هذا العمل إلى العربية ستشكل عملا ناجحا إن هي ساهمت من قريب أو من بعيد في الرفع من مستوى الوعي العلمي بتاريخ بلدنا و الأحداث الهامة التي شهدها.

نواكشوط، بتاريخ 17 رمضان 1436 هـ / الموافق 4 يوليو 2015.

الدكتور أحمد ولد المصطف

[28] تحمل هذه الترجمة العنوان التالي: *Chronique de Guinée (1453)* de Gomes Eanes de Zurara, présentée par Jacques Paviot, traduite et annotée par Léon Bourdon avec la participation de : Robert Ricard, Théodore Monod, Raymond Mauny et Elias Sera Rafols, édition Chandeigne- Librairie Portugaise, 1994.
و قد قدمها لي مشكورا الدكتور محمد ولد بوعليبه و ذلك بعد مطالعته لنسخة كاملة من ترجمتي لكتاب أزورارا: *تاريخ اكتشاف و غزو غينيا / Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné* إلى العربية، إذ سبق لي أن قدمت له هذه النسخة قبل نشرها لقراءتها و إبداء ملاحظاته بخصوصها.

مقدمة مؤلف الكاتب

من هنا يبدأ هذا التاريخ حيث سيتم ذكر كافة الأحداث التي أنجزناها خلال غزونا لغينيا و التي كتبت بأمر من الأمير الأسمى و المعظم و المفضال، المولى الأمير السيد[29] هنريك، دوق فيسيو و سيد كوفيلهام، حاكم سلك الفرسان في نظام يسوع المسيح. تم جمع هذا التاريخ في مجلد بأمر من الأمير الأسمى و الأعظم و السيد الأقوى، ملك البرتغال السيد أفونسو الخامس.

[29] آثرنا ترجمة كلمة Dom التي وردت في النص الأصلي بالبرتغالية أو كلمة Don التي وردت في النص المترجم إلى الإنجليزية ب "السيد"، و ذلك لتفادي اللبس، لأن كلمتي "دوم" و "دون" تحملان مدلولين بالعربية مغايرين لمعنى الكلمة البرتغالية. (المترجم).

الفصل الأول

و هو عبارة عن مقدمة يشرح من خلالها المؤلف الغاية المتوخاة من هذا الكتاب

لقد علمتنا التجربة أن أي عمل خير يتطلب الاعتراف بالجميل، فحتى لو كان فاعل الخير لا يريد ذلك لنفسه، فله مع ذلك أن يرغب فيه حفاظا على سمعة المتلقي من التدنيس و بحيث يكتسب المانح استحقاقا أخلاقيا. فهذه العلاقة الحميمة تقوم بين فعلين، أي العطاء و الشكر، بحيث يستوجب الأول الثاني بشكل إلزامي. فلو لم يوجد الأول لما كان هناك عرفان بالجميل في العالم. لذا فإن القديس توماس[30]، الذي كان أوضح أساتذة علماء اللاهوت، قد ذكر في كتابه الثاني من الجزء الثاني من عمله و في القسم 108، أن أي فعل يعود بطبيعة الحال إلى العلة التي تسببت فيه. بالتالي، و بما أن المانح هو السبب الرئيسي في المزية التي يتلقاها الآخر، فإنه من الضروري، وفق قانون الطبيعة، أن يعود إليه الخير الذي فَعل في شكل امتنان مناسب.

فبهذا التعويض نكون قادرين على فهم التشابه الطبيعي بين أعمال الطبيعة و تلك التي تمنح المساعدة المعنوية. فلأن الأشياء تحدث تعويضا مناسبا، يبدأ من البداية و يتدرج حتى النهاية، فإنها تحقق المكافأة التي نتحدث عنها. و كبرهان على ذلك، تحدث النبي سليمان في سفر الكهنوت[31] عن أن الشمس تطلع على الأرض،

---

[30] أي توماس الأكويني. انظر بهذا الخصوص: غوميس إيانيس دي آزورار: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea ، ترجمة كل من: شارلز ريموند بيزلي، عضو معهد ميرلون، أكسفورد و عضو مراسل لجمعية لشبونه الجغرافية و أدغارد برستيج، فارس من نظام القديس ثياغو الأنبل في البرتغال و عضو مراسل لأكاديمية لشبونه الملكية للعلوم و لمؤسسة لشبونه الجغرافية، الناشر: The Hakluyt Society، الجزء الأول، نيويورك، اكتوبر 1896 ، الفصل 1 ،الإحالة B، المنشور من قبل مشروع غوتنبرغ لاكتشاف الكتاب الإلكتروني، ابريل 2011 .

[31] باللغة الإنجليزية Ecclesiastes book . انظر نفس الفصل من المرجع السابق، ص.2 .

فبعد أن ترسم دائرة تحيط بكل شيء، فإنها تعود إلى المكان الذي ظهرت منه. تنبع الأنهار كذلك من البحر، بحيث لا يتوقف جريانها، ثم تعود باستمرار إليه. نفس الشيء يحدث في النظام الاجتماعي، فكل عمل خير يأتي من إرادة نبيلة ينطلق مباشرة حتى يصل إلى المتلقي المناسب و بعد ذلك يعود بشكل طبيعي إلى حيث سمحت له الطبيعة بأن يبدأ. مثل هذا الرجوع يؤدي إلى اتحاد جميل بين من يفعل الخير و من يتلقاه، و هو ما تحدث عنه تولي عند ما ذكر أنه لا يوجد فعل أهم من الامتنان و الذي بفضله يعود الخير إلى من منحه.

نظرا إلى أن جلالة المولى الأعظم، الملك أفونسو الخامس (الذي هو الآن، بفضل الرب، ملك البرتغال وقت تأليف هذا الكتاب ، فأطال الله فترة حكمه و فضائله)، أقول نظرا إلى أنه رأى و علم عظمة و امتياز أعمال السيد الأمير هنريك، دوق فيسيو و سيد كوفلهام، الذي كان عمه المبجل و العزيز، و بما أنه اعتبر هذه الأعمال من أهم أعمال الأمراء المسيحيين في هذا العالم، فقد وجد أنه من الخطأ عدم تدوين هذه الأعمال بشكل صحيح ليطلع عليها الناس. و فوق هذا كله، نظرا للخدمات الجليلة التي قدمها الأمير المذكور للملوك السابقين و أثرها الإيجابي الكبير على أبناء وطن الأمير.

لهذه الأسباب، أمرني الملك بالقيام بهذا العمل لينجز بسرعة؛ و بما أن جزءا كبيرا من هذه الأعمال كان متفرقا عبر حوليات الملوك الذين كانوا في أيامه، على سبيل المثال ما قام به عند ما ذهب والده الملك جوآو لمهاجمة سبتة و عند ما ذهب هو مع إخوته و بعض السادة الكبار، و على نفقته الخاصة، لمحاصرة المدينة المذكورة، و بعد ذلك ما قام به في عهد الملك ادوارت، صاحب الذكر المجيد و بأمر منه عند ما هاجم طنجة، فكل ما يلي تم بأمر أو توكيل منه و بنفقات و مجهودات كبيرة، فيجب أن يسجل كل ذلك باسمه.

فكما أنه في كل الممالك يكتب الناس تواريخ ملوكهم، فإنهم لا يغفلون عن تدوين الأعمال التي قام بها أعوان هؤلاء الملوك بشكل منفصل، خاصة عند ما تكون عظمتها بارزة للتنويه بها، كما تم في فرنسا بخصوص حالة الدوق جون و سيد لانسام، و في قشتالة فيما يخص أعمال السيد روي دياز، و في مملكتنا بالذات بخصوص الكونت نونالفريز بريرا، كذلك الحال مع هؤلاء الأمراء الملكيين الذين ستكون غبطتهم كبيرة لتمجيد شرفهم و لأن العديد من الأشخاص المتميزين كانوا تحت إمرتهم. إذ لا يمكن لأمير أن يكون عظيما إلا إذا كان يقود عددا كبيرا من الرجال، كما لا يمكنه أن يكون غنيا إلا إذا كان يحكم أناسا أغنياء. لهذا السبب، قال الفاضل الروماني فابرسيوس إنه يفضل أن يكون سيدا على من يملكون الذهب على أن يكون الذهب له هو نفسه.

غير أن الأحداث المذكورة قد كتبت من قبل أشخاص عديدين، لذلك فإنهم دونوا كتاباتهم بطريقة مختلفة في أجزاء متعددة. فنظرا إلى أن سيدنا و ملكنا قد اعتبر ذلك غير مناسب في عملية غزو واحدة[32] يمكنها أن تروى بعدة طرق، لكنها جميعا تفضي إلى نتيجة واحدة، لذا أمرني بالانشغال بكتابة و ترتيب تاريخ هذا المؤلف حتى يتمكن من سيقرؤونه من الحصول على أشمل معرفة ممكنة، فله منا الامتنان على ما أسند إلينا من مهمة. و كما بدأت عند الشروع في هذا الفصل، فإننا سنقتدي بالنبي موسى، فرغبة منه في أن لا ينسى بنو إسرائيل النعم التي من الله عليهم بها، فإنه طالما طالب المتلقين بتسجيلها في قلوبهم كما لو كان ذلك في كتاب يكفي أن نلقي عليه نظرة متأنية لفهم محتواه. إضافة إلى ذلك، فنظرا إلى أن تذكر الإصابات سهل و أن الفعل الحميد ينسى

[32] كعملية غزو شواطئ غرب إفريقيا.

بسرعة، فإن الذين يأتون فيما بعد[33] سيضعون رموزا باقية لينظر الناس إليها و يتذكرون النعم التي حظوا بها في الزمن الماضي.
فهكذا كتب عن يوشع أن الرب أمره بأخذ اثني عشر حجر كبير من منتصف حوض نهر الأردن و حملها إلى حيث يقام المخيم، بعد أن اجتاز الجميع هذا النهر. لقد وقع ذلك كي يتذكروا المعجزة المذهلة التي صنعها الله و كان الناس شاهدين عليها، و ذلك عند ما فلق المياه، بحيث أن تلك التي كانت تأتي من المنبع قد تراجعت نحو الأعلى دون أن تفيض على الضفاف، في حين واصلت المياه الموجودة في المصب انسكابها إلى أن أصبح النهر جافا. لكن البعض، لاعتقادهم أنه حتى مع مثل هذه الآيات، فإن ما حدث لم يعرف بدقة (تماما عند ما ننظر إلى أعمدة هرقل، فإنها لا تعني بدقة بالنسبة لمن ينظر إليها أنها قد وضعت كتخليد لحملته في اسبانيا). هكذا فقد بدؤوا تقليد كتابة ما لا يمكن تذكره بطريقة أخرى. و كدليل على ذلك ورد في سفر الملكة أستير أن الملك أهاسوروس قد احتفظ بسجل كافة الأعمال المهمة التي قيم بها لصالحه، و أنه في زمن معين جعل هذا الكتاب يقرأ حيث كافأ من قاموا بهذه الخدمات.
كذلك أيضا فإن الملك، السيد راميرو، رغبة منه في أن لا ينسى رجال إسبانيا أن عليهم عدم السماح لأنفسهم بنسيان المساعدة الكبيرة التي منحها إياهم الحواري المبارك، سانتياغو، عند ما خلصهم من حكم المسلمين و وعد بأن يكون سندا لنا في كافة معاركنا مع الكفار، قد عمل على أن تدون قصة هذا الحدث و المزايا التي منحت لكنيسة سنتياغو، أي التموين الخاص بنفقة المحتاج، و هي امتيازات لا تزال الكنيسة تستلمها من أي إقليم من إسبانيا حيث يتواجد المسيحيون.

---

[33] أي بعد موسى.

لذا فإن الاهتمام الذي أظهره القدامى يجب أن يكون تقليدا اليوم، فبقدر ما أن ذاكرتنا أضعف من ذاكرتهم و أقل اهتماما بالخير الذي تتلقاه، بقدر ما يجب أن نكون حذرين لنحفظ المزايا الممنوحة لنا من قبل الآخرين، ذلك أنه لا يمكننا التجرؤ على نسيانهم دون أن نلحق الأذى بأنفسنا. و لأننا تلقينا منة عظيمة من الرب من خلال الأعمال التي سيتم ذكرها لاحقا، و ذلك عبر ثلاث طرق: الأولى من خلال العديد من الأرواح التي سبق و أن تم تخليصها بالفعل أو التي سيتم تخليصها مستقبلا من خلال عقب سبايانا، الثاني عبر الفوائد العظيمة التي نتلقاها جميعا من الأعمال المذكورة؛ ثالثا، عبر الشرف العظيم الذي تحرزه مملكتنا الآن في العديد من البلاد بإخضاعها لأعداء أقوياء و بعيدين من أرضنا.

لهذه الأسباب مجتمعة، سنكتب هذا التاريخ تخليدا لحمد الرب و تمجيدا لذكر مولانا المذكور أعلاه و شرف بعض خدمه و بعض رجال وطننا القيمين الذين بذلوا ما بوسعهم لتحقيق الأعمال المذكورة. في النهاية و لأن التاريخ المذكور مخصص بشكل أساسي لهذا السيد، فلنبدأ بالبحث عن شمائله و فضائله و كذا عن طلعته أيضا، وفق ما دأب عليه العديد من المؤلفين ممن يوثق بهم و ممن طالعنا تواريخهم.

الفصل 2
توسل المؤلف

آه أيها الأمير، لولا القليل لاتصفت بالألوهية! أتوسل إلى شمائلك المقدسة من أجل تحمل و صبر هفوات يراعي الموغل في الجرأة و الذي يحاول طرق موضوع سام يتمثل في سرد مآثرك و عظيم مجدك. فخلود هذه الأعمال - إن أفلحت محاولتي - سيرفع من سمعتك و يحمل شرفا عظيما لذكراك، مقدما بذلك درسا مفيدا لكافة الأمراء الذين سيقتدون بك. و الحقيقة أن طلبي العفو من سموكم له ما يبرره و ذلك إدراكا مني بقصوري عن إنجاز هذا العمل، كما أن لدي من الأسباب ما يكفي لتوقع العتب على فعل شيء أقل مما كان يجب علي فعله، أكثر مما هو على الإفراط. فمجدك و محامدك و شهرتك قد ملأت أذني و شغلت عيني، إلى حد جعلني لا أعرف من أين أبدأ.

أسمع صلوات النفوس البريئة للشعوب المتوحشة، التي لا يحصى عددها و التي منذ بدء الخليقة لم تشاهد قط النور الرباني، لكن بفضل عبقريتك و إنفاقك اللامحدود و بمجهوداتك الجبارة هديتها إلى درب الخلاص الحقيقي و أزلت أدرانها في مياه التعميد و مسحتها بالزيت المقدس و حررتها من مساكنها البائسة، فأصبحت تعرف الآن كيف كان الظلام مخفيا تحت ما يشبه النور في زمن أجدادهم. لن أستطيع التعبير عن مدى الخشوع، عند تأملهم في القدرة الإلهية، و هم يتوسلون دوما لتحصل فضائلك العظيمة على جزائها، و هو أمر لا يمكن الاعتراض عليه ممن تمعن مليا في أقوال القديس توماس[34] و القديس غريغوري[35]

[34] يعني توماس الأكويني. راجع بهذا الخصوص: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الأول، مرجع سابق ، الفصل 3 ،الهامش رقم 8 .

[35] البابا (القديس) غريغوري الأكبر (590 - 604 م). نفس المرجع السابق، هامش رقم 8 .

بخصوص معرفة الأرواح لمن قدم لها العون في الماضي و الحاضر في هذه الحياة.
أرى أولئك الغرمانتيين[36] و الأثيوبيين الذين يعيشون تحت ظل جبل القوقاز، بشرتهم سوداء لأنهم يعيشون في المكان المقابل للارتفاع الكامل لأشعة الشمس، فلأنه على قمة برج الجدي فإنه يسطع عليهم مع حرارة مدهشة، كما تبين حركات مركزه المنحرف، أو بتعبير آخر عبر قرب هؤلاء الناس من المنطقة الحارة. كما أرى الهنود في الهند الكبيرة و تلك الصغيرة، الكل متشابه في اللون، الجميع يطلبون مني كتابة عطاياك المالية و كسوتك و مرور سفنك و كرم ضيافتك التي تلقاها هؤلاء و الذين يأتون إلى الأطراف القصية في إسبانيا، سواء لزيارة الحواري[37] أو لمشاهدة جمال العالم، و أيضا إلى سكان النيل حيث يملك جمهورهم أراض في مدينة طيبة القديمة و المهيبة، لقد أثاروا استغرابي هم أيضا، حيث رأيتهم يرتدون الثياب المميزة لخدمك و أصبحت أجسامهم، التي لم تستتر أبدا بثوب، مكسوة الآن بقماش متعدد الألوان، بينما تزدان أجياد نسائهم بمجوهرات الذهب و الفضة المطرزة بشكل رائع. لكن هل كان لذلك أن يتم لولا نفقاتكم السخية و مجهودات خدمكم، تحركها إرادتكم الخيرة التي بفضلها نقلتم إلى الأصقاع القصية في الشرق الأشياء المصنوعة في الغرب؟ و لا حتى صلوات و صراخ هذه الشعوب، رغم كثرتها، كانت ثمنا لذلك، كالتهليلات التي سمعت بخصوص عظمة الألمان و لباقة الفرنسيين و شجاعة الإنجليز و حكمة الإيطاليين، و هي هتافات كانت تصاحبها أخرى من أمم و لغات مختلفة، الكل معروف بعراقته و بفضائله. و كما يقول هؤلاء: آه، يا من دخلت سرداب المجد بهذه العظمة، لما ذا تشغل نفسك بأمم الشرق؟ تحدث

---

[36] Garamantes.

[37] سانتياغوا دي كومبوستلا (إسبانيا).

إلينا و من أجلنا، اجتز البراري و در بمحيط الأرض و تعرف على مجالس الأمراء و دور الأسياد الكبار، فاعلم أنك لن تجد من يضاهي سمو سمعة هذا الرجل، إن أنت قدرت حق التقدير ما يمت بصلة لأمير عظيم.

بحق، يمكنك أن تدعوه معبد كافة الفضائل. لكن كيف لي أن أجد عذرا لشعب أمتنا، لكوني قدمت شهادات بعض الأجناس الأخرى على شهاداتهم. هنا في البرتغال التقيت بالسادة و الأساقفة و النبلاء و السيدات الأرامل و فرسان نظم الخيالة و أساتذة و علماء الكاثوليكية، مع العديد من ذوي الشهادات في مختلف العلوم و الطلاب الشباب و سرايا مساعدي الفرسان و رجال نبلاء و عاملين يدويين و جمهور لا يحصى من الشعب. بعض هؤلاء دلني على مدن و قصور و بعضهم على قرى و حقول و بعضهم على مناصب كنسية هامة و بعضهم على ضيعات كبيرة و غنية و منازل ريفية و أملاك و امتيازات، و البعض الآخر على مواثيق خاصة بالمعاشات و الزواج؛ و آخرون ذكروا الذهب و الفضة و النقود و الثياب؛ أما البعض الآخر فقد تحدثوا عن صحة أجسامهم و تخليصهم من المخاطر بفضل وسائلك؛ كما أن آخرين دلوني على عدد لا يتناهى من الخدم ذكورا و إناثا، في حين ذكر لي بعضهم أديرة و كنائس قمت بترميمها و بنائها و الزخارف العظيمة و الهامة التي وفرت في العديد من الأماكن المقدسة. كما لفت بعضهم أيضا انتباهي إلى آثار الأغلال التي كان يحمل في الأسر و قد أنقذتموه منها.

ما ذا أستطيع قوله بخصوص المتسولين المحتاجين الذين أراهم أمامي و هم يحملون الصدقات؟ و عن جموع الرهبان الغفيرة من شتى النظم التي أوضحت لي الثياب التي تكسوهم بها و وفرة الأغذية التي تسد خلتهم بها؟ لقد كان بوسعي الانتهاء من هذا الفصل لو لم أشاهد اقتراب الأعداد الهائلة من السفن ذات الأشرعة

الباسقة و هي محملة من جزر بحر المحيط العظيم التي أصبحت مأهولة بفضلك، فتناديني بأن أنتظر في الوقت الذي تندفع فيه لتبرهن أنه يجب أن لا تنسى من هذا السجل. لقد استعرضت أمامي إسطبلات الحيوانات الخاصة بها و الأودية المليئة بقصب السكر و التي تحمل منها مخزونا توزعه عبر العالم، كما تحمل أيضا كشهود على سعة رخائهم كافة القاطنين في مملكة الغرب[38].

اسأل، كما يقولون، هل عرف هؤلاء الناس قط ما ذا تعني وفرة الخبز، إلى أن جاء الأمير فعمر الجزر غير المأهولة بالناس، حيث لم يكن يقطنها سوى الحيوانات المتوحشة. بعد ذلك عرضوا علي رفوفا من المعاسل مليئة بأسراب النحل يحملون منها شحنات كبيرة من الشمع و العسل إلى مملكتنا. و فوق هذا و ذاك، شيدت و لا تزال تشيد بنايات شاهقة تعانق السماء من الخشب القادم من تلك البلدان. لكن لماذا أذكر جملة الأشياء العديدة التي قيلت لي في مدحك، مع أنه كان باستطاعتي كتابتها دون تحريف للحقيقة؟

دعوني أقول لكم إنه لا تزال في مسامعي أصوات مناقضة لما سردته هنا: أصوات كان علي أن أبدي إزاءها تعاطفي لولا أنني أدركت أنها صرخات من هم ليسوا من ملتنا، يتعلق الأمر بأرواح لا تحصى من المسلمين مما دون و مما وراء المضايق[39]، قتل العديد منهم بحرابك في المعارك الضروسة التي خضتها ضدهم. ظهر الآخرون أمامي و هم مكبلون بالأغلال و ملامحهم تثير الشفقة، تم أسرهم بواسطة سفنك بفضل القوة الجسدية لأعوانك، لكني لاحظت بهذا الخصوص أنهم لا يشتكون كثيرا من سوء الحظ

---

[38] Algarve و هي منطقة في جنوب غرب البرتغال.

[39] تعني عبارة مسلمي ما دون المضايق مسلمي الأندلس، أما مسلمي ما وراء المضيق فتعني بالأساس مسلمي المغرب الأقصى و الصحراء. (المترجم)

الذي حل بهم في نهاية مصيرهم في حياتهم الأولى (...)[40]. هكذا أنهي مقدمتي ملتمسا من عظيم شمائلك و من سمو و نبل و عظمة مآثرك إن كان قد حصل تقصير أو إهمال أو فظاظة، أن يمنحني جلال عظمتك العفو عن خطئي، مع التشجيع المناسب.

[40] تم اقتصار هذه الفقرة على هذا الحد لاشتمالها في الأخير على تحامل عقدي من قبل الكاتب ينم عن تعصب أعمى. للاطلاع على بقية الجملة، راجع: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص.15.

الفصل 3
و فيه سنسرد نسب الأمير هنريك

هناك سببان دفعاني للحديث عن نسب الأمير النبيل، الأول أن مرور الأزمنة يمحو من الذاكرة معرفة الأشياء الماضية، و هو ما قد يجعلها تتلاشى أو تختفي تماما من نظرنا إذا لم يتم تمثيلها أمامنا في شكل مكتوب. فمنذ أن اعتزمت كتابة وقائع الزمن الحاضر للأجيال المقبلة، فإنه يتعين علي الاهتمام بمجد السلالة النبيلة لأميرنا، لأن هذا الكتاب في الواقع يجب أن يكون عملا هي المؤتمنة عليه. فسيكون هذا الاستطراد مقتضبا حتى لا أبتعد عن موضوعي الرئيسي.
فالذين سيطالعونه قد لا يكونوا قرؤوا أي شيء في كتب أخرى.
أما السبب الثاني فهو أنه لا يمكننا أن ننسب كل هذه الخصال العظيمة لشخص واحد بمفرده، بل علينا أن نمنح نصيبا لأجداده، ما دام من المؤكد أن نبل السلالة، الذي يتم احترامه من قبل من ينتمي إلى هذا النسب لتجنب العار و اكتساب الفضيلة، كما يحدث عادة، يفرض على الإنسان التحلي بالشجاعة و القوة المعنوية لمواجهة المصاعب.
و عليه يجب أن تعلم أن الملك السيد جوآو، الذي كان عاشر ملوك البرتغال، هو من انتصر في معركة الجبراتا[41] و هو الذي احتل مدينة سبتة العظيمة في أرض إفريقيا. تزوج السيدة فيلبا، أخت دوق لانكستر و أخت ملك إنجلترا هنري، فأنجبت له ستة أطفال شرعيين و هم خمسة أمراء و أميرة و أصبحت فيما بعد دوقة بيرغندي. لقد غفلت عن ذكر بعض أبنائهم الآخرين الذين توفوا و هم صغار. كان الأمير هنريك هو الثالث من بين هؤلاء الأبناء.

---

[41] معركة بين البرتغاليين و ملك قشتالة خوان الأول وقعت يوم 14 أغسطس سنة 1385 في Aljubarrota بوسط البرتغال. (المترجم).

هكذا فإن أصله من جهة الآباء و الأمهات يجعل من نسبه الملكي الأنبل و الأسمى في البلاد المسيحية. ثم إن هذا الأمير نفسه هو أخ الملك السيد ادواردته و عم الملك السيد أفونسو، و هما العاهلان اللذان حكما البرتغال بعد وفاة الملك السيد جوآو. بيد أنه، و كما سبق لي أن قلت، سأتناول هذا الموضوع باقتضاب، إذ لو تعرضت لبعض القضايا بشكل مفصل فسأكون أمام مواضيع عديدة يتطلب كل واحد منها التمحيص اللازم، و هو ما قد يسبب لي تأخرا كبيرا في العودة إلى ما قد بدأت به.

الفصل 4
و يتحدث فيه عن مناقب الأمير هنريك

يبدو لي أنه علي أن أكتب أكثر إن كنت أريد سرد كافة التفاصيل التي اعتادت بعض كتب التاريخ سردها بخصوص بعض الأمراء الذين يكونون موضوع كتاباتها. لذا فإنه عند كتابة مآثرهم يبدؤون بذكر أعمالهم في فترة شبابهم رغبة منهم في تمجيد فضائلهم. و مع أنه على افتراض أن هؤلاء الكتاب المتمكنين لا يمكنهم فعل أي شيء دون مبرر واضح و كاف، فإنني في الوقت الراهن سأحيد عن مسارهم، لعلمي بأن ذلك قد يكون عملا غير ضروري في هذا المقام. كما أني لا أعتزم القيام بسرد طويل لطلعة الأمير، فالكثيرون في هذا العالم كانوا يتمتعون بملامح متناسقة بشكل جيد، بيد أنه نظرا لعيوبهم غير المشرفة فإنهم قد ألحقوا ضررا بالغا بسمعتهم.

فبما أن ذلك لا يضيف شيئا، فلنكتف بما قاله الفيلسوف في هذا الصدد و هو أن الجمال الشخصي ليس خيرا كاملا. و عليه و عودة إلى موضوعي، لنقل إن هذا الأمير النبيل كان طويل القامة، قوي البنية، ضخم الأعضاء و مفتولها، كما كان شعر رأسه منتصبا إلى حد ما، مع لون فاتح بشكل طبيعي، بيد أنه تحت تأثير الإجهاد و التعرض أصبح داكنا. تثير ملامحه الخوف في البداية في نفوس من لا يعرفونه، و عند ما يغضب - مع أن ذلك لا يكون إلا في أوقات نادرة - تصبح ملامحه خشنة. كانت قوة المهجة و نباهة العقل الميزة المثلى التي يتحلى بها؛ فخارج مجال المقارنة، كان يتوق لإنجاز الأعمال العظيمة و النبيلة. فلا البذخ أو البخل وجدا

مكانا في صدره، فبخصوص الأول كان مقتصدا إلى حد أنه أفنى حياته و هو في عفة مطلقة و توفي و هو أعزب[42].
فما ذا أقول إذا بخصوص عظمته باستثناء أنه كان الأبرز بين أمراء الأرض؟ كان بالفعل الأمير غير المتوج و كان بلاطه يعج بأعداد غفيرة من أتباعه من النبلاء من تنشئته الخاصة، أكثر من أي أمير آخر. كان قصره مدرسة للحفاوة لكافة أبناء النبلاء و كريمي المحتد في المملكة، بل أكثر من ذلك للأجانب، فصيته الذائع أدى إلى زيادة كبيرة في النفقات: فمن المعلوم أنه كان يتواجد بمجلسه رجال من أمم متعددة و مختلفة عن أمتنا، إلى حد أن ذلك كان أعجوبة بالنسبة لكامل شعبنا تقريبا، فلا يغادر أحد من هذه الجموع العظيمة إلا و قد حصل على عطية من الأمير. كان يقضي كل وقته في الأعمال العظيمة، فمن الأكيد أنه لا يوجد سيد في أمم الدنيا أكثر تقشفا منه.
قد يكون من الصعب معرفة عدد الليالي التي قضاها و لم يطبق له جفن، ثم إن جسمه تحول تحت تأثير التعفف إلى درجة بدا فيها أن السيد هنريك قد جعل طبيعته مغايرة لطبيعة الناس الآخرين. امتد مجهوده على مدى فترة طويلة اتسمت بالصرامة، فلئن شبه بعض الشعراء الأطلس العظيم بأنه يحمل السماء على كتفيه، فإنه لاختزانه علم حركة الأجرام السماوية، فقد كان سكان مملكتنا يستخدمون مثلا مفاده أن الجهد العظيم الذي بذله سيدنا الأمير " قد مكن من فتح المرتفعات و الجبال"، أي أن الأمور التي كانت تبدو مستحيلة للناس الآخرين أصبحت بسيطة و سهلة بفعل حيويته و مثابرته. كان الأمير يتحلى بالتبصر و السلطة و كان متكتما و قوي الحافظة، لكنه في بعض المسائل كان يميل إلى التريث، قد

[42] بما أن وفاة الأمير هنريك (هنري) الملاح وقعت سنة 1460، و بالنظر إلى أن أزورارا تنهى من تأليف كتابه سنة 1453 كما صرح بذلك في نهاية الفصل الأخير من الكتاب، فمن الواضح أن المؤلف قام بتعديل في بعض مقاطع فصول كتابه بعد تاريخ وفاة الأمير هنريك. (المترجم)

يكون ذلك من تأثير رباطة الجأش على طبيعته أو بملء إدارته، كما كان يتوجه إلى غايات لا يدركها الناس.
كانت طلعته هادئة و مهيبة و خطابه دمثا، كما كان جلدا في أوقات الشدة و متواضعا في الرخاء. فمما لا شك فيه أنه لم يتوفر ملك على تابع بهذه المنزلة، و حتى على شخص له منزلة دونه بكثير، يدين له بمثل هذا الولاء و التبجيل مثلما أظهر هو للملوك الذين حكموا البرتغال في حياته، و بالأخص الملك السيد أفونسو في بداية حكمه، كما قد تقرؤون بتفصيل أكثر في هذا الكتاب. لم يضمر أي حقد و لا سوء نية لأي كان، فمهما تكن فداحة الخطأ المرتكب في حقه فإنه يقابل ذلك بواسع عفوه، إلى حد أن بعض المتعالمين يأخذون عليه خرقه للعدالة التوزيعية، و لو أنه في كل القضايا الأخرى كان منصفا جدا.
فبهذا الخصوص يقولون إنه لم يردع الخدم الذين فروا و تركوه أثناء حصار طنجة، و هو الأمر الأكثر صعوبة الذي قد واجهه في حياته، ليس فقط لأنه تصالح معهم، بل لكونه منحهم ترقية مشرفة على حساب آخرين خدموا جيدا معه، و ذلك يعتبر، بتقدير البشر، يتعارض مع فرارهم. هذا هو المأخذ الوحيد الذي تمكنت من تسجيله عليه. و بما أن تُولِي قد أوصى بأن على المؤلفين تبرير كلما يكتبونه، فإنني سأقدم بهذا الخصوص في الفصل السادس من هذا العمل بعض الإيضاحات كي أتصرف ككاتب حقيقي. لقد شرب الخمر خلال فترة قصيرة من حياته و ذلك في شبابه، لكن بعد ذلك امتنع عنه بالكامل. كان يبدي دوما اهتماما كبيرا بشؤون الجمهور في هذه الممالك، مع بذل قصارى جهده في تنميتها و كان يشعر بالغبطة عند اختبار تجارب جديدة للصالح العام، و لو تطلب ذلك نفقات باهظة من ثروته الخاصة.
ثم إنه كان يستمتع بمهنة السلاح و بالأخص ضد أعداء الدين المسيحي، فيما كان يرغب في السلام مع المسيحيين. لذا كان محببا

لدى أقرانه على ما قام به من المصالح لفائدة الجميع كما أنه لم يظلم أيا كان. كانت إجابته الدمثة تقدر منزلة كل من يأتي إليه دون التقليل من مكانته الخاصة به. لم يتفوه قط بكلمة ساقطة أو وقحة.
كان مطيعا جدا لأوامر الكنيسة المقدسة و كان يحضر طقوسها بخشوع كبير، كما كان ينظم هذه الأخيرة في معبده بأبهة و احتفاء لا يقل عما يمكن أن نجده في مجمع أي كنيسة كاتدرانية. هكذا كان يحافظ على كافة الأشياء المقدسة بتوقير و يعامل جميع القساوسة بنفس الشرف و يقدم لهم العطايا و الامتيازات. يصوم نصف السنة تقريبا، لا يغادره فقير و هو خالي الوفاض. بالتأكيد فإنني لا أعرف أميرا أكثر منه تدينا و إيمانا بالكاثولوكية. لم يتسرب الخوف قط إلى قلبه و لم يخش إلا السيئات، فمن خصاله العفيفة و من أعماله الفاضلة خرجت مآثره السامية و العظيمة.
سأجمع في الفصل الموالي كافة الأشياء المتميزة التي أنجزها لصالح خدمة الرب و شرف المملكة.

الفصل 5

و فيه يتحدث المؤلف عن الأشياء المتميزة التي أنجزها الأمير لصالح خدمة الرب و شرف المملكة

أي شيء أستطيع أن أستهل به هذا الفصل أفضل من الحديث عن الغزو المجيد لمدينة سبته العظيمة و الذي بنصره العظيم شعرت السماء بالمجد و الأرض بالفائدة. لذا يبدو لي ذلك مجدا عظيما، بخصوص المجمع المقدس للفضائل السماوية، أن يتم تخليد تلك التضحيات الجليلة و الاحتفالات المباركة شكرا للمسيح سيدنا في تلك المدينة اعتبارا من ذلك اليوم و حتى الآن، و بفضله يجب أن يحتفى بها على الدوام. فالفائدة التي جناها عالمنا من هذا الإنجاز تتمثل في أن الشرق و الغرب على حد سواء أصبحا شاهدين على ذلك، فشعوبهما الآن تستطيع تبادل سلعها دون تعرض البضائع لأية مخاطر، إذ لا أحد يستطيع أن ينكر أن سبتّه هي مفتاح البحر الأبيض المتوسط.

فأثناء هذه الحملة كان أسطول الأمير أعظم و أقوى الأساطيل. فكفارس شجاع، قاتل و كابد شخصيا في اليوم الذي أخذت فيه من أيدي المسلمين؛ كان تحت إمرته كونت بارسلوس، الابن غير الشرعي للملك و السيد فرناندو، سيد براغانزا، ابن أخيه و غونسالو فاسكيز كوتينو، أحد النبلاء العظام و الأقوياء و عدد آخر من الأسياد و السادة الشرفاء، الكل مع جنوده و آخرون التحقوا بالأسطول المذكور من ثلاث مناطق هي بيرا و ترال - أوس - مونتيس و أنتر دورو - أ- مينو. فأول قائد ملكي احتل موطئ قدم في أسوار سبتّه هو نفسه من أكتب عنه و كان علمه الدائري أول علم يدخل المدينة و لم يفارقه ظله أبدا. في هذا اليوم كانت الضربات الرائعة التي يقوم بها بارزة لكل أولئك الرجال الآخرين، فخلال خمس ساعات لم يتوقف أبدا عن القتال، فلم يؤثر عليه

الغيظ، حيث كان شديدا، و لا شدة التعب لينسحب و يأخذ قسطا من الراحة. خلال هذا الحيز الزمني، خاض الأمير مع أربعة من أعوانه معركة شجاعة.
بخصوص الآخرين الذين كان من المفترض أن يسيروا معه في هذه الحملة، بعضهم تفرق في هذه المدينة الواسعة، أما الآخرون فلم يتمكنوا من الالتحاق به بسبب كون الأمير و رفاقه الأربعة المذكورين قد مروا من نفس البوابة مع المسلمين، إذ كان هذا الباب تحت حراسة مسلمين آخرين متخذين مواقع في أعلى السور. فخلال ساعتين سيطر الأمير و زملاؤه على بوابة أخرى وراء تلك التي تقع بين المدينتين في منعرج للسور تحت ظل القصر، يدعى هذا الباب الآن فرناندأفونسو. من هذا المكان انسحب معظم المسلمين الذين فروا من القرية الأخرى من جانب الميناء، تماما من حيث تم اقتحامها، لكنهم في النهاية، رغم التفوق العددي للعدو، تمكنوا من إغلاق البوابة. فلمعرفة ما إذا كان هذا المجهود بلا جدوى أم لا، فقد ظهر ذلك جليا للذين سقطوا و قضوا هناك و انتشروا على امتداد ذلك الميدان.
في مدينة سبته تلك تمت ترقية الأمير إلى رتبة فارس مع إخوته على يد والده، مع شرف عظيم، يوم تكريس الكنيسة الكاتدرائية. تم الاستيلاء على المدينة يوم 21 من شهر أغسطس 1415 ميلادية.
و فور عودة الملك جوآو إلى مملكته، عين هذا الأمير دوقا في تلك المرتبة في بلدة من محافظة الغرب. بعد ثلاث سنوات من ذلك، قدمت قوة عظيمة من المسلمين لمهاجمة سبته قدرها جباة فداء أسرى الملك بمائة ألف، كان من بينهم رعايا ملوك فاس و غرناطة و تونس و مراكش و بجاية، مع العديد من معدات الحرب و المدفعية، حيث كانت تسعى للاستيلاء على المدينة المذكورة التي حاصرتها بحرا و برا. عندها كان الأمير سريعا في نجدتها مع اثنين من إخوته، أي الأمير السيد جوآو و كونت بارسلوس الذي

أصبح فيما بعد دوق براغانزا، مع العديد من السادة و النبلاء و بمساعدة أسطول كبير؛ بعد قتل العديد من المسلمين و تخليص المدينة، قام بإصلاحات فيها و عاد مكرما إلى البرتغال. لا يبدو الآن راضيا عن انتصاره، لأن فرصة الاستيلاء على مدينة جبل طارق التي حضر لها لم تتح له. السبب الرئيسي في ذلك هو العقبة المتمثلة في خشونة فصل الشتاء الذي كان قد بدأ لتوه، ذلك أن البحر في هذا الوقت يكون خطيرا في كل مكان، و بشكل خاص في تلك المنطقة، نظرا لقوة التيارات التي توجد هناك. لقد جهز أيضا أسطولا قويا لمهاجمة جزر الكناري ليرشد السكان المحليين إلى الإيمان المقدس.

مرة أخرى، عند ما كان الملك السيد ادوارت في الحكم، مر بأمر منه بإفريقيا للمرة الثالثة أثناء حصاره لمدينة طنجة و سار تسعة عشر فرسخا مع الأعلام التي ترفرف على أرض أعدائه؛ بعد ذلك واصل حصاره لمدة اثنين و عشرين يوما، خلال هذه الفترة تم إنجاز العديد من الأعمال البطولية الجديرة بالتذكر، و بالأخص المجزرة الكبيرة التي وقعت في صفوف العدو حيث يمكنكم مطالعة ذلك بتفصيل أشمل في تاريخ المملكة.

حكم سبتة بأوامر من الملوك، أبوه و أخوه و ابن أخيه لمدة خمس و ثلاثين سنة بتبصر، حيث لم يتكبد عرش المملكة أية خسارة مهينة من جانبه، لكن في النهاية و لسبب جسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه، ترك الحكم المذكور للملك السيد أفونسو في بداية حكمه. علاوة على ذلك، ففي الفترة التي كانت سبتة فيها تحت السيطرة كان دوما يجهز سفنا مسلحة لمراقبة الكفار الذين قاموا بعمليات اجتياح واسعة النطاق على سواحل هذه الضفة من المضايق و ما وراءها، بيد أن الخوف من سفنه جلب الأمن لكافة

شواطئ إسبانيا المسيحية[43] و إلى جزء كبير من التجار الذين يتعاملون بين الشرق و الغرب.
كذلك أصبحت بفضله خمس جزر في بحر المحيط العظيم مأهولة، حيث كان عدد السكان كبيرا في الوقت الذي كنت أقوم فيه بتأليف الكتاب الحالي، و بالأخص في ماديرا، و عبر هذه الجزيرة، و كذلك جزر أخرى، فإن بلدنا قد حصل على إمدادات كبيرة من القمح و السكر و الشمع و العسل و الخشب، و أشياء أخرى استفاد منها، ليس فقط شعبنا، بل العديد من الأجانب، الكثير من المكاسب.
كما أن الأمير السيد هنريك كان مع الملك أفونسو، ابن أخيه في ذلك الجيش الذي تم تجهيزه ضد الأمير السيد بدرو و أسفر ذلك عن معركة ألفاروبيرا، حيث قتل السيد بدرو المذكور و دوق افرنشيس اللذان كانا معه، وهزم جميع من آووهم.
هنا، إن كان فهمي بهذا الخصوص على صواب، فإنني أستطيع القول بكل صدق أن ولاء الرجال في كل الأزمنة لا يمثل شيئا مقارنة بولائه. من جهة أخرى، فرغم أن خدماته لم تسبب عناء كبيرا مثل ذلك الذي ذكرت آنفا، إلا أن الظروف التي اكتنفت الموضوع تمنحه بهجة و عظمة تتجاوز أي شيء آخر: لنترك سرد ذلك بالتفصيل في التاريخ العام لإنجازات المملكة.
قدم السيد هنريك أيضا خدمات جليلة لنظام فرسان المسيح، من بينها أنه كان الحاكم عبر سلطة البابا، لذا منحه كافة السلطة الروحية على الجزر و في المملكة حيث اشترى أراض (أسس منها مراكز قيادة) و كذا منازل و عقارات ضمها إلى النظام المذكور. و في الدير المركزي الخاص بالنظام، بنى رواقين جميلين و خورسا عاليا، مع زخارف جميلة قدمها للاستخدامات المقدسة. و لأن خشوعه كان كبيرا تجاه العذراء مريم، فقد شيد

---

[43] تمييزا لها عن مملكة غرناطة المسلمة التي لم تسقط إلا سنة 1492، ثم إن اسبانيا في تلك الفترة كانت تعني شبه الجزيرة الإيبيرية التي تشمل إسبانيا الحالية و البرتغال. (المترجم).

تعظيما لها دارا للصلاة على بعد فرسخ من لشبونه، بالقرب من البحر في رستلو تحت اسم القديسة مريم بلم. و في بومبال و سوره، بنى كنيستين عظيمتين. كذلك فقد أوصى ببعض المنازل الفخمة لصالح مدينة لشبونه، لغبطته بالشرف الكبير المتمثل في رعاية الكتاب المقدس.

ثم إنه أمر بصرف منحة سنوية بمبلغ عشرة ماركات من الفضة لمدرسة اللاهوت بشكل دائم. بنفس الطريقة، منح معبده في كنيسة سانتا ماريا دا فكتوريا سبعة ماركات من الدخل السنوي. بيد أني لا أدري في الوقت الراهن إن كانت قد وقعت زيادة في هذه المنح بعد وفاته[44]، لأنه عند ما أمر الملك أفونسو بتأليف هذا الكتاب، كان في ذلك الوقت على قيد الحياة و قد بلغ من العمر أقل من ستين سنة، لذا فإنني لا أستطيع حصر أعماله الخيرية لأنه كان يفكر دوما بإنجاز الأعمال العظيمة و النبيلة. أعتقد أن أعضاءه بالفعل ستزداد ضعفا مع الزمن، بيد أن إرادته لن تضعف لإنجاز الأعمال الخيرة ما دامت روحه لم تفارق جسده.

إن ذلك يمكن فهمه بشكل جيد من قبل من رأوه يستعد للذهاب إلى سبتة و قد صعد على متن قارب تحدوه الرغبة في قضاء ما تبقى من حياته هناك، يحارب من أجل شرف المملكة و نشر المسيحية. ففي هذه القضية لم يكن يرغب في إنهاء حياته: الآن عدل عن تحقيق هذا المسعى هذه المرة، لأن الملك اتفق مع مجلسه على منع السفر، مع أنه قد منحه الترخيص بذلك مسبقا. فمع أن السبب الرئيسي لذلك لا يمكن أن يعرفه معظم الناس، بيد أن بعض المتعالمين، الذين ليسوا أعضاء في المجلس الرئيسي، يرون أن السبب هو كالتالي: بما أن السيد الملك، نظرا لأنه رجل شديد

---

[44] دليل آخر على أن آزورارا قام بتعديل على الكتاب الحالي الذي ذكر في الفصل الأخير منه أنه انتهى من تأليفه سنة 1453 ، في حين أنه يتحدث هنا في هذا المقطع عن وفاة الأمير هنريك التي حدثت سنة 1460 .

التكتم، و بالنظر إلى الأمور العظيمة التي يتعين تسويتها داخل المملكة، فقد أمره بالبقاء كي يقدم له، باعتباره عمه و صديقه الخاص و خادمه الأبرز، الجزء الأهم من البحث عن علاج لهذه المشاكل. بيد أنه ليس من المهم إن كان ذلك هو السبب في بقائه، أم كان هناك سبب آخر لا ندركه، فلنقل إن هذا العمل الذي تمكنك مشاهدته هو الجزء الأهم من الأهداف التي رسم في حياته، و هو ما يتعين علي أن أبينه بعد الذي تحدثت عنه.
من ضمن تلك الأعمال التي قام بها الأمير، هناك أعمال لا تقل عظمة قد يعتز بها من لم يبلغ درجة تميز هذا البطل، بيد أني تغاضيت عنها كي لا أبتعد عما وعدت بكتابته في البداية، ليس ذلك رغبة مني في التزام الصمت حيالها، بل لأني أعتزم تناول كل منها في مكانه الخاص في التاريخ العام للمملكة. و لأني بدأت هذا الفصل بالاستيلاء على مدينة، أريد أن أنهيه بقصة مدينة عزيزة كان الأمير وراء الأمر ببنائها في رأس سانتو فينسنت في ملتقى البحرين، أي بحر المحيط العظيم و البحر الأبيض المتوسط. لكن فيما يخص اكتمال الأشغال في تلك المدينة، فليس من الممكن الحديث عن ذلك بإسهاب، لأنه و حتى كتابة هذا المؤلف لم يشيد فقط سوى السور، مع أنه قوي جدا، إضافة إلى القليل من المنازل، و لا تزال الأشغال متواصلة فيها. و حسب الاعتقاد السائد، فإن الأمير قد عقد العزم على جعلها مركزا تجاريا.
لقد كان ذلك بهدف تمكين السفن التي تعبر من الشرق إلى الغرب من أخذ حمولتها و التزود بالمؤن و الملاحين هناك، كما يتم في كاديز، مع أن هذه الأخيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون كمثل هذا الميناء، فهنا يمكن للسفن أن تجد مكانا يحميها من الرياح (باستثناء ما نسميه نحن في هذه المملكة الرياح المعاكسة)، و بنفس الطريقة يمكنها المغادرة مع أي رياح في أي وقت أراد البحارة ذلك. إضافة إلى ذلك، بلغني أنه عند ما بدأ تشييد المدينة، عرض أهل جنوة ثمنا

كبيرا لشرائها، وهم كما تعلمون ليسوا من الناس الذين يستثمرون مالهم إلا عند ما يكون لهم أمل أكيد في الربح. فرغم أن البعض منحها أسماء أخرى، أعتقد أن الاسم المناسب هو "فيلا دو إفانت"[45] ، و هو الاسم الذي أطلقه هو نفسه عليها شفهيا و كتابيا.

[45] Villa do Iffante و تعني مدينة الأمير.

الفصل 6

و فيه يتناول المؤلف، الذي يرتب هذا التاريخ، أشياء يرى أن عليه ذكرها بخصوص فضائل الأمير السيد هنريك

كانت تلك فضائل وشمائل هذا الأمير العظيم و المجيد، تماما كما طالعتم في الفصول القليلة السابقة و التي تحدثت فيها بحسب استطاعتي، لكن بالتأكيد ليس بالقدر الذي يستحق هذا الموضوع مني، فكما عبر عن ذلك القديس جروم، فإن العقول الصغيرة لا يمكنها تناول المواضيع العظيمة. فإذا كان صحيحا، كما قال سالوست، بأن من حققوا أعمالا مشهورة في تاريخ أثينا، لم يتلقوا من الثناء إلا بقدر ما استطاع كتاب هذه المدينة الموهوبون و المتألقون التعبير عن ذلك بكلماتهم، فكم كانت إذا جرأتي كبيرة، أنا الذي لا تتجاوز قيمتي أن أكون مريدا لأحد هؤلاء القدامى، أن تحملت مسؤولية جسيمة كهذه.

لكن بالنظر إلى أنه قد قيل إن الطاعة أهم من التضحية، يبدو لي أني لا أستحق مؤاخذة بهذا القدر، ذلك أني فقط أنجزت ما أمرت به. بيد أني لم أطلب و لم أرغب في أن يعرض عملي أمام الجمهور، لكونه ليس بالقيمة التي يستحق بموجبها أن يحفظ في برج أو معبد كما حفظ الأثينيون مينرفا فيدياس[46]، أي تمثال الآلهة بالاس، و الذي لشدة جماله قد وضع على مرتفع ليشاهده الناس،

---

[46] المرتفع الذي يتحدث عنه آزورار هو بارثنون، أو معبد مينرفا في أثينا. تمثال الألهة المشهور هذا هو من الذهب و العاج و قد صنعه النحاة المشهور فيدياس و وضعه الأثينيون في ذلك المعبد الفخم. راجع بهذا الخصوص: .Pliny, Nat. Hist، الكتاب رقم 34 ، الفصل 19. المرجع: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، هامش دي شانترن رقم 1 ، ص. 37 .

كما ذكر الفيلسوف في كتابه السادس في الأخلاق في فصل الحكمة[47]. بل إني أرغب في أن يكون هذا الكتاب مفيدا من حيث الشكل كي يكون بالإمكان تأليف عمل آخر في المستقبل بالاستناد إليه، بحيث يكون أكثر مواءمة مع الموضوع و بإمكانه الإحاطة بذكر قدرات هذا الأمير العظيم. من الأكيد أن العار سيحل بكافة الأساتذة و الدكاترة و المحامين الذين تلقوا تعليما عبر عمله الخيري، إن كان من ضمن هؤلاء من لم يعتزم تخليد مآثره بطريقة أسمى و أنبل.

غير أنه، و كما أدركت ذلك في بعض الأحيان، قد يحدث أن لا تكون مكافأة الاعتراف بالجميل سريعة لمتابعتها أو قد تتوقف بسرعة بالكامل، فحاول أن تستوعب ما تضمنته الفصول السابقة لهذا العمل بخصوص ما ذكرته عن شمائل الأمير و أعماله الفاضلة و ما سأذكره لاحقا، ليس نظرا لتميز العمل المطلوب، بل لفظاظة و جهل الكاتب. فهذه المواضيع التي يمكنك أن تثق فيها قد كتبت بصدق أكثر من جمع بعضها مع بعض بطريقة سهلة.

بيد أنه قبل أن أدخل في جوهر التاريخ الذي بصدد كتابته، بودي أن أتطرق قليلا إلى نيتي في تغيير بعض الأشياء التي كنت أتبناها في الماضي، بغية الإشادة بهذا الدوق العظيم و المجيد. فأنت يافلريوس العظيم و مع مثل هذه الدراسة المتأنية، لم تتمكن من جمع وربط قدرات و فضائل السادة النبلاء المتميزين في مدينة واحدة في تاريخ واحد، بالتأكيد أستطيع القول إنه من بين هذا العدد

---

[47] الفيلسوف هو أرسطو. ليس عبثا أن كاتبنا يذكر ارسطو في هذا المكان و يفضل مرجعيته على مرجعية بوسانياس. هذا التفضيل، الذي يمكن ملاحظة بشكل متكرر في Leal Conselheiro d'elRei D. Duarte يؤكد التقدير الكبير الذي كانت تحظى به مؤلفات فيلسوف ستاجريت بين مؤلفينا القدامى (و كذا في أمم أخرى) خلال العصور الوسطى. فكاتبنا يقلده مفضلا إياه على بوسانياس، حتى عند تناوله للآثار اليونانية القديمة. نفس المرجع السابق و نفس الصفحة، هامش دي شانترن رقم 2.

الكثير من الرجال المشهورين، لم تستطع الحديث بأعلى مستوى عن شخص آخر يضاهيه، مع أنه كان بإمكانك منح بعض مستويات الفضيلة لكل واحد من أبطالك، فحتى الآن ليس بمقدورك توحيد كافة هذه الاستحقاقات في جسم واحد، كما جمعت أنا و أدمجتها كلها في حياة هذا الأمير.
أين يمكن أن تجد أحدا متدينا بهذه الدرجة، كاثولوكيا بهذه الدرجة، متأنيا بهذه الدرجة، مسديا النصح الجيد بهذه الدرجة، معتدلا في كافة تصرفاته بهذه الدرجة؟ أين يمكنك أن تجد مثل هذه العظمة، مثل هذه الصراحة، مثل هذا التواضع، مثل هذه الشجاعة، لتحمل شتى أنواع الملمات أكثر منه؟ من الأكيد أنه لم يوجد في زمنه من استطاع أن تكون حياته بمثل تلك الصرامة. آه، كم وجدته الشمس عند طلوعها و هو جالس في نفس المكان الذي كان فيه بالأمس، يراقب مرور ساعات الليل دون أخذ قسط من الراحة، يحيط به أناس من مختلف الأقوام، كل من هؤلاء يستفيد من عطاياه. كانت تغمره الفرحة بحصوله على الوسائل التي تجعل الجميع يستفيد.
فأين يمكن أن تجد جسما بشريا يستطيع تحمل المشاق التي تحمل في المعارك، مع أن تلك المصاعب تتناقص جدا في زمن السلم؟ أعتقد جازما أنه إن كان يمكن لمس القوة فإنه يمكن إيجادها مجسدة في محياه و أعضائه، لكونه لم يبرهن على أنه قوي في بعض المسائل، بل كان قويا في كل شيء. فأي شجاعة و أي تحمل أعظم من شخص انتصر على نفسه؟ لقد تحمل الجوع و العطش، و هو أمر يكاد لا يصدق.
لكن كيف لك أن تفضل قوة رومولوس أو مانليوس توركاتوس أو هوراسيوس كوليس على قوة هذا الأمير؟ قد تقدم هنا قيصرك الذي رفعته إلى مرتبة الإله، حسب قولك، و القدوة في الأخلاق الفاضلة و الاستقامة: ما ذا ستفعل بعد ذلك مع ماركوس توليوس و مع لوكان، و الذي أقررت في مواطن عديدة أنه أفسد نفسه بشهوات

الجسم و العيوب الأخرى، و هو ما قلل من محامده؟ من الذي لا تجزع من مقارنته بأميرنا هذا، حيث أن الحبر الأعظم، رئيس الفاتيكان و إمبراطور ألمانيا و كذا ملوك قشتاله و إنجلترا لما علموا بعظيم فضائله، توسلوا إليه بأن يكون قائدا لجيوشهم؟

كيف يمكن أن تتطابق بحق عبارتا "قديس" و "مخلص" مع أي شيء آخر أكثر من تطابقها مع فضائله و خصاله؟ و في أي امبراطورية و في أي بلد يمكننا أن نمنح سمعة أهم من أعماله الفاضلة و العظيمة؟
أيها الأمير سعيد الحظ، يا شرف مملكتنا، أي شيء كان في حياتك يمكن لمن مدحوك أن يغفلوا عنه: هل كانت لحظة في حياتك خالية من المآثر الحميدة أو من المدح؟ أقدر لك ترحيبك بالجميع و إنصاتك للجميع وكيف كنت تقضي معظم أيامك و لياليك في خضم تلك الاهتمامات التي درت بالنفع على كثيرين. لذلك أعرف أن مدحك يملؤ الأراضين و البحار، فبفضل رحلاتك ربطت الشرق بالغرب بحيث تتعلم الأمم كيف تتبادل ثرواتها. و الحقيقة أنه رغم أني قلت أشياء عديدة عنك، فقد بقيت أشياء كثيرة علي أن أذكرها.
بيد أنه قبل أن أنهي هذا الفصل، يبدو لي من الضروري أن أبين ما أراه بخصوص موضوع قد تطرقت إليه، ألا و هو العدالة التوزيعية، حتى لا أمر عليه مر الكرام دون توضيح من جانبي، كما وعدت بذلك سابقا. فالواقع أن القرار الذي اتخذه تولي بهذا الخصوص، حيث اعتبر أن حكم المؤرخ يجب أن تكون له سلطة كبيرة فيما يتعلق بالموضوع الذي يتناوله أكثر من أي شخص آخر، لأنه يبحث عن حقيقة الأشياء باهتمام كبير: فإما أن يكون هذا الواجب تصحيحا عسكريا أو من قبيل الإنسانية و الرحمة. فإن تعلق الأمر بتصحيح أو بعدالة عسكرية، يصبح من المستحيل

العذر في أي قصور، كما نقرأ في تواريخ الرومان من أن الآباء كانوا يقتلون أبناءهم على ارتكاب مثل هذه الأخطاء و يقومون بعمليات إعدام دموية أخرى، لكن في المقابل و في جانب الرحمة و الإنسانية، يجب الإشادة بذلك باعتباره فضيلة عظمى، حيث أن جانبها الثالث، حسب سنيكا، يكمن في مصالحة الأصدقاء مع ذات الإنسان نفسه. إذا فالطرف القصي من هذين الشيئين له استحقاق مشكوك فيه، بمعنى أنه هل على الإنسان أن يفضل الانضباط على الرحمة أو الرحمة على الانضباط.

بيد أنه وفق التصحيح الذي يتم اختياره بشكل أفضل، أقول إنه يبدو لي أن الجانب الأفضل في هذا الموضوع يستحق الأسبقية على الجانب الآخر الأقل قيمة، و بالنظر إلى الحالة الخاصة و ملابسات الزمن و كيف أن عدم أي تصحيح قد يتطلب التغيير، فإن علينا أن نشيد بالأمير أكثر مما نوجه له العتب في سلوكه لأريحيته، حيث منح العفو لمن قد لا يستحقوه لأسباب وجيهة.

مهما يكن، لندع تلك الأمور، أيها الأمير المتميز، التي يبدو أنها جدية بالنسبة لك، ذلك أني لم أقصد مدح مآثرك بقدر ما كنت أرغب في الثناء على شخصك، فالشريرون قد يقومون ببعض الأعمال الجديرة بالتنويه، لكن أيا منهم لن يمدح باستثناء من كان حقا خيرا بذاته. فهل يوجد إنسان لا يمكن لفضائله أن تشوبها بعض النواقص؟ الحقيقة أني لا أكتب ذلك و لا أقوله عنك، أيها الأمير، فمن له مكانة في العروش الإلهية لا يمكنه تلقي قدح على أعمال قام بها على الأرض، حتى و لو كانت تبدو أهلا للتوبيخ. يمكن الاستئناس هنا بما قاله القديس كريسوستوم من أنه لا يوجد شيء في العالم أقدس من مؤول خبيث لا يستطيع إيجاد ما يخدش السمعة.

فحسب سينيكا في التراجيديته الأولى، فإن قليلين هم من يحولون أيام حياتهم إلى حكاية رائعة أو عدم التفكير على الإطلاق في قصرها. لكنك أنت، أيها الأمير، لم تكن أبدا في عداد هؤلاء، لأنك بفضل مآثرك العظيمة و السامية و معاناتك الفظيعة، يمكنك أن

تعتبر نفسك من ضمن الأمراء الأعظم شرفا، ذكرى أبدية لا تموت، و الأكثر قيمة من هذا كله أنك، حسب اعتقادي، تاج سرمدي. أيها الملوك المحظوظون الذين ستملكون المقعد الملكي لأجداده بعد موته، أتوسل إليكم بالمحافظة على ضريح هذا الدوق العظيم و النبيل في ذاكرتكم الخاصة، ذلك أن عظمة فضائله تشكل جزءا كبيرا من شرفكم. فالحقيقة أن التهليلات و الثناء الذي حدثتكم بها عنه لم أكن أنا من اختلقها، بل كانت الصدى الحي لشمائله و استحقاقاته العظيمة التي ستعود عليكم جميعا بالفائدة، إن أنتم حافظتم عليها كاملة و بشكل أعمق في تفكيركم، فلم أكن أرغب في سردها عليكم بشكل مقتضب، ذلك أنه من الصعوبة بمكان إيجاد مثيل له من الرجال في وقتنا الحاضر.

الفصل 7
خمسة أسباب يبدو أنها تفسر حرص الأمير على الإشراف على البحث عن أراضي غينيا

إننا نتصور أننا نعرف شيئا ما عند ما نطلع على فاعله و الغاية التي من أجلها صنعه. و بما أننا في الفصول السابقة قد قدمنا السيد الأمير بوصفه الفاعل الرئيسي لهذه الأمور، فحاولنا ما وسعنا ذلك أن يفهم بشكل أوضح. من المناسب في الفصل الحالي أن ندرك مقصده من فعل تلك الأشياء. يمكنكم أن تلاحظوا جيدا أن الروح النبيلة لهذا الأمير، بسبب ما يمكن أن نسميه إكراها طبيعيا، كانت دوما تلح عليه لإنجاز أعمال عظيمة. لهذا السبب و بعد الاستيلاء على سبتة، كان يحتفظ دوما بسفن مسلحة بشكل جيد ضد الكفار من أجل خوض الحرب و من أجل رغبته في معرفة البلاد التي توجد ما بعد جزر الكناري و ذلك الرأس الذي يدعى بجدور.
و لأنه في زمنه لم تكن تعرف، لا عبر الكتابات و لا عبر الذاكرة البشرية، أي حقيقة عن طبيعة البلاد التي توجد ما بعد ذلك الرأس، مع أن البعض يقول فعلا إن القديس براندان قد سلك تلك الطريق، كما توجد حكاية أخرى عن سفينتين شراعيتين كبيرتين قد تكونا ذهبتا إلى ذلك الرأس و لم تتمكنا أبدا من العودة. لكن ذلك لم يتبين أنه صحيح، لأنه لو افترضنا أن هاتين السفينتين ذهبتا إلى هنالك، فإن بعض السفن الأخرى قد تحاول معرفة الرحلة التي قامتا بها.
و لأن السيد الأمير المذكور يرغب في معرفة حقيقة ذلك، إذ يبدو له أنه، أو أي سيد آخر، إذا لم يحاول معرفة ذلك فإن البحارة و التجار لن يتجرؤوا على محاولة ذلك، إذ من الواضح أن أيا منهم لن يتعب نفسه في الإبحار إلى مكان لا يتأكد من إمكانية الحصول على الربح فيه، و نظرا أيضا إلى أن أي أمير لم يتعب نفسه في هذا الموضوع، فقد أرسل سفنه الخاصة به إلى تلك

النواحي لمعرفة الحقيقة كاملة بخصوصها. كان يحركه صوب هذا الهدف حماسه لخدمة الرب و الملك ادواردته، سيده و أخيه، الذي يحكم في ذلك الوقت. إن ذلك هو السبب الأول وراء هذا العمل.
أما السبب الثاني فهو أنه إذا كان يوجد مسيحيون في تلك البلاد، أو بعض المرافئ التي يمكن الإبحار إليها دون مخاطر، فإنه يمكن نقل بعض البضائع إلى ذلك الإقليم حيث ستجد سوقا جاهزة، لأنه لا يوجد شعب آخر في تلك النواحي يتاجر معهم، كما أنه لا يوجد لحد الآن شعب آخر كان معروفا. ثم إن منتوجات هذه الأقاليم يمكن جلبها إلى هناك حيث سيولد الاتجار بها ربحا عظيما لتجار بلدنا.
أما السبب الثالث فإنه يقال إن قوة المسلمين في تلك البلاد من إفريقيا عظيمة أكثر مما كان مفترضا، و أنه لا يوجد مسيحي بينهم أو أي جنس بشري آخر، و لأن أي رجل حكيم يتعين عليه وفق حذره الطبيعي أن يرغب في معرفة قوة عدوه، لذلك فإن السيد الأمير المذكور قد سعى إلى اكتشافها بغية المعرفة الدقيقة لحجم قوة هؤلاء الأعداء.
السبب الرابع هو أنه خلال الإحدى و ثلاثين سنة التي حارب فيها المسلمين، لم يجد أي ملك مسيحي أو أي سيد خارج هذه البلاد يساعده في الحرب المذكورة انطلاقا من حب مولانا يسوع المسيح.
لذلك فكر في إمكانية وجود بعض الأمراء المسيحيين في تلك النواحي ممن قد يجد فيهم الخير وحب المسيح الراسخ ليساعدوه على أعداء الإيمان هؤلاء.
أما السبب الخامس فكان رغبته الكبيرة في إعلاء دين السيد يسوع المسيح و حمله إلى كل النفوس التي يتعين خلاصها، حيث إن أعجوبة التجسيد و الموت و معاناة السيد يسوع المسيح كان هدفها الوحيد تحقيق ذلك، و بالأخص خلاص النفوس الضالة و هي التي سيرشدها السيد الأمير المذكور إلى الطريق الصحيح عبر عمله و إنفاقه. لذلك أدرك أنه لا يمكنه تقديم قربان للمولى أعظم من

ذلك. و لأن الرب وعد بأن يجزي حسنة واحدة بمائة حسنة، نستطيع أن نعتقد أنه لقاء هذه المزايا العظيمة، أي تحقيق خلاص الكثير من الأرواح بفضل جهود هذا السيد، فإنه سيجني ثوابا مضاعفا مئات المرات في مملكة الرب، بفضله سيمجد بعد هذه الحياة في المملكة الإلهية.
بالنسبة لي، أنا كاتب هذا التاريخ، فقد شاهدت الكثير من الرجال و النساء من تلك البلدان و قد اعتنقوا الدين المسيحي، فحتى لو كان هذا الأمير كافرا، فإن صلواتهم ستكون كافية لحصوله على الخلاص. فلم أشاهد فقط الأسرى الأوائل و قد أصبحوا مسيحيين حقيقيين، بل أبناءهم و أحفادهم كذلك، و كأن نعمة الرب قد تسللت إلى نفوسهم و منحتهم معرفته الحقة.
لكن هناك سبب سادس يبدو لي أنه الأهم و المصدر الذي تتفرع منه الأسباب الخمسة المذكورة آنفا، ألا و هو وضعية الأبراج السماوية. فكما كتبت منذ عدة أيام في رسالة بعثت بها إلى مولاي الملك أنه، بما أنه مكتوب أن الرجل الحكيم يجب أن يكون سيد النجوم و أن مدارات المجرات (بحسب التقدير الحقيقي للعلماء المقدسين) لا يمكن أن تضر الرجل الخير ، فمن الواضح إذا أنه توجد أجرام مرتبة في حكمة الله الخفية و تعمل وفق مقياس ثابت و هي مخصصة لغايات مختلفة يكشف للناس عنها بنعمته، فعبر تأثيرها تتجه أجرام النظام السفلي إلى بعض الرغبات. فإذا صادف أن كان ذلك فعلا، بالمفهوم الكاثولوكي، فإن الأقدار العكسية للأبراج السماوية يمكن تفاديها عبر حكم طبيعي بمساعدة النعمة الإلهية، فمع الثبات في التفكير فإن من كان قدرهم أنهم محظوظون، يواصلون بنعمة الله، ليس فقط مسارهم، بل يزيدونه أضعاف المرات.
هنا أود أن أقول لكم كيف أنه بفعل تقييد تأثير الطبيعة، فإن الأمير المجيد ينزع إلى مثل هذه الأعمال، و هذا هو السبب في أنه ينحدر

من برج الحمل الذي هو مستقر المريخ و حُميا الشمس، فسيده في البرج رقم 11 رفقة الشمس. و بما أن المريخ المذكور كان في الدلو، الذي هو برج زحل و في مستقر الأمل، يعني ذلك أن هذا الأمير سيبذل جهودا جبارة في سبيل تحقيق فتوحات عظيمة، و بشكل خاص البحث عن أشياء كانت مخفية بشكل سري عن أناس آخرين، بحسب طبيعة زحل الذي يوجد هو في برجه. و بما أن فعله هذا تم بمواكبة الشمس، كما سبق أن قلت، و بما أن الشمس في برج المشتري، يعني ذلك أن كل تجارته و فتوحاته ستتحقق بأمانة، وفق الرغبة الصادقة لملكه و سيده.

الفصل 8

كيف أن السفن لم تجرؤ لحد الآن على تجاوز رأس بجدور

هكذا بدأ الأمير، بدافع من الأسباب التي تم توضيحها آنفا، في تجهيز سفنه و أفراده وفق متطلبات المهمة، بيد أنه و كما قد تطلعون على ذلك بشكل متكرر، فسيبعث مرات عديدة ليس فقط الرجال العاديين، بل أولئك الذين ذاع صيتهم بفعل تجربتهم في المعارك العظيمة و مهنيتهم العسكرية، لكن لم يستطع أي منهم لحد الآن تجاوز رأس بجدور و يطلع على البلاد التي بعده كما كان يرغب الأمير. و الحقيقة أن مرد ذلك ليس الجبن أو عدم الإخلاص، لكن بسبب طرافة الأمر و بسبب الحكايات القديمة و المنتشرة حول هذا الرأس و التي تناقلها البحارة الإسبان[48] جيلا بعد جيل.

فمع أن ذلك الاعتقاد كان مضللا، إذ إن المخاطرة في هذه المحاولة تبدو و كأنها تحمل أكبر شر على الإطلاق، لذا كانت الريبة كبيرة بخصوص من سيخاطر بحياته لأول مرة في هذه المغامرة. من نحن، هكذا كان يردد الرجال، حتى نتجاوز حدودا قد رسمها أباؤنا، و أي فائدة ستعود على الأمير من فقد أرواحنا و كذا أجسامنا، لأنه في الحقيقة عند ما نتحمس أكثر، قد نلقي بأنفسنا طواعية إلى التهلكة؟ ألم يكن في إسبانيا أمراء آخرون و سادة متعطشون لشرف كهذا أكثر من الأمير؟ فمن الأكيد أنه لا يمكن افتراض أنه من بين العديد من الرجال النبلاء الذين أنجزوا العديد من المآثر العظيمة لتخليد ذكراهم، لا يوجد واحد منهم يمكن أن يتجرأ على هذا العمل. بيد أنهم بعد تأكدهم من المخاطر، و نظرا إلى أنه لا أمل في تحقيق شرف أو منفعة، فقد تخلوا عن المحاولة.

فبحسب البحارة فالأمر واضح، إذ لا وجود لجنس بشري و لا لساكنة ما بعد هذا الرأس: لا توجد أرض أقل رمالا من صحاري

---

[48] أي الإيبريون، لأن إسبانيا في ذلك الزمن كانت تعني البرتغال و إسبانيا الحالية، كما سنرى ذلك بشكل متكرر في عدة فصول من هذا الكتاب. (المترجم).

ليبيا، حيث لا ماء و لا شجر و لا مرعى، و البحر ضحل بحيث أن مسافة فرسخ بالكامل تفصل بينه مع اليابسة لا يتعدى عمقها قامة، في حين أن التيارات رهيبة إلى حد أن أي سفينة إذا ما عبرت الرأس، لا يمكنها أن تعود.
لتلك الأسباب لم يحاول أسلافنا أبدا اجتيازه: فمن الأكيد أن معرفتهم بالأراضي الواقعة بعده لم تكن واضحة، ذلك أنهم لم يكونوا يعلمون الكتابة على الخرائط و التي بواسطتها يراقب الإنسان كافة البحار التي بالإمكان الملاحة فيها.
فأي ربان سفينة سيجازف بمحاولة عمل بطولي كهذه، مع تلك الشكوك التي وضعها أمامه من هم جديرون بالثقة من جانبه و مع احتمال أن يكون شاهد عيان على الردى؟ آه، أيتها العذراء تميس، كما قال مؤلفنا، التي هي من ضمن تسع آلهة في جبل برناسوس حصلت على الصلاحية الخاصة بالبحث عن أسرار كهف أبولو، لست متأكدا بخصوص مدى خوفك حينما وضعت قدميك على الطاولة المقدسة حيث أثر عليك الوحي الإلهي إلى أن أشرفت على الهلاك، تماما كالرعب الذي يعاني منه بحارتنا و المهددون، ليس فقط بالخوف بل بشبحه أيضا. لقد كان هذا الوهم المضلل السبب في نفقات كبيرة.
فخلال اثني عشرة سنة كان الأمير يواصل عمله بثبات، يبعث بسفنه كل سنة إلى تلك النواحي، مع خسائر جسيمة تكبدها على نفقته، لم يستطع الحصول على من يجرؤ على ذلك التجاوز، مع أنهم لم يعودوا بشكل كامل دون تحقيق بعض الإنجازات؛ فكتعويض عن إخفاقهم في تحقيق أهداف سيدهم بالكامل، قام بعضهم بغارات على سواحل غرناطة و بعض الرحلات على طول بحار لفانته[49]، حيث استولوا على غنائم من الكفار وعادوا بها إلى المملكة و هم مكرمون.

---

[49] Levante، أي السواحل الشرقية لإسبانيا الواقعة على الأبيض المتوسط و التي يبدو أنها في تلك الفترة لا تزال تحت سيطرة المسلمين. (المترجم).

الفصل 9

كيف كان جيل إيانيس، أحد مواليد لاغوس، أول من تجاوز رأس بجدور و كيف عاد من هناك و معه أفونسو غونسالفيز بالدايا

كان الأمير يستقبل كل مرة في بيته و بمنتهى الصبر أولئك الذين بعثهم كقباطنة لسفنه للبحث عن تلك الأراضي، دون توجيه اللوم لهم على إخفاقهم، بل يشجعهم بالإصغاء لسرد الحكايات المتعلقة بالأحداث التي جرت خلال رحلتهم، مع منحهم المكافآت التي يقدمها لمن خدموه بشكل جيد، بعد ذلك إما أن يعودوا مرة أخرى للبحث من جديد أو يرسل رجالا آخرين من بيته مع سفن مجهزة بشكل جيد، مكلفا إياهم بهمة إضافة شيء جديد على الرحلة التي قام بها من سبقوهم، مع وعده لهم بمكافآت كبيرة على ذلك، كل ذلك من أجل أن يتوصل إلى معرفة كنه ذلك السر الخفي[50].

في النهاية و بعد ثلاث عشرة سنة، قام الأمير بتسليح سفينة "بارشا" و أسندها إلى جيل إيانيس، أحد مساعدي فرسانه، الذي رقاه فيما بعد إلى رتبة فارس و اعتنى به بنبل. اتبع المسار الذي سلكوه من قاموا برحلات قبله، لكنه أصيب بنفس الرعب الذاتي، حيث كانت أقصى نقطة وصل إليها هي جزر الكناري، فأخذ من هناك بعض الأسرى وقفل راجعا إلى المملكة. كان ذلك سنة 1433 من ميلاد المسيح، في السنة الموالية جهز الأمير نفس السفينة و استدعى جيل إيانيس على انفراد، مكلفا إياه ببذل قصارى جهده بغية تجاوز ذلك الرأس، و حتى إن لم يستطع أن ينجز شيئا آخر غير ذلك فإنه يعتبر كافيا.

لقد خاطبه الأمير قائلا: "لا يمكنك أن تلاقي خطرا أعظم من أن لا يكون أمل المكافأة كبيرا، فالحقيقة أنني أستغرب كثيرا من المفهوم الذي تبنيتموه بخصوص أمر غير مؤكد، لأنه حتى و لو كانت هذه

---

[50] المتمثلة في عدم مقدرة السفن على تجاوز رأس بجدور.

الأمور التي قيلت تستند إلى مسوغ ما، مهما كان ضعيفا، فلن أعتب عليكم، بيد أنكم لا تبلغوني إلا بآراء أربعة بحارة أتوا من تجارة فلاندر أو من بعض الموانئ الأخرى التي يتم الإبحار إليها بشكل اعتيادي جدا و يجهلون تماما البوصلة أو خريطة الملاحة. سيروا قدما إذا و لا تعيروا أي اهتمام لكلامهم، بل واصلوا رحلتكم، فبفضل الرب لن تجدوا في رحلتكم هناك سوى النجاح و الاستفادة". كان الأمير رجلا ذا سلطة عظيمة و كان لتنبئه، رغم كونه غير محدد بدقة، تأثير على كل ذي لب. و كما يتضح من عمل هذا الرجل، فقد صمم، بعد سماعه هذه الكلمات، على أن لا يعود إلى مجلس الأمير دون إنجاز ما بعثه من أجله. و كما قرر فقد أنجز، حيث تجاوز في هذه الرحلة الرأس، رغم كافة المخاطر، و وجد بلادا وراءه مغايرة تماما لما توقعه هو، كما هو الحال بالنسبة لآخرين.

و مع أن الأمر كان عاديا جدا، لكن بالنظر إلى الإقدام عليه فإن يعتبر عظيما، إذ إنه أول رجل يتجاوزه، لذلك تلقى الكثير من الثناء و الشكر، فبالنظر إلى أن خطر هذا الأمر قد أصاب الجميع بخوف رهيب، فإن إنجازه منح شرفا عظيما لهذا الرجل. بيد أنه بغض النظر عما إذا كان نجاح جيل إيانيس سيكسبه مجدا حقيقيا أم لا، فيمكن فهم ذلك من خلال الحديث الذي وجهه له الأمير قبل انطلاقه. لقد كانت تجربته بعد عودته شديدة الوضوح بخصوص هذه النقطة، لكونه استقبل بحفاوة مع زيادة معتبرة في التكريم و الثروة.

هكذا أبلغ الأمير بالطريقة التي أنجزت بها المهمة، محدثا إياه كيف أنه أمر بإخراج الزورق و ذهابه إلى الشاطئ دون العثور على بشر أو أدلة على وجود سكن. عندها، مولاي الأمير- يقول جيل إيانيس - فكرت في أن علي أخذ عينة من التربة لأني كنت أمشي عليها، جمعت هذه الأعشاب التي أقدمها إلى مقامكم العالي، و التي

نسميها في هذا البلد[51] "ورود القديسة مريم[52]". فبعد أن أنهى إبلاغه بخصوص رحلته إلى تلك الجهة، قام الأمير بتجهيز سفينة "بارينل" حيث بعث فيها نادله أفونسو غونسالفيز بالدايا و كذا جيل أيانيس مع سفينته "بارشا" حيث أمره بالعودة إلى هناك مع رفيقه. لقد قاما بذلك، متجاوزين الرأس بمسافة خمسين فرسخا[53] حيث عثرا على أرض بدون مساكن، لكن يظهر عليها أثر أقدام رجال و جمال. بعد ذلك، عادا بهذه المعلومات دون ذكر أخبار أخرى ذات قيمة، و ذلك إما بسبب طبيعة التعليمات التي صدرت لهم أو لضرورة ما.

---

[51] أي البرتغال.

[52] يبدو أن تيودور مونو قد حل لغز هذه النبتة سنة 1978 بتأكيده بأنها هي وردة أريحة : Rose de Jéricho، و أن هذه النبتة توجد في الصحراء الغربية و كانت معروفة أيضا في البرتغال و في عدة بلدان أوربية حيث كانت تأتي عادة من مصر و فلسطين. راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، مرجع سابق، الصفحات 58 ، 289 و 290 .

[53] الفرسخ هو ثلاثة أميال، أي حوالي خمسة كيلومترات. (المترجم)

الفصل 10
كيف وصل أفونسو غونسالفيز بالدايا إلى وادي الذهب

لقد خاطب الأمير بالدايا قائلا: " بما أنكم عثرتم على أثر أقدام بشرية و جمال، فمن الواضح أن المنطقة المأهولة لا يمكن أن تكون بعيدة، أو قد يكون هؤلاء الناس عبروا مع بضائعهم إلى ميناء بحري ما يتوفر على مرفأ يتوفر على مرسى آمن يمكن السفن من أخذ حمولتها منه، فما دام هناك أناس، مهما تكن درجة توحشهم، فإنهم بالضرورة سيعتمدون على ما يأتيهم من البحر، على الأقل الأسماك، و بشكل خاص القبائل التي تقطن في البراري. انطلاقا من ذلك، أعتزم إرسالكما إلى هناك مرة أخرى في سفينة " بارينل" نفسها لخدمتي و للرفع من مكانتكما.
و لتحقيق هذا الهدف أدعوكما إلى التوجه إلى أبعد مكان تستطيعان الوصول إليه و حاولا الحصول على مترجم من بين أولئك القوم و ذلك بأسر من تستطيعون الحصول عبره على معلومات عن البلاد. فتمشيا مع هدفي، من المهم بالنسبة لنا الحصول على شخص يقدم لنا أخبارا من هذا النوع". تم تجهيز السفينة للإبحار، فانطلق أفونسو غونسالفيز تحدوه رغبة كبيرة في تحقيق مقصد الأمير. فهكذا أبحرا حتى قطعا مسافة سبعين فرسخا بعد النقطة التي وصلاها من قبل، أي مسافة 120 فرسخا من رأس بجدور، عندها عثروا على مصب يبدو أنه مصب نهر[54] بحجم معين، توجد فيه العديد من المراسي الجيدة.
يبلغ امتداد هذا الماء في اليابسة ثمانية فراسخ حيث أرسوا فيه. بما أنه من بين الأشياء التي حملها أفونسو غونسالفيز معه يوجد حصانان أعطاهما الملك له كي يمتطيهما شابان، فقد وضعهما على الشاطئ، و قبل أن ينزل أي شخص من السفينة أمر الشابين

---

[54] وادي الذهب.

بركوب الحصانين و الذهاب لاستطلاع الميدان إلى أبعد مكان باستطاعتهما الوصول إليه، مع النظر بحذر في كل اتجاه بحثا عن قرى أو أناس مسافرين يسلكون طريقا ما. و من أجل عدم إجهاد حصانيهما، طلب منهما عدم حمل أي سلاح دفاعي، باستثناء رمحيهما و سيفيهما لاستخدامها في الهجوم عند الحاجة. لذا ففي حال لقائهما بأناس حاولوا أسرهما، فأفضل شيء يمكنهما أن يعولا عليه هو سرعة حصانيهما، إلا إذا وجدا شخصا معزولا فيمكنهما استخدام سلاحهما دون خطر.

أثناء تنفيذ هذه العملية، ظهر لهما بوضوح ما يبدو أنهم رجال كان عليهما التأكد منهم. فمع أنهما كانا بعيدين جدا من أرضهما الأصلية و لا يعلمان شيئا عن ماهية هؤلاء الناس و لا عن عدد من سيعثرون عليهم، ناهيك عن رعب الوحوش البرية الذي قد يرهبهما شبحها المخيف بالنظر لسنهما (فكلاهما لم يتجاوز بعد سن السابعة عشر). فدون الاكتراث بأي شيء من ذلك، واصلا سيرهما بشجاعة مع مسايرة مجرى النهر لمسافة سبعة فراسخ، حيث عثرا على تسعة عشر رجلا يكونون مجموعة واحدة و لا يتوفرون على أسلحة هجوم أو دفاع، باستثناء الرماح. ففور مشاهدتهما لهم هاجماهم بشجاعة. بيد أن المجموعة غير المعروفة و رغم تفوقها العددي لم تجرأ على مواجهتهما فاختبأوا - توخيا للحذر - خلف صخور بعد مواجهة لفترة طويلة مع الشابين. خلال المعركة[55] جرح أحد الشابين في القدم، و رغم أن الجرح كان طفيفا فلم يمر دون ثأر، فقد جرحا أحد الأعداء أيضا. واصلا المعركة حتى بدأت الشمس تغرب، عندها عادا إلى سفينتهما.

إنني متأكد من أن الإصابات في تلك المعركة كانت ستكون كبيرة لو بقي العدو في ميدان مفتوح. حسب مؤلف هذا الكتاب، هناك أمران يستحقان التوقف عندهما بخصوص هذا الموضوع: الأول

---

[55] يبدو أن هذه هي أول معركة بين البيظان و البرتغاليين في الصحراء الغربية.

هو كيف كان انطباع أولئك الرجال و هم يشاهدون هذا الحدث الجديد المتمثل في شابين شجاعين لونهما و ملامحهما غريبة عليهم، و كيف كان اعتقادهم بخصوص من جاء بهما إلى هناك، ممتطين على الدوام صهوتي جواديهما و مسلحين بالحراب و السيوف، و هي أسلحة من المحتمل أن لا يكون بعضهم قد شاهدها أبدا في حياته.
بالتأكيد أعتقد أنه كان بإمكانهم أن لا يكونوا جبناء بهذا القدر، بل يظهروا شجاعة أكبر في مواجهة رجلينا لولا الاستغراب الذي مرده طرافة الأمر. ثانيا، أعتقد أن شجاعة هذين الشابين المتواجدين في أرض غريبة و البعيدين من نجدة زملائهما و اللذين كانا مقدامين إلى حد بعيد جديرة بالتقدير، حيث هاجما هذا العدد الكبير الذي كانت قوته القتالية غير مؤكدة بالنسبة لهما. تعرفت على أحد هذين الشابين بعد ذلك بوصفه أحد النبلاء و هو شجاع في مهنة السلاح و يدعى هكتور هومن، و هو نفسه الذي ستجدونه في تاريخ المملكة حيث عرف بعظيم المآثر. أما اسم الآخر فهو ديغو لوبيز دالميدا، و هو أيضا رجل نبيل و مشهور و قد استقيت أخباره من شخص كان يعرفه. هكذا واصلا رحلتهما نحو السفينة، كما سبق أن ذكرنا، حتى وصلاها في حدود الفجر، حيث أخذا قسطا قليلا من الراحة. و في الصباح الباكر كان أفونسو غونسالفيز قد جهز زورقا وضع على متنه بعض أفراده، فواصلوا مع مجرى ذلك النهر، كما أرسل الشابين على حصانيهما على امتداد اليابسة إلى أن وصل إلى المكان الذي عثر فيه على

البيظان[56] في وقت سابق، حيث كان يعتزم مقاتلتهم و أسر بعضهم، بيد أن جهوده لم تثمر، ذلك أن السكان المحليين أصبحوا في حالة استنفار شامل و خوف شديد، رغم انسحاب الشابين، مما جعلهم يغادرون، تاركين خلفهم أغلب أغراضهم التافهة، فحملها أفونسو غونسالفيز في زورقه كشهادة على المجهود الذي قام به.

لقد عاد إلى السفينة بعد أن اتضح له عدم جدوانية الملاحقة مسافة أبعد. ولأنه توجد على ضفة في مصب النهر أعداد هائلة من كلاب البحر[57]، تقدر بحوالي خمسة آلاف، فقد أمر رجاله بقتل ما يستطيعون قتله منها، حيث شحن سفينته من جلودها. فسواء كان السبب أنه من السهل قتلها أو نزعة رجالنا إلى القيام بمثل هذا العمل، فإنهم قاموا بمجزرة عظيمة في صفوف هذه الكلاب. بيد أن أفونسو غونسالفيز لم يكن راضيا عن كل ذلك، لأنه لم يأسر أحد أولئك البيظان، لذلك واصل مسافة خمسين فرسخا كي يستطيع أسر رجل أو امرأة أو طفل يستطيع من خلاله إرضاء مولاه، فوصل إلى رأس حيث تنتصب صخرة تشبه عن بعد سفينة شراعية عملاقة. لذلك السبب أطلقوا عليها منذ ذلك اليوم " ميناء السفينة الشراعية العملاقة"[58]. من هناك ترجلوا على اليابسة و وجدوا بعض الشّباك حيث حملوها على متن السفينة.

---

[56] مرة أخرى، نؤكد على خيارنا استخدام كلمة "البيظان" بدل المسلمين توخيا للدقة، و ذلك انطلاقا من وادي الذهب و حتى مصب نهر "صنهاجة" أو نهر أزناكة (السنغال)، و السبب في ذلك أن البيظان تعني تاريخيا سكان هذه المنطقة المنحدرين بالأساس من قبائل صنهاجية أو من قبائل بني حسان العربية، رغم أن تسمية Mouros بالبرتغالية و Moors بالإنجليزية و لغات أوربية أخرى تعني بشكل أدق مسلمي شمال غرب إفريقيا و الأندلس، بيد أنه يجدر الانتباه إلى أن هذه التسمية هي التي بها ظل يعرف غالبية سكان موريتانيا منذ الاحتلال البرتغالي للشواطئ الموريتانية و حتى الآن في لغات الدول الأوربية التي كانت لها مطامع استعمارية في هذه المنطقة، بما في ذلك الفرنسيون الذين أتوا متأخرين نسبيا، حيث تبنوا نفس التسمية: Maures. (المترجم)

[57] نوع من الأسماك يسمى أيضا قطط البحر. (المترجم)

[58] بالبرتغالية Porto da Gallee، راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.64.

هنا يمكنكم ملاحظة شيء جديد، أقول شيئا جديدا بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في إسبانيا هذه، ذلك أن خيوط هذه الشباك من لحاء الأشجار[59]، و هي معدة بشكل جيد لمثل هذا الاستخدام دون دبغ أو خلطها بالكتان، فيبدو أنها نسجت بشكل جيد لتصنع منها الشباك و كافة أصناف الحبال الأخرى.

هكذا قفل أفونسو غونسالفيز راجعا إلى البرتغال، دون الحصول على معرفة دقيقة إن كان هؤلاء الناس من المسلمين أم أنهم من غير اليهود، و ما نمط عيشهم. كان ذلك سنة 1436 من ميلاد المسيح عيسى.

---

[59] ذكر جوآو دي باروس / João de Barros في تاريخه بخصوص آسيا أن هذه الخيوط تشبه خيوطا من سعف النخل موجودة بأرض الزنوج، أما تيودور مونو / Théodore Monod فيعتقد أن الشجرة المذكورة هي *تيتارك* المعروفة في أرض البيظان و المعروفة علميا بتسميتي: *Leptadenia pyrotechnica* أو *Leptadenia spartum*، راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، مرجع سابق، ص. 62 و 292 .

الفصل 11
حول الأمور التي أنجزت خلال السنوات اللاحقة

في السنوات اللاحقة لم نعثر على ما هو جدير بأن يدون. صحيح أنه ذهبت سفينتان إلى تلك النواحي و قد عادت كل منهما، فإحداهما رجعت بسبب رداءة الطقس، أما الأخرى فلم تتجاوز وادي الذهب و ذلك بهدف نقل شحنة من جلود و زيت سمك كلاب البحر ثم قفلت راجعة إلى البرتغال. لقد مرت تلك السنة[60] على أميرنا النبيل السيد هنريك و هو في طنجة، لذلك السبب لم يرسل سفننا إلى تلك البلاد. و في سنة 1438 رحل عن عالمنا السيد عظيم الفضل ادوارت في التاسع من سبتمبر في تومار، و بعد وفاته عرفت المملكة خلافات جسيمة.
في خضم هذه الاضطرابات كان وجود الأمير جد ضروري، حيث جمد كافة الأمور الأخرى بغية إيجاد حل للمخاطر التي واجهت المملكة. هكذا فإن عمر الملك السيد أفونسو ـ و هو من أمر بكتابة هذا التاريخ ـ كان ست سنوات، فكانت تتحتم رعايته و حمايته هو و مملكته من قبل الحكام. فبخصوص سلطة هؤلاء، اندلعت نزاعات كثيرة، حيث بذل الأمير السيد هنريك قصارى جهده من أجل إحلال السلام و تسوية كافة القضايا، مثلما يمكنكم الاطلاع عليه بتفاصيل أكثر في تاريخ حكم الملك السيد أفونسو. هكذا فإنه في تلك السنوات لم ترسل سفن إلى ما وراء ذلك الرأس و ذلك بسبب ما تم توضيحه آنفا. صحيح أنه في سنة 1440 تم تجهيز سفينتين للذهاب إلى تلك البلاد، لكن بسبب تعرضهما لحادث معيق، لم نتوسع في سرد رحلتهما.

---

[60] أي سنة 1437. يمكن الرجوع بهذا الخصوص إلى : The Chronicle of the Discovery Guinea and Conquest of، الجزء الأول، مرجع سابق ، الفصل 11 ، ص. 38 الهامش Q.

الفصل 12
كيف استطاع أنتاو غونسالفيز جلب السبايا الأوائل

أعتقد أنه باستطاعتي الآن الاستمتاع بسرد هذه القصة، ذلك أني حصلت على ما يرضي رغبة أميرنا. لقد كانت مثل هذه الرغبة كبيرة على قدر ما بذل من جهود جبارة، حتى أصبحت ثمارها ماثلة أمامه. هكذا سأعرض في هذا الفصل بعض ما جد في عهده المؤسس.

ففي هذه السنة 1441 تمت تسوية الأمور إلى حد ما في مملكته، مع أن الهدوء لم يتم بالكامل، فقام الأمير بتجهيز سفينة صغيرة عين عليها حاجبه و الشاب اليافع أنتاو غونسالفيزكرُبّان. كان الهدف من هذه الرحلة، وفق تعليمات مولاي، يقتصر على نقل شحنة من جلود و زيت قطط البحر التي تم التطرق لها في الفصول السابقة. ليس هناك من شك في أن المهمة التي أسندها له الأمير كانت هي نفسها التي سبق و أن عهد بها إلى آخرين، بيد أن حداثة سن القبطان و ضعف سلطته جعلت أوامر الأمير أقل صرامة، و بالتالي كانت ثقته بالنتائج أقل.

لكن بعد أن أكمل الرحلة منفذا أهم الأوامر التي صدرت إليه، استدعى أنتاو غونسالفيزأفونسو غوتريس، أحد غلمان البلاط الذي كان برفقته و جميع من كانوا في السفينة حيث كان عددهم الإجمالي واحدا و عشرين، فخاطبهم قائلا: " أيها الأصدقاء و الرفاق، لقد حصلنا على شحنتنا و التي كما ترون تجسد تنفيذ جوهر التعليمات الصادرة إلينا، فنستطيع إذا العودة إذا كنا لا نرغب في عمل إضافي زيادة على المهمة التي أنيطت بنا، لكن بودي أن أعرف منكم جميعا إن كان من الصواب أن نسعى لتحقيق المزيد، مما سيجعل من بعثنا إلى هنا يتأكد من إخلاصنا.

لذا أعتقد أنه من المخجل أن نعود إلى حضرته، تماما كما نحن الآن وليس معنا سوى هذه الخدمة المتواضعة. و الحقيقة أنه كان علينا بالفعل أن نعمل بعزيمة لا تلين حتى نحقق شيئا مثلما تم و هو أقل ما تم تكليفنا به من قبل الأمير مولانا. لكن أي شيء أجمل من أن نقوم بجلب أسرى أمام محيا مولانا و نحن الذين قدمنا إلى هذه الأرض من أجل شحنة من البضاعة الرخيصة. لذا أريد أن أوضح لكم وجهة نظري و التي أود الحصول على رأيكم بخصوصها. أعتزم طواعية الذهاب أنا شخصيا ليلة غد مع تسعة رجال منكم (يكون هؤلاء من بين أكثركم استعدادا لهذا العمل) فنستطلع جزءا من اليابسة على امتداد النهر و ذلك للبحث عن أي سكان، أعتقد أنه من المحتمل أن نعثر على أناس طالما أن هناك أشخاصا يستخدمون الإبل و ببعض الحيوانات الأخرى لحمل بضائعهم. ثم إن تجارة هؤلاء الناس ستكون على شواطئ البحر بشكل رئيسي. و بما أنهم لحد الساعة ليسوا على علم بنا، فإن تجمعهم لن يكون كبيرا لتعزيز قوتهم، فإذا قيض الرب لنا لقاءهم، فإن أقل انتصار لنا عليهم يتمثل في أسر أحدهم، عندئذ ستغمر الفرحة الأمير و سيعرف بذلك من هو الجنس الذي يسكن هذه الأرض.
و من جانبنا، يمكنكم تقدير ما قيم به من النفقات الباهظة و الجهد الكبير خلال السنوات الماضية لتحقيق هذا الهدف. "، رد الآخرون: " انظر ما أنت فاعل، فبما أنك ربابنا، فإن علينا الانصياع لأوامرك، ليس لأنك أنتام غونسالفيز، بل لأنك سيدنا. عليكم أن تفهموا أننا نحن المتواجدون هنا و المنتمون لبلاط الأمير مولانا نتوفر كلنا على الرغبة و العزيمة لخدمته، ولو كلفنا ذلك أرواحنا. و مع اعتقادنا بأن قصدك صائب، لكن شرط أن لا تدخلوا أي جديد لزيادة المخاطر التي قد تقلل من شأن خدمة مولانا".
في النهاية قرروا مشاطرته الرأي و اقتفاء أثره إلى أبعد مكان يستطيعون الوصول إليه. عند حلول الليل، اختار أنتاو غونسالفيز تسعة رجال ارتأى أنهم الأكثر قدرة على التحمل، فسار معهم وفق

رغبته. عند ما بلغوا مسافة فرسخ من البحر وجدوا أثرا اقتفوه معتقدين أن رجلا (أو امرأة) قد قدم من هناك و أن بإمكانهم أسره، بيد أنه حدث أمر مخالف لتوقعاتهم. طلب منهم أنتاو غونسالفيز إن كانوا يوافقون على استئناف الرحلة لتحقيق مسعاه، ذلك أنهم قد قطعوا مسافة طويلة و سيكون من غير المناسب أن يعودوا إلى السفينة بخفي حنين. و بما أن البقية قد أبدت موافقتها، فقد واصلوا السير حتى وصلوا إلى أرض تبعد ثلاثة فراسخ، عندها وجدوا أثرا لرجال و شباب كان عددهم التقريبي يتراوح ما بين أربعين إلى خمسين، و قد سار هؤلاء على طريق معاكس للطريق الذي يسلكه رجالنا.

كان الحر شديدا، فنظرا لذلك و بفعل الجهد الذي تم بذله في اقتفاء الأثر ليلا و السير على الأقدام، و كذلك نظرا للرغبة في الشراب، إذ لم يكن الماء متوفرا، أدرك أنتاو غونسالفيزبسهولة مدى تعب أفراد مجموعته بالنظر إلى معاناته الشخصية هو نفسه، فخاطبهم قائلا: "زملائي، لم يعد لدينا ما نفعله هنا، لقد كان الجهد الذي بذلناه عظيما، في حين أن الفائدة التي سنجنيها من مواصلة اقتفاء هذا الأثر تبدو لي ضئيلة، فهؤلاء الرجال يسيرون باتجاه المكان الذي أتينا منه، فمسارنا الصحيح يتمثل في العودة إلى حيث هم، فقد يتفرق بعضهم عن بعض، أو نحمل عليهم و هم يخلدون إلى الراحة، عندها فإذا هاجمناهم بسرعة سيهربون و قد يكون أحدهم أقل سرعة، الأمر الذي قد يمكننا من أسره وفقا لمسعانا. كما أن حظنا قد يكون أوفر عند ما نصادف أربعة عشر أو خمسة عشر منهم، فتكون غنيمتنا أكبر". لم يكن الهدف من هذا الرأي تغيير إرادة هؤلاء الرجال الذين كان كل واحد منهم يرغب في تحقيق ذلك الهدف.

عند ما توجهوا نحو البحر و قطعوا مسافة قصيرة في هذا الاتجاه، شاهدوا رجلا عاريا يسوق جملا مسلحا برمحين في يده. عند ما تبعه رجالنا، لم يكن أحد منهم يشعر بالتعب الشديد الذي لحق به.

مع أنه كان وحيدا و شاهد آخرين عديدين، فكر الآن في تجريب أسلحته بمهارة عبر يده اليمنى، فبدأ بالدفاع عن نفسه ما وسعه ذلك، مبديا مقاومة شجاعة عززتها قوته. بيد أن أفونسو غوتيريس جرحه بواسطة رمح، و هذا ما جعل البيظاني يصاب بفزع شديد، فرمى أرضا بأسلحته و سقط كالجماد. بعد أن ألقوا القبض عليه و فرحوا فرحا عارما بذلك، واصلوا سيرهم، فشاهدوا على قمة مرتفع المجموعة التي كانوا يقتفون أثرها و التي ينتمي إليها الرجل الذي وقع في الأسر. لقد أخفقوا في الوصول إليهم، ليس بسبب ضعف الإرادة، بل لأن الشمس بدأت تغرب و أصيبوا بالإرهاق، لذا قرروا الالتحاق بسفينتهم، معتبرين أن مثل هذا المشروع قد تكون أضراره أعظم من فوائده. عند ما كانوا في طريقهم، شاهدوا بيظانية سوداء (كانت أمة للمجموعة المتمركزة على المرتفع)، و مع أن بعض رجالنا كان يميل إلى تركها و حالها تفاديا لأية مناوشة جديدة لم يجرهم الأعداء إليها، مع أنهم لن يترددوا في الاشتباك معهم ما داموا على مرمى حجر و عددهم يزيد على ضعف عددنا، فلا يبدو أنهم جبناء إلى الحد الذي يسمحون به بسلبهم أمتهم.

رغم ذلك، فقد دعاهم أنتاو غونسالفيزإلى التوجه نحوها، فإن هم رفضوا المواجهة، يقول غونسالفيز، قد يؤدي ذلك إلى جعل أعدائهم يمتلكون الشجاعة ضدهم. هكذا رأيتم كيف يتم الركون لكلمة قبطان من قبل رجال تعودوا على الطاعة، فوفق إرادته ألقوا القبض على الأمة البيظانية. أما الذين كانوا على المرتفع فقد فكروا في إنقاذها، لكنهم عند ما أدركوا أن رجالنا مستعدون للقائهم، لم ينسحبوا فقط من موقعهم السابق، بل تفرقوا في كل الاتجاهات مولين ظهورهم لعدوهم. إلى هذا الحد اسمحوا لنا بترك أنتاو غونسالفيز باعتبار أن هذا الفصل قد انتهى، في الفصل الموالي ستتم ترقيته بجدارة إلى رتبة فارس.

الفصل 13
كيف وصل نونو تريستاو إلى المنطقة التي كان فيها أنتاو غونسالفيزو كيف رقي إلى رتبة فارس

كما سبق و أن قال الفيلسوف: البداية تشكل الجزء الأهم من أي شيء، يتعين علينا أن ننوه بدور هذا النبيل الشاب لما قام به بشجاعة منقطعة النظير؛ ذلك أنه كان أول من حقق غنيمة في هذا الغزو، لقد استحق التكريم على كل الآخرين الذين عملوا في هذا المجال بعده. لقد كان من عادة الرومان، كما قال القديس أوغسطين في كتابه *De Civitate Dei* و كما ذكر أيضا تيتوس لفيوس في كتابه *Decades*، أن كل من يقومون بالضربة الأولى في المعارك أو كانوا أول من يدخلون إلى الحصون أو يقفزون داخل السفن يمنحون بموجب ذلك شرفا عظيما يحملونه يوم النصر كشهادة على شجاعتهم، و كما حدثنا فالريوس بإسهاب في ملخصه عن تاريخ الرومان. لندع أنتاو غونسالفيزيستلم ترقيته إلى رتبة فارس حيث نعتزم سرد ذلك في هذا الفصل، بعد ذلك سيحصل على الرتب القيادية في نظام المسيح (الذي تسلم زيه بعد ذلك)، مما جعله يصبح الأمين الخاص بالأمير العظيم و النبيل. و كتخليد لشرفه و إرضاء له، سيتم تسجيله في هذا الكتاب الذي سيبقى محتواه، و إلى الأبد، شهادة على تميزه، ما استمرت القراءة بين الناس.

الآن عليكم أن تعلموا أن نونو تريستاو، الفارس الشاب و الشجاع المتحفز قد خدم منذ نعومة أظافره في بيت الأمير الخاص، قد وصل إلى المكان الذي كان فيه أنتام غونسالفيز، حيث اصطحب معه سفينة مجهزة بعد أن تلقى الأوامر من مولاه بأن عليه أن

يتجاوز ميناء غلّيبه[61]، إلى أبعد مكان يستطيع الوصول إليه، كما أن عليه أيضا أن لا يدخر جهدا بغية أسر بعض سكان البلد. بعد رحلة، وصل إلى حيث كان أنتام غونسالفيز. عليكم أن تتصوروا كم كانت فرحة هذين الشخصين اللذين ينتميان إلى نفس المملكة و نشآ في نفس البيت عند ما التقيا و هما على هذه المسافة البعيدة من وطنهم. فإذا استثنينا من هذه القصة العبارات التي يمكن أن يكونا قد تبادلاها، كأن يكون أحدهما قد سأل عن أخبار مولاه و عن أصدقائه و معارفه، و الآخر عن رغبته في معرفة الغنيمة، فإن نونو تريستاو ذكر أن عربيا قدم به معه هناك و كان خادما للأمير مولاه سيتحدث مع أحد هؤلاء الأسرى لمعرفة ما إذا كان يفهم لغته، و أنه إذا تفاهما سيكون ذلك مفيدا جدا لمعرفة حالة و ظروف سكان هذه البلاد. تحدث الثلاثة، بيد أن لغتهم كانت مختلفة عما يتحدث به الآخرون، لذا لم يكن بمقدورهم التفاهم.

بما أن نونو تريستاو فهم بسرعة أنه ليس باستطاعته معرفة المزيد عن عادات هذه الأرض، و هو ما حدثه عنه أنتاو غونسالفيزمن قبل، فقد كان مولعا بالذهاب، بيد أن المنافسة التي امتدحها سقراط في فتوة الشباب خامرت عقله، بحيث أصبح يرغب قبل كل شيء في معرفة ما إذا كان يستطيع فعل شيء مهم يحكيه رفاقه. فقد قال لأعضاء مفرزته: " هل من الصواب أن نسمح لهؤلاء الرجال بالعودة إلى البرتغال قبل إطلاعهم على بعض عملنا". بالطبع، أقول لك إن الأمر ما دام يعنيني فمن المؤكد أنني سأتعرض لسحب الثقة، لكوني أحمل رتبة فارس، إذا لم أحقق هنا غنيمة أهم من هذه يستطيع من خلالها الأمير مولانا أن يجني الثمار الأولى لتعويض النفقات الكبيرة التي صرفها". بهذا الخصوص، عمل على أن يتم

---

[61] Porto da Gallee ، المرجع : Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، غوميس إيانيس دي أزورار، باريس 1841 ، دار النشر: J.P. Aillaud، مرجع سابق، ص. 77.

استدعاء أنتاو غونسالفيزو كذا كافة الرجال الذين أتى بهم معه، حيث يرغب في توضيح لهم ما يختلج في نفسه. حسب ما قال: "أنت يا صديقي أنتاو غونسالفيزتعرف رغبة الأمير مولانا و ما صرف من نفقات عديدة و جمة في سبيل تنفيذ هذا المسعى، فلحد الآن و طيلة خمس عشرة سنة بذل قصارى جهده في هذا الجزء من العالم و لم يستطع الحصول على معلومات دقيقة بخصوص سكان هذا البلد و لا لأي شريعة أو ملة يتبعون، و مع أنك تمكنت من أسر شخصين عن طريقهما يستطيع الأمير معرفة شيء ما عن هؤلاء الناس فهذا لا يحول دون فعل ما هو أفضل بالنسبة لنا، و بالأخص أسر المزيد من هؤلاء ليتمكن مولانا الأمير من زيادة مكاسبه عبر خدمته أو بواسطة الفدية.

يعني ذلك أنه في هذه الليلة المقبلة، عليك أن تختار عشرة من رجالك و سأختار أنا مثل هذا العدد من رجالي من بين أفضل ما يتوفر عليه كلانا من رجال ولنذهب معا للبحث عن المجموعة التي سبق و أن التقيت بها. بما أنكم قلتم، انطلاقا من التقدير الناتج عن المواجهة التي تمت بينكم و بينهم، أن عددهم لا يتجاوز عشرين رجلا ممن يستطيعون المشاركة في معركة و الباقي نساء و أطفال، فنستطيع أسر الجميع بسرعة. و حتى لو لم نلتق بنفس المجموعة التي التقيت أنت بها و مجموعتك، لكن ما من شك في أننا سنعثر على آخرين، و عن طريقهم ربما نتمكن من الحصول على غنيمة أهم.

رد أنتاو غونسالفيزعلى ذلك بالقول: "لا أعتقد أن حملتنا على من عثرنا عليهم سابقا ستتوج بنتيجة مضمونة، فالمكان عبارة عن مرتفع عار لا يوجد به بيت أو عريش يمكن من معرفة المكان الذي يسكنون فيه، و الأهم من ذلك أننا رأيناهم يعودون كما لو كانوا أناسا قدموا إلى هنا من مكان آخر. و ما أراه الأسوأ من كل ذلك هو أن هؤلاء قد يكونوا نبهوا الآخرين، فإذا ما حاولنا أسرهم

قد نصبح نحن أنفسنا غنيمة لهم. عليك أن تتدبر الأمر مليا، فبما أننا في وضعية انتصار، يجب أن لا نعيد الكرة لنخسر".
فرغم وجاهة نصيحة أنتام غونسالفيز، بالنظر إلى ملابسات القضية، و بما أن نونو تريستاو لم يكن مستعدا لتقبلها، كان هناك مساعدا فارس يعتقدان أن هذه الحجج غير كافية لكبح رغبتهما في القيام بأعمال بطولية. كان غونسالو دي سنترا أحدهما، بخصوص شجاعته ستعرفون عنه المزيد مع تقدم هذه الرواية، أما الآخر فهو ديغو أنيس دي فالاديريس مساعد فارس، قوي الجسم و قد جرب بشكل جيد في مواقف عصيبة. لقد أقنعا المجلس بعدم اتباع رأي أنتام غونسالفيز، بحيث تقرر أن ينطلقوا بحلول الليل، طبقا للأمر الذي صدر عن نونو تريستاو في البداية.
لقد تصادف أنه في الليلة التي وصلوا فيها إلى حيث يوجد السكان المحليون، كان هؤلاء موزعين على مخيمين بنفس الوضعية التي سبق أن وجدهم فيها أنتاو غونسالفيزأو وضعية مشابهة لها. كانت المسافة بين المخيمين قصيرة، توزع رجالنا إلى ثلاث مجموعات بغية الظفر بهم. عند ما اقترب رجالنا منهم هاجموهم بسرعة و هم يصرخون بصوت عال: "البرتغال"، "سانتياغو"، فتمكن الرعب من العدو بسبب ذلك فتفرقوا بشكل فوضوي. و في غمرة هذا الارتباك شرعوا في الفرار دون ترتيب أو حذر، باستثناء بعض الرجال الذي أبدوا مقاومة بواسطة رماحهم (لأنهم لا يعرفون استخدام أي سلاح آخر)، و بشكل خاص أحد هؤلاء الذي بارز وجها لوجه نونو تريستاو، فدافع عن نفسه حتى قضى. إضافة إلى هذا الرجل الذي قتله نونو تريستاو بنفسه، قتل الآخرون ثلاثة و أخذوا عشرة أسرى من بينهم رجال و نساء و أطفال. ليس من شك في أنه كان بإمكانهم قتل أو أسر عدد أكبر لو أنهم هاجموهم دفعة واحدة في أول غارة. بيد أنه من بين الأسرى شخص أعظم

من الباقين يدعى أداهو[62]، قيل إنه نبيل و قد أبدى بالفعل دماثة تشي بأن له بالفعل سبقا في النبل على الآخرين.
من بين الرجال العشرة الذين ذكرت أنهم مع نونو تريستاو، يوجد غوميز فيناغره و هو شاب كريم المحتد نشأ في بيت الأمير، أبدى في هذا المعركة من الشجاعة ما كان متقدما على سنه و قد رقي بشكل مشرف نتيجة لذلك. بعد أن أنجزت المهمة على النحو الذي مر معنا، اجتمع الكل و هم لا يزالون في جو المعركة و طلبوا من أنتاو غونسالفيز أن يصبح فارسا، بيد أنه رد عليهم، مثمنا بشكل أقل ما قام به عكس ما فعلوا، بأنه من غير المنصف مقابل عمل متواضع أن يستلم تشريفا عظيما بهذا الحجم، و أيضا لأن سنه لا تسمح له بالمحافظة على هذا الشرف.
لقد قال إنه لو كان الخيار بيده، لما قبل ذلك أبدا إلا بعد أن ينجز أعمالا أعظم مما فعل الآن. في النهاية و بعد إلحاح بقية المجموعة و نظرا إلى أن نونو تريستاو رأى أنه له الحق في ذلك، قام هذا الأخير بترقيته إلى رتبة فارس، مع أن ذلك كان ضد رغبته، لذا أطلق على هذا المكان منذ ذلك الحين اسم "ميناء الفارس"[63]. هكذا كان الفارس الأول الذي تم تعيينه في تلك المنطقة. عاد القباطنة إلى السفن و أوعزوا إلى العربي الذي اصطحبه نونو تريستاو معه بأن يتحدث مع هؤلاء البيظان، بيد أنهم لم يفهموا حديثه، لأن لغة هؤلاء ليست العربية و إنما أزناكي [الصنهاجية][64] التي يتحدثها سكان الصحراء و هي التسمية التي يطلقونها على هذا البلد. إلا أنه يبدو أن تربية هذا الرجل النبيل كانت أفضل من بقية الأسرى لأنه قد شاهد أشياء أجمل و سافر إلى بلاد أخرى درس فيها العربية،

---

[62]. Adahu

[63] Porto do Cavallero بالبرتغالية .

[64]Azancguy أو كما يعرف الآن ب: *كلام/زناگة* في الركن الجنوبي الغربي من منطقة الترارزة. (المترجم).

و هو ما جعله يفهم حديث العربي معه و يجيب على كافة الأسئلة التي طرحها عليه هذا الأخير.
فمن أجل الاطلاع على أحوال سكان البر و أخذ معلومات عنهم، وضعوا العربي على الشاطئ و معه إحدى النساء البيظانيات التي وقعت في الأسر و ذلك ليبلغوا الآخرين بأنهم إذا كانوا يريدون التفاوض بشأن دفع الفدية عن من وقعوا في الأسر أو بخصوص التجارة، ذلك أنه كان بإمكانهم فعل ذلك. في النهاية و بعد يومين وصل إلى ذلك المكان حوالي مائة و خمسون بيظانيا راجلين و خمسة و ثلاثون راكبين على الخيل و الجمال، حاملين معهم الأمة البيظانية. فمع أنهم يبدون انطلاقا من نظرة خارجية همجا و متوحشين، فإنهم يتحلون ببعض الدهاء يستخدمونه ليوقعوا أعداءهم في الفخ. هكذا ظهر ثلاثة منهم فقط على الشاطئ، في حين نصبت البقية كمينا و ذلك من أجل أن ينزل رجالنا إلى الشاطئ، لعدم علمهم بهذه المكيدة، عندها سينقض عليهم من كانوا في الكمين فيأخذونهم أسرى، و هو ما كان بوسعهم أن يفعلوه، نظرا لتفوقهم العددي المطلق، لو لم ينتبه رجالنا لهم.
إلا أنه عند ما عرف البيظان أن خطتهم قد انكشفت من طرفنا، حيث شاهدوا رجالنا الموجودين على متن الزوارق قد غيروا اتجاههم عند عدم مشاهدة الأمة، كشفوا عن خططهم و توجهوا جميعا إلى الشاطئ و أخذوا يرمون الحجارة و يلوحون بالإشارات، كما كشفوا هناك أيضا أنهم قد احتجزوا العربي الذي أرسل إليهم و سيحتفظون به كسبي. لقد ناداهم بأن عليهم أن يأخذوا حذرهم من هؤلاء الناس، لأنهم لم يأتوا إلى هناك إلا لإلحاق الضرر بهم.
عندها عاد رجالنا إلى السفن حيث وزعوا الأسرى كعبيد بينهم فأخذ كل منهم نصيبه و عاد البيظان إلى مخيماتهم و معهم العربي.
بما أن أنتاو غونسالفيز قد حمل الآن الشحنة على سفينته، كما أمره بذلك الأمير فقد عاد إلى البرتغال، في حين واصل نونو تريستاو

طريقه لتنفيذ الأوامر الصادرة إليه كما سبق و أن ذكرنا ذلك قبل أن يستلم القيادة.

لكن بعد مغادرة أنتاو غونسالفيزو ملاحظة أن سفينته تحتاج التصليح، عندئذ قام بإرسائها على الشاطئ و إصلاحها على النحو المطلوب، ثم انتظر حركة أمواج مواتية كما لو كان في مرفأ لشبونة، مقدما بذلك نموذجا على الإقدام أثار إعجاب الجميع. واصل سفره، فمر بميناء بورتو دا غايي و تابع حتى بلغ الرأس المسمي الرأس الأبيض[65]، حيث نزل رجاله لمعرفة ما إذا كان بإمكانهم اسر أي أحد. و مع أنهم عثروا على أثر رجال و حتى على بعض الشّباك، فقد ارتأوا العودة، مدركين أنهم في الوقت الراهن لن يكون بمقدورهم تحقيق شيء أكثر مما تم تحقيقه لحد الآن.

---

[65] يوجد موقعه عند 20 درجة و 46.55 م من خط الطول شمالا، بحسب ملاحظات الأميرال روسين، المرجع: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق،، ص.86.

الفصل 14
كيف قدم أنتاو غونسالفيزو من بعده نونو تريستاو أمام الأمير و معهم غنائمهم

لا أستطيع رؤية عودة هذه السفن التي تحمل الخبر الطريف المتمثل في الظفر بهؤلاء العبيد و تقديمهم أمام محيا أميرنا دون أن أشعر ببعض الغبطة لذلك. يبدو لي أنني أرى سروره أمام ناظري، مهما يكن نوعه. فبقدر ما تكون الرغبة في الأشياء شديدة و بقدر ما بذل فيها من جهد كبير و عظيم لتحقيقها، تكون الغبطة التي تحملها كبيرة أيضا عند ما يحصل الإنسان عليها. أيها الأمير المقدس، قد يشبه سرورك و فرحتك رغبة في الكسب عند ما يتم إبلاغك بهذا الكم من الثروات، حتى و لو كانت بحجم ما أنفقت لتحقيق هذه النتيجة. فبعد مشاهدة بدايات الثمرة، ألا يتعين علينا أن نعتقد أنكم ستفرحون، ليس لعدد هؤلاء الأسرى الأوائل الذين تم أخذهم، و إنما كامل فكرت فيه و تمكنت من تحقيقه لصالح آخرين؟ الأكيد أن قلبكم النبيل لن يعير اهتماما كبيرا لمثل هذه الثروة القليلة! بالفعل أسميها ثروة قليلة مقارنة مع عظمتكم و التي لولاها لما استطعتم و لما عرفتم كيف تبدؤون و كيف تختمون أي جزء من أعمالكم. بيد أن فرحكم كان مبعثه هدفكم المقدس المتمثل في البحث عن خلاص النفوس التائهة المشركة، كما سبق و أن قلت في الفصل السابع من هذا الكتاب. فعلى ضوء ذلك، يبدو لي عند مشاهدتكم لهؤلاء الأسرى و قد أحضروا إلى مقامكم أن ما أنفقتموه و ما تجشمتموه من مصاعب لم يكن شيئا: إنها فرحتكم بالتمتع بالنظر إليهم. إن المزية الكبرى هي مزيتهم، فرغم أن أجسامهم الآن ستكون تحت نوع من الإخضاع، إلا أن ذلك يعتبر أمرا هينا مقارنة بأرواحهم التي ستتمتع بحرية أبدية. كان أنتاو غونسالفيزهو

أول من قدم بنصيبه من الغنيمة، بعد ذلك وصل نونو تريستاو و الذي كان استقباله الحالي و مكافأته المستقبلية الرد على ما قام به من عمل جبار، تماما كأرض خصبة مع القليل من البذر تعطي الزارع، مهما كان قلة ما تلقت، كمية أكبر من الثمار.

الفصل 15
كيف أن الأمير هنريك بعث بسفارة إلى الحبر الأعظم و الرد الذي حصل عليه

بالنظر إلى أن لغة هؤلاء الأسرى لم تفهم من قبل المسلمين الذي كانوا يوجدون في هذه المملكة، سواء الأحرار منهم أم العبيد، فإنه كان كافيا في البداية أن يقوم النبيل الذي قدم به أنتاو غونسالفيزبتوضيح جزء كبير من قضايا البلد الذي كان يقيم فيه و ذلك كي يطلع الأمير عليها. و نظرا إلى أنه كان من الضروري في بعض الأحيان إرسال سفنه و فيها بعض رعاياه، حيث كان يتعين عليهم قتال هؤلاء الكفار، صمم على إرسال سفارة إلى الحبر الأعظم يطلب فيها منه مشاطرة خزائن الكنيسة المقدسة بغية المساهمة في خلاص نفوس من سيلقون حتفهم خلال مشاركتهم في مجهود هذا الغزو.

فعين على رأس هذه السفارة النبيل و الفارس عضو نظام المسيح فرنام لوبيز دي آزفدوي، و هو رجل حكيم و ذو سلطة، تم تعيينه كقائد رئيسي في نفس النظام و كان عضوا في مجلس الملك و الأمير. كلفه أيضا بأن يطلب من الحبر الأعظم أشياء غاية في الأهمية، على سبيل المثال غفران القديسة ماري في إفريقيا، و التي يوجد معبدها في سبتة تحديدا و كذا بعض النعم التي يتعين طلبها من البابا حيث يمكنكم مطالعة نصها الأصلي في التاريخ العام للمملكة.

و بما أن جزءا من هذا القرار البابوي يحتاج إلى التدوين هنا، فإن قداسة البابا كان جد مسرور بأن يمنحه ما تفضل بطلبه، كما يمكنكم مطالعته في مخطوط هذه الرسالة و التي أدرجناها هنا لتسهيل الفهم:

يوجنيوس الأسقف، خادم خدم الرب، إلخ. من أجل التذكر والذكرى الأبديين.
بما أننا و بغير استحقاق منا نمتلك سلطة يسوع المسيح سيدنا و الذي قبل أن يصلب كثمن للخلاص البشري، و من أجل العناية المتواصلة، فإننا نكابد من أجل تلك الأمور التي يمكن أن تدمر أخطاء و فظاعات الكافرين و التي من أجلها يمكن أن تكون النفوس المسيحية الأسرع في تحقيق الخلاص. و كما تم إبلاغنا الآن من قبل ابننا العزيز و البارون النبيل هنريك، دوق فيزو و حاكم الشؤون الروحية و الدنيوية لفرسان نظام المسيح، المتوكل على ثقته القوية في الرب من أجل تدمير و تشتيت شمل المسلمين [البيظان][66] و أعداء المسيح و الدعوة إلى الإيمان الكاثوليكي، فقد ارتأى هو شخصيا أن يذهب برجاله و سلاحه إلى تلك البلاد التي يسيطرعليها هؤلاء لتوجيه جيشه ضدهم، و مع أنه لا يوجد شخصيا في الميدان، فإن فرسان و جنود النظام المذكور، مع جميع المؤمنين المسيحيين الآخرين، يعتزمون شن حرب تحت راية النظام المذكور ضد هؤلاء البيظان و أعداء الدين الآخرين، كي يصل حماس المؤمنين المسيحيين أبعد مدى له في الحرب المذكورة.
فإننا نمنح و نعطي الآن، عبر السلطة الرسولية و عبر مضمون هذه الرسائل، إلى كل و إلى جميع من سيشاركون في هذه الحرب، الغفران التام لخطاياهم التي عليهم أن يتوبوا منها توبة صادقة بقلوبهم و يعترفوا بها بألسنتهم.
فلا يخرقن أو يخالفن أحد رسالة التوكيل هذه، و من أراد عكس ذلك فليسقط تحت لعنة الرب العظيم و حوارييه الأبرار: القديس بطرس و القديس بولس.
تم المنح. إلخ[67].

منح أيضا الأمير السيد بدرو، الذي كان يحكم المملكة باسم الملك، أخاه الأمير ميثاقا أعطاه بموجبه الخمس الكامل الذي كان من نصيب الملك و ذلك كمكافأة له على النفقات الكبيرة التي قام بها في هذا المجال.

---

[66] Moors.

[67] يتعلق الأمر بالقرار البابوي الذي اتخذه البابا يوجنيوس الرابع تحت عنوان: *Illius qui se pro divini* و ذلك بتاريخ 19 ديسمبر 1442 . راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، مرجع سابق، ص. 73 و ص. 297 .

و نظرا إلى أنه بفضله وحده (أي الأمير هنريك) تمت هذه الكشوفات بجهد كبير و نفقات عظيمة، فقد منحه علاوة على ذلك الحق في أن أي شخص لا يمكنه الذهاب إلى هناك (البلاد التي تم اكتشافها) دون ترخيص أو توكيل خاص من طرفه.

الفصل 16
كيف استطاع أنتاو غونسالفيزتحقيق أول تبادل

من المعلوم أن أي أسير يرغب في إطلاق سراحه، و تكون هذه الرغبة قوية لدى إنسان نبيل كان قدره أن يصبح خاضعا لشخص آخر. فبخصوص الرجل النبيل الذي تحدثنا عنه سابقا، فبما أنه وجد نفسه في وضعية أسر، مع كونه عومل معاملة حسنة، بيد أنه كانت تحدوه رغبة جامحة في تحرير نفسه من ربقة الأسر، لذا طلب من أنتاو غونسالفيزإعادته إلى بلده، حيث صرح بأنه سيقدم مقابل ذلك خمسة إلى ستة مسلمين [بيظان] سود، كما صرح أنه من بين الأسرى يوجد شابان سيدفع عنهما أيضا فدية.
هنا يتعين عليكم ملاحظة أن هؤلاء السود هم مسلمون [بيظان] سود تماما كالآخرين، بيد أنهم عبيدهم و ذلك طبقا للتقليد القديم و الذي أعتقد أنه كان بسبب اللعنة التي تسبب فيها نوح لابنه حام بعد الطوفان، و تتلخص في أن رهطه سيكون خاضعا لجميع أعراق العالم الأخرى.
فمن رهطه ينحدر هؤلاء السود، كما كتب الأسقف السيد رودريك الطليطلي و جوزفيس في كتابه " التاريخ القديم لليهود" و كذا وولتر، مع مؤلفين آخرين تحدثوا عن ذرية نوح منذ أن غادر آرك.
كانت رغبة أنتاو غونسالفيزفي خدمة الأمير أكبر من رغبته في العودة إلى تلك البلاد بغية الحصول على الفدية ، قائلا إنه، نظرا لكونه أدرك رغبته الكبيرة و اهتمامه بمعرفة جزء من تلك البلاد، فلا يعرف إن كان ما حصل عليه من معلومات من البيظاني كافيا، لذا طلب الإذن بالخروج في هذه الرحلة، سعيا للحصول على فدية هذا الأخير و الشابين الأسيرين معه.
فكما قال له البيظاني، فإن أقل شيء يمكن أن يدفعوه عنهم هو عشرة بيظان، فأفضل إنقاذ عشر أرواح من ثلاث، و لو أنهم سود،

ما دامت أرواحهم مثل أرواح الآخرين، و الأهم من ذلك أن هؤلاء السود ينحدرون من أصول مغايرة لأصول البيظان، لأنهم كانوا وثنيين، لذا فمن الأفضل إرشادهم إلى طريق الخلاص.
ذكر أيضا أن بمقدور هؤلاء السود إمداده بمعلومات عن بلاد أخرى أبعد، ثم إنه وعد بأنه عندما يتحدث في موضوع التجارة مع السكان المحليين فإنه سيجد طرقا تمكنه من الحصول على أكبر قدر من المعلومات. رد عليه الأمير بخصوص كل ما أثاره، ثم قال إنه يقبل عرضه و أنه لا يرغب في الحصول على معلومات عن تلك البلاد فحسب، و إنما أيضا عن جزر الهند و بلاد الأسقف يوحنا[68]، متى استطاع إلى ذلك سبيلا. استعد أنتاو غونسالفيز للذهاب و معه أسراه، ففي بداية رحلته اعترضته عاصفة هوجاء أرغمته على العودة من جديد إلى لشبونه بعيد إبحاره. ثم حدث أن أحد النبلاء الألمان من جيش إمبراطور ألمانيا قد دخل بيت الأمير بهدف الذهاب إلى سبته، تحدوه الرغبة في أن يصبح فارسا؛ لقد قام بأعمال ترفع من مكانته ليستحق تلك المكافأة. يدعى هذا الرجل بالتاسار، و هو بالتأكيد حسب ما علمنا لا تنقصه الشجاعة لتحقيق مبتغاه، لذا تمت ترقيته إلى رتبة فارس لكونه قام بأعمال بطولية، كما ستطلعون على ذلك بتفاصيل أكثر في تاريخ المملكة.
لقد قال عدة مرات، قبل أن يغادر أرض البرتغال، إنه يرغب في مشاهدة عاصفة رهيبة يمكن أن يتحدث عنها لمن لم يشاهدوها مثلها قط.
و الحقيقة أن حظه لم يكن سيئا لتحقيق رغبته، ذلك أنه لما كان رفقة أنتام غونسالفيز، كما سبق أن ذكرنا، كي يذهب إلى تلك البلاد و يشاهدها قبل مغادرة البرتغال، هبت عاصفة عاتية لدرجة أنهم

---

[68] أي الحبشة. راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée*، مرجع سابق، ص.75 و ص.297 .

نجوا من الهلاك بأعجوبة. رغم ذلك، استأنفوا رحلتهم، و عند وصولهم إلى مشارف تلك البلاد حيث يتوقع أن تتم الفدية، قرروا وضع البيظاني النبيل على الشاطئ كي يذهب و يحضر الفدية في المكان الذي اتفق مع أنتاو غونسالفيز عليه.
كان البيظاني مسرورا بالثياب التي أعطاه إياها الأمير الذي اعتبر أنه إن حصل على مزايا، نظرا لأرومته النبيلة التي تجعله أسمى من الآخرين، فسيعمل لصالح من أكرموه عبر تشجيع شعبه و حملهم على مزاولة التجارة. بيد أنه و فور إطلاق سراحه، نسي بسرعة كافة وعوده و التي على أساسها منحه أنتاو غونسالفيز الثقة، معتقدا أن النبل الذي أظهره سيكون الوازع الرئيسي أمام أي خرق من جانبه، بيد أن خيانته قد استنفرت منذ ذلك الوقت كافة رجالنا بعدم منح الثقة لأي من هؤلاء القوم إلا بضمانات لا يرقى إليها الشك.
لذا دخل أنتاو غونسالفيز وادي الذهب بسفينته لمسافة أربعة فراسخ فارسي و انتظر سبعة أيام، دون الحصول على أي رسالة أو إشارة من أي من سكان تلك البلاد، بيد أنه و في اليوم الثامن قدم رجل على جمل أبيض و شخص آخر معه و معهما رسالة مفادها أنهما ينتظران آخرين سيأتون لتقديم الفدية، و أن هؤلاء سيأتون في اليوم الموالي، و هو ما حصل بالفعل.
كان من الواضح أن هذين الشابين يحظيان بمكانة كبيرة بينهم، ذلك أنه اجتمع مائة من البيظان رجالا و نساء لفديتهم، فاستلم أنتاو غونسالفيز عن أسيريه عشرة من السود، ذكورا و إناثا، من مختلف البلدان، و كان مارتين فرنانديز، معتمد الأمير، هو من أدار هذه الصفقة بين الأطراف.
من الواضح أن مارتين المذكور كان ذا معرفة واسعة بلغة البيظان، حيث فهمه جميع هؤلاء الناس، في حين أن العربي الذي ينحدر من مسلمي الأندلس لم يجد إلا شخصا واحدا يفهمه. إضافة إلى هؤلاء السود الذين حصل عليهم أنتاو غونسالفيز كفدية، فقد حصل أيضا على قليل من قراضة الذهب و درع من جلود البقر

و عدد من بيض النعام، حيث يمكن في يوم ما تقديم ثلاثة أطباق طازجة و لذيذة منها على مائدة الأمير، تماما كما لو كانت بيض أي من الطيور الأليفة. يمكننا الاعتقاد بأنه لا يوجد أمير مسيحي في البلاد المسيحية تضم مائدته وجبات كهذه.
فطبقا لما رواه هؤلاء البيظان، يوجد تجار في تلك البلاد يتعاملون بالذهب، حيث يبدو أنه عثر عليه هناك، بيد أن البيظاني النبيل لم يعد للوفاء بوعده، كما لم يعترف بالجميل الذي صنع له.
فبخسارته استخلص أنتاو غونسالفيزدرسا و هو أنه عليه أن يكون حذرا أكثر من السابق. بعد العودة إلى مولاه الأمير، حصل على مكافأته مثلما كان حال الفارس الألماني الذي عاد هو الآخر إلى وطنه مكرما، مع عطايا كثيرة من جانب الأمير.

الفصل 17

كيف ذهب نونو تريستاو إلى جزيرة جته و البيظان الذين وقعوا في أسره

شيئا فشيئا تزايدت وتيرة هذه الأمور و تجرأ الناس على سلك هذا الطريق، البعض منهم يريد الخدمة و البعض الأخر يريد كسب مجد أو يأمل في الحصول على منفعة، مع أن هذين الأمرين يؤدي كل منهما إلى الآخر، إذ إنه بالخدمة فإنهم يستفيدون و يرفعون من شأنهم كذلك. و في سنة 1443، جهز الأمير سفينة أخرى مسلحة و عين عليها الفارس النبيل نونو تريستاو، مع أناس آخرين من بيته. واصل هؤلاء رحلتهم حتى وصلوا إلى الرأس الأبيض؛ فأثناء محاولتهم قطع مسافة أبعد، تجاوزوا هذا الرأس بحوالي خمسة و عشرين فرسخا، عندها شاهدوا جزيرة، عرفوا لاحقا بأنها تدعى جته[69].

في هذه الجزيرة شاهدوا خمسة و عشرين زورقا مصنوعة من الخشب تنطلق و على متنها أناس، بيد أنهم جميعا عراة، ليس بغرض الاستحمام و إنما هي عادة دأبوا عليها. أبحروا بتلك الطريقة بحيث كانت أجسامهم في الزوارق و أقدامهم في الماء، يستخدمون ذلك للجدف كما لو كانوا يتوفرون على مجاديف. فكان

---

[69] جزيرة آرغين / Arguim التي يطلق عليها البيظان "غير /Ghir " و التي حولها آزورارا إلى جته / Gete و باروس إلى Arget. يقول دي شانترن: " كان اكتشاف هذا الموقع و الاستيلاء عليه من قبل البرتغاليين ذا أهمية كبيرة. فهذا الاكتشاف سهل الحصول على معلومات و إقامة علاقات مع الدول الزنجية الواقعة على ضفاف نهري السنغال و غامبيا. [...] بدأ الأمير بتشييد قلعة هناك مع بداية 1448 . تحدث كاداموستو بإسهاب عن العلاقات التجارية التي أقامها البرتغاليون مع السكان داخل البلد. كما ذكر ملاح برتغالي مؤلف كتاب: *Navegação a Ilha de S. Thomé* الذي صدر سنة 1558 في Coll. de Ramusio و المترجم إلى البرتغالية (انظر بهذا الخصوص: *Mem. Para a Historia das Naçãoes ultram.*، ج.1) ما يلي بخصوص هذه الجزيرة: يوجد هناك ميناء كبير و قلعة للملك مولانا تضم حامية و مصنعا، أما سكان آرغين فهم بيظان سود و هذه الجزيرة توجد على التخوم ما بين بلاد المغرب /Barbaria و بلاد الزنج. " كما أن بوردون / Bordone قد تحدث في كتابه *Isolario* الصادر سنة 1528 عن العلاقت التجارية بين السكان داخل البلد و هذه النقطة. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.ص. 99 -100.

على متن كل زورق ثلاثة إلى أربعة من السكان المحليين. و بما أن تجربة رجالنا في هذا المجال كانت محدودة، فعند ما رأوهم من مسافة بعيدة تصوروا أنهم طيور تتحرك بهذه الطريقة. و مع أن أحجامهم كانت متفاوتة، فقد ظنوا أنه يمكنهم أن يكونوا بالفعل طيورا في مكان من هذا العالم، حيث يتحدث الناس عن و جود عجائب أكثر غرابة. بيد أنه عند ما تأكدوا أنهم رجال غمرتهم الفرحة، خصوصا أنهم شاهدوهم في مكان يمكنهم من السيطرة عليهم. غير أنهم لم يكونوا قادرين على أخذ غنيمة كبيرة نظرا لصغر زورقهم. فعند ما وضعوا فيه أربعة عشر أسيرا، إضافة إلى الرجال السبعة الذين يشكلون طاقمه، لم يستطع حمل المزيد.
أما بخصوص العودة لمطاردتهم فلم تكن مجدية على الإطلاق، لشدة الرعب الذي سيطر على أعدائنا، حيث إنه قبل الوصول إلى الجزيرة تفرقوا بسرعة، بعضهم قضى و البعض الأخر لاذ بالفرار. بيد أنه بتحقيق عملية الأسر هذه، تملكهم شعور مزدوج: الأول يتمثل في غبطتهم بأنهم وجدوا أنفسهم وقد تمكنوا من تحقيق هذه الغنيمة، التي قد تجلب لهم منفعة و بخطر أقل، غير أنه من جانب آخر ليس لهم العذر الكافي لتبرير أنه بسبب صغر زورقهم لم يكن باستطاعتهم أخذ الحمولة التي كانوا يرغبون فيها.غير أنهم وصلوا بعد ذلك إلى الجزيرة و أسروا خمسة عشر آخرين من البيظان.
و بالقرب من هذه الجزيرة اكتشفوا جزيرة أخرى حيث وجدوا أعدادا لا متناهية من طيور مالك الحزين و التي يبدو أنها ذهبت إلى هناك للتكاثر، كما هو الحال فعلا، فبفضلها وجد رجالنا وجبات منعشة.
هكذا عاد نونو تريستاو بغنيمته باستحقاق أعظم من المرة الأولى، لأنه حصل على مكاسب أهم من تلك التي وجد في السابق، كما أنه حقق انتصارا أكبر، حيث لم يكن معه رفيق يتقاسم معه ما حصل عليه من غنيمة. لم أذكر استقبال الأمير و ما منحه له من مكافأة، لأني أرى أنه من غير المناسب تكرار ذلك في كل مرة.

الفصل 18
كيف حصل لانساروته من الأمير على ترخيص بالذهاب بسفنه إلى غينيا

الحقيقة أن حال عامة الناس، كما قال ليفي، هو أنهم مجبولون دوما على التهجم على الإنجازات العظيمة، و بالأخص في بداياتها، إذ يبدو لي أن مرد ذلك هو عدم معرفة النتائج، فالإنسان ذو الصدر الضيق عند ما يرى بداية و انطلاقة الأعمال العظيمة يعتقد دوما أنها مرعبة أكثر من الواقع، و لأن هذا العقل ليس قادرا على إنجاز تلك الأعمال فإنه يحمل معه شكا طبيعيا بخصوص إمكانية تجسيدها على أرض الواقع.

يظهر ذلك جليا من خلال أعمال أميرنا، ذلك أنه مع بداية استعمار هذه الجزر أكثر الناس من اللغط كما لو كان ينفق جزءا من ثروتهم فيها. بعد أن أسسوا شكوكهم على ذلك، أطلقوا أراجيف حولها، إلى حد أنهم أعلنوا أن هذا العمل مستحيل تماما، و اعتبروا أنه لا يمكن تحقيقه أبدا. بيد أنه بعد أن بدأ الأمير في توطين الناس في هذه الجزر و بين لهؤلاء الأشخاص كيف يمكنهم الاستفادة من هذه الأرض الجديدة المكتشفة، و بعد أن بدأ جني ثمار البلدان يظهر في البرتغال بوفرة كبيرة، تزايد عدد من كانوا متذمرين باطراد، و بأصوات ناعمة أثنوا على ما كانوا ينددون به بصوت عال و على الملأ.

نفس الشيء فعلوه عند بدء هذا الغزو، ففي السنوات الأولى لما رأوا التجهيزات الضخمة التي يقوم بها الأمير مع تلك النفقات الكبيرة، انصرف هؤلاء الفضوليون للانشغال بشؤونهم الخاصة، كما كانوا يناقشون النزر القليل الذي فهموه بخصوصها. فكلما تأخرت نتائج مشروع الأمير في الوصول، كلما انتقدها هؤلاء بأعلى صوت. لكن الأسوأ من ذلك كله هو أنه، إضافة إلى ما يقوله

السوقيون بينهم، فإن علية القوم يتحدثون عن هذا المشروع بنوع من السخرية، معلنين أنه لا فائدة ترجى من كل هذا المجهود الكبير و النفقات الباهظة.

بيد أنهم لما شاهدوا أسرى البيظان الأوائل يأتون إلى البلد و الشحنة الثانية منهم التي تلت ذلك، أصبحوا ينظرون بالريبة إلى الرأي الذي أبدوه في السابق. ثم إنهم تخلوا بالكامل عن ذلك عند ما شاهدوا الحمولة الثالثة التي قدم بها نونو تريستاو إلى البلد، إذ تمت عملية الأسر في وقت قصير و بمجهود أقل. فتحت تأثير الضرورة أقروا بخطئهم، معتبرين أنفسهم أغبياء لكونهم لم يدركوا ذلك من قبل. هكذا أرغموا على تحويل عتبهم إلى ثناء علني. لذا قالوا إن من البديهي أن الأمير كان بمثابة الإسكندر؛ ثم بدأ جشعهم يتعاظم حين رأوا منازل الآخرين تغص بتدفق العبيد الذكور و الإناث و الزيادة المضطردة في ثروتهم، عندها فكروا بخصوص الأمر كله و بدؤوا في مراجعة مواقفهم.

و نظرا إلى أنه بعد عودته من طنجة، فإن الأمير كان يمكث على الدوام في الغرب بسبب المدينة التي شيدها إذ ذاك و لأن الغنائم التي يأتي بها قباطنته يتم تفريغها في لاغوس، لذا فإن سكان هذه البلدة كانوا يقصدون الأمير لمنحهم رخصة للذهاب إلى تلك البلاد حيث قدم أسرى البيظان المذكورين.

فلا يمكن لأي كان أن يذهب إلى هنالك بسفينة مجهزة إلا بإذن من الأمير، وفقا لما منحه له الملك في نفس القرار و الذي أعطاه بموجبه الخمس الملكي، كما مر معكم من قبل.

فأول من تقدم لالتماس هذا الترخيص هو مساعد فارس تمت تنشئته و هو في سن مبكرة في بيت الأمير و هو الآن متزوج و أصبح محصل ضرائب الملك في مدينة لا غوس هذه.

و لأنه رجل يمتاز برهافة الحس، فقد فهم جيدا أهمية الأمر و الفائدة التي يمكن له أن يجنيها من حملته، إن قيض الرب له التوفيق حتي يتمكن من الوصول إلى تلك البلاد.

بعد أن أعد جيدا مخططه، بدأ يتحدث عنه مع بعض أصدقائه فحثهم على الانضمام له في هذا العمل.

لم يكن صعبا عليه إنجاز هذا الأمر، لأنه كان جد محبب في تلك البلدة التي سكانها هم في الغالب رجال شرفاء و مستعدون دوما لترويض أنفسهم على تقاسم الأشياء الجيدة، و بالأخص في المجالات البحرية، لأن مدينتهم ساحلية و لأنهم كانوا دوما على متن السفن أكثر من اليابسة. هكذا جهز لانساروته ست سفن صغيرة مسلحة لإنجاز هذا الهدف و تحدث إلى الأمير بخصوص الترخيص، قائلا إنه يلتمس منه التفضل بمنحه له حتى يكون بوسعه خدمته و كذا حصوله على مكانة و منفعة له شخصيا.

هكذا قدم له بيانا عن الناس الذين سيذهبون معه و السفن الصغيرة التي أخذوها.

سُرَّ الأمير كثيرا بذلك، ثم أمر بأن تصنع أعلامه المكونة من صليب نظام المسيح ليرفرف على كل سفينة.

الفصل 19
من كانوا قباطنة السفن الأخرى و الغنيمة التي حققوها

كان الربان الرئيسي كما سبق أن ذكرنا هو لانساروته، أما الثاني فهو جيل إيانيس و الذي أوضحنا أنه هو أول من اجتاز رأس بجدور. إضافة إلى هذين، كان هناك ستيفاو أفونسو و هو رجل نبيل و قد توفي بعد ذلك في جزر الكناري، ثم رودريغو ألفاريز و جوآو دياز و هو مالك سفينة، إضافة إلى جوآو برنالديز، و قد كانوا كلهم متأهبين للقيام بهذه العملية.

فبعد مواصلتهم لرحلتهم، وصلوا جزيرة طيور مالك الحزين عشية عيد القربان[70] حيث مكثوا قليلا من الوقت لتناول وجبة منعشة من جموع الطيور الشابة التي وجدوها هناك، حيث كان الفصل فصل تكاثرها.

بعد ذلك تشاوروا بخصوص ما ينوون القيام به، فبدأ لانساروته في توضيح رأيه، قائلا: " أيها الأصدقاء! لقد تركنا بلدنا لخدمة الرب و مولانا الأمير و الذي يمكنه أن يتوقع منا لأسباب وجيهة إنجازا هاما لصالحه، فلسبب ما قدم لنا منذ نعومة أظافرنا و لكوننا رجالا من النوع الذي يدفعهم أي عار إلى صنع الأمور العظيمة أكثر ممن أتوا إلى هنا من قبل، فبواسطة هذا الأسطول، سيكون من العار حقا العودة إلى البرتغال دون غنيمة ذات قيمة كبيرة.

و لأن الأمير قد علم عن طريق البيظان الذين أتى بهم نونو تريستاو أنه يوجد بجزيرة نآر[71] القريبة من هنا مائتا شخص، لذا

---

[70] عيد مسيحي يتم تخليده ستين يوما بعد عيد الفصح، و عادة ما يكون في مايو / يونيو. أردنا إبراز ذلك للمساعدة في ضبط تاريخ هذه الرحلة.

[71] Naar، تظهر هذه الجزيرة على شاطئ آرغين كما توضح ذلك خريطة إفريقيا، بحسب أطلس البرتغال الموجود بالمكتبة الوطنية بباريس. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص. 108. من المحتمل أن تكون جزيرة نآر هي جزر اكنيفه / Ikniva الحالية، راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، مرجع سابق، ص.81 و ص. 300 .

يبدو لي أن على مارتين فيسنت و جيل فاسكيز اللذين قد زاراها من قبل وعرفا موقعها الذهاب بهذه الزوارق إلى إحدى ضفاف هذه الجزيرة و معهما فقط الرجال الذين يستطيعون التجديف، فإذا وجدوهم فعليهم العودة بسرعة على طول الشاطئ حتى يصلوا إلينا، أما بالنسبة لنا فسنبحر مبكرا، إن شاء الرب، و سنواصل باتجاه الجزيرة، فعندعودتهم سنكون قريبين جدا لسماع الأخبار التي سيحملونها و عندها سنتشاور بخصوص ما نحن فاعلون."
و كما أوضحت، فإن لا نزاروته كان رجلا يمتاز برهافة الحس، كما يعرف ذلك كل الذين رافقوه: لذا لم يعملوا النظر كثيرا في رأيه، فقد صاحوا بصوت واحد بأن ما قاله صواب.
تأهب القبطانان للذهاب و أخذا معهما ثلاثين رجلا، بحيث كان على متن كل زورق ستة رجال، فانطلقوا من الجزيرة التي كانوا فيها عند غروب الشمس. أمضوا ليلتهم بالكامل في الطريق و وصلوا إلى الجزيرة التي شاهدوها عند بزوغ الفجر تقريبا.عند ما تعرفوا عليها بالأمارات التي حدثهم عنها البيظان سابقا، ضغطوا باتجاه الشاطئ إلى أن وصلوا وقت انبلاج الصبح إلى حي من البيظان قريب من الشاطئ، حيث يجتمع كافة سكان الجزيرة. بعد أن شاهدوا ذلك، توقف رجالنا برهة للتشاور بما عليهم القيام به.
لقد وجدوا أنفسهم أمام موقف صعب، ذلك أنهم لا يدرون إن كان عليهم الرجوع إلى السفن، كما أمرهم رئيس قباطنتهم، أم أنه يتعين عليهم مهاجمة الحي نظرا لقربه. فبينما كانوا مترددين و كان كل واحد منهم يفكر بمفرده، إذ برز مارتين فيسنت و قال:" بالتأكيد أن الشكوك التي تخامرنا تدفعنا للتفكير، فإذا عصينا أوامر قبطاننا سنكون قد ارتكبنا خطأ، و الأكثر من ذلك إذا حدث لنا مكروه أو أصابنا خطر سيكون ذلك فرصة، ليس فقط لخسارة أرواحنا، بل ستكون سمعتنا سيئة. فمن جهة جئنا إلى هنا للحصول على مترجم

يستطيع مولانا الأمير بواسطته الحصول على معلومات عن هذه البلاد، و هو أمر يرغب فيه كثيرا كما تعلمون جميعا. لكننا الآن قريبون جدا من هذا الحي حيث إن ضوء الصبح قد انتشر، فلن يكون بمقدورنا الرجوع إلى السفن دون أن ننكشف، فإذا انكشفنا فلن نتمكن بعد ذلك من الحصول على مترجم هنا. لأن هؤلاء البيظان سيفرون إلى البر الواقع على مرمى حجر من هنا، فليس فقط سكان هذه المنطقة، بل سكان الجزر الأخرى القريبة، لأن هؤلاء سيستنفرونهم. هكذا ستكون رحلتنا ذات نتائج هزيلة، و بالتالي لن يحصل مولانا الأمير على مبتغاه من هذه البلاد. بيد أنه يبدو لي، و هذا هو رأيي إن قبلتموه، أن علينا مهاجمة البيظان و هم في غفلة من أمرهم، لأنهم سيتفرقون عند وصولنا، فإذا لم نحصل على شيء سوى مترجم سنكون مرتاحين لذلك. فإن نحن عصينا أوامر رئيس قباطنتنا، نسأل الرب التوفيق لفعل الخير و هو القادر على ذلك، لن يحتسب ذلك ضدنا، و حتى لو حدث ذلك، سيتم العفو عنا بسهولة، لسببين: الأول أننا إذا لم نقاتل يكون مجيئنا هنا بلا معنى، و سيفشل مخطط مولانا الأمير بالنظر إلى أن أمرنا قد انكشف، السبب الثاني أنه رغم أنه صدرت لنا أوامر بالعودة، فإنه لم يحظر علينا القتال. ثم إنني أعتقد أن خوض المعركة يجب أن يكون وفق منطق معين، فعددنا هنا ثلاثون و البيظان فقط 170 إلى 180 كما يقال، سيكون من ضمنهم خمسون إلى ستين رجلا مقاتلا؛ هكذا يبدو لي أنه من الصواب أن لا نخسر المزيد من الوقت، لأن النهار بدأ يأتي بسرعة، فإذا تأخرنا ستكون حملتنا و مسعانا في الواقع من دون فائدة. "

رد الجميع بأن رأيه جد صائب و أن عليهم السير قدما في الحال. بعد الانتهاء من تبادل وجهات النظر، نظروا إلى المخيم فلاحظوا أن البيظان مع نسائهم و أطفالهم قد بدؤوا في الخروج من منازلهم بأسرع ما يمكن، لأنهم شاهدوا أعداءهم. بيد أنهم أطلقوا صرخات

من قبيل: "القديس يعقوب"، "القديس جورج"، "البرتغال"، فهاجموهم بسرعة و قتلوا و أسروا ما كان باستطاعتهم.
هكذا يمكنك مشاهدة الأمهات و هن يبحثن عن أطفالهن و الأزواج عن زوجاتهن، الكل يسعى جاهدا للفرار. البعض منهم غمر نفسه في الماء و البعض الآخر اختفى تحت أكواخه، ثم إن هناك من أودعوا أطفالهم بين طحالب البحر، آملين حجبهم عن رؤية المهاجمين، لكن رجالنا عثروا عليهم فيما بعد.
في النهاية أراد مولانا الرب، الذي يجزي على فعل كل حسنة، أنه مقابل ما قاموا به خدمة له فقد تحقق لهم النصر على أعدائهم، فجزاء و مكافأة لهم على عملهم و على ما أنفقوا، تمكنوا من أسر 165 من البيظان رجالا و نساء و أطفالا، إضافة إلى من هلكوا أو قتلوا. عند ما انتهت المعركة، حمد الجميع الرب على النعمة التي أظهر لهم حيث منحهم هذا النصر، مع قلة الخسائر في صفوفهم. فعند ما وضعوا الأسرى بأمان في الزوارق و أوثقوا البعض الآخر على الأرض (نظرا لكون الزوارق صغيرة و ليس باستطاعتها استيعاب هذا العدد الكبير دفعة واحدة)، بعثوا برجل ليذهب إلى أبعد مسافة ممكنة على الشاطئ فينظر هل بإمكانه مشاهدة قدوم السفن.
لقد سار هذا الرجل، و عند ما قطع مسافة فرسخ بالكامل من المكان الذي يتواجد فيه الآخرون، شاهد السفن و هي قادمة. أما لانساروته فقد انطلق عند بزوغ الفجر، كما وعد. لقد وضع الرجل إشارة بيضاء على رمحه و بدأ في إعطاء إشارات للسفن عبرها، عند ما شاهدته حولت مسارها باتجاه المكان الذي توجد فيه الإشارة. و على طريقهم وجدوا أخدودا يمكن الزوارق من الإبحار عبره بسهولة إلى الجزيرة، و فورا أطلقوا زورقا صغيرا كان بحوزتهم فسحبوه للنزول على الشاطئ لسماع الخبر الذي أبلغهم به زميلهم الذي كان ينتظرهم بتفاصيله بالكامل. قال لهم أيضا إن

عليهم أن يساعدوهم في نقل الأسرى الذين لا يزالون على الشاطئ تحت حراسة سبعة رجال بقوا معهم في الجزيرة.
بخصوص الزوارق الأخرى، فقد بدأت تظهر على طول الشاطئ و على متنها البيظان. عند ما تلقى لانساروته، مع مساعدي فرسانه و جنوده الشجعان، مثل ذلك النبأ و النجاح الذي منح الرب لأولئك الذين ذهبوا إلى الجزيرة و شاهد العمل العظيم الذي قاموا به، و بما أن الرب قد رضي لأنهم حملوا كلمته معهم حتى هذا الممر البحري، فقد عمتهم الفرحة و حمدوا المولى الرب بأعلى صوت، لأنه تفضل بمنح عونه لهذه الحفنة من شعبه المسيحي.
بيد أنه بخصوص الرجل الذي سألني إن كانت غبطتهم بهذا الأمر صادقة بالكامل و دون أن تكون بطريقة ما متكلفة، حتى و لو كان ذلك بشكل طفيف، أود أن أرد عليه ب "لا"، ذلك أن من منحهم الرب قلوبا شجاعة و نبيلة لا يمكنهم الشعور بالرضى إذا لم يشهدوا كل عمل بطولي و يشاركوا فيه بطريقة واعية، كما أنه لا يمكن أن يتحقق لهم ذلك بشكل كامل من دون تلك الغيرة التي هي في هذه الحالة لا تعتبر من النقائص الأساسية، بل يمكن اعتبارها بالأحرى فضيلة، و بالأخص إذا كانت ترتكز على منطق سليم، كما هو حال الرجال الخيرين الفضلاء.
بعد أن تم نقل كافة سجناء البيظان من الزوارق إلى السفن، تم وضعهم تحت رقابة بعض من أفرادنا المسيحيين، ثم نزل الباقون إلى اليابسة و قاموا بتمشيط الجزيرة حتى عثروا على الباقين تحت حراسة الرجال السبعة الذين سبق أن تحدثنا عنهم. بعد أن جمعوا كافة الأسرى بعضهم مع بعض، كان الوقت قد أصبح متأخرا، نظرا لأنه في هذه البلاد يوجد فارق بين طول الأيام مع ما هو موجود في بلدنا. لقد تطلب هذا العمل مجهودا كبيرا، نظرا للمسافة بين السفن و مسرح العملية، و أيضا نظرا لعدد البيظان الهائل.

بعد ذلك خلد رجالنا إلى الراحة و استمتعوا بمشاركتهم في هذا العمل غير المسبوق على النحو المطلوب. بيد أن لانساروته لم ينس أن يحصل على معلومات من الأسرى البيظان، وفق ما يمليه عليه واجبه في الاستعلام، و ذلك بخصوص المكان الذي يوجد فيه الآن و خصائصه، ثم إنه تأكد عبر المعلومات التي حصل عليها منهم، عبر مترجمه، أنه بالقرب من هذا المكان توجد جزر مأهولة، يمكن أن يحققوا فيها عمليات أسر كبيرة دون كبير عناء.
فهكذا و بعد أن تشاوروا بخصوص ذلك، عقدوا العزم على الذهاب و البحث عن تلك الجزر.

الفصل 20
كيف ذهبوا إلى جزيرة تيجر[72] و البيظان الذين أسروا هناك

في اليوم الموالي، و كان يوم الجمعة، جهزوا زوارقهم، ذلك أن السفن كان عليها أن تبقى حيث توجد، فحملوا فيها المؤن التي يحتاجونها لمدة يومين، إذ كانوا لا ينوون غيابا طويلا عن السفن. صعد ما يقارب ثلاثين رجلا على متن هذه الزوارق، يتعلق الأمر بلانساروته و ببعض قباطنة السفن و معهم بعض مساعدي الفرسان و بعض الرجال الذين كانوا هناك.
لقد أخذوا معهم اثنين من أولئك البيظان الذين سبق أن أسروهم و اللذين صرحا لهم بأن في جزيرة تيجر الواقعة على مسافة خمسة فراسخ يوجد بها حي من البيظان يضم حوالي مائة و خمسين شخصا. انطلقوا عند الصباح فتوكلوا على الرب و تضرعوا له أن يرشدهم إلى طريقهم، عساهم يخدمونه و ينشروا العقيدة الكاثولوكية. ثم إنهم ذهبوا حتى وصلوا إلى جزيرة تيجر المذكورة؛ عند ما قفزوا إلى الشاطئ، دلهم البيظاني الذي معهم على مكان وجود الحي الذي يوجد به كل البيظان، أو على الأقل العدد الأكبر من هؤلاء في هذه الجزيرة.
غير أنهم عند ما قدموا إلى هذه الجزيرة لم يجدوا فيها أحدا، لأنه منذ أيام، وفق ما علموا فيما بعد، تم إخلاء ذلك المكان. بعد ذلك ساورهم شك في أن البيظاني كان يكذب عليهم (لجعلهم يتواجدون في مكان بعيد من هناك، حيث يمكنهم الاصطدام بقوة من البيظان قد تكبدهم خسائر)، تشاوروا فيما عليهم أن يفعلوا. فقبل أن يقرروا أي شيء، بدؤوا في ضرب البيظاني و تهديده لإرغامه على قول

---

[72] بالبرتغالية Tiger، قد تكون جزيرة إويلي / Iwili الحالية الواقعة مباشرة شمال غرب جزيرة تيدره. راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، *مرجع سابق، ص.86 و ص.302*.

الحقيقة. بيد أن الشخص المذكور قال لهم إنه سيدلهم على المكان الذي يوجد به البيظان، إلا أنه عليهم أن يذهبوا ليلا حيث يمكنهم قتل أو أسر أكبر عدد منهم، لكن إذا ذهبوا نهارا، كما هو حالهم الآن، فإنهم لن يستطيعوا الوصول إليهم دون أن ينكشف أمرهم، فعند ما تتم مشاهدتهم يمكنهم الاحتراس في مكان آمن، إذا كانوا غير قادرين على مواجهتهم.

عند ما قال لهم البيظاني ذلك لم يصدقه الجميع، إلا أن البعض قال إنه قد يكون من المناسب العودة إلى السفن و من هناك يتم الاتفاق على ما يتعين فعله، آخرون قالوا إنه مهما يكن من أمر فإن عليهم الذهاب قدما و البحث عن ذلك الحي الذي أكد البيظاني أنه يعرف جيدا كيف يدلهم عليه. قد لا تتوفر تلك الجزيرة على عدد من الرجال المقاتلين أكثر من جزيرة نآر حيث حققوا غنيمتهم الأولى كما أنها ليست كبيرة و لا تتسع لحي كبير.

هكذا استمروا في التبريرات، كل يدافع عن وجهة نظره و لم يتوصلوا إلى اتفاق نهائي بخصوص ما يمكنهم عمله، إلى أن رد جيل أيانيس، و هو فارس كريم و مقدام سبق الحديث عنه، بالقول: " أرى بالفعل أن تأخرنا في الاتفاق بخصوص ما يجب علينا أن نفعله في هذا الموضوع (و الذي نأمل منه خيرا بفضل و رعاية مولانا يسوع المسيح)، قد يشكل عقبة و يتسبب لنا في نقص في المكاسب بسبب هذا الخلاف، خاصة بين أناس قليلي العدد كما هو الحال بالنسبة لنا، يضعف من موقفنا و قد يؤدي بنا إلى الخراب، كما سيحط من قدرنا و يقلل من خدمة الرب و مولانا الأمير. لذلك فإني أرى أنه يجب أن يذهب مع هذا البيظاني أربعة عشر أو خمسة عشر رجلا نحو تلك الجهة التي قال إن البيظان متواجدون بها حتى يروا ذلك الحي أو المكان الأكيد الذي يوجدون فيه، فبعد معاينتهم له عليهم العودة إلى حيث ينتظر جميع الآخرين، و دون تحرك حتى يعود عنصر الاستطلاع.

بعد ذلك، و بعون الرب، سننطلق معا و نذهب للبحث عنهم.
و بسبب أنه يتعين أن لا يكون عدد الرجال المقاتلين هناك هو نفسه الذي كان في جزيرة نآر، فإننا قد لا نحتاج للقتال للسيطرة عليهم، بعون مولانا الرب الذي به نستعين، و الذي بنعمته ينصر القلة القليلة و يهزم بها الجموع الغفيرة. فإن أنتم رضيتم بما قلت لكم، فعلينا أن لا نتأخر و نبدأ العملية في الحال."
رضي الجميع بخطابه، قائلين إنه كان جيدا و أن عليهم تنفيذ ما قاله جيل أيانيس.
بدوره قال لانساروته: " بما أنكم جميعا قبلتم رأي جيل أيانيس، فإني أرغب في الذهاب مع أولئك الذين سيخرجون للبحث عن الحي، كما أعتقد أنه قد يكون من المناسب أن يبقى جيل أيانيس مع الآخرين لحراسة الزوارق، بحيث يمكنكم تقديم الدعم لنا إن حدث أمر ما في هذا الممر وفق ما يتطلبه الموقف، لذلك أطلب منه البقاء هنا.
فمع أن جيل أيانيس رفض البقاء في البداية، لكنه عندما أدرك أن الطلب أصبح أمرا (لأن من قام به هو قائده)، و بالأخص بما أن الجميع وافق على هذا الطلب، فإنه كان على جيل أيانيس البقاء في كل الأحوال. لقد توجه لانساروته رفقة أربعة عشر أو خمسة عشر رجلا إلى النقطة التي حدد لهم البيظاني. عند ما قطعوا مسافة نصف فرسخ من المكان الذي يتواجد فيه الآخرون الذين بقوا، شاهدوا تسعة من السكان المحليين، نساء و رجالا، يسيرون و معهم عشرة إلى اثني عشر حمارا محملة بالسلاحف كانوا على وشك العبور إلى جزيرة تيدره، التي كانت تبعد منهم مسافة فرسخ، فنظرا لضحالة المياه يمكن العبور من إحداها إلى الأخرى على الأقدام.
عند ما شاهدوهم، هرولوا إليهم، و بدون مقاومة تذكر أخذوهم جميعا، باستثناء واحد منهم عاد و فر لينذر الآخرين الذين كانوا في

القرية. بعد أن أخذوا الأسرى بعثوا بهم إلى حيث يتواجد جيل أيانيس، ثم بعث لانساروته بكلمة إلى جيل أيانيس بأن يضع حراسة على أولئك البيظان و أنه هو نفسه من سيقوم بملاحقتهم و سيصطحب معه كل الرجال الذين معه إلى هناك، مضيفا أنه يعتقد أنه قد يجد أناسا يقاتلهم.

عند وصول الأسرى إليهم، شدوا وثاقهم و وضعوهم في القوارب و تركوهم تحت حراسة رجل واحد فقط، ثم انطلقوا نحو لانساروته يقتفون أثره بانتظام حتى وصلوا إلى حيث كان هذا الأخير و رجاله.

بعد أسر البيظان الذين أرسلوهم إلى القوارب، ذهب هؤلاء الرجال إلى حيث دلهم البيظاني فوصلوا إلى قرية غادرها جميع سكانها، لأنهم أشعروا من قبل البيظاني الذي فر عند إلقاء القبض على الآخرين.

عندها شاهدوا أن جميع السكان الذين كانوا في الجزيرة قد تواجدوا في جزيرة صغيرة كانوا قد عبروا إليها بواسطة زوارقهم، مع أنه لم يكن باستطاعة المسيحيين الوصول إليهم إلا سباحة، لذا لم يرغبوا في الانسحاب خشية أن يشجع ذلك عدوهم الذي كان يتفوق عليهم عدديا. ثم انتظروا حتى وصل رجالهم الآخرون، و بعد أن ارتأوا أنهم بعددهم الكامل لا يمكنهم إلحاق أي أذى بالعدو، نظرا للخليج الصغير الذي بينهم، فقد قرروا العودة إلى قواربهم التي تقع على مسافة فرسخين منهم.

أثناء عودتهم، دخلوا القرية و بحثوا فيها بدقة لعلهم يجدون أي شيء في المنازل، فوجدوا سبعة إلى ثمانية نساء بيظانيات أخذوهن معهم و شكروا الرب على حسن طالعهم الذي كان بفضل منه. هكذا توجهوا إلى قواربهم التي وصلوا إليها عند غروب الشمس، ثم استراحوا و استمتعوا تلك الليلة كرجال كابدوا بمشقة في النهار.

الفصل 21
كيف أنهم، أي لانزاوروته و الآخرون، عادوا إلى جزيرة تيجر و البيظان الذين أسروا

مع أن ضرورة المبيت أرغمتهم على النوم بشكل رئيسي، إلا أنهم كانوا منشغلين في هذه المسؤولية الملقاة على عاتقهم فظلوا يفكرون فيما عليهم فعله. هكذا تشاوروا بخصوص ما سيقومون به في اليوم الموالي، فاتفقوا بعد تبادل الآراء (تعمدت حذفها تفاديا لإطالة السرد) على مهاجمة المخيم قبل الصباح. ذلك أنه من المحتمل جدا، كما قالوا، أن يكون البيظان قد شاهدوا انسحابنا فظنوا أننا ذهبنا ليئسنا من إمكانية إلقاء القبض عليهم، فلذلك قد يعودون إلى مخيمهم، فرجوعهم لن يكون فقط في صالحنا، بل أيضا شعورهم بالأمن الذي سيجعلهم يستريحون.
بعد أن تم الاتفاق على هذا الرأي، انطلقوا ليلا و هم يجدفون قواربهم على طول الشاطئ. في أول الفجر نزلوا و هاجموا القرية، بيد أنهم لم يجدوا أي أحد هناك؛ فالبيظان عند ما شاهدوا انسحاب أعدائهم في اليوم السابق عادوا إلى القرية لكنهم لم يناموا فيها، فقد ذهبوا و استقروا على مسافة ربع فرسخ منها بالقرب من مخاضة عبروا منها إلى تيدره. عند ما لم يعثر المسيحيون على أي شيء في الجزيرة، عادوا إلى قواربهم و أرسوها على طول تلك الجزيرة من الجانب الآخر لتيدره و أمروا خمسة عشر بالسير في اليابسة و القيام برصد المنطقة لعلهم يشاهدون أيا من البيظان أو أثرهم. أثناء سيرهم شاهدوا بيظانا يسرعون؛ بعد مشاهدتهم لهم، قفز رجالنا فورا إلى الشاطئ و لاحقوهم. بيد أنهم لم يستطيعوا اللحاق برجال البيظان، بل بالنساء فقط و الأطفال الذين لم يكونوا يستطيعون الجري بسرعة، حيث أخذوا منهم سبعة عشر أو ثمانية عشر.
كان يوجد في القارب الأصغر جوآو برنالديز و كان راسيا في الجزيرة، فشاهد من كانوا فيه حوالي عشرين زورقا يجتازون

جزيرة تيدره و فيها رجال و نساء من البيظان و يُقِل كل منها أربعة إلى خمسة أشخاص. عند مشاهدتهم لهم لأول وهلة غمرتهم الفرحة، لكن بعد ذلك تملكتهم الحسرة. فقد شعروا بالغبطة عند ما رأوا فرصة المنفعة و المكانة ماثلة أمامهم، و التي كانت الهدف الذي من أجله حضروا إلى هناك، بيد أنهم تأسفوا عند ما أدركوا صغر حجم قاربهم الذي لا يستطيع حمل سوى عدد محدود من الأشخاص. و بتجديف سريع لاحقوهم بأكبر سرعة ممكنة حتى أصبحوا بينهم، و بوازع من الرحمة، مع أن من كانوا في الزوارق وثنيين[73]، فإنهم لم يحاولوا إلا قتل القليل منهم. بيد أنه مما لا شك فيه أن العديد منهم، و في خضم حالة الذعر، قد قفزوا من زوارقهم و هلكوا في البحر.

ترك رجالنا بعضهم إلى يسارهم و البعض الآخر إلى يمينهم و ساروا وسطهم، ثم اختاروا أصغرهم حجما، لأنهم لا يستطيعون حمل عدد كبير منهم في القارب، فأخذوا منهم أربعة عشر؛ هكذا فإن من أخذ منهم خلال هذين اليومين بلغ مجموعه ثمانية و أربعين، دون احتساب من قتل.

فبسبب هذه الغنيمة الهامة، شكروا كلهم النعمة التي منحهم الرب خلال تلك الأيام و حمدوه على هدايته لهم و النصر الكبير الذي أعطاهم على أعداء الدين.

و مع العزم و السعي لبذل المزيد من الجهود لخدمته، ركبوا مرة أخرى قواربهم و عادوا إلى سفنهم التي ترسو على بعد خمسة فراسخ من هناك. عند عودتهم إلى هناك، أخذوا قسطا من الراحة لحاجتهم الشديدة لذلك، ذلك لأنهم أصيبوا بإعياء شديد. بيد أن استراحتهم لم تطل، فقد تشاوروا في تلك الليلة بخصوص الخطوة اللاحقة بغية الاستغلال الأمثل للوقت، مع اعتقادهم بأن الفرصة لتحقيق مسعاهم أصبحت سانحة.

---

[73] لا يبدو ذلك مستساغا، إذ إن السكان المحليين في المجال الموريتاني الحالي، بما في ذلك سكان المناطق الممتدة على طول شواطئ الأطلسي، كانوا قد اعتنقوا الإسلام على الأرجح منذ قرون قبل مجيء البرتغاليين، منذ زمن المرابطين على الأقل.(المترجم).

الفصل 22
عن المبررات التي قدم جيل أيانيس و كيف أنهم ذهبوا إلى تيدره و البيظان الذين أسروا

بحسب ما رأيتم، فإنه في هذه الاجتماعات (التي يشارك فيها العديد من الأشخاص) يحدث الكثير من النقاش، فعند تناول ذلك الموضوع، أبدى كل رأيه، بيد أنه في النهاية طلب جيل إيانيس من الجميع الإنصات فامتثلوا كلهم طواعية.

بعد ذلك خاطبهم قائلا: "أيها الإخوة و الأصدقاء، يبدو لي أنكم جميعا مستعدون لعمل شجاع و إنني أستشف ذلك من خلال عدم تحدثكم عن الراحة أو العودة إلى بلدنا، بل رأيت أن كل واحد منكم يرغب و يطالب ببذل مجهوده و بالعمل من أجل شرف و مصلحة الجميع. بيد أن ما لم نتفق حوله هو إلى أي ناحية يجب أن نذهب للبحث عن تحقيق العمل المذكور و لخدمة الرب و مولانا الأمير. و بما أننا بالقرب من جزيرة تيدره، كما تعلمون جميعا، و التي تتمركز فيها قوة عظيمة من البيظان وفق ما صرح لنا بذلك الأسرى الذين وقعوا في أيدينا، و بما أننا تحت إمرة مولانا الأمير، فقد صدرت لنا التعليمات بعدم التعرض لها دون أخذ الحيطة اللازمة، و أن كلما علينا هو جمع المعلومات عن سكان هذه الجزيرة، و هل قوتهم هي كما قيل. لذا أقول إنه من الأفضل لنا أن نذهب إليها، فعسى مولانا يسوع المسيح، الذي يغيث دوما من يفعلون الخير، أن يقيض لنا العثور على من يترجم لنا، و مع أننا سنقتصر على معرفة عدد الناس الموجودين في الجزيرة، فإن ذلك سيصب في مصلحتنا بعد ذلك. فالأمير مولانا، عند ما يعلم بقوة هؤلاء، سيكون بمقدوره إرسال أسطول مجهز لقتالهم مع فرق مناسبة تكون قادرة على الدخول في معركة مع كافة البيظان الموجودين في الجزيرة و الاستيلاء عليها، و سيكون ذلك بمثابة

خدمة جليلة للرب و له هو نفسه. لذا فلنذهب إليها و ننزل، لكن علينا أن لا نبتعد من الشاطئ؛ فمن قبيل الحيطة، فإن كان عددهم كبيرا، و إن رأوا أننا قليلو العدد و أننا لم نبتعد عن الشاطئ فإنهم سيظهرون للعيان، فإذا عرفنا طبيعتهم فإن ذلك قد يسر مولانا الرب، إذ لا شيء يهمنا سوى ذلك، فيظهر لنا من نعمه ما لم يخطر لنا على بال.

لقد وافقوا على ما قاله جيل أيانيس، و في فجر اليوم الموالي انطلق ثلاثون رجلا في الزوارق و بقي الآخرون لتجهيز سفنهم، هكذا تم الاتفاق على أنهم سيبدؤون رحلة العودة إلى البرتغال فور عودة من ذهبوا إلى الجزيرة.

لقد وصلوا إلى تيدره منتصف النهار، فنزل عشرون منهم، في حين بقي العشرة الآخرون في الزوارق. سارت المجموعة الأولى مسافة فرسخ من الشاطئ و استطلعت بشكل متواصل تلك الأماكن التي بدت لهما مناسبة لاستقرار أي ساكنة؛ بعد ذلك أقاموا مركزا لهم على قمة مرتفع و بدؤوا رصد الجزيرة بتمعن. و بينما هم في تلك الوضعية، إذ شاهدوا اثنين من البيظان من سكان الجزيرة يسيران باتجاههم و لم يشاهدانهم، أو قد يكونا ظننا أنهم من ساكنة الجزيرة، فتعرضوا لهما و أسروهما. بعد ذلك شاهدوا من مسافة أبعد عشرة من البيظان قادمين و معهم خمسة عشر إلى عشرين حمارا محملة بالسمك، فتوجه بعض رجالنا نحوهم، و رغم أنهم هموا بالدفاع عن أنفسهم، فبفضل الرب كان دفاعهم دون جدوى، ذلك أنهم هزموا و فروا في مختلف الاتجاهات، فأسرهم المسيحيون جميعا.

و بينما كانوا هناك، واصل رجلان سيرهما قدما لمسافة أبعد سعيا لرؤية أي شخص آخر، فشاهدا العديد من البيظان الذين اشتبكوا معهما ما وسعهم ذلك، ففر الرجلان راجعين و أبلغا الرجال الذين كانوا مع السجناء، قائلين لهم بأن عليهم أن يهربوا بسرعة لأن قوة

عظيمة من البيظان تزحف نحوهم. لذلك هرعوا كلهم نحو القوارب و معهم أسراهم ثم طاردهم البيظان بكل ما أوتوا من قوة. فبفضل الرب (المغيث لمن يخدموه في محنهم و كدحهم) فإن المسيحيين تمكنوا من الوصول إلى الشاطئ قبل أن يلحق بهم البيظان، بيد أنهم قبل أن يتواجدوا جميعا في القوارب لحق بهم البيظان و اشتبكوا معهم، و بعد مناوشات مؤلمة وصل المسيحيون إلى زوارقهم. لقد أظهر رجالنا خلال هذا الانسحاب مهاراتهم و مدى شجاعة و حيوية نفوسهم، بيد أنه من الصعب معرفة من أبلى بلاء حسنا. غير أن لانساروته و أحد مساعدي فرسان الأمير، يدعى مارتين فاز، كانا آخر من يصعد إلى القوارب.

لقد كان عدد البيظان ثلاث مائة مقاتل أظهروا استعدادهم الجيد للدفاع عن أرضهم. جرح البعض منهم أثناء انسحاب المسيحيين، لكن بالنسبة للمسيحيين، بفضل الرب، لم يصب أي منهم بجروح خطيرة، بعد أن ركبوا زوارقهم و معهم أسراهم، انطلقوا إلى النقطة التي تركوا فيها السفن، و إذ ذاك بدأ الليل يرخي سدوله.

الفصل 23
كيف ذهبوا إلى الرأس الأبيض[74] و ما وجدوا فيه

إثر ذلك قرروا و هم على متن السفن أن ينطلقوا في اليوم الموالي إلى الرأس الأبيض، و هو قرار وضعوه حيز التنفيذ بحلول الفجر، حيث أبحروا باتجاه الرأس المذكور، فوصلوا إليه بعد يومين حيث نزل بعضهم على الفور إلى اليابسة - حوالي خمسة و عشرون رجلا - و ذلك للنظر في طبيعة الأرض، فعند ما كانوا على مسافة قصيرة من حيث نزلوا، لا حظوا عددا من البيظان يمرون لاصطياد السمك.

و مع أن عددهم بدا لهم كبيرا، فقد ارتأوا أن يحاولوا التعامل مع هذا الأمر بمفردهم دون إشعار أولئك الذين يتواجدون في السفن بمشروعهم، فتوجهوا إليهم. عند ما شاهدوهم بدؤوا يهربون، بيد أنهم لما رأوا عددهم قليلا انتظروهم كما لو أنهم يرغبون في القتال، أملا في إحراز النصر. لحق بهم المسيحيون و بدأت المعركة، دون أن يبدي أي من الطرفين لخصمه أي خوف؛ في النهاية و كما قال القديس يعقوب، فمن الرب يصدر كل خير، و هو الذي سبق أن وفق رجالنا في بداية مهمتهم و في منتصفها، كما سبق أن ذكرنا.

لقد كانت هذه النهاية بفضله أيضا نصرا كبيرا لهم على أعدائهم، إذ سلمت أرواحهم و تعاظم شأنهم، ذلك أنهم بعد مناوشات قصيرة، دارت الدائرة على البيظان، فأطلق كل منهم ساقيه للريح في كل اتجاه، و بعد ملاحقة المسيحيين لهم على بعد مسافة طويلة، أخذوا أربعة عشر من هؤلاء البيظان أسرى، إضافة إلى من قتل منهم. فمع هذا النصر عادوا إلى سفنهم و الفرحة تغمرهم. فرغم أن

---

[74] يدعى بالبرتغالية Cabo Branco و بالفرنسية Cap Blanc و هو في الواقع رأس نواذيبو . (المترجم)

حظهم كان كبيرا ضد أعدائهم، فإن الوجبات التي حصلوا عليها فيما بعد لم تكن أقل من ذلك، فقد وجدوا بعض ثعابين الماء و جراد البحر في الشباك التي رماها البيظان.

بعد ذلك قال لانساروته قبل مغادرتهم لذلك المكان، و هو الرجل الذي لا يغفل عن هدفه، إنه يرى أن من المناسب أن يجوب بعض الرجال اليابسة و يرصدوا لعلهم يجدوا أي تجمع للسكان المحليين، و فورا انطلق خمسة فعثروا على تجمع و عادوا لإبلاغ لانساروته و الآخرين بذلك. و مع أنهم ذهبوا بسرعة، فإن رحلتهم لم تكن مثمرة، ذلك أن البيظان قد شاهدوا المجموعة الأولى و فروا على وجه السرعة من ذلك المكان، فلم يعثروا إلا على فتاة بقيت نائمة في القرية فأخذوها معهم و عادوا إلى السفن ليبحروا باتجاه البرتغال.

الفصل 24
كيف وصلت السفن إلى لاغوس[75] و الإبلاغ الذي قام به لانساروته إلى الأمير

وصلت السفن إلى لاغوس، التي منها انطلقت، فكان الطقس ممتازا طيلة رحلتها، فلحسن الحظ لم يكن هدوء الطقس أقل لطفا مما كان عليه الحال قبل سبي غنيمتهم.
و من لا غوس وصلت الأخبار إلى الأمير الذي قدم إليها ساعات قبل ذلك من جهات أخرى كان يوجد بها منذ أيام. و كما قد تلاحظون، فإن الناس مولعون بالاطلاع، بعضهم حاول أن يكون بالقرب من الساحل، كما أن البعض الآخر ركب على القوارب التي كانت راسية على الشاطئ، فذهبوا للترحيب بأقاربهم و أصدقائهم. و في وقت وجيز ذاع خبر حظهم الوافر ففرح الجميع بذلك. في هذا اليوم كان من المناسب أن يقوم من قادوا هذا المشروع بتقبيل يد الأمير مولاهم و تقديم إبلاغ مقتضب له عن الأعمال غير المسبوقة التي قاموا بها: بعد ذلك خلدوا إلى الراحة، حيث عادوا إلى وطنهم الأم و إلى بيوتهم. يمكنك أن تتخيل مدى فرحهم و هم بين أزواجهم و أطفالهم.
في اليوم الموالي و بوصفه من تولى المسؤولية الأهم في هذه الحملة، خاطب لانساروته الأمير قائلا: " مولاي! سموكم يعلم أن لكم نصيب الخمس من هؤلاء البيظان و من كل ما حصلنا عليه من تلك البلاد، حيث بعثتمونا لخدمة الرب و خدمتكم أنتم.
الآن فإن هؤلاء البيظان، نظرا للوقت الطويل الذي أمضيناه في البحر و كذا الحزن الكبير الذي يشعرون به، كما قد تلاحظون، لكونهم وجدوا أنفسهم بعيدين عن موطنهم الأصلي و قد وقعوا في الأسر، دون معرفة المصير الذي ينتظرهم، و الأهم من ذلك أنهم

[75] مدينة برتغالية على المحيط الأطلسي.

لم يتعودوا على الحياة على متن السفن، لتلك الأسباب مجتمعة فإنهم بائسون و في ظروف تعسة، لذلك أرى أنه قد يكون من الأفضل إصدار أمر بإخراجهم من السفن فجرا و وضعهم في ذلك الحقل الذي يقع خارج باب المدينة، و من هناك يتم تقسيمهم إلى خمسة أسهم، حسب العرف، فيأتي سموكم إلى هناك ليختار أيا من تلك الأسهم."

عبر الأمير عن غبطته الكبيرة بذلك، و في وقت مبكر من اليوم الموالي أمر لانساروته قباطنة السفن بإخراج الأسرى و الذهاب بهم إلى ذلك الحقل، حيث سيتم تقسيمهم، كما ذكر سابقا. بيد أنه قبل القيام بأي شيء بهذا الخصوص، قدموا أفضل هؤلاء البيظان كقربان لكنيسة ذلك المكان، ثم أرسلوا أيضا بيظانيا صغيرا، سيصبح راهبا في كنيسة سانت فرانسيس، إلى كنيسة فينسنت دو كابو، حيث عاش هناك فيما بعد كمسيحي كاثوليكي، دون فهم أو معرفة أي شرع آخر إلا الشرع الحقيقي و المقدس و الذين نأمل منه نحن المسيحيون أن يحقق خلاصنا. كان عدد من تم أسرهم من البيظان في هذه الحملة 235[76].

[76] العدد حسب مجموع الأرقام التي ذكرها أزورارا هو من 238 إلى 240. (المترجم)

الفصل 25
و فيه يبدي الكاتب رأيه بخصوص الشفقة التي أحس بها إزاء الأسرى و كيف تمت القسمة

آه يارب!، أنت الذي تحكم الجموع اللامتناهية في المدينة المقدسة[77]، بيدك القوية، دون تغيير لجوهرك الإلهي، و تمسك محاور دوران العوالم العلوية المقسمة إلى تسع مناطق، تطيل الأعمار و تقصرها بمشيئتك، أتوسل إليك أن لا تخون دموعي ضميري، ذلك أنه ليس بسبب دينهم، بل لإنسانيتهم أبكي تعاطفا مع معاناتهم. فإذا كانت الحيوانات البهيمية، بشعورها الوحشي، تدرك عبر الغريزة الطبيعية التعذيب الذي يتعرض له جنسها، فكيف تتصرف طبيعتي الإنسانية عند ما أشاهد بأم عيني هذا الجمع البائس و أتذكر بأنهم هم أيضا من ذرية آدم؟

في اليوم الموالي، الذي كان الثامن من شهر أغسطس[78]، و في الصباح الباكر نظرا لارتفاع درجة الحرارة، بدأ البحارة في تجهيز سفنهم و إخراج السبايا الأسرى و نقلهم إلى الشاطئ، طبقا للتعليمات الصادرة إليهم. بعد أن تم وضعهم جميعا في ذلك الحقل، كان مظهر هؤلاء جد غريب. فمنهم من كان شديد بياض البشرة و يبدو جميلا و متناسق الجسم، البعض الآخر كان أقل بياضا كالخلاسيين، و الآخرون كانوا سودا كالأحباش و قبيحي الملامح و الجسم، فكان يبدو هؤلاء لأولئك الذين ينظرون إليهم كصور لنصف الكرة الأرضية السفلي.

لكن أي قلب، مهما تكن فظاظته، لن ينفطر شعورا بالشفقة عند مشاهدة هذه المجموعة؟ البعض منهم طأطأ رأسه و الدموع تغمر

---

[77] مدينة القدس.

[78] سنة 1444. راجع بهذا الخصوص: Chronique de Guinée (1453) مرجع سابق، ص.94 و ص. 303.

وجهه ينظر كل منهم إلى الآخر؛ البعض أيضا وقف يتأوه بألم و ينظر إلى الأعلى نحو السماء، شاخصا بصره نحوها و يصرخ بصوت عال و كأنه يستغيث بفاطر الطبيعة؛ آخرون كانوا يصكون وجوههم بأيديهم و يسقطون على الأرض، كما أن آخرين عبروا عن حسرتهم بألحان حزينة و فق تقاليد بلدهم. و مع أننا لم نتمكن من فهم ما كانوا يتحدثون به من لغتهم، فإن صوتها يتناغم جيدا مع وتيرة كمدهم.
بيد أنه للتمادي في زيادة معاناتهم، حضر الآن من هم مكلفون بتقسيم السبايا إلى أسهم و بدؤوا في إبعاد كل منهم عن الآخر بغية تقسيم متساو للأخماس، فكان يتعين فصل الآباء عن الأبناء و الأزواج عن الزوجات و الإخوة عن الإخوة. لم تكن هناك مراعاة لعوامل الصداقة أو القرابة، الكل ذهب إلى السهم الذي وضع فيه.
آه يا عظيم الثروة، فعبر أبراجك تعقد و تحل، تدير شؤون العالم وفق مشيئتك، فهل عساك أن تُفْهِم هذا الجنس البائس بعض الأمور المستقبلية، حتى يحصلوا على بعض العزاء وسط كآبتهم الرهيبة.
و أنتم، يا من أنتم منشغلون إلى هذا الحد بقسمة السبايا، انظروا بعين الرحمة إلى هذا البؤس و عليكم ملاحظة أن كلا من هؤلاء يرتبط بالآخر، لذا فإنه يصعب عليكم أن تفرقوا بينهم.
فمن يستطيع إكمال هذه القسمة دون عناء كبير؟ فأحيانا كثيرة عند ما يضعون الأبناء في نفس السهم و يشاهدوا آباءهم في سهم آخر، فإنهم ينهضون بقوة و يركضون تجاههم، ثم إن الأمهات يحتضن أطفالهن في أذرعهن و يسقطن على الأرض معهن بعد تلقي صفعات بدون رحمة بسبب فلذات أكبادهن، إذا لم يتركنهم. في هذا الخضم المرتبك، تم إنهاء القسمة، فبالإضافة إلى الجهد الذي بذل مع السبايا، فقد كان الحقل يغص بالناس القادمين من المدينة و من القرى و البلدات المجاورة، و الذين استراحوا في ذلك اليوم من

العمل الذي بواسطته يحصلون على قوتهم، و ذلك من أجل هدف واحد ألا و هو مشاهدة هذا الحدث. عند ما رأوا المشهد، حيث كان البعض يبكي في حين كان البعض الآخر يفصل بين السبايا، فإنهم تسببوا في بلبلة كبيرة أربكت من كانوا يقومون بعملية التقسيم.
كان الأمير هناك، يمتطي صهوة جواد قوي يرافقه موكبه و يوزع امتيازاته، كمن ينتظر كسب ثروة صغيرة من نصيبه و المتأتية من ستة و أربعين شخصا يمثلون نصيب خمسه، فقام بتقسيم سريع لهؤلاء، ذلك أن ثروته الحقيقية تكمن في هدفه المنشود، حيث كان يفكر بغبطة كبيرة بخصوص خلاص هذه الأرواح من الضلال الذي كانت فيه.
و بالتأكيد فإن توقعه لم يكن بلا جدوى، فكما ذكرنا سابقا، عند ما فهموا لغتنا اعتنقوا المسيحية دون ضجة كبيرة، فأنا مؤلف هذا التاريخ في الكتاب الحالي، قد شاهدت أولادا و بنات في مدينة لاغوس (أبناء و أحفاد هؤلاء السبايا الأوائل، و الذين ولدوا على هذه الأرض) و هم مسيحيون جيدون، تماما كما لو كانوا ينحدرون، منذ الغفران الأول للمسيح، من آباء تم تعميدهم من قبل.

الفصل 26
كيف تمت ترقية لانساروته من قبل الأمير السيد هنريك إلى رتبة فارس

رغم أن حسرة هؤلاء السبايا في الوقت الراهن كانت كبيرة، و بالأخص بعد إنهاء التقسيم و أخذ كل واحد نصيبه الخاص به و وضعه جانبا، فالبعض باع سباياه حيث أخذوا إلى بلدات أخرى، ثم إنه قد يحدث في صفوف الأسرى أن يبقى الآباء غالبا في مدينة لاغوس، فيما تذهب الأمهات إلى لشبونه و الأطفال إلى جهة أخرى، فهذا التقسيم ضاعف من أساهم، بيد أن هذا الشعور كان أخف في صفوف من بقوا في نفس المجموعة.
فكما ورد في النص[79]، فإن البؤساء يجدون عزاء في أصدقاء يتقاسمون معهم شقاءهم. ذلك أنهم منذ ذلك الوقت بدؤوا في اكتساب معرفة بعض الأمور عن بلدنا، حيث وجدوا فيه وفرة كبيرة، ثم إن سكان بلدنا بدؤوا في منحهم امتيازات كبيرة، لأن شعبنا لم يلاحظ تشددهم إزاء دين بعض المسلمين الآخرين، ثم حين رأوا كيف أنهم اعتنقوا الدين المسيحي بنية صادقة، لم يفرقوا بينهم و الخدم الأحرار الآخرين، الذين ولدوا في بلدنا؛ فمن تم سبيهم و هم صغار، تم تكوينهم في الحرف الميكانيكية، أما الذين رأوا أن لهم المهارات المطلوبة لتسيير الممتلكات، فقد منحوهم حريتهم و تزوجوا بنساء ولدن في البلد حيث تقاسموا معهن ممتلكاتهن، كما لو كن منحن الموافقة من قبل آبائهن على الزواج من هؤلاء. فنظرا لاستحقاقات خدمتهم، فإنهن أصبحن ملزمات بالتصرف بهذه الطريقة.
كذلك فإن بعض الأرامل المنحدرات من أسر كريمة المحتد و اللواتي اشترين بعض هؤلاء الإماء، إما أنهن تبنينهن أو تركن

[79] لم يحدد المؤلف ما ذا يعني ب "النص"، هل يقصد به الإنجيل أم مصدر آخر؟

لهن بعض ممتلكاتهن بملء إرادتهن، مما سمح لهن بعد ذلك بالزواج بطريقة جيدة كما عاملنهن بوصفهن يتمتعن بكامل حريتهن. يكفي أن نشير إلى أني لم أشاهد قط أحد هؤلاء العبيد و قد قيد بالسلاسل، كما هو الحال بالنسبة لبعض السبايا الآخرين، و من النادر أن يعتنق أحدهم المسيحية و لا يعامل باحترام.

لقد دعيت من طرف أسيادهم لحضور تعميد و زواج هؤلاء، حيث لم تقل مهابة مراسمها عما قد يفعلوه لأبنائهم و أقاربهم، رغم كونهم كانوا عبيدهم.

هكذا فإن حظهم أصبح الآن عكس ما كان عليه الحال من قبل، ذلك أنهم كانوا في السابق يعيشون ضلال الأرواح و الأجسام؛ فبخصوص الأرواح، فقد كانوا لا يزالون وثنيين، ينقصهم وضوح و نور الإيمان المقدس، أما بخصوص أجسامهم، فقد كانوا يعيشون كالبهائم دون معرفة طرق العيش الكريم، حيث أنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن الخبز و الخمر، ولم تكن لهم ثياب تغطي أجسادهم أو مساكن لإيوائهم، و الأدهى من ذلك كله جهلهم الكبير، إذ لم يكونوا يفهمون الخير و كانوا يعرفون فقط كيف يعيشون بطريقة حيوانية.

بيد أنهم بعد بدء وصولهم إلى هذه الأرض، و بعد أن قدم لهم النساء المأكل و الملبس، بدأت بطونهم تنتفخ ثم مرضوا لبعض الوقت إلى أن تكيفوا مع طبيعة البلد، مع أن بعضهم كان مجبولا إلى حد أنه لم يستطع تحملها، فمات، رغم أن من توفي منهم لهذا السبب و هو على دين المسيحية قليل.

ثم هناك أربعة أشياء تميز هؤلاء السبايا عن ظروف المسلمين الآخرين الذين تم أسرهم من هذه الناحية. أولها أنهم بعد وصولهم

إلى أرض البرتغال لم يحاولوا الهروب أبدا[80]، بل إنهم مع الوقت نسوا كل شيء عن بلدهم الأصلي بعد أن بدؤوا يتذوقون الأشياء الجميلة هنا؛ ثانيا أنهم كانوا خدما مطيعين دون مكر؛ ثالثا لم يكونوا ينزعون إلى الفجور، كما هو الحال بالنسبة لآخرين؛ رابعا بعد أن أصبحوا يستخدمون الثياب، كانوا في أغلب الأحيان مولعين بالاستعراض، حيث أنهم يجدون متعة كبيرة في الفساتين ذات الألوان المزخرفة، فقد حملهم عشقهم للزينة إلى درجة أنهم يجمعون قطع القماش التي تسقط من ثياب سكان البلد و يخيطونها على ملابسهم، مستمتعين بذلك، باعتبار ذلك مستوى من الإتقان.
و الشيء الأفضل الذي لا يزال قائما، كما سبق أن قلت، هو أنهم اتجهوا صوب الطريق الصحيح و الذي تلقوا منه الإيمان الصحيح بعد أن دخلوا فيه و فيه سيموتون. الآن عليكم التفكير في جزاء الأمير من قبل مولانا الرب لهذه الهداية إلى الخلاص الحقيقي، ليس فقط بالنسبة لهؤلاء، بل لآخرين غيرهم سيأتي ذكرهم في هذا التاريخ فيما بعد.
هكذا بعد أن أكملت القسمة على هذا النحو، قدم قباطنة السفن الأخرى إلى الأمير و معهم بعض النبلاء من بيته، فقالوا له: "سيدي، و كما تعرفون الجهد المتميز الذي بذله لانساروته، خادمكم في هذه العملية التي أنجزت للتو و مع السرعة التي نفذت بها، و التي منحنا الرب نصرا كبيرا بواسطتها، و أيضا بوصفه رجلا كريم المحتد يستحق كل خير، فإننا نلتمس من سموكم أن تجعلوا مكافأته ترقية إلى رتبة فارس تقدمونها له بيمينكم. فلأنكم ترون أنه يستحق هذه المكانة بكل المقاييس، و حتى لو لم يستحقها بشكل أفضل، كما قال قباطنة السفن هؤلاء، فإننا نعتقد أن ذلك قد

---

[80] الواقع أن ذلك لم يكن دقيقا، فقصة فرار الفتى الصنهاجي الذي سبق أن تم سبيه و التي سيسردها الكاتب في الفصل الموالي هي أوضح دليل على ذلك، حيث كانت عودة هذا الشاب وراء مقتل قائد برتغالي كبير هو غونسالو دي سنترا و معه بعض جنوده على يد مقاومة السكان المحليين.

يلحق بنا ضررا بوصفه رئيس قباطنتنا و بذل مجهودا جبارا كنا شهود عيان عليه، إن هو لم يتلق مكانة أسمى من تلك التي كان يتمتع بها سابقا، بوصفه رجلا مثاليا و خادمكم، كما أسلفنا."
رد الأمير بأن ذلك يسره كثيرا، و أنه إضافة إلى ذلك أصبح ملزما أكثر من السابق، بالنظر إلى ما طلبوا منه. فبذلك فإنهم ضربوا المثل للآخرين الذين قد يرغبون في العمل كقباطنة مع بذل قصارى جهدهم من أجل شرفهم.
هكذا فقد منح لانساروته رتبة فارس حيث قدم له مكافأة قيمة، طبقا لتميزه واستحقاقه المطلوبين، كما منح للقادة الآخرين زيادة في الترقية، فإضافة إلى الاستفادة الأولى فقد اعتبروا أن عملهم قد أجزي بشكل جيد.

الفصل 27
كيف أمر الأمير غونسالو دي سنترا بالذهاب إلى غينيا و كيف قتل

قد يكون من المذموم، عند محاكمة تاريخنا، أن لا نذكر مصائب شعبنا جنبا إلى جنب مع نجاحاته؛ ذلك أن تُولِي[81] قد ذكر في كتبه أن من أكثر المسؤوليات الملقاة على عاتق المؤرخ هي أن من واجبه أن يتذكر بالأساس أنه عند كتابته للحقيقة، عليه أن لا ينتقص منها شيئا. فمن الأكيد أنه لا يقوم بواجبه فحسب، بل إن ذلك مدعاة للعديد من الفوائد، فغالبا ما يؤدي ذلك إلى جعل الناس أكثر حذرا بسبب المحن التي تعرض لها بنو جلدتهم. فقد قال الحكماء قديما: " طوبى لمن تنبهه شرور الآخرين."

فعليكم أن تعلموا أن غونسالو دي سنترا هذا و الذي نحن بصدد الحديث عنه، قد نشأ منذ نعومة أظافره في بيت الأمير، إذ أعتقد أنه كان مروض جياده. و بما أنه كان رجلا قوي الجسم و شجاعا، فإن الأمير قد اهتم به و أوكل إليه على الدوام الأمور العظيمة و الهامة.

بعد عودة لانساروته، جهز الأمير سفينة شراعية صغيرة مسلحة و كلف بها غونسالو دي سنترا بوصفه قبطانها، منبها إياه بأن عليه أن يذهب مباشرة إلى غينيا و أن لا يثنيه أي شيء عن ذلك. فأثناء مواصلته لرحلته مر بالرأس الأبيض، و بوصفه شخصا يسعى لأن يذيع صيته و رغبة منه في تحقيق مزايا على آخرين، بدأ في الحديث عن التوجه إلى جزيرة آرغين، حيث كانت قريبة منهم، معتقدا أنه بمجهود عادي يستطيع أخذ بعض الأسرى. البعض الآخر بدأ يعترض على ذلك، قائلين إن عليه أن لا يقوم بأي شيء من هذا

---

[81] سيزرو / Cicero: De Nat. Deorum، i، 20 ، 55 ،De Or. ، iii، 57 ، 215 ، 48 ، 159. راجع بهذا الخصوص: : The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الأول، مرجع سابق ، ص.122 ، الهامش رقم 83 .

القبيل، ذلك أنه عند ما يدخل في مثل هذا الأمر، فإنما يخاطر بأمرين: الأول هو خرق تعليمات الأمير، و الثاني هو التأخر هناك و تضييع الوقت دون فائدة، لذا فإن عليهم بالأحرى ، كما قالوا، التوجه مباشرة إلى غينيا، بلاد الزنوج.

بيد أنه، و كأنه رجل يدعوه الموت إلى جعل نهايته هناك، قال إن التوقف سيكون لفترة قصيرة، و أنه بخصوص هذا النوع من الأمور يجب أن لا يتم الامتثال لتعليمات الأمير بصرامة كبيرة، هكذا أعطى تعليماته إلى البحارة بالتوجه إلى الجزيرة المذكورة. يبدو أنهم شوهدوا عند وصولهم ليلا، فعند ما نزلوا صباحا لم يعثروا إلا على فتاة واحدة أخذوها معهم إلى سفينتهم. من ثم غادروا باتجاه جزيرة أخرى قريبة من هناك، حيث وجدوا امرأة و أخذوها، فانكشفوا بنفس الطريقة عند ما وصلوا إلى هناك.

ثم إن غونسالو دي سنترا قد اصطحب معه مراهقا زناكيا[صنهاجيا][82] كمترجم، حيث سبق له أن تعلم لغتنا بشكل جيد و كان قد أوكله إليه الأمير في إطار مهمته، آمرا إياه بمراقبته بشكل جيد. لكن يبدو أنه حدثت ثغرة في مراقبته من قبل من كانوا قد تكفلوا به، و بالأخص من جانب القبطان، إذ كان عليه أن ينتبه له بشكل أكبر. لذا فإن المراهق، و الذي كان ينتظر الوقت و المكان المناسبين، فر ليلا من بينهم و انضم إلى سكان الجزيرة حيث أمدهم بالمعلومات التي بحوزته بخصوص أعدائهم.

و مع أنهم كانوا يعرفون من هو، فإنهم لم يكونوا مغفلين إلى حد تصديق كل ما يقوله مباشرة؛ بيد أنه للتأكد من الحقيقة، فقد قرر

[82] بالبرتغالية: Azanegue، و هي كلمة تعني كما يبدو ازناكي / صنهاجي. يمكن أن نلاحظ من بين أمور أخرى، أن رحلة غونسالو دي سنترا ربما لم تكن تقتصر على استكشاف غينيا، كما ذكر المؤلف، لأن وجود هذا الفتى الصنهاجي يدل على أن هذه الرحلة قد تشمل ايضا القيام بغارات على قرى البيظان الواقعة على امتداد الساحل الموريتاني الحالي. (المترجم).

أحدهم الذهاب إلى السفينة[83] في مكيدة كاذبة، حيث صاح من الشاطئ بأن عليهم أن يأخذوه على متن السفينة، لأنه يريد الذهاب معهم إلى البرتغال. بعد ذلك و عند ما أصبح بين رجالنا أشار إليهم ليوضح لهم أنه بسبب الشوق و الندم الذي يشعر به حيال أقاربه و أصدقائه الذين يوجدون في مملكة البرتغال، فإنه لم يعد يحتمل العيش إلا معهم؛ فمن الأكيد، بغض النظر عما آلت إليه حياته، أنه كان سيكون مسرورا بتجشم ذلك لو أنه رآهم و التقى بهم مرة أخرى.
أما بخصوص الآخرين فلم ينتبهوا بما فيه الكفاية لخططه، بل كانوا معجبين به بشكل مبالغ فيه، و لو أن بعضهم لم يكونوا راضين عن سفره معهم، فكانوا ينظرون إليه على أنه خدعة لهم. فأخذا بالحسبان لوجهة نظر هؤلاء، فقد وضعوا حراسة على هذا البيظاني، مع أنه لم يكن سوى مراهق. بيد أنه في الليلة الثانية صمم الفتى الصنهاجي على الفرار بدرجة أقوى من انتباههم لحراسته، حيث خرج من السفينة بهدوء بحيث لم يره أحد من رجالنا، و الحقيقة أنهم نسوا كل ما يتعلق به. بيد أنهم عند ما علموا بهروبه في اليوم الموالي، شعر كل منهم بأنهم خدعوا، و فورا قالوا للقبطان أن كل هذه الإشارات تدل على أنهم لن يتمكنوا من تحقيق غنيمة في هذه البلاد، ثم خاطبوه قائلين: "انظر، كيف تم كشفنا في الجزيرتين اللتين ذهبنا إليهما و كيف هرب الشاب منا، كيف استطاع بيظاني واحد من تلقاء نفسه أن يخدعنا ؟. بالتأكيد، لسنا من طراز الرجال الذين سينجزون عملا جبارا."
رد عليهم غونسالو دي سنترا بالقول: " إذا فإني سألقى حتفي في هذه الجزر، لأنني لن أبرحها حتى أحقق عملا غير مسبوق، بحيث لن

---

[83] في النص الأصلي بالبرتغالية، طبعة باريس 1841 ، ص.142 و رد: « ...com falsa dissimullaçom de ir aa caravella... » ، لذا أوردنا السفينة في صيغة المفرد بدل الجمع الذي ورد في الترجمة الإنجليزية، لكون بقية الجملة و السياق يجعلان ذلك أقرب إلى الصواب. (المترجم).

يستطيع تحقيق عمل أفضل منه أي شخص مثلي أو أي رجل نبيل يأتي إلى هذه الأرض."
مع ذلك فإن الآخرين ألحوا عليه بشدة بأن عليه أن لا يؤخر رحلته، بالنظر إلى أن الخطر أصبح ماثلا، و قالوا بأن عليه مواصلة رحلته قدما. فإن هو نفذ ما عهد به إليه الأمير سيكون قد قام بواجبه، و أي تصرف آخر سيجعله مخطئا، و بالأخص بالنظر إلى المؤشرات القوية على خرابه.
إلا أن هذه المبررات لم تجد نفعا و كذلك النصائح التي أسداها له العديد من الأشخاص الآخرين، فرغم وجهة نظرهم هذه فقد توجه بالسفينة إلى جزيرة نآر. و بما أن هذه الجزر متقاربة بعضها من بعض ، فإن البيظان قادرون على التنقل بسرعة في مراكبهم، فالكل في هذه الجزيرة قد علموا بسرعة بتحركه.
فرغبة منه في المكانة و الاستفادة، أمر غونسالو دي سنترا بإخراج قاربه و وضع على متنه اثني عشر رجلا من خيرة مجموعته، و قبل منتصف الليل بقليل غادر القارب و سار مشيا على الأقدام بمحاذاة الجزيرة، كانت حركة أمواج البحر على ما يبدو قد تراجعت، بيد أن المد بدأ شيئا فشيئا. هناك و صلوا إلى ذراع بحري اجتازوه بسهولة و نفس الشيء بالنسبة لآخر بالقرب منه. بيد أنه نظرا لأن غونسالو دي سنترا و بقية مجموعته لا يتقنون كلهم السباحة، فقد قرروا التريث قليلا و الانتظار لمعرفة إلى أي مدى ستبلغه حركة الأمواج، حيث يمكنهم أن يعودوا إذا تراجعت بشكل أكبر، ذلك أنهم كانوا قاب قوسين من الاجتياز.
خلال الفترة التي قضوها هناك، أصبح عليهم الصبح، إما بسبب أنهم ناموا أم بسبب عدم تمكنهم من معرفة مدى المياه، فعند حلول الفجر تبين لهم أنهم لا يستطيعون العودة من حيث أتوا، ذلك أن ارتفاع الأمواج كان قد بلغ أقصى مدى له، كما أن الذراع البحري أصبح عميقا و متسعا. لذا كان من الضروري بالنسبة لهم أن يمكثوا

هناك حتى تتراجع المياه ليمنحهم ذلك فرصة أفضل في العبور. لقد أمضوا في هذه الوضعية ساعتين أو ثلاثة من النهار دون التحرك من هناك.

فمع أن البيظان شاهدوهم منذ طلوع الفجر، كما لو أنهم كانوا متأهبين لذلك، فإنهم لم يحاولوا مهاجمتهم لفترة طويلة، آملين أن يتحركوا مسافة أطول داخل اليابسة، حيث كان سيمكنهم ذلك من السيطرة عليهم بسرعة؛ لكن بعد ما أدركوا تماما نيتهم، فقد هاجموهم كلهم كما لو كانوا طرفا خاسرا. و بما أن ميزان القوى لم يكن متساويا على الإطلاق، حيث كان تعداد العدو مائتين، في حين أن عدد رجالنا لا يتجاوز اثني عشر دون أمل في النجدة، فقد تغلبوا عليهم بسهولة.

قتل في هذه المعركة غونسالو دي سنترا، مع أنه في الحقيقة قد تحلى بالشجاعة، حيث ألحق العديد من الإصابات بأعدائه إلى أن خارت قواه فمات، أما بخصوص الآخرين فقد قتل سبعة منهم، من بينهم شابان من بيت الأمير يدعيان لوبو كالديرا و الآخر لوبو دالفلوس، إضافة إلى مروض خيول يدعى جورج و آخر يدعى ألفارو غونسالفيز بيليتو و ثلاثة بحارة. و الحق أني لا أود أن أفرق بين هؤلاء، ذلك أنهم جميعا ماتوا يقاتلون، دون أن يولي أحد منهم ظهره البتة. و مع أن شابي بيت الأمير و مروض الخيول كانوا يعرفون السباحة، و بالتالي كان يمكنهم الفرار، فإنهم لم يتركوا أبدا قائدهم، بل لقوا حتفهم حوله، فعسى الرب أن يستقبل الروح التي خلقها و الطبيعة المتأتية منها و الذي هو مصدرها.

لقد عاد الناجون الخمسة إلى السفينة، ثم أبحروا بعد ذلك بوقت قصير باتجاه المملكة، لذا فإنه بعد هذه الخسارة لم يكونوا يتوفرون على أي حافز للقيام بأي شيء آخر أو التقدم أبعد من ذلك[84]، طبقا للتعليمات التي صدرت لهم من قبل.

---

[84] أي نحو الجنوب.

الفصل 28
الأسباب التي يقدمها المؤلف كتنبيه بخصوص مقتل غونسالو دي سنترا

بخصوص الحدث الذي تم ذكره في الفصل السابق، أعتقد أن هناك غموضا كبيرا يلفه، ذلك أني لا أعرف إن كان السبب فيه هو الجشع أم الرغبة في أداء الواجب أو التعلق باكتساب مكانة. رغم ذلك، فإنه لما كان الخطر ماثلا و كان بالإمكان تفاديه في هذه الفرصة، لو كان القبطان مستعدا للإصغاء للنصح، فبودي أن أقول بكل تأكيد إن الأبراج الفلكية قد أمرت بذلك، و أن المصير قد شوش على تفكيره لدرجة أنه لم يعد يدرك المصائب التي قد يتعرض لها. فمع أن القديس أوغستين قد كتب أشياء كثيرة و مقدسة ترفض تأثير الأبراج الفلكية على المصائر، فكما بينت في أماكن أخرى، فإني أتوفر على أدلة دامغة بعكس ذلك، فعلى سبيل المثال فإن أيوب قال إن الرب قد وضع لنا حدودا يجب عدم تجاوزها، إضافة إلى العديد من الشواهد في الكتاب المقدس لم أذكرها حتى لا أخرج عن موضوعي الأصلي.
بيد أنه سواء تعلق الأمر بقضاء و قدر أو بحكم إلهي بسبب إثم معين، أو ربما لأن الرب رأى أنه من الأفضل بالنسبة لهم أن يأخذهم ليتحقق خلاصهم بشكل أكبر، فمن المهم بالنسبة لنا أن نتمعن مليا لعلنا نستخلص العبر من هذا الحدث المشؤوم. عند ما أعملت النظر في ذلك وجدت أن هناك سبعة أمور علينا أن ننتبه لها.
الأمر الأول، أن أي قبطان له رئيس تلقى منه مهمة عليه أن لا يخرق مهمة سيده أو رئيسه[85]. عندنا أمثلة بهذا الخصوص من الرومان في حالة يوليوس قيصر، فرغم أنه حقق انتصارات عظيمة و أخضع

[85] من هذه الاستنتاجات يظهر غوميس إيانيس دي آزورار، ليس فقط كمؤرخ، بل كاستراتيجي و قائد عسكري، فالرجل خدم في صفوف نظام المسيح و حصل على رتبة فارس ثم على رتبة قائد في نفس النظام و ذلك قبل أن ينشغل بكتابة التاريخ. (المترجم).

فرنسا و بريطانيا و إنجلترا و إسبانيا و ألمانيا لسلطة روما، فإن المكانة التي كان من المتوقع أن يحصل عليها قد انتزعت منه، لا لشيء سوى أنه لم يحترم التعليمات عند ما تجاوز فترة خمس سنوات، و هي المدة التي حددت له لغزو أعدائه. فقد ذكر فجتيوس في كتابه الرابع[86] كيف أن ابن القنصل أورليوس أرغم على الخدمة في صفوف المشاة بسبب عدم امتثاله للأوامر. و أيضا يروي القديس أغستين في كتابه الخامس "*مدينة الرب*" قصة توركواتوس الذي قتل ابنه، مع أنه كان منتصرا، لأنه قاتل خلافا لأوامره.

الأمر الثاني، أنه عند أسر رهائن أو مترجمين من بلد أجنبي فإن حراسة خاصة و دائمة يجب أن توضع عليهم لمراقبتهم بعناية كبيرة، فالنتائج السلبية التي تتمخض عن أي تهاون لا تحتاج إلى دليل.

الأمر الثالث، أنه إذا سلم عدو نفسه لقائد فإن على هذا الأخير أن لا يثق فيه، بل إن عليه أن يكثف من مراقبته و يعتبر قدومه مدعاة للشك و حتى تحقيق النصر النهائي، لأنه لسبب مماثل وقعت الخسارة في معركة كان[87]، كما ذكر ذلك تيتوس ليفيوس حول الحرب الثانية[88]، لتجاهل الرومان التحذيرات التي أتتهم من العدو الذي سلم نفسه لهم.

---

[86] *De re military.*

[87] تعرف اليوم ب: Canne della Battaglia و هي بلدة تقع جنوب إيطاليا. (المترجم)

[88] الحرب البونيقية الثانية بين قرطاج و روما سنة 216 ق.م.(المترجم).

الأمر الرابع، أنه علينا أن نستمع لنصائح من هم تحت إمرتنا و الذين قد يقدمون لنا رأيا مفيدا؛ ذلك أن الروح القدس قد قال إن التثبت يتحصل عليه من تعدد الآراء. و أيضا فإن الحكيم حث الناس على المشورة في "*كتاب الحكمة*"، حيث ذكر في الفصل السادس من أكلسياستيكوس: " أنصت يا بني و استشر على الدوام، فالعاقل لا يقدم على أمر دون استشارة."

علاوة على ذلك، فإن سنيكا قد أوضح في رسالته حول الفضائل أن أي سلطان، أميرا كان أم قائدا، عليه أن يهتم بأخذ النصح بخصوص الأمور التي يعتزم القيام بها: " انظر أي أمر قد يحدث و تدبر فيه مليا و لا تترك أي شيء يفاجئك، بل عليك أن تحتاط له، فالعاقل لا يقول أبدا: لم أكن أتصور أن ذلك سيقع؛ فنظرا لأنه يتجنب الشك، بل يتوقع ذلك، كما أنه لا يحدس، بل ينتبه لأسباب كافة الأمور، ذلك أنه عند ما يبدأ أمر ما بالفعل فإنه لا يمكن التأكد أبدا من نهايته أو من المخرج منه."

الخامس، أنه إذا توفر أعداؤنا على بعض المعلومات عن قوتنا أو عن نوايانا فإن علينا أن نكون حذرين أكثر من الإقدام على اجتياح بلدهم، ذلك أن المهمة الرئيسية لقائد إزاء عدوه تكمن في التمويه على قوته، و العكس يؤدي إلى تدميره هو نفسه و كذا رجاله. هكذا فإن هانيبال كان دوما ينظم كمائنه بعبقرية كبيرة، بحيث لم يتمكن أبدا أعداؤه من معرفة مدى قوته الحقيقية مقارنة بما كان يظهر منها في ذلك الوقت.

السادس، أن علينا أن نحذر من الانكشاف على ساحل نعتزم القيام فيه بتوغل، فقد بينت التجربة أمثلة يومية على ذلك لأولئك الذين يجهزون سفنا مسلحة في البحر، فكم كان استغرابي كبيرا من رجل مثل غونسالو دي سنترا كان قد أبحر عدة مرات في سفن بأوامر من مولاه و شارك في عمليات كبيرة على ساحل غرناطة و سبته أن لا يكون أكثر حذرا هذه المرة.

الاستنتاج السابع الذي يمكننا أن نستخلصه من الحدث المذكور أعلاه هو أن من لا يعرف السباحة يجب عليه أن لا يجتاز المياه في حالة مد داخل ميدان مناوئ، إلا إذا تأكد من تراجعها عند عودته.

هذه هي إذا المواضيع التي كان يتعين علي أن أذكرها لتنبيهكم. من الآن فصاعدا سأعود مرة أخرى إلى خيط حكايتي.

الفصل 29

كيف توجه أنتاو غونسالفيزو غوميس بيريز و ديغو أفونسو إلى وادي الذهب

في هذه السنة[89] كلف الأمير أنتام غونسالفيز، ذلك الفارس النبيل الذي سبق أن تحدثنا عنه، بالإبحار في سفينة سريعة و غوميس بيريز، قبطان السفينة الشراعية الملكية "رويال غالي" في سفينة أخرى: لقد ذهب هذا الرجل بأمر من الأمير السيد بدرو، الذي كان في ذلك الوقت يحكم المملكة باسم الملك. في نفس الوقت كانت هناك سفينة أخرى معهم يقودها ديغو أفونسو، خادم الأمير السيد هنريك، ذهب هؤلاء القادة الثلاثة معا بغية حمل بيظان ذلك البلد على التعامل التجاري.

لقد تفاوضوا بشكل مستفيض معهم و حصلوا على أمان موثق عبر المسلمين الذين أرسلهم الأمير إلى هناك ليرى هل مع الزعم المذكور يستطيع أن يرشدهم إلى طريق الخلاص، بيد أنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء أو الاتجار معهم، باستثناء ما يتعلق بزنجي.

هكذا فقد عادوا دون تحقيق أي شيء آخر، عدا رجل مسن من البيظان جاؤوا به و الذي رغب بملء إرادته في الذهاب معهم لمقابلة الأمير، حيث حصل منه على عطايا كثيرة، نظرا لمكانته، ثم أعاده بعد ذلك إلى موطنه. إلا أنني لم أتفاجأ من قدوم هذا الرجل، تماما كما هو الحال بالنسبة للملاك الذي ذهب مع أنتاو

---

[89] سنة 1445. راجع بهذا الخصوص: : غوميس إيانيس دي أزورار (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، الذي تم نسخه حرفيا من النسخة الأصلية الموجودة في المكتبة الملكية بباريس و نشر لأول مرة من قبل دو فيسكونده دا كريرا، المبعوث فوق العادة و الوزير مطلق التفويض لجلالة الملك لدى عرش فرنسا، مع التقديم و بعض الهوامش من قبل فيسكونده دي شانترن، الملحق بالأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونه و بعدد كبير من المؤسسات العلمية في إسبانيا و فرنسا و إيطاليا و إنجلترا و هولندا و السويد و أمريكا، دار النشر ج. ب أيو (J.P. Aillaud)، باريس 1841 ، ص.151 .

غونسالفيزو يدعى جوآو فرنانديز، الذي قرر طواعية البقاء في تلك البلاد[90]، فقط للتعرف على البلد و تزويد الأمير بالمعلومات إن وفق في العودة. بيد أنه بخصوص رحلات هذا الملاك و خصاله المثالية، فإني أرجئ الحديث عن ذلك إلى مقام آخر.

[90] هذا ما ورد في النص الأصلي بالبرتغالية، طبعة باريس 1841 و هو مرجع تم ذكره سابقا، و هو الأنسب من وجهة نظرنا، في حين أنه ورد في النص المترجم إلى الإنجليزية.... *إلى بلاد غينيا*، و هو ما نعتبره لا ينسجم مع السياق، لأن جوآو فرنانديز بعث فعلا إلى منطقة جزر حوض آرغين. (المترجم).

الفصل 30
كيف ذهب نونو تريستاو إلى تيرا و البيظان الذين أخذهم سبايا

بغية فهم أفضل لما حدث الآن، سنسرد كيف أن نونو تريستاو، الذي سبق و أن تحدثنا عنه، قد رأى لأول مرة بلاد الزنوج. فبعد إرساله في سفينة سريعة و بأمر من الأمير إلى تلك النواحي، توجه مباشرة إلى تلك الجزر حيث كان قد تواجد فيها من قبل. لقد أصبحت هذه الجزر الآن مهجورة، نظرا لأن سكانها و بعد الأضرار التي لحقت بهم، قد رحلوا عن موطنهم منذ فترة إلى جزر أخرى ظنا منهم أن أعداءهم لا يعرفون عنها شيئا. عندها قال نونو تريستاو: " بما أن الوضع بهذا الشكل، و ليس بوسعنا الحصول على غنيمة في هذه الجزر، فإني أعتزم المواصلة إلى أبعد مسافة ممكنة إلى أن أصل إلى بلاد الزنوج، فكما تعلمون فتلك رغبة الأمير مولانا بهذا الخصوص، فلا يمكننا أن نستغل وقتنا بشكل أفضل من عملنا على تحقيق ما نعلم أنه أهم شيء قد يرضيه."

أبدى الجميع إعجابه بهذه الفكرة، و أنه هو من عليه تولي قيادة هذا العمل؛ لذا فقد تأهبوا بشكل استعجالي بوصفهم لا يملكون شيئا آخر سوى نعمة ذلك المولى الذي أرسلهم إلى هناك. لقد قطعوا مسافة طويلة جدا، إلى حد أنهم تجاوزوا تلك الأرض فرأوا بلادا مغايرة جدا لتلك السابقة، لأن هذه الأخيرة رملية و غير مزروعة و خالية من الأشجار، و هي أرض لا ماء فيها، في حين أن الأرض الجديدة التي شاهدوها مغطاة بالنخيل و بأشجار خضراء و جميلة، و كذلك حال كل السهول الموجودة هناك. أطلق نونو تريستاو قارب السفينة منها بنية النزول على اليابسة، حيث شاهد رجالا يبدو أنهم مستعدون للحوار معه.

كان نونو تريستاو جد مسرور بذلك، لو سمح هيجان البحر لقاربه بالوصول إلى اليابسة؛ بيد أن الأمواج كانت جد مضطربة و خطيرة أيضا، لذا أرغم على العودة إلى السفينة، فأبحر لتفادي سوء الطقس الناجم عن الرياح التي كانت عكسية جدا. بيد أن نونو تريستاو قال بأنه رغم أنه غادر النقطة التي يتواجد بها من كانوا يرغبون في التحدث معه، فإنه يعلم جيدا أنهم من الزنوج.
هكذا و بعد أن أرغمه الطقس السيئ، وصل نونو تريستاو بسفينته إلى القرب من تلك الجزر التي حصل منها لانساروته سابقا على غنيمة، فسار مشيا على الأقدام على اليابسة ليرى هل بإمكانه أسر بعض الأشخاص.
لقد ذهب إلى هناك لعدة ليال قبل أن يتمكن من الحصول على أي شيء، إلى أن أوقع في الأسر رجلا بيظانيا مسنا دله عبر الإشارات إلى حيث يتواجد الحي على مسافة فرسخين من هناك.
غير أن المسافة كانت أطول من ذلك بكثير، ذلك أن نونو تريستاو، مع التأخر الذي أمضى قبل تحقيق أي أسر، كان قد غامر بذلك. لم يكن بمقدور البيظاني أن يقول له كم عدد السكان في الحي الذي كانوا يتجهون نحوه، و بشكل أدق لم يستطيعوا أن يسألوه و لم يفهم ما يقولون له، فيبدو لي أن ذلك ربما يكون قد سبب لهم بعض الخوف، لأنهم لا يعرفون كم عدد العدو، إلا أنه رغم وجود نية صادقة ، فإن القرارات لم تخضع لتفكير متمعن.
و في الليلة الموالية لتلك التي تم فيها أسر البيظاني، هاجموا الحي، لكنهم لم يستطيعوا سبي سوى واحد و عشرين شخصا، فلم نعثر في أي وثيقة على معلومات بخصوص وجود أي طفل أو امرأة ضمن هذا العدد و لا عدد الرجال الذين أخذهم نونو تريستاو معه، كما لم نعرف هل وقع قتال قبل تمكنه من سبي هؤلاء، و لا عن معرفة المزيد عن هذه الأمور، ذلك أن نونو تريستاو كان قد توفي قبل الوقت الذي أمر فيه الملك السيد أفونسو بكتابة هذا التاريخ.
إلى هذا الحد نترك هذا الموضوع كما هو، دون ذكر المزيد.

الفصل 31

كيف ذهب دينيس دياز إلى أرض الزنوج و السبايا الذين وقعوا في أسره

كان في لشبونة إقطاعي نبيل سبق له أن خدم الملك السيد جوآو (جد الملك السيد أفونسو و أب هذا الأمير الفاضل) اسمه دينيس دياز. بعد أن سمع بأخبار تلك البلاد و كيف أن السفن قد أبحرت إلى أماكن بعيدة من هذا الشاطئ، و أيضا بسبب أنه كان رجلا يرغب في مشاهدة الأمور الجديدة و اختبار قوته (مع أنه قد استقر في تلك المدينة[91] الأكثر عظمة في إسبانيا حيث تقلد وظائف هامة منحت له تقديرا له على خدماته)، رغم ذلك فقد ذهب إلى الأمير السيد هنريك يلتمس منه إرساله إلى تلك البلاد. فبما أنه كان خادم أبيه و كان نجاحه قد تحقق عن طريقه و أيضا بسبب شجاعته، فتلك صفات تمكنه من خدمته، ذلك أن لم يكن يفكر في حياة الدعة و الاستمتاع بالراحة.

شكره الأمير على استعداده ثم جهز سفينة مسلحة لدينيس دياز المذكور و ذلك للسفر بغية تحقيق هدفه. بعد أن غادر البرتغال مع رفاقه، لم يتوقف حتى تجاوز أرض البيظان و وصل إلى أرض الزنوج، التي تدعى غينيا[92].

---

[91] اي لشبونه.

[92] مع أن تسمية غينيا قد تكون مشتقة من غانا / Ghana، الإمبراطورية المشهورة و الغنية بالذهب حيث وردت في العديد من كتب المؤرخين العرب و المسلمين و التي لاشك أن البرتغاليين قد طالعوها أو علموا بها بواسطة مترجميهم، فقد اعتبر ب. كولترو أنها مشتقة من الكلمة الأمازيغية أغيناو، غناو (*aguinaou, guennaou*) التي تطلق في المغرب على الزنوج، راجع بهذا الخصوص: *Premier voyage du Sieur de la Courbe Fait a la Coste d'Afrique 1685*

الذي تم تحقيقه من طرف ب. كولترو، الناشر: أميل لاروز و أدوارد شامبيون، باريس 1913 ، ص.22 .

و مع أننا قد أطلقنا عد مرات خلال تسلسل هذا التاريخ اسم غينيا على تلك البلاد التي سافر إليها المستكشفون الرواد، فإننا لا نمنح هذا الاسم العام على كل البلد مع أنه بلد واحد، ذلك أن الجهات مختلفة بعضها عن بعض، و متباعدة، حيث سنوضح تلك الفروقات بتفاصيل أكثر في المكان المناسب. فبما أن السفينة كانت تسافر بمحاذاة ذلك البحر، فإن من كانوا على اليابسة شاهدوها و تعجبوا حين رأوها، إذ يبدو أنهم لم يشاهدوا و لم يسمعوا قط عن شيء يشابهها. فالبعض منهم تصور أنها سمكة، و البعض الآخر اعتقد أنها شبح، في حين أن منهم من اعتقد أنها طائر يسير بهذه الطريقة عند مروره على البحر. بعد التفكير في هذا الأمر الجديد، قرر أربعة منهم و بشجاعة أن يستقصوا خبرها لرفع هذا اللبس، هكذا ذهبوا في زورق صغير مصنوع من جذع شجرة مقعر دون إضافة أي شيء آخر.

أعتقد أنه يمكن تشبيهه ب "كوشو"، كما هو مستخدم في منحدرات مياه مونديغو و ززريه و التي يعبر بواسطتها المزارعون عند ما يكونوا مرغمين على ذلك في أوج فصل الربيع. لقد سلكوا طريقا مؤديا إلى مسار السفينة، حيث لم يتمالك من كانوا على متنها من الظهور على ظهرها. بيد أنه عند ما شاهد الزنوج أن على متن السفينة رجالا، سارعوا في الفرار بكل ما أوتوا من قوة، و مع أن السفينة تبعتهم، فإن ضعف الرياح حال دون إلقاء القبض عليهم. عند ما قطعوا مسافة أبعد من ذلك التقوا بقوارب على متنها أشخاص، فعند ما أدرك هؤلاء أن من على متن السفينة رجال تملكهم خوف شديد و شرعوا يفكرون في الفرار فرادى أو بشكل جماعي. بيد أن رجالنا حصلوا على فرصة مواتية أكثر من سابقتها فأسروا أربعة منهم، و هؤلاء هم أول من تم أخذهم من قبل المسيحيين في بلدهم الأصلي، فلا يوجد تاريخ أو رواية تقول بعكس ذلك.

فمن المؤكد أن ذلك لن يكون شرفا غير ذي بال بالنسبة لأميرنا، و الذي أصبحت قوته العظيمة كافية للسيطرة على شعوب بعيدة كل البعد عن مملكته، إذ أصبح يحقق الغنائم في جيران أرض مصر. فعلى دينيس دياز أن يكون له نصيب من هذا الشرف، ذلك أن هذا الأمير كان الأول (عبر أوامره) الذي أسر و سبى البيظان في تلك البلاد. ثم واصل الآن حتى وصل إلى رأس كبير سماه الرأس الأخضر.

لقد قيل إنهم وجدوا هناك العديد من الناس، بيد أنه لم يتم توضيح الطريقة التي عثروا عليهم بها، فهل لقيهم رجالنا في عرض البحر على متن سفنهم، أم خلال تنقلهم في مراكبهم الصغيرة الممتلئة بالأسماك. فيكفي أنهم لم يلقوا القبض على أشخاص آخرين خلال هذا السفر، باستثناء ما قاموا به من إنزال في جزيرة حيث عثروا على بعض الماعز و الطيور التي استمتعوا بالوجبات التي أعدوها منها. كما ذكر أيضا أنهم عثروا على أشياء هناك مختلفة عما هو موجود في بلدنا، كما سيتم التطرق لذلك لاحقا. عندها قفلوا راجعين إلى المملكة، و مع أن غنيمتهم لم تكن كبيرة على غرار ما حدث في الماضي، فقد رأى الأمير أن ذلك عملا جبارا لكونه أتى من تلك البلاد. هكذا فقد منح دينيس دياز و زملاءه مكافآت كبيرة على ما أنجزوه.

الفصل 32
كيف توجه أنتاو غونسالفيزو غارسيا هومن و ديغو أفونسو إلى الرأس الأبيض

قد يكون من المهم الآن العودة إلى ذلك الملأك الذي أقام السنة الماضية في وادي الذهب، كما سبق و أن ذكرنا.
لقد استحق عمله تقديرا خاصا و هو جدير بالتذكر، فغالبا ما أتأمل في ذلك و يثير إعجابي. فماذا بودي أن أقول في رجل وحيد لم يسبق له أن زار تلك البلاد (حيث لا يوجد شخص قد زارها من قبل و عرف منه أو سمع عنه أخبارها) فقرر المقام وسط جنس يكاد يكون همجيا، و لا معرفة له عن طبيعته و لا أحابيله؟
لنتخيل كم كانت دماثته عند ما ظهر أمامهم و أي هدف قد يكون ذكره لتبرير بقائه بين ظهرانيهم، أو كيف كان بمقدوره ترتيب بعض الأمور معهم بخصوص مأكله و أشياء أخرى ترتبط بعاداتهم. صحيح أنه سبق له أن تم أسره من قبل مسلمين آخرين، حيث تعلم لغتهم في تلك الناحية من البحر الأبيض المتوسط، بيد أني لا أدري إن كان ذلك قد أفاده في مقامه مع هؤلاء. فأمام الأمير تحدث عنه أنتام غونسالفيز، الذي تركه هناك، على النحو التالي:
" سموكم يعلم كيف أن جوآو فرنانديز، ملأككم، قد أقام في وادي الذهب لتعلم ما بوسعه أن يتعلم عن تلك البلاد بخصوص أمورها، كبيرة كانت أم صغيرة، بغية إطلاعكم على ذلك، إذ كان يعلم أن تلك هي رغبتكم. تعلمون كم مر عليه من الشهور هناك في خدمتكم، فإن أراد سموكم الآن إرسالي للبحث عنه و معي بعض السفن، فسأبذل ما في وسعي خدمة لكم، ليس فقط من أجل إعادته، بل لتغطية نفقات الرحلة أيضا." لا شك أنكم تعلمون كم كانت غبطة رجل شديد التعلق بهذه الأمور عند سماعه لمثل هذا الطلب.

لقد تم تجهيز السفن بسرعة، حيث كان أنتاو غونسالفيزقبطانها العام و برفقته غارسيا هومن و ديغو أفونسو، خادمي الأمير كما سبق أن اطلعتم على ذلك. كلف هذان الأخيران بالسفينتين الأخريين، بيد أن الجميع تحت إمرة القبطان العام.
عند ما غادرت السفن، توجهت في البداية للتزود من ماديرا، نظرا لوجود تموينات كبيرة هناك. بعد ذلك قرروا التوجه مباشرة إلى الرأس الأبيض و أنه في حالة عائق قد يحول بينها فإن عليها رغم ذلك أن تكون وجهتها الرأس المذكور. فبينما كان الطقس يأخذ مجراه الاعتيادي، يتغير من جميل إلى مضطرب و في بعض الأحيان من مضطرب إلى جميل، إذ هبت عليهم فجأة عاصفة هوجاء في وقت وجيز، حتى خيل إليهم أنهم ضلوا طريقهم و تفرقوا، فظن كل من هؤلاء القباطنة، بحكم الجهد الكبير الذي كان يقوم به، أن مجهود رفاقه يجب أن يكون أعظم. فعلى هذا الأساس ظن أنهم ضلوا طريقهم؛ لقد تعددت الآراء في كل سفينة على حدة، لدرجة أنه كان من الصعب الاتفاق على مسار معين.
بيد أنهم في النهاية قرروا، كل من جانبه، مواصلة الرحلة مباشرة إلى المكان الذي حددوه مسبقا، معتقدين أن كلا منهم يتحمل المسؤولية بمفرده، لذا كان يساورهم الشك إزاء رفاقهم بخصوص مقدرتهم على الوصول إلى هناك، معتقدين أن أفضل حل يتمثل في عودتهم إلى البرتغال، مؤكدين أن احتمال غرق سفنهم قوي.
هكذا واصلوا مقاومة مصيرهم بمجهود شجاع، رغم أن الجزع تملكهم، إلى أن تراجع الهيجان الأول للبحر بفضل الرب و عاد إلى هدونه السابق الضروري لرحلتهم. لقد قام ديغو أفونسو، و هو أول من وصل إلى الرأس الأبيض، بنصب صليب عظيم من الخشب على الأرض و ذلك ليدرك رفاقه، إن لم يكونوا قد وصلوا قبله و في حالة ما إذا سيأتون بعده، بأنه يتقدم أمامهم. فقد يتعجب أي شخص من دولة أخرى قد يمر من هذا الساحل و يرى بين البيظان

مثل هذا الرمز، دون أن يعرف أي شيء عن سفننا، من أن هناك حركة للسفن في هذا الجزء من العالم.
لقد كانت فرحة كل من هؤلاء القباطنة كبيرة عند ما وصلوا إلى ذلك المكان و علموا أن رفاقهم يتقدمونهم. لم يرغب ديغو أفونسو في القيام بأي توقف بالقرب من هذا الرأس، معتبرا أن الآخرين إذا قدموا إلى هناك سيعثرون عليه بسرعة، و بما أنه لم يكن متأكدا من مقدمهم فإنه واصل ليبذل قصارى جهده عله يحقق غنيمة، إذ إن عليه عدم تضييع الوقت دون أن يكسب مكانة أو منفعة، رغم التأخر الحاصل. لا أريد التطرق لبعض الأمور بخصوص رحلة هؤلاء القوم و التي عثرت عليها مدونة من قبل شخص يدعى أفونسو سرفيرا[93]، فقد كان أول من دون هذا التاريخ، فبما أنهم لم يحققوا نتيجة تذكر، فإنه من غير المجد تضييع الوقت بخصوصهم و هو ما قد يجعل قرائي يصابون بالملل و الضجر من سردي، ما دمت أتوفر على موضوع يجعل عملي أكثر جاذبية و تشويقا.
لقد لحقت السفن بعضها ببعض و التقى القباطنة في قواربهم، كل يفخر باجتيازه بفضل المجهود الكبير الذي بذل و الرعب الذي عانى منه.
و بما أن أنتاو غونسالفيزكان آخر من وصل و بما أن الآخرين كانوا تحت إمرته، فقد أبلغوه كيف أنهم نزلوا على اليابسة عدة مرات، بيد أنه لم يكن بمقدورهم القيام بأخذ أي شيء قد يدر عليهم بمنفعة، و الأسوأ من ذلك أن البيظان قد فروا منهم، و بما أنه قد انكشف أمرهم فإنه مع غير المفيد أن يرجعوا إلى هناك مرة أخرى.

[93] أفونسو سرفيرا/Affonso Cerveira هو مؤلف كتاب: *Historia das Conquistas dos Portuguezes pela costa d'Africa*، و قد اقتبس منه آزورارا العديد من الأخبار عن حملات البرتغاليين على السواحل الإفريقية، لكن هذا الكتاب قد ضاع. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص. Xii .

الفصل 33
كيف ذهبوا إلى جزيرة آرغين[94] و البيظان الذين أخذوا من هناك

لقد قال أنتام غونسالفيز: " بقدر ما تعثرت بداية سفرنا، بقدر ما كنت آمل أن خاتمتنا ستكون أفضل، متكلا على الرب، الذي بفضله جمعنا هنا و أنقذنا من خطر كبير. لذا فكما لاحظتم عند إنزالكم، شعر البيظان بذلك، فكما تعلمون جيدا فإنه على مسافة أبعد من هنا توجد جزيرة تدعى آرغين، فأعتقد جازما أنه إذا ذهبنا إليها ليلا يمكننا أن نصادف بعض البيظان و نأخذهم سبايا. أقول لكم ذلك لأني لا أريد القدوم على أي أمر دون استشارتكم."

لم يبد القباطنة سرورهم بذلك فقط، بل أيضا الآخرون و الذين تحدثوا كلهم أمامهم، حيث سارعوا إلى الاستعداد و عدم التأخر في تنفيذ ذلك. فعند غروب الشمس و حلول الظلام كانوا قد أصبحوا جاهزين في قواربهم و قد أخذوا معهم من الرجال ما يعتقدون أنه يكفي للدفاع عنهم؛ عين كل قبطان قبطانا آخر مكانه في سفينته، مع أوامر بأنه عند حلول الفجر عليهم أن يذهبوا للبحث عنهم في الجزيرة المذكورة. هكذا انطلق الرجال في الزوارق، طبقا للتعليمات الصادرة، و بعد منتصف الليل بقليل وصلوا إلى الجزيرة المذكورة حيث نزلوا و توجهوا مباشرة إلى تجمع السكان المحليين، بيد أنهم لم يجدوا سوى بيظاني أسود مع ابنته فأخذوهما معهم.

أبلغهم البيظاني عبر الإشارات أنهم إذا ذهبوا إلى البر، فإنهم قد يجدون تجمعا للبيظان على شاطئ البحر، حيث أوضح لهم هو نفسه الطريق إلى الموقع. عندها قرروا البقاء هناك بقية اليوم، ذلك أن عمليتهم لا يمكن أن تتم إلا إذا وصلوا ليلا، فأمضوا النهار بين النوم و الأكل و الشرب، و بالأخص تتمتعوا بجودة الماء، حيث

---

[94] في النص الأصلي بالبرتغالية: Ergim.

يوجد بغزارة هناك. عند حلول الليل، انطلقوا مرة أخرى بسرعة نحو النقطة التي سبق أن أشار عليهم البيظاني بها. لقد كان ذلك شيئا رائعا، فعند ما تم أسر أحد السكان الأصليين، كان مسرورا ليدل العدو ليس فقط على جيرانه و أصدقائه، بل أيضا على زوجته و أطفاله. بعد أن واصلوا طريقهم، ساور بعضهم الشك بخصوص ذلك المشروع، فاعتقدوا أنهم ذاهبون دون تبصر كبير، حيث إنهم لم يكونوا يعرفون عدد أعدائهم و لا القوة التي يتوفرون عليها للدفاع عنهم.
بيد أن كلمات هؤلاء الرجال لم يكن لها تأثير كبير، ذلك أنه عند ما تكون إرادة الرجال متلهفة إلى مثل هذه الأعمال، فغالبا ما لا يأبهون بأخذ المشورة. عند وصولهم إلى البر في وقت متأخر من الليل، وضعوا البيظاني أمامهم كدليل لهم، بيد أنه بفعل الصعوبة التي وجدوها في التفاهم معه، فقد تأخروا كثيرا بحيث أنه عند حلول الفجر كانوا لا يزالون على بعد مسافة طويلة من القرية.
عند ما استيقظ البيظان عند الفجر رأوهم و هم قادمون، و بوصفهم لا يمتلكون الشجاعة و لا أي أمل، بدؤوا في الفرار كل إلى المكان الذي يوفر له أفضل ملجأ، تاركين وراءهم أشياءهم و أطفالهم و نساءهم، و كان هدفهم الأساسي أن ينجوا بأرواحهم.
عند ما شاهدهم رجالنا و هم يفرون بهذه الطريقة، فرحوا إلى حد ما بنجاتهم من الخطر الذي كانوا يتوقعونه من قبل، مع أنه عند حساب الخسارة التي رأوا أنهم قد يتعرضون لها بفعل هروبهم، فإنهم لم يكونوا راضين.
بيد أنه لا يوجد الآن وقت لينشغلوا فيه بمثل هذا التفكير، ذلك أنه رغم أنهم كانوا منهكين، فقد حثوا الخطى، و فجأة و بإخلاص استجمعوا قواهم، كما فعلوا ذلك مرات عديدة في السابق، و استعدوا محاولين اختبار دهائهم في حقول المدن التي ترعرعوا فيها. لقد ظهر جليا كيف كان عملهم جيدا في تحقيق الغنيمة، حيث

ظنوا أن ذلك بعيد المنال، كما سبق أن ذكرنا، ثم إن العدو كان في استراحة و متعودا على هذا الأمر، رغم ذلك فقد أخذوا خمسة و عشرين منهم. لقد كان أكثر المجموعة حيوية في ذلك اليوم هو لورانس دياز، أحد سكان ستوفال و كان خادم الأمير، حيث تمكن لوحده من أسر سبعة من السكان المحليين. لم يكن العمل غير المسبوق الذي قيم به يقارن عند أي من هؤلاء بالغبطة التي شعروا بها و هم على طول الساحل للبحث عن السفن، ذلك أنهم أمضوا ثلاثة أيام منذ أن غادروها.

الفصل 34
كيف التحق جوآو فرنانديز بالسفن

قلد أمضى جوآو فرنانديز لحد الآن سبعة أشهر في ذلك البلد، فيبدو حسب المنطق أنه عندما تركه أنتاو غونسالفيزفإنه قد رتب للعودة إليه أو يلتمس من الأمير إرسال شخص آخر يستطيع إعادته. بعد أن أدرك جوآو فرنانديز أن السفن قد تأخرت في العودة من البرتغال، نزل عدة مرات إلى الشاطئ ليرى هل باستطاعته مشاهدة أي منها، فأعتقد جازما أن ذلك كان شغله الشاغل.
لقد حدث أن هؤلاء الذين بقوا في السفن بغية تنفيذ أوامر قباطنتهم قد أبحروا إلى جزيرة آرغين (التي يبدوا أنهم لم يتعرفوا عليها) فتجاوزوها و واصلوا رحلتهم على مدى يومين حتى وصلوا إلى بلاد تقع بعدها. بعد رسو سفنهم بأقل من ساعة، شاهدوا رجلا يقف على اليابسة مقابلهم. انطلقت سفينة بسرعة لتعرف من هو، فعند ما أبحرت نحوه لم تتمكن من التقدم أبعد من ذلك كما كانت تريد، لأن الرياح كانت تهب على البر. عند ما رأى جوآو فرنانديز العائق الذي تعرضت له السفينة، قرر أن يذهب على طول الشاطئ؛ إما أملا في أن تكون قوارب السفينة هناك و إما لسبب آخر؛ هكذا واصل طريقه قليلا إلى أن رأى الزوارق قادمة تبحث عن سفنها.
عندما صاح باتجاه المكان القادمة منه، فرحوا كثيرا معتقدين أنه أحد البيظان و قد أتى بملء إرادته للتعامل معهم بخصوص دفع فدية عن أحد هؤلاء الأسرى؛ بيد أنهم عندما فهموا حديثه و سمى نفسه ازدادت فرحتهم و أسرعوا نحوه. لقد فكرت، يقول المؤلف، كيف سيكون مظهر هذا الملاك النبيل الذي نشأ على التغذية التي تعرفون، أعني الخبز و الخمر واللحم و أشياء أخرى محضرة تحضيرا جيدا، بعد أن أمضى سبعة أشهر في هذه الوضعية، حيث لم يكن يأكل سوى السمك و لبن الإبل، ذلك أني أعتقد أنه لا توجد

حيوانات في تلك البلاد أفضل منها، بالإضافة إلى شرب الماء المالح، على ندرته، ثم إنه كان يعيش في بلاد حارة و رملية و دون أي متعة.
آه يا من تعيشون في رغد من العيش في وهاد إسبانيا! إنكم تقيمون الدنيا و تقعدونها عند ما ينقصكم جزء من المؤونة الاعتيادية في منازل السيد الذي تعيشون معه، فإن تأملتم في معاناة هذا الرجل فستعرفون أنه جدير بأن يكون القدوة لكل من يرغب في تنفيذ إرادة مولاه عبر خدمته. أما نحن الآخرون الذين قد نصوم يوما من عدة أشهر بأمر من الكنيسة، مع أننا نأكل الخبز و نشرب الماء في ذلك الصوم، فإن الضجر يتملكنا في ذلك اليوم. ثم كم عدد الذين يخونون ضمائرهم حيث يفطرون إرضاء لبطونهم؟ فهل يوجد شخص واحد هنا، و لمدة أسبوع واحد، يستطيع تحمل مثل هذا الجهد بملء إرادته من أجل إرضاء المسيح.
لا أريد أن أقول إن اندفاع جوآو فرنانديز لم يكن دون بعض التقدير لمولاه، ذلك أني أعرف هذا الملاك شخصيا، فقد كان رجلا صاحب ضمير و كاثوليكيا مسيحيا حقيقيا، و بما أن باعثه الرئيسي كان عادلا و مقدسا إلى هذه الدرجة، كما سبق أن ذكرت في مرات سابقة، فكل الأمور الأخرى التي قام بها لا بد أن تتناسب إلى حد ما مع مقصده الأول.

الفصل 35
كيف ذهب أنتاو غونسالفيزللقيام بتبادل

إن كان تحمل جوآو فرنانديز قد أثار إعجابي في السابق (أي المُقام في تلك البلاد و تحمله لكل ما تحدثت عنه سابقا)، فإن عجبي من العطف الذي حظي به من قبل من يسكنون هناك لا يقل أهمية. فمع أن لطافته كانت كبيرة تجاه كافة الناس الآخرين، فقد استغربت أن تكون إزاء هؤلاء، أو كيف تم الإحساس و الاعتراف بالجميل بها من قبل هؤلاء الهمج، فإنني متأكد أنه عند ما غادر هؤلاء الناس، و الذين أمضى سبعة أشهر بين ظهرانيهم، فإن بعضهم قد بكى بكل أسف. لكن لماذا أقول مثل ذلك، مع أني أدرك أننا جميعا أبناء آدم و نتكون من نفس العناصر، و كلنا جميعا له روح ككائنات عاقلة؟ صحيح أنه في بعض الأجسام فإن الأدوات ليست جيدة لإنتاج الفضيلة، كما هو الحال في أخرى و التي منحها الرب بفضله مثل هذه القوة؛ فهؤلاء يعيشون حياة شبه حيوانية.
فكما قال الفيلسوف، فإن حياة الناس تنقسم إلى ثلاثة أصناف: الأول، هم أولئك الذين يعيشون في تأمل، واضعين جانبا الأمور الدنيوية و لا يهتمون إلا بالصلاة و التأمل، و هؤلاء سماهم أنصاف آلهة. الصنف الثاني، هم من يعيشون في المدن و يحسنون من أملاكهم و تجارة بعضهم مع بعض. الصنف الثالث، هم أولئك الذين يعيشون في الصحاري و بعيدون من أي نشاط تجاري فيعيشون كالبهائم، لأنهم لا يستخدمون العقل، على غرار أولئك الذين تفرقوا بعد تقسيم اللغات (الذي بمشيئة الرب تم في برج بابل) عبر العالم و استقروا هناك دون أن يطوروا أي جانب من رصيدهم المعرفي الفطري. بيد أن هؤلاء الأخيرين لهم ميولهم، كما هو الحال بالنسبة للكائنات العاقلة الأخرى، كالحب و البغض و الأمل و الخوف و الإثني عشر الأخرى التي نمتلكها جميعا

بصفة طبيعية و التي يطبقها كل منا بدرجة أكبر أو أقل طبقا للنعمة التي حباه الرب بها، كما قال القديس بولس: إن الرب هو من عمل فينا إكمال إرادته.
لذا فإنني أجزم بأن باعث هؤلاء القوم في حب جوآو فرنانديز هو من خلال هذه الميول الفطرية، لهذا السبب فإنهم تأسفوا لمغادرته.
يبدو من المناسب جدا الحديث قليلا عن هذه الميولات، و إلى أي مدى تكون عامة في الناس، بيد أني أخشى أن تطول حكايتي، و كما أخشى أن تشعروا بالملل بسبب الإطناب، مع أن ذلك كله قد يكون مفيدا. إلا أنه علينا أن نترك المساجلات الطويلة التي قد تكون حدثت على متن السفن عند مقدم جوآو فرنانديز، لأرويَ لكم فقط ما قاله لأنتاو غونسالفيزبخصوص وجود رجل نبيل و قوي يدعى أهوده ميمام و أنه كان يرغب في الاتجار معهم بخصوص بعض الزنوج الذين قد أخذهم. لقد سُرَّ أنتاو غونسالفيزبذلك و وضع على الشاطئ جوآو فرنانديز الذي جلب عددا كبيرا من هؤلاء الناس إلى هناك.
فبعد تسوية موضوع الرهائن من الطرفين، استلم أنتاو غونسالفيزاثنين من البيظان كضمان؛ و من جانبه قدم اثنين آخرين من أولئك الذين كانوا معه. فهذان الشخصان اللذان قدمهما أنتاو غونسالفيزأثناء تنفيذ التبادلات قد أخذا إلى خيام البيظان حيث كان يوجد العديد من نساء البيظان و اللواتي كن أجمل ما في تلك البلاد.
لقد حدثت ضجة في صفوف البيظان، لذا فإنهم خرجوا من مساكنهم بعيدا إلى أحد السهول. ثم إن النساء البيظانيات عند ما نظرن إلى الرهينتين، اعتقدن أن بإمكانهن مغازلتهما، فأظهرن رغبة كبيرة في مضاجعتهما، فكانت اللواتي يعتقدن أنهن حسناوات يردن إبراز أنفسهن بإظهار أجسادهن عارية كيوم ولدتهن أمهاتهن، كما اظهرن إشارات تنم عن وقاحة كبيرة. بعد أن أدركن

أن هاتين الرهينتين منشغلتان أكثر بالرعب الذي شعرتا[95] به، إذ اعتقدتا أن هرج هؤلاء البيظان قد تم بالأساس لإلحاق الضرر بهما، مع ذلك استمر النساء في مقصدهن غير المحتشم، مظهرين إشارات تنم عن اعتداد كبير بالنفس و يعدانهما، كما قد يفهم من إشاراتهن، أنهن سيستجبن لما قد يطلب البرتغاليان منهن.
بيد أنه سواء كان ذلك بغرض الخداع أو فقط نتيجة خبث طبيعتهن التي دفعتهن إلى ذلك، فلنترك لكل أحد تقدير الصواب في ذلك.
أظهر هؤلاء البيظان درجة كبيرة من الثقة خلال مساوماتهم، فمثلا عند ما كانوا يناقشون بخصوص أعمالهم، فإن بعضهم قد صعد بشجاعة على متن السفن، حاملين معهم نساءهم اللواتي يرغبن في مشاهدة تلك الطرافة.
عند ما أنهى النبيل مساومته، حصل على أشياء سلمها له رجالنا، فاغتبط لبعضها كثيرا (رغم أنها كانت قليلة و محدودة القيمة)، فمنحنا مقابلها تسعة من الزنوج و قليلا من قُراضة الذهب. و عند انتهاء نفس المساومة، طلب ملاَّك كان يقطن ماديرا من أنتاو غونسالفيز ترقيته إلى رتبة فارس، نظرا لأنه، و بحسب اعتقادي، كان متقدما في السن و ينحدر من أرومة نبيلة و يمتلك ثروة معتبرة، فكان يريد الحصول على لقب مشرف لشاهد ضريحه. كان يدعى فرنام تآفريس. لقد أصبح المكان يعرف منذ ذلك الوقت رأس التبادل[96].
لقد كان يروق لي الحديث في هذا الفصل عن بعض الأشياء التي قد رآها أو تعلمها جوآو فرنانديز في تلك البلاد، بيد أنه علي أن أنهي قصة تلك السفن الثلاث، فعند ما أجد متسعا من الوقت فيما بعد سأقص عليكم حكايتها بالكامل، لذا سأواصل روايتي بالترتيب الذي أرى أنه الأنسب.

---

[95] أي البرتغاليين.
[96] بالبرتغالية: Cabo do Resgate

فبعد أن غادر البيظان ذلك المكان و بعد أن أبحرت السفن، رأى رجالنا الذين كانوا يهتمون بالأشرعة قرب الشاطئ حوالي مائتي جمل مع بعض البيظان الذين كانوا يسوقونها. بما أنه كان من الواضح أنهم قريبون، فقد توجهوا صوبهم بسرعة، غير أن أولئك البيظان لما شاهدوا الآخرين يركضون نحوهم قفزوا بسرعة على الجمال و لاذوا بالفرار على ظهورها. إلا أن عدد الجمال كان أكبر من عدد الرجال، لذا فإن البعض منها بقي في المكان الذي كان فيه حيث قتل منها رجالنا أربعين، أما الآخرون فقد فروا.
واصلت السفن رحلتها حتى وصلت إلى جزيرة تيدره، حيث يتواجد، كما سبق و أن قلنا، بعض البيظان. بعد أن شاهدوا العديد من المنازل بالقرب من الشاطئ حيث كانوا يوجدون، و رغبة منهم في معرفة إن كان باستطاعتهم العثور على شيء ما هناك، فقد نزلوا. بعد أن أدركوا أن المكان مهجور، قرروا التقدم داخل الجزيرة حيث شاهدوا اثنين من البيظان قادمين باتجاههم، لذا فرح بهم رجالنا الذين كانوا ينتظرونهم بفارغ الصبر. بيد أن أنتاو غونسالفيز فهم خدعتهم، إذ استشفها من خلال هيئتهم و أن تحركهم الهدف منه نصب كمين، فالاعتداد بالنفس الذي يظهره رجلان ضد هذا العدد من الرجال يجعل أي رجل عاقل يدرك أنها لتنفيذ خطة ما.
أمر أنتاو غونسالفيز اثنين من رجاله قائلا لهما: " اذهبا لمسافة غير بعيدة داخل اليابسة و سترون مدى غدر هؤلاء الكلاب"، بعد أن حدد لهما من أين عليهما أن يباشرا مهمتهما. فبينما تقدم المسيحيان من جانب الشاطئ، خرج البيظان ضدهم، فعادا عند ما أصبحا قريبين منهم و بعد أن وصلا إلى مكان قد حدد لهما مسبقا.
ففي حين بدأ رجالنا في الانسحاب إلى السفن عند ما تكشف الكمين، نزل من كانوا يشكلونه إلى الشاطئ، فلولا أن مجموعتنا لم تنسحب بسرعة، فقد لا يتمكن أفرادها من الفرار دون خسائر

كبيرة. بالنسبة للبيظان، و بعد أن فهموا أن ذلك يميل لصالحهم، أبدوا استعدادهم بشكل جيد و دخلوا في الماء إلى أبعد مدى يستطيعون الوصول إليه. فلو أنهم لم يُرْغموا على البقاء على بعد مسافة ما بفضل طلقات أسلحة الأقواس[97] فإنه كان من المحتمل أن يواصلوا تقدمهم، و لو سباحة، بغية تحقيق هدفهم المتمثل في إلحاق إصابات برجالنا.

[97] سلاح قاذف للحجارة و السهام، إلخ.، بالبرتغالية: Be(e)sta ، و بالإنجليزية Crossbow و بالفرنسية Arbalète. (المترجم).

الفصل 36
كيف قاموا بسبي بعض البيظان من الرأس الأبيض

قال أنتام غونسالفيز: "لنعد إلى الرأس الأبيض، لقد سمعت أنه توجد قرية في الاتجاه المعاكس لغروب الشمس يمكننا أن نعثر فيها على بعض الناس نستطيع أن نحقق منهم غنيمة، إن نحن هاجمناها بشكل مباغت و مفاجئ." أعرب الجميع عن موافقتهم على هذا الرأي الذي اعتبروه سديدا و أن عليهم تنفيذه في الحال. لذا تم اختيار ثلاثة و ثلاثين رجلا من بين الأشخاص الأكثر استعدادا للخدمة، فأبحروا ثم نزلوا و ذهبوا مباشرة إلى القرية في الساعات الأولى من الليل، بيد أنهم لم يعثروا على شيء. ثم إن بعضهم قال: "قد يكون من المفيد أن نعود إلى قواربنا و نبحر إلى أبعد مكان بمحاذاة الشاطئ حتى الصباح، عندها ننزل و نذهب إلى أولئك البيظان لنمسك معبر الرأس، ذلك أنه يتعين عليهم المرور عبر الرأس المذكور قبل الانسحاب إلى البر العميق، فبما أن معهم النساء و الأطفال، فيتعين عليهم أن يستريحوا بعض الليل، و حتى لو ساروا بشكل متواصل، فإنهم لن يكونوا سريعين بالدرجة التي تمنعنا من اعتراضهم."

لقد وافقوا جميعا على هذا الرأي، و واصلوا التجديف طيلة الليل دون أخذ قسط من الراحة، لأن الكسل في مثل هذه الأماكن و الأوقات يعتبر السبب الرئيسي للخسارة." انتهى الليل، و عند ما بدأ ضوء الصبح في الظهور، نزل ثمانية و عشرون من الرجال على الشاطئ و بقي الآخرون لحراسة القوارب. ثم سار الذين نزلوا على اليابسة إلى أن وصلوا إلى مكان مرتفع يمكنهم من الرصد الجيد لكافة الأماكن المحيطة بهم. فبينما كانوا يخفون أنفسهم قدر المستطاع بسبب طلوع الشمس، إذ شاهدوا بيظانا قادمين إليهم، رجالا و نساء مع أبنائهم و بناتهم، حيث كان عددهم

يتراوح ما بين سبعين إلى ثمانين، حسب ما اطلعوا عليه. و دون أي حديث أو تبادل للآراء، اندفعوا نحوهم و هم يصيحون و يصرخون بعباراتهم المعتادة: "القديس جورج"، " البرتغال". فعند مهاجمتهم، أصيب البيظان بالذهول لدرجة أن أغلبهم لاذ بالفرار، و لم يثبت منهم للدفاع سوى سبعة، حيث قتل منهم لأول وهلة ثلاثة إلى أربعة.

بعد أن تفرق هؤلاء لم يعد هناك مجهود قتالي، فقط من اعتقد أن قدميه ستساعدانه على الجري فكر في أنه لا يوجد أي ملاذ آخر لإنقاذ حياته. بيد أن رجالنا لم يكن بوسعهم البقاء متفرجين، ذلك أنه إذا كان أعداؤهم قد قرروا الفرار، فلا يمكنهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي، ذلك أنه في مثل هذه الظروف فإن ثمن استراحة الفاتحين هو مجهود بهذا الحجم. هكذا ألقوا القبض على ما مجموعه خمسة و خمسين اقتادوهم إلى القوارب. لا أريد أن أخوض في فرحهم، لأن المنطق ينبئك بحالهم، سواء تعلق الأمر بمن ألقوا القبض على الأسرى أو بخصوص من بقي منهم في السفن، عند ما أتوا بمغنمهم. بعد هذا الأسر اتفقوا على العودة إلى المملكة، لأنهم من جهة أدركوا أنه ليس باستطاعتهم الحصول على شيء أفضل مما حصلوا عليه في هذه الناحية، و من جهة أخرى فإن زادهم قد بدأ ينفد. لذلك فإنه يتعين عليهم عدم البقاء هناك بالنسبة لهم و لأسراهم، و الأهم من ذلك أن الطريق طويل و لا يعرفون شيئا عن الظروف التي ستكتنف رحلتهم.

لذا وجهوا سفنهم باتجاه البرتغال، و بشكل مباشر إلى لشبونة، حيث وصلوا و الفرحة تغمرهم بالغنيمة التي جاؤوا بها. فأي شخص بإمكانه أن لا يشعر بالسرور و هو يشاهد هذا الجمع من الناس و قد تجمهروا لمشاهدة السفن؟ فعند ما تم إنزال الأشرعة، أخذ موظفو الضرائب الملكية قواربا من الشاطئ لمعرفة من أين أتت السفن و طبيعة حمولتها. فور عودتهم و انتشار الخبر من

شخص لآخر في وقت وجيز، تجمع مثل ذلك الحشد الكبير حول السفن التي لم تكمل بعد رسوها. لم يكن اليوم الموالي بأقل من ذلك عند ما أخرجوا الأسرى من السفن و أرادوا سوقهم إلى قصر الأمير الذي يقع على مسافة بعيدة إلى حد ما من ربيرا. لقد تدافع الناس من كافة جهات المدينة إلى الطرق التي سيمرون منها. فمن الأكيد، يقول كاتب هذا التاريخ، أن من كانوا يغمزون في مستهل هذه العملية فإن عليهم الآن توجيه اللوم لأنفسهم، ذلك أنه لا يوجد أحد الآن يمكنه أن يعد نفسه من بين هؤلاء.

كان صخب الناس كبيرا، فكانوا يشيدون بخصال الأمير (عند ما شاهدوهم يسوقون الأسرى مقيدين على امتداد تلك الطرق)، حيث إنه إذا تجرأ أي شخص آخر لإبداء وجهة نظر مغايرة، فسيدرك أن عليه التراجع عنها في الحال، إذ قد لا تفيده كثيرا. بيد أن الدهماء، و بالأخص في أوقات الإثارة، لا تسامح من يخالفها الرأي فيما عزمت عليه. فلا يبدو لي أيضا أنه قد يوجد شخص شرير بهذه الدرجة يستطيع التحدث ضد خير بديهي تمخضت عنه هذه الفوائد الجمة. ثم إن الأمير تواجد في حي فيزيو حيث أرسل لاستلام خمسه. بخصوص من بقوا، قام القباطنة ببيعهم في المدينة، حيث حصل الجميع منهم على منافع كبيرة.

الفصل 37
كيف ذهبت سفينة غونسالو باشكو و سفينتان أخريان إلى جزيرة آرغين

بما أن مدينة لشبونة هي المدينة الأكثر نبلا في مملكة البرتغال فإن ساكنتها (بالنظر إلى غالبيتهم) يعتبرون أيضا الأكثر نبلا و الأغنى. بيد أنه لا يسمح لأي كان أن يكون سطحيا إلى حد فهم هذه الكلمة على غير مدلولها و الاعتقاد بأن هذا النبل محصور فيهم دون سواهم ممن يقطنون المدن الأخرى، ذلك أن الفيدالغوس و من ينحدرون من علية القوم يعتبرون نبلاء، بغض النظر عن المكان الذي يسكنون فيه، فقط أتحدث على وجه العموم، فقد قال باولو فيرجيريو في النصيحة التي أسدى للشباب و العامة، إن أبهة مدينة عظيمة تمثل الجانب الأهم من نبلها.
بعد أن شاهد هؤلاء بأم أعينهم حجم الثروة التي تحملها هذه السفن إلى الوطن الأم و التي تم الحصول عليها في وقت قياسي و بمثل هذا الأمان، فقد اعتقد بعضهم أنه بإمكانه الحصول على بعض هذه الثروة.
لقد كان يوجد في هذه المدينة أحد كبار المُلاّك ينحدر من أرومة نبيلة و لم يدنس أي عار استقامته و شجاعته، يدعى غونسالو باشيكو، فكان عضوا في مجلس الأمير و مدير خزانة سبته، رجل عظيم الثروة، و هو من سبق له أن أبقى السفن في البحر ضد أعداء المملكة، فيبدو أنه فكر في هذا الأمر، و كتب إلى الأمير للسماح له في نفس الوقت بتجهيز سفينة سريعة جيدة كان قد بناها حديثا لخدمته، ثم سفينتين أخريين كان يرغب أن ترافقاه. تأخر قليلا أو تعثر في الحصول على الترخيص الذي كان يرغب فيه، و بشكل أقل بخصوص الأمور التي كان يحتاجها للتجهيز. ثم عين على سفينته قبطانا يدعى دينيس إيانيس دي كَرآ ابن أخت زوجته

الأولى و مساعد فارس لوصي العرش[98]، و على السفينتين الأخريين مالكيهما، أي ألفارو جيل، خبير نقود، و مافالدو أحد سكان ستوفال، فانطلقوا و سفنهم تحمل أعلام نظام المسيح نحو الرأس الأبيض.
بعد وصولهم إلى هناك اتفقوا على عدم الذهاب إلى القرية التي تقع على بعد فرسخ من الرأس، بسبب الوثيقة التي عثروا عليها و التي وضعها هناك أنتام غونسالفيز، حيث نصح أولئك الذين قد يمرون من ذلك المكان بعدم التوجه إلى تلك القرية بأمل الحصول على مكسب، لأنه كان قد جاء إلى القرية المذكورة و وجدها خاوية. لقد اتفقوا على الذهاب للبحث عن قرية أخرى على بعد مسافة فرسخين من هناك، لكن في المحصلة وجدوها خالية تقريبا.
بيد أنه لحسن الحظ كان من ضمن تلك المجموعة التي توجهت إلى تلك القرية رجل يدعى جوآو غونسالفيز من غاليسيا و كان ملاحا و قد زار تلك البلاد من قبل مع أنتاو غونسالفيزعند ما عاد إلى هناك للبحث عن جوآو فرنانديز، فيبدو أنه عند ما وصل إلى لشبونة انضم إلى مجموعتهم.
لقد خاطبهم جوآو غونسالفيز قائلا: " يمكنكم الآن الحصول على منفعة عظيمة من هذه الحملة إن أنتم اتبعتم رأيي، لإيماني بأن الرب سيمنحنا جزاء قيما، ذلك أنه سبق لي أن زرت هذه البلاد و شاهدت كيف تصرف الآخرون، فاكتسبت معرفة جيدة عنها."
أعرب الجميع بصوت واحد عن رضاهم و شكروه كثيرا، فعليه أن يقول بسرعة ما يعتقد أنه الأنسب. عندها قال: "تعلمون أن السفن التي جاء بها ديغو أفونسو وغارسيا هومن قد سارت بمحاذاة هذا الشاطئ، فتسببت في بث الرعب في صفوف البيظان قبل وصول أنتاو غونسالفيزإلى هناك. فعند ما وصل أنتاو غونسالفيزاتفق معهم على الذهاب إلى آرغين، بعد أن وصلوا إلى هناك كان سكان

---

[98] السيد بدرو.

الجزر قد استعدوا، لذا فقد لاذوا بالفرار و لم يبق منهم إلا رجل واحد مع ابنته حيث حملوهما إلى البرتغال. لقد شاهدوا المنازل في الجزيرة و كان بإمكانها استيعاب عدد كبير من الناس، كان من الواضح أن البيظان قد خرجوا منها للتو، فلاحقوهم و ألقوا القبض على خمسة و عشرين منهم. أعتقد أنه بما أننا قد مررنا حديثا بهذه الجزيرة، فإن البيظان لن يكونوا متأهبين و متربصين هذه السنة، و بالتالي فإنهم سيكونون قد عادوا إلى الجزيرة، فإن أنتم اتبعتم رأيي، فبفضل الرب، سأعرف كيف آخذكم إلى المكان الذي أعتقد أنهم يوجدون فيه، فإن نحن عثرنا عليهم ستكون الغنيمة هامة."

رد عليه البعض منهم: " كيف يمكن أن يعود البيظان بسرعة إلى المكان الذي يعرفون أنه تم البحث عنهم فيه من قبل؟ فما أنت واثق من أنه سيقع يعتبر أمرا مشكوكا فيه بالنسبة لنا، كما أن قصر الوقت الذي تعتقد أنت أنه السبب الرئيسي في رجوعهم، يبدو لنا عكس ذلك، لأنه ما دام توجسهم واضحا إلى هذه الدرجة، فإنهم لن يشعروا أبدا بالأمان بسرعة." رغم ذلك، فإن القباطنة لم يعودوا يتحملون سماع المزيد من الآراء، فقد تبنوا الرأي الأول و أصدروا الأوامر بإخراج القوارب من السفن و تجهيز الطواقم التي يعتبرونها ضرورية؛ فبما أنه قد صدرت لهم الأوامر بأن على كل ربان أن ينزل إلى اليابسة كل حسب دوره، كان الدور الآن على مافالدو بالنسبة لهذه الحملة، و بقي الآخرون في سفنهم. علاوة على ذلك، فقد تلقوا التعليمات بالانصياع التام لأوامر الملاح الذي أبدى لهم رأيه، كما سبق و أن قلنا. انطلقوا بزوارقهم حتى حدود منتصف الليل، فوصلوا إلى مرسى في تلك الجزيرة قريب من القرية؛ بعد أن قفزوا إلى الشاطئ، خاطبهم مافالدو بأن عليهم الأخذ بعين الاعتبار لحقيقة أنهم في عمق الليل و أنهم الآن قريبون من المكان المحدد، فإن هم هاجموه في هذا الوقت بالذات فقد يهرب البعض منهم تحت جنح الظلام، أو قد يمكثوا خارج المكان على

بعد مسافة من هناك دون أن ينسوا خوفهم السابق، لذا فقد نصحهم بتطويق القرية، و عند بزوغ الفجر يقومون بمهاجمتها. كان مافالدو رجلا قد اعتاد مثل هذه الأمور، لأنه قد عمل عدة مرات في السابق في التجارة مع المسلمين، لذا وافقوا جميعا على رأيه و اعتبروه سديدا.
هكذا عند ما ذهبوا إلى حيث اتفقوا عليه من قبل، عثروا على طريق يربط بين القرية و منهل، فمكثوا فيه قليلا ينتظرون هناك، عندها شاهدوا فتاة قادمة لأخذ الماء فألقوا القبض عليها بسرعة، و بنفس الطريقة أخذوا بيظانيا جاء بعدها مباشرة من نفس الممر فسألوه عبر الإشارات، هل هناك من أناس، فرد عليهم بنفس الطريقة أن هناك فقط سبعة.عندها قال مافالدو: "مادام الأمر كذلك، لا داعي للانتظار حتى الصباح، فعلينا أن نتوجه نحوهم، فما دام عددهم قليلا فليس من الضروري أخذ احتياطات كبيرة." بكلمة واحدة طوقوا القرية بسرعة و ألقوا القبض على الأشخاص السبعة.
بعد ذلك مباشرة، أخذ مافالدو أحد هؤلاء جانبا و شرع يسأله قدر استطاعته، ذلك أنه لا يتوفر على مترجم: أين البيظان الآخرون القاطنون في هذه الجزيرة؟ أشار البيظاني بأنهم في البراري العميقة التي ذهبوا إليها خوفا من المسيحيين، ثم عرض نفسه بسرعة ليدلهم على مكان تواجدهم بالقرب من البحر. بعد أن علم مافالدو بذلك، عاد إلى رهطه و سألهم هل يرون فعلا أن عليهم الذهاب للبحث عن أولئك البيظان؟ فنظرا إلى أن الآراء تعددت بتعدد الأشخاص، فقد ظهرت شكوك البعض منهم؛ منهم من قال إن مثل هذه الحملة مريبة جدا لأن البيظاني لم يقل عدد البيظان و هم لا يفهمونه؛ و حتى لو قال ذلك، فسيعبر عن ذلك غدرا بهدف جرهم إلى جمع لا يستطيعون تحقيق النصر عليه.
عندها خاطبهم مافالدو قائلا: "بالتالي إذا كنتم تريدون البحث عن العقبات في كل أمر فإنكم ستجدونها على الدوام، و إذا كنتم في مثل

هذه العمليات تريدون الغوص في أسبابها فإنكم لن تحققوا أبدا أي شيء مفيد. فلنذهب بعون الرب و لا تتركوا أبدا شجاعتكم تخور، فهو سيكون إلى جانبنا اليوم بفضله." اتفق الجميع على أنه من الأفضل الانطلاق الآن، ثم تركوا البيظان الثمانية و معهم ستة رجال لحراستهم، و أخذوا الرجل الذي قال لهم في البداية أنه يعرف أين يوجد الآخرون. ثم حدث أن أحد الثمانية الذين تركوا هناك فر من رجالنا الذين كانوا يحرسونه و عبر إلى البر في مركب و أبلغ الآخرين الذين يقطنون هناك (و الذين من أجلهم انطلق المسيحيون)، ثم قص عليهم كيف تم أسره هو و بقية الأشخاص الثمانية. بيد أنه لم يبلغهم بخصوص أي شيء قد يتهددهم، لذا يبدو أنهم لم يدركوا الخطر الداهم عليهم، فمع أن الآخرين قد حزنوا لسماع الخبر، فقد تحملوه بصبر كمن يتحمل مصائب أقرانه.

هكذا لم يحركوا أي ساكن و الرجل بينهم. بعد أن دخل المسيحيون في قواربهم انطلقوا بسرعة تحت ظلمة الليل إلى النقطة الذي دلهم عليها البيظاني، فقطعوا مسافة فرسخين، ثم نزلوا و ساروا خلف البيظاني إلى المكان الذي سبق أن بين لهم بإشاراته، إذ لا يزال الوقت ليلا. ثم توقفوا كلهم هناك و أرسلوا أحدهم يدعى ديغو جيل ليرى إن كان بإمكانه العثور على أثر أناس، فتقدم حتى شاهد منازلا و سمع بكاء طفل.

الفصل 38
كيف أوقع مافالدو ستة و أربعين من البيظان في الأسر

لم يكن ديغو جيل بطيئا في عودته و إبلاغه الخبر للآخرين، فاتفقوا على أنه من الأفضل الانتظار و حتى الصباح، فبحسب ما قالوا، فإن بعض سكان الجزيرة الأصليين قد يتمكن من الفرار بسبب ظلمة الليل، من هنا كانت جرأتهم حيث كانوا متأكدين من قدرتهم على أسر هؤلاء الناس. هكذا مكثوا هناك في انتظار اقتراب الفجر، إذ كانت أغلبيتهم تعتقد أن التأخير جد منطقي و تلك كانت رغبتهم في إكمال العملية. أحيانا كان يحدث في بعض الجهات، حيث كانت الضرورة تفرض على الرجال الرصد، أن تحين تلك الساعة و لا يكونوا قادرين على التحمل دون أن يناموا، إذ كان النعاس يغلب عليهم. بيد أن الأمر كان يختلف هذه المرة عن سابقاتها، لذلك كان الجميع واثقين من نتائج هذا الحدث.

ثم إن مافالدو، الذي كانت تتوقف عليه العملية و عند ما رأى أن الوقت أصبح مناسبا للانطلاق، بدأ في التحدث إليهم قائلا: "أيها الأصدقاء، لقد أصبح الوقت الذي تعبنا من أجله قريبا في هذا الهزيع من الليل، بيد أننا في ميدان معاد، فلا نعرف إن كنا سنتعامل مع عدد كثير أم قليل، لهذا السبب أدعوكم إلى تذكر شرفكم و أن يتصرف كل منكم بشجاعة و لا تتهاونوا في تنفيذ هذه العملية. ثم أردف قائلا: "لننطلق لأن مشيئة الرب معنا."

لقد كانت المسافة قصيرة من مكان وجود الأعداء، فعند ما أدركوا أنهم مطوقون شرعوا في الخروج من منازلهم، و قد تملكهم الرعب أكثر مما تحلوا بالشجاعة، حيث انحصر أملهم في الفرار. في النهاية أسروا منهم ستة و أربعين، إضافة إلى من قتل منهم في بداية الاشتباك. و مع أن الخطر في هذه العملية لم يكن كبيرا، فإن علينا أن لا ننسى قيمة مجهود أولئك الذين تصرفوا بحنكة و كذا

أولئك الذين أظهروا بسالتهم في القتال (في حال وقوعه). و الحال أنه إضافة إلى مافالدو الذي كان هو القبطان، فإن ديغو جيل و ألفارو فاسكيز و جيل إيانيس (لكن ليس الفارس الذي تحدثنا عنه سابقا) قد بذلوا ما بوسعهم بشجاعة، فأظهروا جيدا أنهم رجال قادرون على تنفيذ عمليات أخرى أهم من هذه. هكذا كانت الغنيمة هذه الليلة ثلاثة و خمسين من أسرى البيظان.

الفصل 39
كيف نزلوا إلى البر مرة أخرى و الأمور التي قاموا بها

يمكننا أن نفهم من خلال المصادفة التي وقعت مع هؤلاء أن الجزء الأكبر من الإنجازات في هذا العالم تخضع أكثر للصدف أكثر مما تخضع لمنطق العقل. فأي شخص حصيف يمكنه أن يثق في حركات رأس و إشارات بالأيدي كان يقوم بها رجل من البيظان؟ فقد يكون من قبيل الصدفة أن ذلك البيظاني، و من أجل تحقيق هدف يتمثل في إطلاق سراحه أو الانتقام من أعدائه، قد أظهر لهم شيئا بدل شيء آخر، و قد يقودهم، بحجة أخذهم إلى مكان يمكن لرجالنا أن يتوقعوا تحقيق النصر فيه، إلى حيث يوجد جيش من الأعداء لا يمكنهم الفرار منه إلا أمواتا؟ بالتأكيد، لا يوجد منطق في العالم يمكن أن يقول بالعكس. أعتقد الآن أن السبب الرئيسي في هذه الأمور يكمن في مدى معرفة رجالنا التي حصلوا عليها عن هؤلاء القوم، إذ عرفوا أن دهاءهم ضعيف في هذا الجزء من العالم[99].

هكذا وصل مافالدو بغنيمته فاستقبله القباطنة الآخرون بحفاوة وفق ما يتطلبه مثل هذا المغنم الذي تم الحصول عبر مجهود شاق. لقد أنهى قصة انتصاره الباهر بالقول بأنه يعتقد أن عليهم أن يسألوا البيظان الذين يحملون معهم إن كان يوجد بعد هذه المستوطنة التي كانوا قد سيطروا عليها قرية أخرى يمكنهم أن يحصلوا منها على غنيمة؟ بعد أن حصل على موافقة الجميع، أخذ أحد هؤلاء البيظان جانبا لطرح السؤال السابق عليه، فرد عليه بالإيجاب. لقد تملكتهم الجرأة إلى حد أنهم لم ينتظروا ليسألوا عن حجم العدو أو عن عدد

[99] قد يكون السبب في ذلك هو أن سكان هذه القرى قد تعودوا منذ أمد بعيد على حياة البحر و أصبحت حياتهم مرتبطة بالشواطئ أكثر من ارتباطها بالبادية أو البر العميق، حيث يعيش المنمون و إلى حد ما المزارعون. ثم إن هؤلاء السكان قد لا يكونوا متعودين على خوض غمار الحروب بفعل استقرارهم، إذ إنه في بلد صحراوي لا توجد فيه سلطة مركزية، كما هو الحال في "بلاد صنهاجة" في تلك الفترة، فإن القبائل التي تعيش في البوادي قد تكون الأكثر قدرة على القتال و المواجهة. (المترجم).

الرجال المقاتلين في صفوفه، أو عن الأمور الأخرى التي كان من المناسب عليهم أن يسألوا عنها في مثل هذا الموقف.
بيد أنه يبدو أنهم صمموا على أمرهم، فانطلقوا نفس المساء حيث دلتهم إشارات ذلك البيظاني إلى قرية لم يجدوا فيها شيئا عند وصولهم إليها يستطيعون أن يحققوا منه مغنما. عند ما هددوا البيظاني بسبب ذلك، أوضح لهم أنه نظرا لأن القوم لم يكونوا هناك فإنهم سيكونون بالتأكيد في حي آخر ليس بعيدا من هذه القرية. بيد أنهم لم يعثروا هناك إلا على بيظاني عجوز و مصاب بمرض في مراحله الأخيرة، فعند ما شاهدوا حاله و أنه على وشك الموت تركوه ليموت هناك، فلم يرغبوا في مضايقة النزر القليل الذي يبدو أنه تبقى من حياته. فكما يبدو فإن البيظان، بعد أن أدركوا أن المسيحيين قد أصبحوا بينهم، تركوا القرية و تنقلوا إلى جهة أخرى من البلد.
ثم إن رجالنا الذين كانوا هناك ارتأوا عدم الذهاب إلى أبعد من ذلك، لأن ذلك سيكون مجهودا دون أمل في الحصول على مكسب، بيد أنهم اتفقوا على العودة في المستقبل إلى هناك، مفترضين أن يعود البيظان بأمان إلى أكواخهم بعد أن علموا بمجيئهم و مغادرتهم. بيد أن الأمر لم يكن كذلك، ذلك أن البيظان قد ذهبوا مسافة أبعد حيث لا يزال الخوف يتملكهم من أن يتم رصدهم، لذلك فقد ابتعدوا أكثر.
و الحقيقة أن رجالنا، بعد قبولهم للنصيحة الذي اتبعوها من قبل، توجهوا نحو سفنهم التي عادوا منها مجددا إلى القرية؛ بعد أن أدركوا أنه لا يمكنهم الحصول على أي شيء، باستثناء البيظاني الذي سبق لهم أن تركوا، فقد ارتأوا أنه من الأفضل أخذه معهم. فبإمكان هذا الرجل أن يلعن مصيره الذي أبطل في وقت وجيز الحكم الأول الصادر في حقه، مؤكدا أكثر من مرة و في كل مناسبة موافقة الجميع على المصير الذي خصص له. عاد رجالنا مرة أخرى إلى الشاطئ، لكنهم لم يعثروا على أي شيء ذي بال، فرجعوا إلى سفنهم.

الفصل 40
كيف قام ألفارو فاسكيز بسبي سبعة من البيظان

انتشرت شكوك واسعة داخل مجلس رجالنا بسبب الحذر و التأهب الذي أحسوا به في صفوف بيظان تلك البلاد، فارتأوا أنه من الضروري البحث عن جهات أخرى لم يعلم فيها بوصولهم. قال البعض منهم أنه قد يكون من المفيد الذهاب إلى تيدره لأنهم يعلمون أنه يوجد هناك بعض البيظان. البعض الآخر قال إن التوجه إلى تلك الجهة قد يكون وخيما، لأن العدو كان كثير العدد و ستكون المواجهة غير متكافئة، فمحاولة أمر من هذا القبيل قد لا تكون سوى جرأة حمقاء. فبما أن عددهم كان قليلا، فإن مثل هذه المحاولة قد تبدو رهيبة لأي عاقل، ما دامت المصيبة لن تكون فقط خسارة أجسامهم، بل أيضا العار أمام الأحياء أيضا.

ثم إن آخرين قالوا إن عليهم أن يواصلوا، فإن قدر لهم أن لا يحصلوا على أي غنيمة في تلك البلاد في صفوف البيظان فإنهم قد يذهبون إلى أرض الزنوج، ذلك أنهم إن رجعوا بهذه النتائج الهزيلة من بلاد حصل فيها آخرون على ثروات طائلة، فإن ذلك سيشكل بالنسبة لهم وصمة عار مشينة. امتدح الجميع هذا الكلام، ثم انطلقوا و واصلوا رحلتهم لمسافة خمسة و ثلاثين فرسخا بعد تيدره، فكانت السفن الثلاث تنتظر كل منها الأخرى و كان القباطنة يتحدثون فيما بينهم، فاتفقوا على إرسال بعض الأفراد ليروا إن كان بوسعهم الحصول على أي مكسب من تلك البلاد. بعد أن أخرجوا القوارب من السفن، قال ألفارو فاسكيز، أحد فرسان الأمير المساعدين، إنه يبدو له من المناسب إرسال رجلين إلى ثلاثة في اتجاه معين و نفس العدد في اتجاه آخر لينظروا إن كان بإمكانهم مشاهدة بعض البيظان أو الحصول على معلومات عنهم، فعن طريقهم يمكنهم

معرفة من يسكن تلك البلاد، ثم إن عليهم أن يأتوا و يخبروا الآخرين كي يهاجموهم.
تبنى الجميع ذلك الرأي، و انتقوا أربعة عناصر للاستطلاع في كل اتجاه، كان ألفارو فاسكيز أحدهم، حيث سلكت كل مجموعة طريقها الخاص بها. وصلت المجموعة السابقة إلى مكان حيث عثرت فيه على بعض الشّباك كان البيظان قد تركوها للتو. ثم إن ألفارو فاسكيز و معه آخرون واصلوا إلى أبعد مسافة ممكنة حيث عثروا ليلا على أثر بعض البيظان، فلا تستغرب عند ما قلت "ليلا" ،لأنك قد تعتقد أن حديثهم عن أثر في ظلمة الليل مدعاة للشك، لذا عليك أن تعلم أنه في تلك البلاد لا تتساقط الأمطار بالدرجة التي يحصل بها ذلك هنا في البرتغال و لا توجد سماء ملبدة بالغيوم كما نرى في هذه النواحي من البلاد الغربية، بالإضافة إلى ضوء القمر (عند ما يكون موجودا)، كما أن النجوم هناك تنير إلى درجة أنه من السهل لشخص التعرف على آخر، حتى و لو كانت المسافة التي تفصل بينهما بعيدة.
هكذا تم العثور على ذلك الأثر، بيد أنه بسبب أنهم لم يجدوا أي سبب في الاعتماد عليه فإنهم لم يكونوا يرغبون في العودة إلى قباطنتهم حتى يحصلوا على فهم أكيد لهذا الأمر. لقد تابعوا سيرهم إلى أن وصلوا إلى حيث يقيم البيظان، و بما أنهم شاهدوهم عن قرب فإنهم أدركوا أنه لا يمكنهم الرجوع دون انكشاف أمرهم. لهذا السبب اندفعوا نحو البيظان بصراخهم المعهود و قفزوا داخل صفوفهم حيث كان عددهم اثني عشر. لقد بلغ بهم الذهول أقصى مداه، لدرجة أنهم لم ينظروا إلى عدد عدوهم، بل شرعوا في الفرار على غرار من لحقت بهم الهزيمة. كانت هذه العملية بالنسبة لهم عادية، إذ لم يتمكن من الفرار سوى شخصين، في حين قتل ثلاثة و تم أسر سبعة. عندها عاد رجالنا إلى سفنهم فاسْتُقبلوا بوصفهم استحقوا التعظيم تقديرا للمجهود الذي بذلوا و الشجاعة التي تحلوا

بها، و مع أننا نكتب عن جانب من استحقاقهم، فإننا لم نفعل ذلك بالقدر الذي أنجزوه به، إذ ليس من رأى كمن سمع. مع ذلك فإن المؤرخين، تفاديا للإطناب، كثيرا ما يلخصون أشياء قد تكون عظيمة إن تم سردها بالطريقة التي تمت بها بالفعل.
الآن جاء دور رئاسة القباطنة إلى دينيس إيانيس، كما سبق و أن قلنا، فأخذ جانبا أحد هؤلاء البيظان لمعرفة إن كان يوجد هناك أناس في تلك البلاد. ثم أجاب البيظاني، عبر الإشارات، أنه لا يوجد تجمع سكني قريب من هناك، إنما فقط قرية بعيدة من تلك الناحية يعيش فيها بعض الناس، بيد أن القليل منهم رجال مقاتلون.
عندها قال دينيس إيانيس لمجموعته: "إذا علينا أن نحقق مكسبا متواضعا بالذهاب إلى هناك، إن لم نكن مستعدين لتحمل المشاق الجسمية، فمع أن القرية بعيدة حسب ما أخبرني به هذا البيظاني، إلا أنني أعتقد أنه من الأنسب بالنسبة لنا أن نذهب إليها، فكل مكسبنا مرتبط بالمجهود الذي علينا بذله." أعرب الجميع عن موافقتهم على الذهاب. فمهما يكن من أمر، فإنه يمكن الحصول على نتيجة.
لقد أخذوا البيظاني معهم كدليل لهم، ثم قطعوا مسافة ثلاثة فراسخ إلى أن وصلوا إلى القرية التي حدد لهم البيظاني من قبل، بيد أنهم لم يعثروا على أي شيء من خلاله يستطيعون الحصول على منفعة، ذلك أن البيظان قد رحلوا بعيدا من ذلك المكان. هكذا عادوا مرة أخرى و قد أصبحوا منهكي القوى، فعدم العثور على أي شيء مما كانوا يتطلعون إليه جعلهم يأسفون كثيرا بعد ذهابهم و ما عانوه من مشقة.

الفصل 41
كيف قاموا بسبي عشرة من البيظان

بالنسبة لتلك الليلة لم يحصل اتفاق آخر باستثناء أن يأخذ كل قسطه من الراحة، بيد أنه في اليوم الموالي اجتمعوا للتشاور بخصوص القرار الذي عليهم اتخاذه، ذلك أن المكان لم يكن مناسبا للاستراحة لمدة طويلة. بعد مشاورات بخصوص الموضوع، اتفق القباطنة على أن يندفعوا في قواربهم و معهم بعض أفرادهم، حيث كان لويس أفونسو كايادو القبطان و هو من عليه السير بمحاذاة الشاطئ، كما أن عليه الإنزال مع بعض من عناصره و ترك شخص آخر مكانه مع القوارب، ثم إن عليه أن يسير في البر مع الرجال الذين سيأخذهم معه، بحيث تسير القوارب خلفه على بعد مسافة قصيرة من الشاطئ، في حين تبقى السفن في الخلف على مسافة فرسخين كي لا تنكشف.

بعد أن ساروا في هذا الترتيب، عثروا على أثر لبعض البيظان كانوا متجهين إلى البر، فترددوا إن كان عليهم اقتفاء أثرهم و تعقبهم، مع ما قد يحمل ذلك من مخاطرة التوغل بعيدا في البر و اكتشافهم، فليست لديهم معلومات بخصوص الناس الذين قد يوجدون في تلك الأرض. بيد أن إرادتهم المتوثبة للقيام بهذا الأمر لم تترك أي مكان لمجرد التفكير، فدون أي توجس انطلقوا قدما إلى أن وصلوا إلى مكان يبعد مسافة ثلاثة فراسخ حيث يوجد عدد قليل من البيظان، فلم تكن فقط تنقصهم الشجاعة للدفاع عن أنفسهم، بل حتى في الهروب. كان عددهم الإجمالي عشرة، من ضمنهم رجال و نساء و أطفال.

الفصل 42
كيف قام ألفارو فاسكيز بسبي خمسة و ثلاثين من البيظان

عند ما تم نقل البيظان العشرة إلى السفن، فإن ألفارو فاسكيز، كرجل كريم المحتد و يرغب في أن يبين للجميع تفانيه في خدمة مولاه، قد تحدث مع دينيس إيانيس الذي يتولى مهمة القيادة في ذلك اليوم، موضحا له أنه يعتقد أن من المهم أن يؤمر الناس بالمواصلة قدما ما دام قدومهم من بلدهم الأصلي هو بالأساس لذلك الهدف، عندها قال دينيس إيانيس: "كيف يمكنك أن تطلب منا مرة أخرى أن نخرج و نحن في أرض علم من فيها بتواجدنا أكثر من مرة؟ فيبدو لي أننا أمام أمرين، إما أن لا نعثر على أي من البيظان لأخذه معنا أو نلتقي بعدد كبير منهم حيث سيكون الخطر كبيرا بالنسبة لنا إن نحن هاجمناهم، و الأهم من ذلك فإنني غير مستعد للقتال بسبب الإرهاق. لذا أعتقد أنه ليس من الصواب الخروج مرة أخرى بسبب بعد المكان الذي توجد فيه الأرض المذكورة، بيد أن علينا أن نسير قدما إلى أن نصل إلى أرض لم يسمع عنا أهلها من قبل." بعد أن اتفقوا على هذا الرأي، كان الهزيع الأول من الليل قد مر.
تشبث ألفارو فاسكيز برأيه الأول و جاء إلى دينيس إيانيس يتوسل إليه ليتركه يذهب إلى الشاطئ و أن توكل له مهمة رئاسة القباطنة، ذلك أنه يعلم أن البعض سيذهبون معه بملء إرادتهم. بعد ذلك رد دينيس إيانيس بالقول: " مادمت تطلب الخروج و تشعر بالغبطة بذلك، فإنني أطلب منك أن تأخذ برأي صائب لا يتسبب لك شخصيا في أي أذى و لا في الحسرة بالنسبة لنا."
بعد ذلك نادى ديغو جيل، و هو مساعد فارس سبق أن تحدثنا عنه، ذلك أنه يعرف أنه رجل يتحلى بالشجاعة و هو أيضا من أشرف شخصيا على تكوينه، فساروا عبر السفن الأخرى بهدف جمع أولئك الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يتوفرون على القدرات الكافية

لتأمينهم. ثم توجه الجميع إلى الشاطئ، حيث لا يزال جزء من الليل لمسيرهم، بيد أنه قبل قطع مسافة أبعد، نبههم ألفارو فاسكيز قائلا: "أيها الأصدقاء و السادة، مع أنني لست أحد القباطنة الثلاثة الذين حملناهم معنا من المملكة، فمن المهم التذكير بأني مكلف بكم بوصفي قائدا من قبل من ولي مسؤولية قيادتكم.
و بما أن الإخلال بالانضباط قد يكون عائقا أكبر من حشود العدو، أود أولا أن أعرف منكم إن كان يروق لكم أن أكون آمركم في هذه المهمة، حيث أستطيع قيادتكم بوصفكم رجالا يرغبون في تلقي الأوامر، ذلك أنه من الأفضل أن تجيبوني الآن حيث لا خطر يهددنا، بدل أن نكون بعيدين من هنا و في مكان يكون شقكم لعصا الطاعة فيه لن يلحق الضرر بي فقط، بل بكل واحد منا في هذه السرية."
أجابه الآخرون بصوت واحد: "نحن راضون جدا بأن تكون قائدا لنا و مغتبطون بطاعتكم تماما كأي قائد آخر، أو حتى أفضل إن نحن استطعنا أن نحقق ذلك."
عندها قال: " يبدو لي إذا أن علينا أن نسير قدما، طبقا لنفس التعليمات كما كان عليه الحال بالأمس، أي أن علي أن أذهب مع بعضكم بمحاذاة البر، أما البقية فعليهم أن يمكثوا في القوارب قريبين منا."
هكذا فبعد انطلاقهم و سيرهم بمحاذاة الشاطئ عثروا على رأس أطلقوا عليه اسم سانتا آنا[100]، و مباشرة بعد ذلك عثروا على ذراع بحري ممتد داخل اليابسة بحوالي أربعة فراسخ و قد بدا لهم كما لو كان نهرا. عند ما وصلوا إلى مصب النهر المذكور، انتظر ألفارو فاسكيز الآخرين الموجودين في القوارب، فعند ما وصلوا أمرهم بانتظاره هناك، في حين ذهب هو على طول هذا الممر المائي،

---

[100] ظهر هذا الاسم في الخرائط المائية الجغرافية طيلة القرنين السادس عشر و السابع عشر.

حيث إنه إن كان يوجد أناس يسكنون في تلك البلاد فإنهم قد يكونون هنا.
لقد قال الآخرون إن هذه الحملة قد تكون محفوفة بالمخاطر بسبب ارتفاع الشمس و شدة الحرارة، ثم إنهم متعبون بسبب قلة النوم و المجهود الذي بذلوه في التجديف و السير على الأقدام بالنسبة للبعض الآخر، و الأهم من ذلك كله أنه حتى و لو وجد سكان، فإنهم مع ذلك لن يستطيعوا تحقيق غنيمة معتبرة في صفوفهم بسبب ضرورة التعرف عليهم عن بعد، ذلك أن السكان المحليين إن رأوا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية لمقاتلتهم فإنهم سينتظرونهم، و إلا فإنهم سيبحثون بسهولة عن مكان آمن. مع ذلك فإن ألفارو فاسكيز واصل رحلته كمن يعتزم تحقيق أمر عظيم، إن لم يكن مصيره عكس ذلك.
هكذا بعد أن سار قدما على مسافة فرسخ و نصف، خاطب أحد أفراد السرية القائد قائلا: "أعتقد أني أرى على طول هذا الممر المائي أشياء تشبه المنازل." نظر القائد بتمعن، ثم تأكد بالفعل من وجود قرية شاهدها أيضا الآخرون الذين كانوا هناك.
ثم قال ألفارو فاسكيز: " إن غنيمتنا الآن ماثلة أمامنا، بيد أنها مكشوفة إلى حد أنه ستتم مشاهدتنا بالضرورة قبل وصولنا إليها؛ و بما أنني لا أرى أنها قرية كبيرة قد تضم أناسا من المحتمل أن نشتبك معهم، فلتحقيق بعض النجاح يتعين على كل واحد منا أن يجري بأقصى سرعة ممكنة ثم نهاجمهم بكل قوة، فإذا لم نستطع أسر الرجال الشباب فإن علينا أن نمسك المسنين و النساء و الأطفال الصغار، ثم علينا أن نقتل بلا رحمة كل من يحاول الدفاع عن نفسه. بخصوص الآخرين، علينا أن نأسرهم بأفضل طريقة ممكنة." فقبل أن ينهي فكرته، بدأ البعض منهم في حث الخطى، في حين كان البعض منهم يجري بأسرع ما يمكن، أما البيظان فبدوا غافلين و لم ينتبهوا لهذا الخطر الداهم عليهم عند ما هاجمهم أعداؤهم، حيث أصاب الجميع الارتباك الذي تفرضه

ظرفية مثل هذه. عند ما رأوا الرجال يهاجمونهم بشكل مباغت و بتلك الجرأة و مسلحين بأسلحة بدت غريبة عليهم[101]، أصيبوا جميعا بالذهول. فحيث إن رجالنا تحلوا بشجاعة كبيرة عند ما شاهدوا تفرقهم و جزعهم، و بسرعة بدؤوا في أسر أكبر عدد منهم، و بما أن البعض منهم حاول الدفاع عن نفسه، فقد قتلوهم دون رحمة.

بيد أن الأمر لم يستغرق وقتا طويلا، ذلك أن العدو بدأ في الفرار، ثم إن منهم من ألقى النظرة الأخيرة على زوجاته و أطفاله، ففي ميدان محدود كانت الغنيمة ستكون أكبر لو أن الذراع البحري لم يكن قريبا، حيث إن العديد منهم فر عبره، ذلك أن أغلبهم كان يعرف السباحة، ليس فقط الرجال، بل النساء و الأطفال كذلك. كما أن آخرين كانوا يتحلون بالجرأة و سريعي الخطى قد فروا في كل الاتجاهات معولين على سرعتهم، مع أن البعض قد سقط في الوهم، لأنهم التقوا ببعض رجالنا الآخرين الذين لاحقوهم وأسروهم رغم سرعة هرولتهم، فأسروا منهم ما مجموعه خمسة و ثلاثين، علاوة على من قتل.

بالتأكيد فإن ذلك الفارس المساعد و الذي كان قائدهم كما سبق و أن قلنا، قد امتُدِح كثيرا على إنجاز هذه العملية، ذلك أنه و لمسافة طويلة ناقشوا حيويته و سرعته، مقدمين التشكرات لما قام به، كذلك خدمته للأمير و لحصولهم على منفعة خلال كافة مراحل هذه الرحلة. الأهم من ذلك أن من بقي في السفن كانوا فخورين بمقدم شركائهم و معهم هذا المكسب الكبير، كما أن فرح زملائهم قد ازداد عند ما سمعوا كافة تفاصيل المغامرة التي قام بها الآخرون.

---

[101] بدون شك، و كما سبق أن بينا ذلك في هامش سابق، فإن تفوق البرتغاليين من حيث التسليح كان السبب الحقيقي وراء ميل ميزان القوة لصالحهم في هذه الغارات، إضافة أيضا إلى عامل المباغتة. (المترجم).

الفصل 43
كيف عادوا إلى الشاطئ و البيظاني الذي وقع في أسرهم

لقد ارتأى من بقوا في السفن، بالنظر إلى مجهود شركائهم، أنهم إن لم ينجزوا أمرا عظيما فإن ذلك سيكون بالنسبة لهم خسارة كبيرة و وصمة عار في المستقبل. هكذا انضم بعضهم إلى بعض الليلة الموالية ثم ركبوا زوارقهم و سافروا يومين و ليلتين، عندها نزلوا على البر، بيد أنه رغم المجهود الذي بذلوه، فإنهم لم يستطيعوا أسر سوى بيظاني واحد اتخذوه كدليل لهم و انطلقوا للبحث عن ثلاث قرى كانت توجد على مسافة داخل البر. بيد أنهم لم يستطيعوا الحصول على أي شيء يمكنهم أخذه، إذ إن القرى المذكورة كانت خالية من أي أثر للسكان، فالبيظان الذين فروا قد أبلغوا البلد كله إلى أبعد مدى يمكن للأخبار أن تصله. أخيرا عادوا إلى سفنهم غير راضين بسبب ما بذلوه من مجهود.

الفصل 44
كيف أبحروا إلى أرض الزنوج

بعد أن أيقنوا أنه ليس بوسعهم تحقيق المزيد من المنافع في تلك البلاد، نظرا لحالة الاستنفار في صفوف البيظان، فقد بدأ القباطنة في التشاور مع قادة سفنهم بخصوص الخطوة المقبلة التي عليهم اتخاذها.

فقال بعضهم: " لسنا قادرين و لا يتحتم علينا الانتظار لفترة أطول في هذه البلاد، ما دمنا نعرف أن مقامنا لن يجلب لنا أي منفعة بل خسارة جلية، ذلك أننا نبذر زادنا و نتعب أجسامنا، دون أمل في الحصول على نتيجة إيجابية. لذا فإنه قد يكون من الصواب بالنسبة لنا، ما دام الرب قد منحنا ما يكفي، أن نعود إلى وطننا مكتفين بالغنيمة التي حصلنا عليها و التي ليست قليلة بالدرجة التي لا تكون لها قيمة تعوض مجهودنا و تحفظ لنا ماء الوجه أمام جيراننا."

ثم رد آخرون عليهم: "بالتأكيد فإن عودتنا ستكون وصمة عار بالنسبة لنا، فإذا رجعنا على هذا الحال سيحط ذلك من مكانتنا، بل علينا أن نتوجه إلى أرض الزنوج حيث استطاع دينيس دياز السنة الماضية ومعه سفينة واحدة أن يأخذ بعض السبايا، و حتى إذا لم نحصل على أي شيء أكثر من رؤية تلك البلاد، مما سيمكننا من تقديم إبلاغ للأمير بهذا الخصوص للمولى الأمير، فإن ذلك سيرفع من مكانتنا. فعلينا أن نتوجه إليها مادمنا قريبين منها، فأي شيء حققناه سيكون مفيدا لنا." اتفقوا جميعا على أنه من السداد الذهاب إلى تلك البلاد، عسى الرب أن يمنحهم النجاح الذي يتوقون إليه.

ثم رفعوا أشرعتهم و انطلقوا مستأنفين رحلتهم، فبعد أن قطعوا مسافة ثمانين فرسخا وصلوا بالقرب من ساحل غينيا حيث جهزوا قواربهم للنزول على اليابسة، بيد أنه عند ما شاهدهم السود نزلوا

إلى الشاطئ و معهم تروسهم و رماحهم كرجال يتأهبون للنزال. لكن رغم أنهم أظهروا قوة و رباطة جأش، فإن رجالنا لم يكن بوسعهم الذهاب إلى الشاطئ بسبب هيجان البحر هناك، فمن مكان بعيد من الشاطئ تمكنوا من مشاهدة أرض خضراء يوجد بها بشر و حيوانات يستخدمها سكان البلد. كانوا يرغبون في مواصلة رحلتهم، غير أن هبوب عاصفة عليهم مع تقلبات قوية لحالة الطقس أرغمهم على العودة دون تأخير.

الفصل 45
كيف سلكوا طريقهم عبر الشاطئ

لقد استمرت العاصفة لمدة ثلاثة أيام حيث بقوا يسيرون إلى الخلف بشكل متواصل قبل هبوب رياح عكسية، بيد أنه بعد انتهاء هذه الأيام الثلاثة خفت العاصفة و أصبح الطقس هادئا، وصلوا إلى المكان الذي أسروا فيه البيظان السبعة حيث كانت القيادة في هذا اليوم لمافالدو الذي انتظر قدوم السفن الأخرى. عند ما تجمعت في وضح النهار صعد على ظهر سفينته و خاطب القباطنة قائلا: " ترون جيدا أنكم الآن بالقرب من المكان الذي أسرنا فيه البيظان السبعة، فبحسب أثر الرجال الذي عثرنا عليه و شباك صيدهم فإنه من المنطقي أن تكون الأرض مأهولة. لذا، إن كنتم تشاطرونني نفس الرأي، فإني أرغب في السير على الشاطئ و أرى هل يمكنني الحصول على غنيمة."

و كما تعلمون فإن الأهداف تختلف باختلاف الأشخاص، بعضهم بدأ بالقول بأن هذا الخروج يبدو له عديم الفائدة ما داموا قد حصلوا على ما فيه الكفاية و يستطيعون العودة به إلى وطنهم، كما سبق أن قالوا قبل ذهابهم إلى بلاد الزنوج. أما البعض الآخر فقد قال إنه ما دامت الحملة محفوفة بالمخاطر فإن عليهم الذهاب ليلا و ليس نهارا.

ثم خاطبهم مافالدو قائلا: " أنا هو قائدكم اليوم، فكلكم ملزم بطاعتي، تماما كطاعته للأمير إن كان معنا، فيمكنكم أن تتصوروا أني لا أحرص على حياتي بدرجة أقل مما يحرص كل واحد منكم على حياته. لذا فإن هدفي، بغض النظر عن اعتراضاتكم، هو الذهاب قدما، فحتى لو افترضنا أن الأرض مأهولة، فلا يمكن الجزم بأن البيظان سيكونون في انتظارنا على الشاطئ. فإذا سرنا

في النهار، فإن ذلك سيمكننا من الرصد الجيد للبر و معرفة الاتجاه الذي علينا أن نسير عليه.
رد الآخرون بأنه يكفي أنه هو القائد، فمع أن الرأي المخالف قد يكون لصالح بعض أفراد السرية، فإنه من الضروري طاعته، إلا أنهم توسلوا إليه بالتمعن مليا في الأمر، إذ أنهم لن يتراجعوا مهما كانت المغامرة التي قد يقعون فيها. لقد تم إخراج القوارب بسرعة و تأهب من عليهم أن يذهبوا ثم انطلقوا بالفعل. كان عددهم الإجمالي خمسة و ثلاثين جنديا، فأثناء تقدمهم باتجاه اليابسة قال أحد الرجال الذين كانوا في القوارب للقائد: " لا أدري ما ذا أرى هناك، يبدو لي أن تلك الأشياء السوداء الواقعة على الضفاف الرملية هي رؤوس بشرية، فكل ما نظرت إليها عن قرب، كلما اتضح لي أنني على صواب، فإذا نظرت عن قرب فستلاحظ أنها تتحرك." عندها أمر القائد الزوارق بالتوقف قليلا، فاستنتج البيظان أن مناورتهم انكشفت، لذا ظهروا و كان عددهم خمسين رجلا جاهزين للقتال، لكنهم مسلحون فقط بالرماح.
عند ما تقدموا، قرَّب مافالدو الزوارق من الشاطئ فأبدى البيظان فرحهم الشديد بذلك، حيث كان بعضهم يغوص في الماء حتى مستوى العنق و البعض الآخر بمستوى أخفض، لكن كانوا كلهم متلهفين لملاقاة المسيحيين. عند ما شاهدهم مافالدو على الشاطئ و هم على ما هم عليه ،مستعرضين مظهرهم و قوتهم، أشار إلى القوارب الأخرى بالاقتراب منه. عند ما اجتمعوا، أمر بوقف التجديف و بدأ في الحديث إليهم على النحو التالي: " أيها الأصدقاء، تعلمون الهدف الذي من أجله جئنا من بلدنا و هو خدمة الرب و مولانا الأمير و شرفنا و منفعتنا، فبنعمة المولى العظيم الذي خلق كل شيء فقد حصلنا على مكسب كبير من غنيمتنا دون أي خطر علينا، فكل شرفنا اليوم يتمثل في أننا على مسافة خمسمائة فرسخ من بلدنا في بلاد مجهولة حيث رفعنا انتصاراتنا

الماضية بمغامرات جديدة. بما أن الرب يعلم مدى إخلاصنا، فإنه قد حدد لنا مكانا و وقتا يمكننا أن نحقق فيه نصرا مشرفا. إنكم تشاهدون البيظان أمامكم و هم بهذه الدرجة من الاعتزاز بالنفس كما لو كانوا يطوقوننا نصائحهم و دون أمل في النجدة و يستفزوننا و كأنهم واثقون من النصر المسبق علينا. فمع أنهم يتفوقون علينا عدديا بالثلث، بيد أنهم لا يعدون كونهم مسلمين أما نحن فمسيحيون، فواحد منا يكفي لاثنين منهم، فالرب هو من يمنح النصر و هو الذي يعلم بإخلاصنا في خدمته المقدسة، فإن لم نقاتلهم فإن ذلك سيكون مذمة كبيرة لنا و سنشجعهم على من هم في ملتنا. لذا فإن رأيي هو أن تتحرك القوارب الثلاثة بين صفوفهم، و من ثم يبلي كل منكم بلاء حسنا."

رد عليه آخرون قائلين: "إن مقصدكم سليم و مفيد جدا، بيد أنه ما ذا نفعل إن كان هناك أناس مختبئون؟ فقد يكون خلف هؤلاء الذين في انتظارنا أناس آخرون أكثر عددا و لا نشاهدهم و قد نصبوا كمينا لنا، فإن نحن نزلنا على اليابسة فإن هزيمتنا ستكون محققة."

أما الآخرون فلم يهتموا بتصحيح هذه الأمور، بل بدؤوا في التشكي قائلين إنهم إذا كانوا دوما يفكرون بهذه الطريقة، فإنهم لن يحققوا عملا بطوليا واحدا، ثم أضافوا : " هل من الصواب أن نرى شرفنا أمامنا و نترك الأمر بهذه الطريقة خوفا من عقبة محل شك إلى هذه الدرجة؟ فكل الرجال الذين نراهم أمامنا ليسوا قادرين على مقاومة عشرة منا في معركة، ذلك أنهم ليسوا سوى ثلة من أوغاد البيظان لم يتعلموا أبدا كيف يقاتلون إلا على طريقة الوحوش، فعند إصابة أول واحد منهم بجرح فإن الرعب سيتملك الآخرين، لذلك فإنه ليس بمقدورهم مواجهة أسلحتنا[102] لفترة طويلة. لينعم بالسعادة من تتواجد سفنهم العسكرية في مضيق سبته و في بحر الشرق إن كان

[102] يتضح من تصريح مافالدو شعوره بتفوق أسلحة البرتغاليين على الأسلحة التقليدية التي بحوزة البيظان، راجع الهامش الموالي. (المترجم).

ليس لهم ما يخشونه سوى هذه الحثالة." كانت هذه الاستقراءات الأخيرة تتفق مع نية القائد، و قد أثنى كثيرا على من عبروا عنها. لذا أمر أن يكون في مقدم القارب ثلاثة رجال مسلحين بالرماح و التروس لحماية أنفسهم و حماية الآخرين الذين يجدفون في حال تعرضهم لرماية البيظان، فعند ما تصل القوارب إلى الشاطئ بأسرع ما يمكن فعليهم أن يقفزوا منها فورا بأسلحتهم. ثم أمر رماة أسلحة القوس[103] بتعبئة أسلحتهم مع تسديد رمايتهم باتجاه يسمح باستخدام المسامير اللولبية بأحسن طريقة. بعد ذلك تم جدف القوارب بتحمس كبير باتجاه القائد حيث أمرهم بالاندفاع منحني الظهور بين البيظان كما تم تحديد ذلك مسبقا، و هو ما تم تنفيذه فورا، ثم صاح الجميع بصوت عال: "القديس جورج"، "القديس يعقوب"، "البرتغال"، ثم حملوا عليهم كرجال لا يكترثون بشجاعة أعدائهم؛ فكأمر قضى به الرب، فقد أطلق البيظان أسلحتهم فور بدء الهجوم، لكن لم يصب أي مسيحي إصابة خطيرة، بل على العكس فقد تم استخدامها لاحقا، إذ استولى رجالنا على هذه الأسلحة و استخدموها كما لو كانت أسلحتهم الخاصة.

[103] سلاح قاذف و فعال، يقتل من مسافة بعيدة نسبيا. (المترجم)

الفصل 46
بخصوص المعركة التي خاضوا و البيظان الذين أوقعوهم في الأسر

عند ما خسر البيظان أسلحتهم اعتبر المسيحيون أن النصر قد تحقق و بدؤوا في رمي أعدائهم بقوة و كأنهم يصبون جام غضبهم لأول مرة، فعند ما سقط البعض منهم قتيلا على الأرض، بدأ الآخرون في الفرار، فيمكنك تصور الهرولة التي قاموا بها. فمع أن سرعة الطرفين لم تكن متكافئة بسبب الأسلحة التي يحملها جنودنا، و مع أنهم ليسوا متعودين على الجري، فإن الإرادة، التي غالبا ما تزيد من القوة، قد جعلتهم ندا للعدو.

هكذا فإن أربعة إلى خمسة من البيظان قد أصابهم أخيرا الإعياء و عند ما لحق بهم جنودنا بحثوا عن آخر ملاذ يؤمنهم، فرموا أنفسهم على الأرض كما لو كانوا يلتمسون الرحمة. لقد حصلوا على ما أرادوا، و السبب الأساسي في ذلك أنه لو قتلهم جنودنا فلن يكون مكسبهم كبيرا، ثم إن الآخرين الواقعين قبالتهم و الذين ينتظرون الآخرين القادمين من الخلف قد خاطبوهم قائلين إنه قد يكون من المفيد تعقب هؤلاء البيظان، إذ من المحتمل أن لهم زوجات و أطفالا في النواحي القريبة و لن يبرحوا المكان الذي تركوهم فيه.

فمع أنهم كانوا مرهقين، إلا أن عليهم مع ذلك البحث عن هؤلاء الأطفال و النساء الذين بإمكانهم أخذ عدد كبير منهم. هكذا تركوا بعضهم لحراسة أولئك الأسرى ثم ساروا باتجاههم مسرعين ما وسعهم ذلك. فقبل أن يصلوا إلى منازلهم ورغم إرهاقهم، أطلق البيظان صيحات تحذيرية لتنبيه الناس الآخرين و الذين كانوا يشاهدونهم على مقربة منهم، و هذا ما دل المسيحيين على أن مكان تواجدهم ليس بعيدا. لم يكن صراخهم في الواقع سوى تنبيه

لزوجاتهم و أبنائهم بأن عليهم وضع أنفسهم في مكان يحميهم قبل أن يصلوهم. فاستجابة لتلك الصيحات، خرج نساؤهم من الحي، و بما أن الأرض كانت جد مسطحة فإنهم شاهدوا كيف كانت سرعة أزواجهم و هم يجرون و مطاردة جنودنا لهم. لذا فقد شرعوا جميعا في حمل أطفالهم على أعناقهم و البعض منهم على أذرعه أو أمامه ليرشدوهم قدر المستطاع على الفرار. ثم فر كل منهم نحو طريقه الخاص عبر ذلك السهل، رصدهم المسيحيون و معهم أطفالهم حيث شعروا بالرضى و تحمسوا أملا في أن لا تخور قواهم أو تمنعهم من مطاردتهم.

فرغم أنهم كانوا منهكين، فقد حثوا الخطى كمن يريد أن يصل إلى حيث توجهه إرادته. بيد أنه نظرا لطول المسافة و الوهن لذي لحق بهم، في حين أن النساء البيظانيات لم يشعرن بالتعب بعد، فإنهم لم يستطيعوا مطاردتهن لمسافة طويلة، فبعد أن أخذوا بعضهن، لم يعد بوسعهم مواصلة السير مسافة أبعد، فكان عليهم انتظار من يأتي من الخلف ليخبرونهم بضعفهم الذي بلغ درجة شعروا معها أنهم لم يعودوا يتحملون حتى الرجوع. لذا قرروا العودة، غير أنهم أخذوا قسطا من الراحة قبل ذلك حيث كان ذلك جد ضروري بالنسبة لهم، نظرا لشدة التعب الذي لحق بهم.

هكذا وصلت الغنيمة في ذلك اليوم اثني عشر أسيرا في صفوف الرجال و النساء. بيد أنه علاوة على هذا المكسب، فإن الشجاعة التي هاجموا بها عدوهم كانت جديرة بحصولهم على مكانة سامية، فأعتقد أنه قبل هذا المكان لم يتم أسر بيظاني إثر انتصار مشرف كما فعل هؤلاء. آه، فكم تأسف أولئك الآخرون الذين بقوا في السفن و قباطنتهم لكونهم لم يساعدوهم على تقاسم ذلك الشرف. كما أنه لم يكن بمقدورهم الإصغاء بفخر إلى الآخرين و هم يروون قصة نصرهم، لأنهم رأوا أنهم لم يفعلوا شيئا مقارنة بالمجهود الذي بذله الآخرون. ثم بدؤوا في التشاور بخصوص المسار الذي عليهم أن

يسلكوا بعد ذلك الإنجاز، ففي نهاية نقاش طويل بهذا الخصوص قرروا دخول بعض البحيرات الواقعة بين الرأس الأبيض و رأس تيرا[104]، ذلك أنهم ارتأوا أنه في تلك الجزر لن يعدمهم الحصول على مكسب ما. لقد اتفقوا جميعا على ذلك، نظرا لأن احتمال الحصول على منفعة متساو، وفقا لتقديرات الجميع.

[104] أو ما يعرف اليوم بشبه جزيرة تيلا/ Thila و هو الذي يسد حوض سينت جان / Baie Saint-Jean من ناحية الشمال. راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، مرجع سابق، ص. 139 و ص.312 .

الفصل 47
كيف عثروا على السلاحف في الجزيرة

في اليوم الموالي انطلقوا وفق المسار الذي تم تحديده، فعند ما وصلوا إلى الضفاف شاهدوا جزيرة أبعد من الجزر الأخرى إلا أنها صغيرة و رملية، هنا أرسوا زوارقهم ليروا إن كان بإمكانهم العثور على أي شيء مما كانوا يتطلعون إليه. لقد تبين لهم أن البيظان كانوا متواجدين هنا قبل وقت قصير و ذلك عن طريق الشِّباك و بعض أدوات الصيد التي عثروا عليها، و بالأخص الكمية الكبيرة من السلاحف البحرية و التي كان عددها حوالي مائة و خمسين.

و بما أن من سيقرؤون هذا التاريخ قد لا تكون لهم معرفة بهذا الحيوان، فليعلموا أن السلاحف البحرية هي حيوانات تعيش في البحر و قوقعتها عريضة بحجم ترس، فقد شاهدت ما يشبهها في مملكتنا في بحيرة أوبيدوس. فمع أنه توجد أشياء جميلة في تلك الجزر، إلا أن البيظان يمنحون هذه السلاحف قيمة خاصة. لقد استخلص جنودنا من ذلك أن هؤلاء السكان قد عبروا إلى جزر أخرى، إذ يبدو أنهم قد شاهدوهم، لذا فإنهم اتفقوا على عدم أخذ أي شيء عثروا عليه هناك، لأن البيظان سيعودون بالتأكيد إلى الجزيرة، فيعتبر ذلك إجراء أمنيا من جانبهم من خلاله يستطيعون تحقيق نصر عليهم عند ما يعودوا إلى هناك.

الفصل 48
كيف عادوا أيضا إلى الجزيرة و المسيحيون الذين قتلوا هناك

قد يناقض المصير طبيعته إن هو ظل يدور في نفس الاتجاه[105]، فهكذا و بعد أن لعب دوره المعهود، لم يسمح لسفننا كلها من العودة السارة و هي تتقاسم النصر. فبحسب ما ورد في *تعليقات قيصر*[106]، فلا الأعداء يستطيعون تحمل المعاناة المتواصلة و لا الأصدقاء المسرة الدائمة. لذا سأقص عليكم هذا الحدث في هذا المقام، مع أنه محزن، إلا أنه ينسجم مع ترتيب تاريخنا. فهكذا في اليوم الموالي و في الصباح الباكر عادت القوارب إلى الجزيرة وفقا لما تم عليه الاتفاق من قبل، بيد أنهم لم يعثروا على الشباك و وسائل الاصطياد الأخرى، إنما فقط على السلاحف البحرية و قد ربطت بحبال. لقد افترضوا أن البيظان، مع أنهم أخذوا معهم تجهيزاتهم، لن يكونوا بعيدين، فوقفوا هناك و نظروا إلى كافة الاتجاهات فرأوا جزيرة أخرى يفصلها ذراع بحري يجري بين الجزيرتين، أي تلك التي كانوا متواجدين فيها و الأخرى التي يرصدونها.

فنظرا لأنهم كانوا متلهفين لملاقاة أولئك البيظان و معتقدين أن حظهم لن يكون أقل في هذه المعركة مما حصلوا عليه في مواقفهم السابقة أثناء رحلتهم، فقد صمموا على التوجه إلى تلك الجزيرة ليروا إن كان بإمكانهم العثور على من يتوقون لملاقاتهم و هم لا يعلمون أن الأقدار تخبئ لهم عكس ذلك. هكذا ركبوا قواربهم بسرعة، حيث عبروا بواسطتها إلى الجزيرة المذكورة، و كأناس متهورين، لم يفكروا فيما قد يصيبهم، فبدؤوا في الانتشار في

---

[105] استهل المؤلف هذا الفصل بهذه الجملة ليبرز اعتقاده بتأثير التنجيم على مصائر البشر و على سير الأحداث. (المترجم).

[106] Commentaries of Caesar.

الجزيرة بجرأة كما لو كانوا يتجولون في ضيعاتهم الخاصة بهم و في وقت يسود فيه الأمن، فكما قال برنارد في الوصية التي أسداها لرشارد، سيد كاستيلو أمبروزو، بخصوص قيادة جيشه، أن من لا يعتقد أن عدوه يفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها هو نفسه فإنه يعرض نفسه للخطر.

ثم إن البيظان فكروا بنفس الطريقة التي فكر بها رجالنا، فاحترسوا بحذر و نصبوا لهم ببراعة ثلاثة كمائن خلف بعض الربى الرملية الموجودة هناك، فانتظروا إلى أن شاهدوا جنودنا بالقرب منهم. نظرا لتفوقهم الكبير من حيث الموقع، فقد أظهروا مكيدتهم و انقضوا بقوة على رجالنا كمن يبحث عن الثأر لأسر أقاربه و أصدقائه، فمع أن عددهم كان كبيرا مقارنة بقلة عدد رجالنا، فإن الأخيرين لم يتراجعوا، بل قاتلوهم بشجاعة لفترة طويلة ألحقوا خلالها إصابات بالغة بالبيظان، فلم تكن ضربات المسيحيين دون جدوى، بيد أن مجموعتنا، و قد رأت جسامة الخطر و ضرورة الانسحاب، بدؤوا في التراجع، ليس كمن يفر بل مع الحيطة و الشجاعة اللتين يتطلبهما الموقف.

نعم، لقد كانت المعركة بالفعل معركة عظيمة و كان القتال الذي قام به الرجال ممن شاركوا جيدا، بيد أن معظم الإصابات، إلى أن وصلوا إلى القوارب، كانت في صفوف البيظان، ذلك أنه قتل الكثير منهم أثناء هذا الانسحاب، في حين أنه لم يسقط أحد من المسيحيين حتى الآن، رغم جرح بعضهم. عند ما عادوا إلى القوارب، إما لأن قارب ألفارو جيل كان أقربهم أو أسهلهم دخولا، لذا تجمع أغلب المسيحيين فيه و كذا الحال في قارب مافالدو، غير أن من تبقى منهم عند ما حاولوا الوصول إلى قارب السفينة

الخاص بغونسالو باشيكو[107] وقعوا في أقصى درجات الخطر، ذلك أن القارب كان كبيرا، فرغم أنه كان الأخف حمولة، إلا أنهم لم يستطيعوا إطلاقه بنفس الطريقة التي جرت للقوارب الأخرى التي هي أصغر منه حجما، فالتصق بسرعة بالشاطئ حيث كانت حركة الأمواج في الربع الأخير من الجزْر.
عند ما شاهد بعض الذين يعرفون السباحة أن الخطر يتهددهم، قفزوا في الماء حيث أنقذوا أرواحهم سباحة، غير أن الآخرين الذين لا يتوفرون على تلك المهارة أرغموا على تلقي الموت العاصف بصبر، حيث دافعوا عن أرواحهم ما وسعهم ذلك. هكذا قتل سبعة منهم، فعسى الرب بفضله أن يسكن أرواحهم بين القديسين.
فكما ذكر الكتاب المقدس أن من دعا لشخص آخر فكأنما دعا لنفسه، فالرجاء منك أيها القارئ لهذا التاريخ أن تصلي للرب، فعسى أن تزيد شفاعتك من مجد أرواحهم. عند ما شاهد الآخرون الذي كانوا في القاربين الموت الذي حصل لأولئك الرجال بتلك الطريقة، توجهوا إلى السفن و قد أصيبوا بكآبة شديدة، و في خضم ذلك الضجر توجهوا إلى آرغين للتزود بالماء الذي كانوا في أمس الحاجة إليه. لقد أخذ البيظان القارب إلى نهر تيدره حيث فككوا الجزء الأكبر منه بفصل الصفائح الخشبية عن الدسر، لكن لا أدرى ما الهدف من ذلك، فقد يكون السبب هو عدم توفرهم على المهارة الكافية لاستخدامه بشكل أفضل. لقد روى البعض بعد ذلك من خلال البيظان الذين حالفهم الحظ في الوقوع في أيدينا أن قومهم أكلوا هؤلاء الرجال بعد موتهم، مع أن آخرين من أسرانا قد نفوا ذلك، ملتمسين مخرجا لبني جلدتهم من أمر مروع كهذا.

---

[107] رغم أن آزورارا لم يذكر ذلك صراحة، فقد كان غونسالو باشيكو و هو القائد الفعلي للسفن الثلاث من ضمن القتلى البرتغاليين السبعة. راجع بهذا الخصوص مقدمة : The Chronicle of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص.xiii

لكن مهما يكن من أمر فإن من عادتهم أكل كبد أسراهم و شرب دمائهم، لكن فقط، و كما قيل، فإن ذلك يتم بخصوص الذين قتلوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوتهم، معتبرين ذلك ثأرا عظيما. إنني أرى أن ذلك أمر أكيد، كما ورد في كتاب ماركو بولو من أن بعض الأقوام في تلك النواحي الشرقية متعودون على تلك الأفعال الحيوانية، فأرى أنه أيضا و حتى في الوقت الراهن، توجد طريقة في الحديث متفشية بيننا، إذ عند ما نفكر في شخص يحمل حقدا لآخر فإنه يكون سيئ النية تجاه خصمه، حيث إنه إن تمكن منه " فسيأكل كبده و يشرب دمه".

الفصل 49
كيف طلب لانساروته و آخرون من لاغوس ترخيصا من الأمير للذهاب إلى غينيا[108]

أعتقد أن ذكرى مقتل غونسالو دي سنترا كان يجب أن يستفيد منها أولئك الذين تحدثت عن مصيبتهم في الفصل الأخير، ذلك أنهم لو كانوا أخذوا العبرة منها لتفادوا الهلاك الذي لحق بهم؛ أقول بأنه كان عليهم أن يستفيدوا منها لو أنهم تركوا قواربهم في البحر، آخذين بعين الاعتبار حركة المد و الجزر، ذلك أنه لا يمكنهم ضبط وقت رجوعهم بدقة، بيد أن حظهم الموفق في عمليات أخرى منحهم أملا غير مؤكد، إذ اعتقدوا أنه قد يساعدهم في هذه العملية كما حدث مع مهام أخرى.

لكن لندع جانبا هذه الأمور و نستجمع قوانا و لنسر قدما للثأر لأولئك الرجال. فلتعلموا أن لانساروته، و هو الفارس الذي تحدثنا عنه سابقا، حيث كان جابي المكوس الملكية في لاغوس، قدم إلى الأمير و معه القضاة و قائد تلك المدينة و موظفي البلدية باسم كافة أعيان البلدة، فخاطبوه على النحو التالي:

"من المعلوم لسموكم كيف أن سكان مدينتنا هذه، منذ أن تمت السيطرة على سبتة و حتى الآن، قد أدوا دوما الخدمة المطلوبة منهم و لا يزالون على هذا النهج بأرواحهم و سفنهم في الحرب ضد المسلمين و لخدمة الرب و مولانا الملك. ففي عهد الملوك الآخرين و عند ما كانت سواحل مملكتنا تتعرض لمضايقات من قبل المسلمين، فإن سفننا كانت السباقة إلى التسلح و التصدي لهم، كما هو مدون في الكتب و في ذاكرة الرجال المسنين. لكل ذلك يا

---

[108] الواقع أن الترخيص قدم من قبل لانساروته و وفده لغزو جزيرة تيدره بالأساس. فيتضح من عنوان هذا الفصل، و حتى من عنوان الكتاب نفسه، أن هناك عدم انسجام كبير بين العناوين و مضامينها.(المترجم).

مولاي و بما أن سماحتكم قد أعطى الأوامر للبحث عن بلاد غينيا، فتعلمون جيدا أنه في هذه المدينة قمتم بتطوير الجزء الأكبر من معدات تسليحكم و منها حصلتم على مختلف أنواع الخدمة العسكرية التي تشكل قوتنا.
مولاي، بعد الطاعة التي علينا أن نفي بها للملك ابن أخيكم و مولانا، فإننا نلتزم بشكل أساسي بحبكم و خدمتكم، لذا ارتأينا طريقة تكون فيها خدمتنا لكم متميزة بحيث يرفع استحقاق مجهوداتنا الكبيرة من شرفنا في ذاكرة الأجيال المقبلة. فحتى لو لم نحصل على تكريم إضافي على عملنا غير ذلك فإننا سنكتفي به، بيد أننا متأكدون أنه علاوة على ذلك سنجني مكسبا كبيرا، و بالأخص أملنا في الحصول من سموكم على المكافآت عند عودتنا من خدمتكم. فالحقيقة يا مولاي، أن هذا العمل سيكون عظيما لدرجة أن سكان هذا البلد، حتى بعد عهدكم و ما دامت منطقة مأهولة من مناطقنا، فإن على سكانها أن يصلوا للرب من أجلكم.
"فإن سعى البعض عن سوء نية بأن لا يعترف بالجميل لدرجة نكران ذلك، مع وجود مزاياك و التي ستكون ماثلة للعيان يوميا، فإن ذلك سيكون دليلا دامغا على بطلان حجتهم، ذلك أنهم سيرون أمام أعينهم سلالات طويلة من الخدم، رجالا و نساء، حصلوا عليها لخدمتهم في البيوت التي ينعمون فيها بعيش كريم جاءهم من الجزر التي جعلتها آهلة بفضل وسائلك. نعم، هناك أيضا وثائق قديمة ستتحدث دوما عن الامتيازات الكبيرة و العطايا التي حصلوا عليها منك. لذا، مولاي، بعد أن تأملنا في كل ذلك و بالنظر إلى أنكم تبذلون كل يوم المزيد و المزيد في الحرب ضد المسلمين، و بعلمنا أن الحملة التي قام بها لانساروته بسفنه السريعة قد مكنت من اكتشاف جموع غفيرة من البيظان في جزيرة تيدره، حيث قتل فيها بعد ذلك غونسالو دي سنترا، و بعد أن اتضح لنا أن البيظان

في الجزيرة المذكورة يشكلون عقبة كأداء في وجه سفنكم، لكل ذلك فإننا نرغب، بعد موافقة سماحتكم، في مواجهتهم، إما بالقتل أو بالسبي حتى ندمر قوتهم بحيث تصبح سفنك قادرة على الإبحار على طول ذلك الشاطئ[109]، دون أن تخشى أيا كان.
فإن كلل الرب عملنا بالنجاح، فإننا سنكون قادرين، علاوة على تدمير أعدائنا، أن نحقق غنيمة كبيرة تحصلون من خلال خمسكم على مكسب كبير منها، كما أننا سنحصل أيضا منها على نصيبنا. فبهذا الخصوص نود معرفة ردكم كي نستطيع بسرعة مواصلة رحلتنا، ذلك أن فصل الصيف يوفر لنا طقسا ملائما هناك.

---

[109] يتضح من خلال مطلب وفد لاغوس أن الترخيص المنشود هو بهدف حملة لقتل و سبي البيظان المتواجدين على طول الشاطئ الموريتاني الحالي، و ذلك لإفراغ هذه المنطقة من سكانها، و هو ما يرى البرتغاليون أنه يضمن لهم أمن ملاحة سفنهم و إقامة قاعدة دائمة لهم في أرغين فيما بعد. (المترجم).

الفصل 50
كيف رد الأمير على وفد لاغوس و التسليح الذي تم تجهيزه ضد الجزيرة المذكورة[110]

كان رد الأمير على هذا النحو: " كثيرا ما تهمل الأمور العظيمة عند ما تكون المسائل التافهة هي التي تشغل الناس أكثر، فالرجل العادي الذي يقدم نفسه بالكامل أفضل من الشخصية التي تحتل مكانة اجتماعية مرموقة و التي لا تقدم إلا النزر القليل منها.علاوة على ذلك، فإن مشاعر الإخلاص التي أبديتم لها ثمن أهم من أي خدمات يسديها أقوى الرجال و التي قد لا تمنحني هذا القدر من الرضى. و لكوني واثق من ذلك، فلست بحاجة إلى برهان أفضل مما قمتم به في الماضي و هو ما يفرض علي تكريمكم و ترقيتكم بحب و سرور، تماما كما سبق أن فعلت مع أعيان كل مدينة من مدني أو قراي و التي بفضل الملك مولاي أديرها مع كامل الصلاحيات.

أما بخصوص الترخيص الذي طلبتم مني للذهاب ضد البيظان في جزيرة تيدره، فيسرني أن أمنحه لكم و أمنح لكم بذات المناسبة عطفي و عوني: نعم، إن طلبا مثل الذي تقدمتم به لأمر محبذ، مع أنه لا يجب التعويل كثيرا على أمل تقاسم المزايا كما أدركت و امتدحت نيتكم الطيبة التي كانت باعثكم لذلك.

فلذلك يمكنكم الآن أن تبدؤوا بترتيب أموركم للانطلاق كما يمكن أن تطلبوا مني أي شيء لمساعدتكم في تحضيراتكم، ذلك أني لن أكون أقل سخاء إزاءكم في هذه الحملة مما قد أفعله مع أي من خدمي و الذين قد يستعدون بأمر مني ليكونوا جاهزين للرحلة المذكورة."

---

[110] أي جزيرة تيدره.

عند ما أنهى حديثه، عظمه الجميع و قبلوا يديه باسم أولئك الآخرين الذين قدموا من أجلهم. الآن و بعد أن استمع الجميع إلى الخطاب بدؤوا فورا في تجهيز تسليح سفنهم و انطلاق الرحلة باسرع ما يمكن، ثم إن خبر تجهيز الأسلحة قد تردد في كافة أصقاع المملكة، حيث حفزت هذه الأخبار البعض على الالتحاق بالمفرزة المذكورة. بيد أني أعتقد أن ذلك لم يكن ليتم إلا بأمر من الأمير، ذلك أنه لا يمكن لأي شخص، كما سبق أن قلنا، أن يذهب إلى هناك[111] دون إذن من الأمير.

[111] في الترجمة الإنجليزية ورد: "......*أن يذهب إلى غينيا دون ترخيص من الأمير*"، فعند الرجوع إلى النص الأصلي بالرتغالية وجدت أن كلمة غينيا غير موجودة و لا تنسجم مع السياق، لذا آثرت دون تردد حذفها و تبني ما ورد في النص الأصلي. (المترجم).

الفصل 51
كيف غادرت السفن لاغوس و من هم قباطنتها

بهذه المناسبة، استدعي السيد الأمير هنريك من قبل أخيه السيد بدرو الذي كان وصي عرش المملكة باسم الملك، كما سبق و أن قلنا، للذهاب إلى كويمبرا لترقية السيد بدرو البرتغال إلى رتبة فارس و هو الابن الأكبر للوصي المذكور الذي كان حينها حاكما لتلك المناطق، حيث صدرت الأوامر إليه للذهاب إلى قشتالة و هو ما قام به بالفعل. فبما أن الملك السيد جوآو الثاني، الذي كان وقتها ملك تلك البلاد، كان في صراع مع أبناء عمومته، ملك نافارا و الأمير السيد هنريك، و الذي كان رئيس نظام سانتياغو و أعيان آخرين من تلك المملكة كانوا يدعمونهما، و ذلك نظرا للعداوات التي برزت بين الملك المذكور و هؤلاء السادة، حيث كان المتسبب فيها هو الحاكم السيد ألفارو دي لونا.
فلكونه ينحدر من أرومة و طبيعة متواضعتين و يتوفر على ثروة عظيمة و أسرار أخرى غير معروفة، فقد بلغ درجة من التنفذ بحيث كان يتصرف وفق ما يحلو له في المملكة، فهكذا تم قتل و تدمير أعيان قشتالة باسمه، كما ستطالعون ذلك بتفصيل أكثر في التاريخ العام للمملكة، إن تطلبت الأعمال المذكورة ذلك. لقد أراد الأمير السيد بدرو بالفعل أن يدرك العالم التقدير الكبير الذي يكن لأخيه، إذ اعتبر بمثابة شرف عظيم أن تتم ترقية ابنه إلى رتبة فارس على يد عمه، بدل أي أمير آخر في إسبانيا.
ثم إنه من بين الأمور التي سمعتُ أن الأمير قد قالها للابن المذكور عند ما غادره، ما يلي: أنه كلفه بأن يحفظ ذكرى نظام الفرسان الذي رقي إليه، و بالأخص أنه استلمه من يده، لأن ذلك يعتبر مسؤولية جسيمة عليه أن يتحملها. بيد أنه قبل أن يغادر الأمير هنريك لاغوس فقد ترك قيادة كافة السفن في يد لانساروته، و هو الفارس الذي سبق و أن تحدثنا عنه؛ لقد تم ذلك بموافقة جميع القباطنة الآخرين، ذلك أنه كان هناك الكثير من الأشخاص من

ذوي الشرف العظيم و القيمة، إلا أنه نظرا لحصافة و تكتم الرجل، فقد أعربوا عن سرورهم بتوليه تلك المهمة.

فمن بين من كانوا هناك سويرو دا كوستا، قائد مدينة لاغوس و هو نبيل و كريم المحتد و قد نشأ منذ نعومة أظافره في بلاط الملك، السيد ادوارت، كما سبق له أن شهد العديد من المعارك الكبيرة، إذ شارك في معركة مونفدرو مع الملك السيد فرناندو دي آراغون ضد جيش بلنسية، كما شارك في حصار بالاغوير حيث تم إنجاز أمور عظيمة، وكان أيضا مع الملك لاديسلاوس عند ما هاجم مدينة روما[112]، ثم كان مع الملك لويس دي بروفانس طيلة الحرب التي خاضها، و شهد أيضا حرب آزنكورت التي وقعت فيها معركة كبيرة بين ملكي فرنسا و أنجلترا، كما شارك في معركة فالامونت مع حاكم فرنسا ضد دوق أوسستر و كذلك في معركة مونتسكير و التي كان فيها كل من كونت فواكس و كونت آرمنياك.

لقد شارك أيضا في السيطرة على سواسونس و حصار أراسا و سبته، حيث برهن في كافة هذه المواقف على أنه عسكري شجاع، ثم إن سويرو دا كوستا هذا كان أيضا صهر لانساروته. كان أيضا ضمن هذه القيادة ألفارو دي فريتاس، قائد الجازور الذي ينتمي إلى نظام سنتياغو و هو نبيل سبق له أن قام بعمليات أسر كبيرة في صفوف مسلمي غرناطة و بني مرين[113]؛ كذلك غوميس بيريز، قائد سفينة الملك الذي سبق و أن تحدثنا عنه في فصل آخر. ثم رودريغيز إيانيس دي ترافاسوس، خادم وصي العرش و الذي

---

[112] الواقع ان لاديسلاوس كان ملك نابل و قد دخل روما بجيشه سنة 1404 لإخماد تمرد ضد البابا إنوسنت السابع، فمن هنا كان اللبس الذي وقع فيه الكاتب. انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص. 236 ، هامش رقم 2 .

[113] في النص الأصلي بالبرتغالية و في الترجمة الإنجليزية *Bellamarim* و هي بحسب الترجمة الفرنسية و التي لم نطلع عليها إلا في نهاية هذا العمل، تعني بني مرين، راجع بهذا الخصوص: Zurara, Gomes Eanes de, *Chronique de Guinée*، ترجمة و هوامش جاك بافيو/ Jacques Paviot و أخرين ، الناشر Chandeigne ، 1994 ، ص.315 ، هامش رقم 14.

كان مساعد فارس متحمس و قد بذل قصارى جهده لرفع مكانته، كان هناك أيضا بالنسو و هو رجل كثيرا ما قاتل ضد المسلمين و قضى حياته كلها في خدمة الرب و المملكة، حيث قام بإنجاز أعمال عظيمة، كما ذكرنا في التاريخ العام، بعد السيطرة على سبتة.

كان من حظ أشخاص آخرين طيبين و شرفاء أن شاركوا أيضا في المفرزة المذكورة لم أذكرهم بشكل مفصل، من قبيل جيل إيانيس و هو فارس و أحد سكان تلك المدينة و ستيفاو أفونسو و غيرهم.

أقول بإيجاز إنه تم في ذلك المكان و السنة[114] تسليح أربع عشرة سفينة إضافة إلى سفن أخرى تم تسليحها في لشبونة و جزر ماديرا، أي تلك الخاصة بدينيس دياز الذي كان أول من وصل إلى بلاد الزنوج و تريستاو و هو أحد قادة تلك الجزيرة و قد ذهب شخصيا إلى هناك و معه سفينته، إضافة إلى سفينة ألفارو غونسالفيز داتايده، جابي مكوس الملك و بعد ذلك كونت آتوغويا.

علاوة على ذلك، فقد قام جوآو غونسالفيز زاركو، الذي كان حاكم ماديرا، بإرسال ثلاث سفن، ثم كانت هناك سفن أخرى لم نتمكن من ذكر أسماء قباطنتها في هذا المكان. عليكم أن تعلموا فقط أنه في هذه السنة تم تسليح ستا و عشرين سفينة إلى بلاد الزنوج[115]، علاوة على سفينة فوستا التي تعود إلى بالنسو، حيث انطلقت منها في البداية ثلاث عشرة من لاغوس ثم تبعتها السفن الأخرى، بحسب قدرة كل منها، إلا أنها لم تشارك كلها في عملية تيدره.

و مع أنه لم تذكر تفاصيل هذا التاريخ تماما كما يجب، لأنه في هذه الحملة لم تكن السفن مجتمعة، فإننا سنذكر فقط ما نستطيع بأفضل طريقة يمكننا التعبير بها عن ذلك.

---

[114] سنة 1447 أما المكان فهو بالطبع لاغوس. انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ، ص.237 ، هامش 1 .

[115] يقصد جزءا من تلك السفن فقط، لأن أغلبها، كما سيتضح لا حقا، سيتوجه إلى جزيرة تيدره. (المترجم).

الفصل 52

كيف تجمعت السفن في الرأس الأبيض و كيف التقى لاورنس دياز مع سفن لشبونة

في العاشر من شهر أغسطس[116] انطلقت السفن من لاغوس، و بما أنها لا تستطيع أن تسلك مجتمعة طريقا واحدا، و نظرا إلى أن العواصف تجتاحها و تفصل بعضها عن بعض، فقد اتفق قباطنتها، كما جرت العادة، على أن يكون الرأس الأبيض نقطة تجمع كافة السفن. لقد بدؤوا رحلتهم في طقس موات من حيث حركة الأمواج و الرياح، فعند ما قطعوا مسافة قصيرة اتضح أن بعض السفن تسير بسرعة أفضل من أخرى، و بالأخص سفينة لاورنس دياز التي كانت في المقدمة. بيد أننا سنترك تلك السفينة و السفن الأخرى تواصل رحلتها، و لنعد قليلا إلى الوراء للحديث عن سفن لشبونة الثلاث و التي بقيت في وضعية حرجة بسبب خسارة سبعة من جنودها[117] تم قتلهم، فسنرى إن كان بإمكاننا أن نمنحهم بعض العزاء.

هكذا و بعد هذا الحادث المؤلم و في حين كان الشعور باليأس في تحقيق الانتقام بهذه المناسبة ينتابهم جميعا، فقد أبحروا إلى جزيرة آرغين حيث وصلوا إلى هناك بقصد التزود بالماء و من ثم التوجه إلى المملكة. فبينما كانوا على وشك الانطلاق، شرعوا في الحديث عن رحلتهم، عند ما سنحت الفرصة بذلك، بخصوص عدد الفراسخ التي عليهم قطعها في مسير واحد و كم عددها في مسير آخر، إذ بدأت تظهر لهم سفينة لاورنس دياز. عند ما رأوها، غمرتهم جميعا فرحة كبيرة و بالأخص عند ما علموا أنها سفينة

---

[116] سنة 1445، راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée* (1453)، مرجع سابق، ص. 164 و ص. 316 هامش رقم 10 .

[117] و الذين من ضمنهم قائد هذا الأسطول المكون من ثلاث سفن غونسالو باشيكو، كما أشرنا إلى ذلك في هامش سابق. (المترجم).

للمسيحيين، و الأكثر من ذلك أنها لمسيحيي مملكة البرتغال هذه، ذلك أن أي سفينة من هذا النوع أو من نوع مماثل لا يمكن أن تشاهد في تلك الناحية، باستثناء السفن القادمة من بلدنا. لقد انضمت هذه السفينة إذا إلى السفن الأخرى، فكان ذلك أمرا سارا لكلي الطرفين، و بالأخص لأولئك الذين كانوا هناك من قبل عند ما أبلغهم لاورنس دياز بقدوم السفن الأخرى و الهدف الذي جاءت من أجله، إذ قال لاورنس دياز: " يبدو لي أن عليكم أنتم الآخرين أن تفرحوا بقدومنا، فما دمتم ترغبون في الانتقام للمصيبة التي حلت بكم، فقد وجدتم الآن الفرصة لتحقيق مثل هذا الثأر. ثم إني أرى أن الانتقام الذي قد يقوم به آخرون لن يرضيكم كثيرا، فعليكم الآن أن تعلقوا سفركم و تصحبونا في غزو هذه الجزيرة و الذي بواسطته تستطيعون الحصول على مكاسب متعددة. فستحصلون أولا على الشرف و المنفعة، و ثانيا ستشهدون ما سيصيب أعداءكم مع الانتقام لمصيبتكم، ثم في مقام ثالث ستكونون أول من يخبر الأمير بذلك، فبمشيئة الرب أرجو أن يتحقق ما قلت لكم، و ذلك لكي يكون استقبالكم أفضل و مكافآتكم أهم."

رد القباطنة الآخرون على لاورنس بالقول: " يمكنكم أن تثقوا بأنه لا توجد عبارات يمكنها أن تدفعنا نحو تحقيق هذا العمل سوى إخلاصنا، بيد أنه نظرا لبعض الصعوبات المتعلقة بنا، فإنه من الضروري أن نتشاور أولا فيما بيننا بخصوص ما قد تحدثتم عنه."

عقب لاورنس دياز على ذلك بالقول: "يجب أن يتم ذلك فورا، ذلك أن مقامي هنا يجب أن لا يطول، فأخشى أن تكون السفن الأخرى جاهزة في تلك الجزيرة، فلا أرغب أن يقوموا بأي شيء في غيابي."

ثم إن الآخرين قالوا بأنهم سيناقشون الأمر في تلك الليلة و سيعطونه الجواب باكرا. فبغية تفادي الحشو بخصوص تفاصيل ما جرى بينهم، أقول باختصار أن آراءهم كانت منقسمة، فمن جهة

كان البعض منهم يرى أنه رغم كافة الحجج المعارضة، فإن عليهم مواصلة طريقهم إلى بلدهم ما داموا قد حصلوا على غنيمة يستطيعون من خلالها القيام برحلتهم التي أصبحت ضرورية، بالنظر إلى أن زادهم قد بدأ ينفد و هي حقيقة يعرفونها جميعا. علاوة على ذلك، فإن تحقيق عمل كهذا الذي دعاهم إليه لاورنس دياز ليس أكيدا، ذلك أن السفن قد تعترض سبيلها عوائق و هو ما سيرغمهم على المكوث دون هدف، فيستهلكون تموينهم الذي يشكل عصب حياتهم.

ثم إن البعض الآخر قد قال إن ذلك سيكون بمثابة معرة بالنسبة لهم حيث إنهم كانوا قريبين و لم ينضموا إلى المجموعة التي قامت بهذا العمل. لقد قالوا: "لو كنا في منتصف الطريق و توفرت لنا فرصة كهذه في خوض المعركة لكان علينا أن نعود، فكيف بنا عند ما نكون الآن على شواطئ تلك الجزيرة و قد طلب منا أن نتوجه إليها خدمة للرب و لمولانا الأمير؛ بالتأكيد لن يكون لنا مبرر على الإطلاق في عدم المشاركة في هذه العملية."

أعربت غالبيتهم عن موافقتها على هذا القرار الأخير، و بهذا الخصوص رتبوا أمورهم بطريقة تمكنهم من ترشيد زادهم ليغطي الفترة التي سيمضونها، فقد كانوا مستعدين لتلك المغامرة لدرجة أن البعض قال إنه قد يكون من الأفضل رمي نصف عدد أولئك البيظان[118] في البحر بدل ترك أمر يتعلق بشرفهم و قد يمكنهم من الثأر لمقتل رفاقهم. لقد تم الاتفاق على هذا النحو، و في اليوم الموالي قدموا ردهم إلى لاورنس دياز الذي انطلقوا رفقته إلى جزيرة طيور مالك الحزين[119] حيث انتظروا لمدة ثلاثة أيام قدوم السفن الأخرى، فهناك استمتعوا بلحوم طيور تلك الجزيرة و التي

---

[118] الأسرى لديهم.

[119] سماها البرتغاليون Ilha das Garças، و هي إحدى جزر أرخبيل حوض آرغين و تظهر بوضوح في الأطلس الذي أعده رسام الخرائط و الجغرافي البرتغالي الكبير فرناندو فاز دورادو الذي يرجع تاريخه إلى سنة 1571.

لا توجد في أرضنا و تدعى أبو قرن، و هي بيضاء بالكامل و أكبر من طيور التم، ثم إن طول مناقيرها ذراع أو أكثر و عرضها ثلاثة أصابع، فتبدو كما لو كانت أغماد سيوف مطرقة و منمقة بزخارف تم صنعها باليد عن طريق السجر لمنحها بريقا و جمالا، ثم إن أفواهها و خطومها كبيرة بحجم رجل إنسان، فمع أنها كبيرة فإنها تمتد لتصل إلى الركبة.

فبعد أن انتهت الأيام الثلاثة بدأت السفن في الوصول إلى الرأس الأبيض مثنى و ثلاث، بحسب الفرص التي مكنتها من الالتقاء. إلا أنه لم تتجمع هناك سوى تسع سفن، هي سفن لانساروته و سويرو دا كوستا و ألفارو دي فريتاس و جيل إيانيس و غوميس بيريز و بعض السفن الأخرى من مدينة لاغوس.

الفصل 53
كيف عقد لانساروته اجتماعا في الرأس الأبيض

بعد أن تجمعت السفن التسع، و لأنهم لم يحصلوا على أي خبر بخصوص سفن لاورنس دياز، فقد أمر لانساروته كافة القباطنة بالتوجه إلى الشاطئ ليتحدث إليهم بخصوص المسار الذي عليهم اتباعه فاستجاب هؤلاء القباطنة بسرعة. عند ما حضروا جميعا الاجتماع، خاطبهم لانساروته قائلا: "أصدقائي النبلاء، مع أن مولاي الأمير قد تفضل بمنحي مسؤولية قيادتكم، فنظرا لمكانتكم الرفيعة، فإنني أعرف جيدا و كما ينبغي الطريقة التي علي أن أعاملكم بها، بحيث أمنحكم السلطة التي يستحقها شرفكم. فباستثناء سويرو دا كوستا و الذي أعتبره أبا لي لكوني زوج ابنته، فإني أعتبركم جميعا إخوتي، البعض بسبب النشأة معا و البعض الآخر بسبب الصداقة القديمة و الآخرون بسبب التعارف لفترة طويلة. لذا فإني آمل منكم أن ترشدوني و تساعدوني كصديق و أخ، بغض النظر عما يلزمكم منطقيا فعله، بحيث أستطيع أن أكون قائدا لأناس شرفاء مثلكم، لذلك فإني لن أقدم على أي أمر صغير أم كبير دون أخذ رأيكم بخصوصه. فمن أجل الرب، فليتصور كل واحد منكم أن المهمة مهمته هو، هكذا عند ما تكون الأمور مسألة شخص بعينه فإن عليه العمل من أجل إيجاد حلول مناسبة للوضعية التي نحن فيها. و الحقيقة أني فخور بالفعل عند ما أفكر في أني أستشير هذه الشخصيات الحصيفة و التي سبق لها أن شاهدت و جربت أمورا عظيمة و مشرفة و التي ستكون تجربتها عونا كبيرا في مهمتنا، ذلك أن تدبير و إدارة الأمور القادمة يتوقف بشكل رئيسي على التفاهم الجيد بخصوص الأمور المستقبلية." ثم أردف قائلا: " لقد اجتمعنا هنا و معنا تسع سفن، كما ترون، و تعلمون أننا انطلقنا من البرتغال بأربع عشرة سفينة. لذا فإني أود أن أعرف وجهة نظركم

بخصوص ما يجب علينا القيام به، فهل ننطلق مباشرة كما نحن الآن، أم علينا انتظار قدوم السفن الأخرى."
لقد خاطبه ألفارو دي فريتاس (باسمه و باسم الآخرين، بصفته فارسا و أيضا لمكانته السامية و نبله كما سبق و أن ذكرنا، لذا ارتضى كافة القباطنة منحه تلك السلطة) قائلا: " نشكرك على حسن مقصدك و كن متأكدا أن كل أحد هنا سيساعدك و يسدي لك النصح، ليس فقط كقبطان و صديق، بل كما لو كان هو أنت نفسك، فأسباب ذلك كثيرة، لذا لن أتعمق في ذكرها. فيكفي أننا جميعا نعرف أنك رجل شجاع و مقدام، و بالتالي فإنك تستحق قيادة ليس فقط هذا العدد القليل من الرجال و السفن، بل عدد أهم من ذلك. أما بخصوص الراي الذي طلبت، فيبدو لي أنه رغم أن السفن الأربع عشرة كان عليها أن تتجمع لاجتياح جزيرة تيدره وفق ما اتفقنا عليه مسبقا، فأعتقد أنه قد يكون من المفيد لنا بعد أن اجتمعنا هنا أن نتوجه بسرعة إلى جزيرة طيور مالك الحزين و ننتظر هناك يومين إلى ثلاثة طبقا للترتيبات التي كانت عندنا، ذلك أن المكان يسمح لنا بالتمويه حتى لا ننكشف للطرف الآخر، فإن نحن مكثنا بالقرب من هذا الرأس فسيتم رصدنا بسرعة، و في هذه الحالة سنكون أمام أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يغادر البيظان تلك الجزيرة و إما أن يدخلوها بحيث إذا أردنا مهاجمتها نكون أمام خطر كبير. فإن قدر لتلك السفن الخمس الأخرى أن لا تصل إلى جزيرة طيور مالك الحزين في غضون أيام قليلة، فيجب أن لا ننتظرها طويلا بل ننفذ ما قد تتقرر. فنأمل أن يعيننا الرب بمشيئته، لأن وجودنا هنا بقصد خدمته قبل أي شيء آخر، إن ذلك العون الذي يشكل دعما لنا عند ما نلتقي جميعا سيكون من نصيبنا نحن الذين نتواجد هنا، أو ربما بنسبة كبيرة، ذلك أننا نحس بأننا بحاجة ماسة إليه، فعلينا أن نتوكل على مساعدته بخشوع كبير؛ ثم إنه عند ما نجتمع سوية، فإن علينا أن نعول على قوة رجالنا، لكن بما أننا

الآن قليلو العدد، فإننا نستغيث بعونه. فمن الآن فصاعدا يمكنك، أن تأمر بما ترى أنه أفضل من رأيي."

لقد ردوا عليه جميعا بقولهم: " لقد صدقت، إن رأيك صائب و مفيد لدرجة أن كل ما قد يقال سواه سيكون سطحيا و ربما يكون من قبيل العبث ليبعدنا عن الطريق المستقيم الذي بين لنا خطابك. "

الفصل 54

كيف عثروا على السفن الأخرى في جزيرة طيور مالك الحزين و الاجتماع الذي عقدوه

لقد كانت فرحتهم كبيرة عند ما شاهدوا في جزيرة طيور مالك الحزين السفن الأربع حيث كانت متوقفة، دون أن يكون هناك مبرر لوجودها، ذلك أنه ليس من المهم أن تشكل جزءا من مفرزتهم ما داموا يعلمون أنها من مملكة البرتغال، لهذا السبب فقد أملوا أن تكون مساعدتها تتمثل في تعويض النقص الحاصل في السفن الأخرى التي توقعوا وصولها من قبل. ترددت أنباء هذه الرؤية في كافة السفن التي وصلت تباعا و بذلك عمتهم الفرحة، و بالأخص الناس العاديين عند ما شاهدوا القباطنة و قد عقدوا العزم على الإقدام على العملية، فلن تكون الآن أمامهم عقبة تتعلق بعدم وصول السفن الأخرى، كما تم توضيحه آنفا.

و لأنهم أناس لا يستطيعون كتمان فرحهم، فقد استخدموا آلاتهم الصوتية و أطلقوا الأغاني ثم أكلوا و شربوا كمن يثق بتحقيق النصر. عند ما وصلوا إلى السفن و ضعوا المراسي هناك، ثم عبؤوا مدافع المنجنيق و الأسلحة النارية الخفيفة[120] التي بحوزتهم و قاموا بطلقات التحية تعبيرا عن سرورهم العميق، حيث إن الذين كانوا متواجدين هناك في السابق قد شاطروهم أيضا نفس الإحساس. بيد أن ذلك ضاعف من كمد البيظان الذين يقبعون في

---

[120] يسمى هذا السلاح بالعربية "الحنشية" و بالبرتغالية Collobreta و بالإنجليزية Culverin أما بالفرنسية فيدعى Couleuvrine و ذلك لكونه يشبه الحية، و هو ذو سبطانة طويلة نسبيا. أما مبدأ اشتغاله فيتمثل في وضع بعض كرات الرصاص في فوهته و حشوها بالبارود من الخلف مع استخدام الثقاب لتوفير الشرارة المناسبة لاشتعال البارود الذي يشكل انفجاره قوة دفع للرصاص فينطلق. فيبدو أن هذا السلاح، الذي ظهر استخدمه ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، كان هو بداية الأسلحة النارية المحمولة من قبل الأفراد و شكل نقلة نوعية في التسليح، و به حققت بعض الدول الأوربية انتصارات كبيرة، مردها بالأساس فعالية هذا السلاح مقارنة بالأسلحة التقليدية التي يمتلكها السكان الأصليون و التي عادة ما تكون حرابا و رماحا و سيوفا، إلخ. (المترجم).

المكان الذي قد وضعوا فيه تحت الجسور السطحية للسفن، فمع انهم لا يفهمون اللغة، إلا أن رنين الأصوات يؤكد لهم عكس ما يرغبون فيه.
لن أهتم بوصف عناق رجالنا عند ما التقوا جميعا، ذلك أن المنطق ينبئ عن حالهم في ذلك المكان و ذلك الزمان، لنتصور فقط أننا نراهم و هم يقفزون من سفينة إلى أخرى و أن أولئك الذي غادروا البرتغال حديثا يقدمون لرفاقهم الذين ذهبوا قبلهم الطعام الذي يعلمون أنهم بحاجة إليه. هكذا بعد أن قاموا بذلك و استراحوا تلك الليلة، أمضوا وقتهم و حتى اليوم الموالي، حيث ذهبوا إلى الشاطئ بأمر من لانساروته لعقد اجتماع عام.
عند ما اجتمعوا، قال لهم إنه يود أن يعرف منهم بم يفسرون تأخر السفن الأخرى، و كيف أن الرب شاء أن يلتقوا بتلك السفن التي غادرت المملكة منذ أمد مع إحدى السفن الخمس[121] التي كانوا يأملون قبل ذلك الالتقاء بها. لقد بين لهم أن سفينة واحدة تنقصهم الآن ليكتمل العدد أربعة عشر. ذلك أنه بما أنهم قد قرروا مهاجمة أعدائهم بتسع سفن، فإنهم يستطيعون فعل ذلك بأسرع وقت بثلاث عشرة سفينة، بيد أن عليهم النظر إن كان من الصواب الانطلاق مباشرة أو الانتظار لبعض الوقت.
صرح الكل بأن التأخير قد يكون وخيما و بأنهم لا يرون أي مصلحة فيه، بل عليهم الانطلاق فورا مع حظ أوفر و البدء في تنفيذ العملية في أسرع وقت ممكن. لقد قبلوا جميعا ذلك، إذ في مثل هذا التوقيت و هذا المكان، فإنه لا خوف من الاقتراحات المخالفة و لا أن يخون الرفاق أسرارهم لصالح العدو. ثم خاطبهم لانساروته، قائلا: " أما و قد قررتم الانطلاق من أجل هذه العملية، فإنه في كل الأحوال عليكم أنتم الذين سبق و أن جربتم بعض

[121] سفينة لاورنس دياز.

المسائل المرتبطة بعمل كهذا أن تتذكروها و أن تساعدونني في تنظيم حملتنا بحيث ننطلق وفق ترتيب جيد."

فمع أننا لم نذكر مختلف الآراء التي ظهرت أثناء نقاشهم، فإنه قد تقرر أن عليهم التصرف على النحو التالي: عليهم أن يختاروا مائتين و ثمان و عشرين رجلا من بين المفرزة الموجودة في السفن، لأنه يبدو أنهم يحتاجون إلى توزيع لقواتهم تم تحديده سلفا، بحيث يذهب إلى المعركة المشاة و الرماحون و ذلك بقيادة ألفار ودي فريتاس، ثم يأتي خلفه لانساروته و معه رماة أسلحة الأقواس[122] و النبالون و في تأمين المؤخرة كان هناك سويرو دا كوستا و دينيس إيانيس دي كَرآ مع وحدة الأسلحة الثقيلة[123]. لقد قرروا الانطلاق مبكرا حيث كان يتعين عليهم مهاجمة قرية جزيرة تيدره قبل الفجر، ثم تقدمت السفن ثلاثة زوارق مع ملاحيها الذين سبق لهم أن زاروا تلك المنطقة و يعرفون الطريق.

---

[122] و هي أسلحة قاذفة، كما سبق أن أوضحنا في هامش سابق. (المترجم).

[123] و تسمى بالإنجليزية : men-at-arms، و هو اسم كان متداولا في القرون الوسطى للدلالة على هذا الصنف من الوحدات القتالية، فكان من بين هذه الأسلحة الثقيلة المنجنيق. (المترجم).

الفصل 55
كيف نزل هؤلاء الناس على شواطئ جزيرة تيدره

لقد استشطت غضبا بسبب انحراف هؤلاء الملاحين الكبير عن المسار الذي كان عليهم اتخاذه، ذلك أنه بكل تأكيد لو لم يتدخل المصير في الخطأ الذي ارتكب في هذه الرحلة لكان النصر أعظم بكثير. بيد أن الخطأ ليس مرده الملاحين بقدر ما كان سببه ظلمة الليل، فمع أنهم قد مروا في السابق من هناك، فإن الظروف السابقة لم تكن هي نفسها كما في هذه الحالة ، بحيث يمكننا أن نوجه لهم اللوم على خطئهم هذه المرة بطريقة منصفة. قد يعود السبب في هذه الورطة إلى أن مياه البحر كانت في حالة المد المنخفض، فقد وجدها رجالنا ضحلة في عدة أماكن بحيث لم يستطيعوا تعويمها[124]، فبما أنهم وجدوا أنفسهم في أرضية جافة فقد كان عليهم أن ينتظروا ليساعدهم مد الأمواج، و هو ما لم يتحقق لهم إلا عند الزوال.

آه، كم كانت تسمع أصوات التشكي من رجالنا عند ما رأوا تعثر مشروعهم بسبب أمر لا تجدي معه قوتهم نفعا. لقد عبروا عن ذلك بالقول: " آه، يارب! لقد شئت عدم تأييد مشروعنا، عكس ما فعلت مع مشاريع قام بها آخرون لم يكن لهم مشروع متحمس كهذا الذي عندنا بهدف خدمتك هذا اليوم، حيث كان اسمك سيعظم كثيرا و ستسمو مكانتنا، تمنح الفرصة لعنصر ضعيف من مخلوقاتك ليعرقلنا، فتفضل علينا بنعمتك و رحمتك و أعنا لأننا عبيدك، مهما اقترفنا من السيئات، لأن عظمتك و لطفك أكبر من مجموع خطايانا. فإن كنت أنت الذي قدرت فتح الطريق لبني إسرائيل عبر تلاطم الأمواج و جعلت الشمس تعود استجابة لطلب يوشع بعكس قوانين الطبيعة، فلما ذا لم تظهر منة عظيمة لأناسك هؤلاء حتى

---

[124] قواربهم.

نشهد بأم أعيننا على معجزتك، فترتفع تلك المياه قبل وقتها و توفق سفرنا لتحقيق النصر الكامل."

هكذا بذل هؤلاء الرجال ما بوسعهم طيلة تلك الليلة، بيد أنه نظرا للسببين اللذين سبق ذكرهما فإنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى الجزيرة إلا عند ما ارتفعت الشمس. فقبل الوصول إلى المرفأ الذي كان عليهم أن ينزلوا منه، قرروا أن تتجمع السفن، ثم أبحروا بحيث تكون السفن قريبة من بعضها البعض بطريقة تمكن الرجال من القفز من سفينة إلى أخرى. ثم برزت فكرة جديدة في أوساطهم، إذ قال البعض إنه ليس من المعقول أن ينزلوا نظرا إلى أنه أصبح من المعلوم أن الكثير من البيظان قد احتشدوا هناك و سيكون عددهم بالتأكيد أكبر مما كان عليه الحال في السابق، بحسب المعلومات التي تم الحصول عليها من سفن لشبونة و التي زارت المكان منذ أيام و فقدت في تلك الجزيرة منذ أقل من أسبوعين سبعة رجال كنا قد تحدثنا بخصوصهم. فعلى الأقل، بحسب قولهم، لن يقوموا بالإنزال ذلك اليوم، نظرا لأنهم يتوقعون أن يكون عدد البيظان كثيرا مع احتمال أن يكونوا قد نصبوا كمائن لهم، ما دام لم يظهر منهم أحد.

لم يبق هذا الافتراض محصورا في أشخاص محدودين بل علم به غالبية الجنود. أما القباطنة فتحدثوا قائلين: " أيها الأصدقاء، لقد قدمنا إلى هذه الجزيرة من أجل الحرب و الحرب فقط، فما دام الأمر كذلك فعلينا أن لا نكون خجولين، فإن نحن خضنا المعركة نهارا سيكون ذلك أكثر شرفا لنا من أن نخوضها ليلا، فعلينا إذا أن نهاجم البيظان في هذه الجزيرة و نطردهم بقوة السلاح و ليس بالخدعة و بالمراوغة. فالطريقة الأولى في خوض المعركة أفضل، و لو لم نتمكن من قتل أو أسر اي رجل، من تلك التي تتم ليلا و لو تمكنا من أخذ ألف أسير. فباسم الرب علينا أن ننطلق فورا و السيطرة على الميدان وفقا لما تم الترتيب له من قبل." بعد هذا

الكلام شرعوا فورا في الإنزال، فعند ما تواجدوا كلهم على الشاطئ، رتبوا صفوفهم، فحمل لانساروته باتفاق الجميع علم الصليب الذي قدمه له الأمير السيد هنريك، فتعلمون جيدا أن من ماتوا تحت هذا العلم قد تحقق لهم الغفران من الذنوب و العقاب، وفقا للامتياز الذي منحه الحبر الأعظم و الذي سبق و أن رأيتم تفويضه و فحواه بهذا الخصوص.
ثم ائتمن على هذا العلم جيل إيانيس و هو فارس من جيش الأمير و من مواليد لاغوس و قد سبق لنا أن تحدثنا عنه. فمع أن لانساروته يعرف قيمة و فضائل هذا الرجل، فقد جعله يؤدي القسم و يبايعه بأنه لن يفارق أبدا هذا العلم بسبب الخوف أو الخطر و حتى يموت، ثم إن الآخرين أقسموا له بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم في حراسته و الدفاع عنه حتى أخر رمق. بعد أن تمت هذه الأمور، بدأ رجالنا الذين انتشروا في التحرك قدما وفق الترتيب المحدد سلفا، ثم قطعوا مسافة ثلاثة فراسخ على الرمل حيث كان اليوم مشمسا إلى أن وصلوا إلى موقع تيدره الذي يوجد داخل الجزيرة المذكورة، و بالقرب منه شاهدوا حشدا من البيظان متوقفين و كأنهم يتأهبون لخوض معركة. كانت هذه المشاهدة مفرحة للمسيحيين، ثم أمروا "لتصدع الأبواق !" و توجهوا نحوهم بكل استعداد، بيد أن البيظان، و قد جزعوا، بدؤوا في الفرار بالاندفاع في الماء و السباحة عبر مجرى يجعل من تلك الأرض جزيرة، إذ سبق لنسائهم و أطفالهم أن عبروا منه مع أغراضهم التافهة، بيد أنهم لم يستطيعوا، رغم سرعتهم، أن يتفادوا قتل ثمانية منهم و أسر أربعة على يد رجالنا. هنا تم جرح أحد رجال لاغوس، حيث حاول أن يتجاوز الآخرين لإظهار شجاعته، فأصيب بالجروح المذكورة تقريبا بملء إرادته و قد توفي متأثرا بها في البحر، فعسى الرب أن يجعل روحه مع القديسين.

هكذا و بعد أن هُزم البيظان، تأكد المسيحيون أن بقاءهم هناك لوقت أطول غير مجد بالنسبة لهْم، فتوجهوا إلى المكان الذي كانت فيه مساكن العدو من قبل، فعثروا هناك على تموين من الماء، استمتعوا به بعد الحرارة و المشقة التي عانوا منها، ذلك أن الكثير منهم كاد أن يهلك لشدة العطش، لو لم يعثروا على الماء. ثم إنهم اكتشفوا هناك وجود أشجار القطن، بيد أن عددها لم يكن كبيرا.
لقد وصل إرهاق بعض رجالنا درجة لم يستطيعوا معها بأي حال من الأحوال العودة سيرا على الأقدام، غير أنهم وجدوا ما يسد خلتهم بهذا الخصوص، إذ عثروا على بعض الحمير حيث كان الكثير منها يتواجد في الجزيرة، فركبوها و عادوا إلى سفنهم. بيد أنه قبل الدخول في قواربهم، أعرب بعضهم للرجل النبيل سويرو دا كوستا عن رغبتهم في أن تتم ترقيته إلى رتبة فارس فقبل ذلك، سواء بسبب إلحاح أصدقائه أو بسبب رغبته في الحصول على مكانة أسمى، حيث قال إنه كان يروق له منذ زمن بعيد أن يستلم هذه الرتبة على يد ألفارو دي فريتاس، ذلك أنه يعرف أن حصوله على تلك الرتبة قد تم بجدارة لا يرقى إليها الشك. أعرب جميع أفراد المفرزة عن غبطتهم بذلك، و بالأخص القادة الذين يعرفونه[125]، فهكذا تمت ترقية ذلك النبيل ليصبح فارسا، فأتعجب من كونه قد خدم طويلا في مهنة السلاح و تميز فيها، دون أن يرغب في الحصول على شرف رتبة فارس إلا في هذه المناسبة. بالتأكيد، يقول كاتبنا[126]، أعتقد بالفعل أن ألفارو دي فريتاس، مع كونه فارسا نبيلا و قد قام بترقية آخرين في هذه الرتبة، بيد أن سيفه لم يلمس رأس نبيل و سام كمثل هذا الرجل، و لا كان ألفارو دي فريتاس المذكور قد اكتسب شرفا أقل بسبب ظروف منح سويرو دا كوستا رتبة فارس على يده، ذلك أنه كان بإمكانه

---

[125] أي سويرو دا كوستا.

[126] تعبير المؤلف عن نفسه. (المترجم).

الحصول علي الرتبة المذكورة على يد الملوك الشرفاء و الأمراء العظام، و الذين كان بإمكانهم أن يكونوا جد مسرورين بإظهار ذلك الفضل له لمعرفتهم لشجاعته الكبيرة.
لقد عادوا تلك الليلة إلى سفنهم للاستراحة، و في اليوم الموالي ذهبوا إلى الشاطئ للقيام بترقية دينيس إيانيس دي كَرآ إلى رتبة فارس، حيث تم ذلك أيضا على يد ألفارو دي فريتاس. ثم إن سفن لشبونة غادرت السفن الأخرى لأن أناسها اعتبروا أن مقامهم هنا لم يعد ضروريا و أن المؤن أصبحت تنقصها، لذا فإنه إن تم تأجيل سفرها لعارض معين سيكونون لا محالة في وضعية صعبة. بيد أنه يمكن الاعتقاد أيضا أنه لو حصل لهم علم بالعدد الذي سيقتل و يتم أسره من البيظان لما غادروا بهذه السرعة، على الأقل للقيام بثأر كبير. بخصوص البيظان الآخرين الذين تم أسرهم في تيدره، أرسل لانساروته و القباطنة الآخرين أحدهم إلى سان كابو دو فيسنت و إلى كنيسة القديسة ماريا دا آغوا دا لوبه، و هي صومعة في دائرة لاغوس، كما أرسلوا آخر ليباع و تشترى من ثمنه زخارف لتلك الكنيسة.

الفصل 56
كيف رجعوا أيضا إلى تيدره و البيظان الذين أوقعوهم في الأسر

يبدو لي أنه ليس من الضروري أن نتحدث عن وصول السفن إلى لشبونه، كما أني لا أرغب في حشو ما أكتب بسرد بيع البيظان كما عثرنا على ذلك في رواية أفونسو سرفيرا و الذي اقتبسنا منه هذا التاريخ، ذلك أن سكان تلك المدينة قد تعودوا على قدوم البيظان من تلك البلاد، لأنه و كما قال فرا جيل دي روما في الجزء الأول من كتابه الأول[127]: "إن ملكية السلع الزمنية، بالنظر إلى حاجات الناس، هي بحيث أنه قبل أن يحصل عليها شخص ما، فإنها تبدو له ذات قيمة كبيرة أكثر مما هو واقعي، بيد أنه عند ما يقتنيها فإن العكس يحدث، ذلك أنها مهما كانت هامة و جيدة، فإنه لا يعيرها اهتماما كبيرا." بالرجوع إلى تاريخنا، فإنه عند ما غادرت هذه السفن الثلاث وصلت ثلاث من السفن الأربع الأخرى التي لم تفلح في الوصول من قبل، فقد تأسفوا لكونهم لم يكونوا مع زملائهم عند ما تم اجتياح الجزيرة، ذلك أنه رغم أن القتال لم يكن أهم مما قمنا بسرده، فإنهم رأوا أنهم مهما فعلوا، فإنهم لا يأملون في الفوز بأي شرف، و كأناس شعروا بإحساس بالغيرة لذلك، فإنهم طلبوا من الآخرين أن يصدروا فورا أمرا بالخروج إلى البر، فبخصوص هذا الأمر عقدوا اجتماعا و بعد نقاش قرروا أن تذهب السفن الثلاث الأصغر إلى معبر خليج تيدره و أن أفراد السفن الأخرى عليهم أن يذهبوا في الزوارق. فبما أن السكان الأصليين قد يعودون إلى الجزيرة، فإنهم قد يأخذوا بعضهم أسرى في ذلك المكان.

ثم بدؤوا في وضع خطة عملهم التي وضعوها ليلا، مع أنه لم يكن بمقدورهم الوصول إلى الممر حتى النهار. بعد أن وصلوا إلى هناك، شاهدوا البيظان على الضفة الأخرى، في حين كان

---

[127] . *De Regimine Principum*

المسيحيون مقابل المعبر الذي هو عبارة عن مساحة مائية عريضة، مع أنها ضحلة، باستثناء مسافة لا تتجوز مرمى حجر لا يمكن اجتيازها إلا سباحة. لقد كان البيظان لا يزالون على الضفة الأخرى ينظرون إليهم، لكن يبدو أنهم لم يشعروا بالخوف منهم، فقد أكد ثباتهم ذلك، حيث كانوا يرقصون و يستمتعون كأناس يشعرون بأن أعداءهم لا يشكلون خطرا ذا بال عليهم، حيث قاموا بتلك الإشارات كما لو كانوا يريدون إغضابهم بالسخرية من اقترابهم.

بيد أنه كان من الأفضل بالنسبة لهم أن يكونوا أكثر يقظة، و بالأخص لو بقوا على مسافة بعيدة من الخليج، حيث كان الماء عميقا، فيكونون في موقع أكثر أمنا، بالنظر إلى ما تعرضوا له بعد ذلك. لقد شعر المسيحيون، علاوة على رغبتهم في الانقضاض عليهم عند ما شاهدوا سلوكهم الذي ظهر من خلاله أنهم أعداء يمقتونهم، بتلهف كبير في القتال، رغم أن البيظان كانوا يتفوقون عليهم عدديا.

هكذا، و مع أنهم واجهوا عقبة كبيرة تتعلق بحركة الماء، إذ كانت ما بين مد وجزر، فقد دفعتهم رغبتهم الجامحة إلى مواصلة مهمتهم. لقد بدؤوا في الدخول إلى الماء إلى أن وصلوا إلى المكان العميق و الذي لا يمكن اجتيازه إلا سباحة، فعند ما وصلوا إلى هناك توقفوا حيث اعتبروا أن العبور خطير. فبينما كانوا يمكثون هناك و كأنهم يخوضون معركة مع أنفسهم، فكان الإقدام يحثهم على المواصلة، في حين كان يرد الخوف عليه بخطر الموت، حدث أنه كان من بينهم شاب وصيف للأمير، عرفوا فيما بعد أنه مساعد فارس نبيل و كان يعمل إذ ذاك بوصفه محاسب إحدى تلك السفن، ذلك أنه كان من عادة الأمير أن لا يمنح رتبة مساعد فارس لأي شاب من بلاطه دون أن يكون قد قام بعمل عسكري بطولي،

فطبقا لاستحقاقهم يمنحهم مستقبلا تلك المكانة التي يرى أنهم أهل لها.
لقد تحدث هذا الشاب، الذي يدعى ديغو غونسالفيز، و هو مدفوع بشجاعته إلى رجل من لاغوس قريب منه و يدعى بير ألمام (لا أدري إن كان بسبب أنه ينحدر من بلاد ألمانيا أم كانت تلك كنية أطلقت عليه)، فسأله إن كان يرغب في أن ينضم إليه في العبور سباحة. أجابه الرجل الآخر "بايماني، لا يمكنك أن تطلب مني أمرا إلا منحتك موافقتي عليه بكل سرور"، فقبل أن ينهي جوابه قفز في الماء و بدأ في السباحة و معه الشاب، ثم تلاه مساعد فارس من جيش الأمير، يدعى جيل غونسالفيز كان قد شهد أسر البيظان الأوائل تحت إمرة أنتاو غونسالفيزو كذلك الحرب التي تم شنها على المسلمين المحاذين لإسبانيا الخاصة بنا[128] و كان مشهورا بالشجاعة.
بعد هؤلاء مباشرة، اندفع شاب آخر من بيت الأمير يدعى ليونيل جيل و هو ابن الفارس الذي عهد إليه بحمل راية الصليب، ثم تبعهم آخرون. بيد أن الأعداء و قد شاهدوهم اعتبروا أن هذا التحرك لا يعدو كونه لعبة، معولين على ثقتهم بحشدهم الكبير و معتقدين أن النصر سيكون حليفهم كما وقع لهم في المرة السابقة عند ما قتلوا سبعة رجال من السفن الأخرى. غير أن رجالنا و فور توفرهم على موطئ قدم وقفوا مرفوعي الرؤوس و ساروا إلى أبعد نقطة ممكنة إلى أن حمل عليهم العدو. اندلع القتال عند ما حاول المسيحيون السيطرة على الميدان و وقوف البيظان في وجه ذلك، فاستخدمت الرماح، حيث ظهر مدى الكراهية التي يكنها كل طرف للطرف الآخر. بيد أن القتال من جانب البيظان لم يكن دافعه فقط

---

[128] يقصد مسلمي غرناطة. يجب ملاحظة أنه في هذه الفترة كانت تسمية إسبانيا تشمل البرتغال أيضا، بصفتها تسمية جغرافية أكثر مما تعني كيانا سياسيا بعينه. (المترجم).

العداوة، بقدر ما كان باعثه الدفاع عن نسائهم و أطفالهم، و الأكثر من ذلك لإنقاذ أرواحهم.
لقد تعجب رجالنا كثيرا من الشجاعة التي أبداها لهم أعداؤهم، و رغم أن المقارنة لم تكن متكافئة في تعداد الطرفين، حيث كانت مفرزة البيظان أكثر، غير أن مشيئة الرب في عون خاصيته جعلتهم يقتلون ستة عشر منهم و يهزمون البقية في وقت وجيز.
فمع أن حبهم لنسائهم و أطفالهم كان يفوق كل نزعة أخرى عندهم، كما هو طبيعي لدى كل البشر، فعند ما رأوا الهزيمة قد لحقت بهم، كان كل اهتمامهم ينصب على توفير الأمان الخاص بهم، فمع أن كل الأمور الرهيبة كان يمكن أن تحدث، إلا أن الردى هو أخطرها على الإطلاق.
هكذا و بعد أن هزموا، شرعوا في الفرار حيث هلك العديد منهم. بيد أنه بسبب ارتفاع درجة الحرارة و الإرهاق الذي عانى منه رجالنا، فإنه لم يكن بمقدورهم مطاردتهم، إلا أنهم مع ذلك أوقعوا سبعة و خمسين منهم في الأسر حيث عادوا بهم إلى السفن.

الفصل 57
كيف ذهبوا إلى تيرا

مع أن الجميع قد بذلوا ما بوسعهم و مع أنهم يستحقون مكافأة بالثناء و التقدير على ذلك، غير أنه و بشكل رئيسي يجب تمجيد ديغو غونسالفيز المذكور آنفا و معه رجل لاغوس الذي عبر معه، للسبب الذي تم توضيحه آنفا: فبدايات عمل ما تستحق ثناء كبيرا.
و الواقع أن الأمير قد قدر ذلك حق قدره، حيث منحهم مكافأة سخية إثر ذلك، كما كان دأبه مع من خدموه بشكل جيد. فبعد أن تم وضع أسرى البيظان على متن السفن، بدأ رجالنا فورا في استجواب بعضهم على انفراد بخصوص المكان الذي يمكن فيه العثور على من فروا من المفرزة، فكان رد أسرانا أنهم يعتقدون أنهم سيكونون في قرية تدعى تيرا و أنها تقع على البر عبر شاطئ البحر على بعد تسعة فراسخ.
لقد ارتأوا أنه كلما لاحقوهم في وقت مبكر، كلما كان ذلك أكثر جدوائية، فاعتقدوا أن الزمن القصير الذي أمضوه سيمكنهم من العثور على البيظان في غفلة من أمرهم، لهذا السبب أرسلوا ليلا ثلاث سفن، الأصغر و الأخف من ضمن الأسطول، و ذهب جميع الآخرين في القوارب، حيث أخذوا معهم امرأتين من البيظان لتدلانهم على الطريق. لقد وصلوا في الربع الأول من الليل إلى نقطة تركوا فيها سفنهم و نزلوا على الشاطئ، و بما أنه لم يتضح لهم إن كان الوقت مناسبا للبدء أم لا، فقد استراحوا إلى أن بزغ الفجر، ثم ساعدهم ضوء الفجر على الانطلاق في السير على طريقهم، و بعد الوصول إلى معبر ذراع بحري صغير عثروا على عدد كبير من المراكب، من بينها المركب الذي أخذه البيظان من سفن لشبونة، إلا أنه أصبح مفككا تقريبا بالكامل. بيد أنهم أخذوه معهم لينقل إلى السفن.

على طول طريقهم عثروا على رجل من البيظان فقتلوه ، ذلك أني أعتقد أنه تسبب في ذلك. ثم مروا بقرية تيرا و قريتين أخريتين إلا أنهم لم يعثروا فيهما على شيء مما كانوا يبحثون عنه، ذلك أن البيظان قد فروا. هكذا كان عليهم أن يعودوا إلى السفن و من ثم مروا بتيدره حيث توقفوا لفترة استراحة، نظرا لوجود الماء هناك. عند ما كانوا متواجدين هناك، أمر القباطنة بعضهم بالذهاب للبحث عن الحمير، حيث سيعود عليها العناصر المرهقة إلى السفن، فبينما كان هؤلاء ينفذون الأوامر التي صدرت إليهم، إذ التقوا بخمسة من البيظان فأوقعوهم في الأسر دون عناء كبير. بعد أن عادوا قال لهم لانساروته بأن الوقت الآن متأخر و أن عليهم الخلود إلى الراحة في تلك الليلة، و أنه يعتزم في اليوم الموالي نقاش بعض الأمور معهم و التي سيطلعهم عليها عند ما يحين الوقت لذلك.

الفصل 58
حول الخطاب الذي ألقاه لانساروته

في اليوم الموالي، و عند ما اجتمع كل الرجال الأساسيين بأمر من رئيس القباطنة، كما سبق أن ذكرنا، و معهم كل الذين رغبوا في الحضور، خاطبهم لانساروته قائلا: "أيها الأصدقاء و السادة، لقد كان بفضل من الأمير، مولانا، أن صرت قائدكم و قد سركم ذلك و وافقتم عليه، و بما أنني أمثل شخصه، فباسمه الآن أشكركم جميعا على ما بذلتموه من مجهود و استعداد كبيرين في هذا العمل و في هذا المكان حيث جئتم لخدمته، و هو ما لمسته فيكم جميعا و في كل واحد منكم على حدة، فذلك ما سأبلغه به إن أراد الرب أن نمثل أمامه مرة أخرى، بحيث يمكنكم الحصول على مكافأة مستحقة على مجهودكم الذي بذلتم. "تعلمون الآن كيف أننا خرجنا من مدينتنا لهدف أساسي ألا و هو غزو تلك الجزيرة، و هو ما وفقنا الرب في تحقيقه، فنحمده كثيرا على ذلك، ذلك أنه حتى و لو لم نأسر مثل العدد الذي أخذنا من البيظان، فإن انتصارنا كان مناسبا، ففي ظرف نصف يوم طوقناهم و هاجمناهم كما رأيتم، رغم كثرة عددهم، لقد تركوا الميدان لانتصارنا، فدخلنا إلى بلدهم و أخذنا ممتلكاتهم دون أي عائق. هكذا ضمنا لأنفسنا مكانة و محمدة في أعين كل من فهموا الأمر بشكل صحيح. فما أتينا من أجله هنا، طبقا للخطة التي جئنا بها معنا، قد تم تحقيقه بالفعل، لذا فإني قد أنهيت مهمتي كقائد لكم، فحسب التعليمات التي تلقيتها من الأمير، فبعد السيطرة على هذه الجزيرة فإن كل واحد منكم يستطيع أن يقوم بما يحلو له، أي يستطيع أن يتوجه إلى حيث يرى مصلحته. هكذا يبدو لي أنه من المناسب أن نقوم بتقسيم هذا العدد القليل من الأسرى بحيث يجد كل نصيبه المستحق و يذهب إلى حيث يريد. بالنسبة لي، فإني أؤكد لكم استعدادي لأي مجهود أو

مخاطرة لخدمة الرب و الأمير، مولاي، لذا فإني لن أعود إلى مقامه بغنيمة قليلة كهذه."

رد الجميع بأن ما قاله لانساروته هام، ثم شرعوا في تقسيم الغنيمة إلى حصص متساوية، حيث حصل كل واحد منهم على نصيبه وفق ما منحته القرعة. بعد ذلك، طلب لانساروته من جميع القباطنة ما يرون أن عليه القيام به. رد عليه سويرو دا كوستا و فسينت دياز، و هو مالك سفينة، و جيل إيانيس و مارتين فيسنت، و هو ملاح، و كذلك جوآو دياز، و هو مالك سفينة أيضا، بأن سفنهم صغيرة و أن فصل الشتاء بدأ يقترب، فيرون أنه من الخطورة بمكان أن يبقوا و يواصلوا مسافة أبعد، لذا فإنهم ارتأوا العودة إلى البرتغال. بيد أننا سنتحدث لاحقا في هذا التاريخ و بشكل مفصل عن الطريقة التي عادوا بها.

الفصل 59
بخصوص حديث غوميس بيريز و كيف ذهب إلى بلاد غينيا

لقد بدأ غوميس بيريز، الذي كان في سفينة الملك كرنيس قباطنة و رجل معروف بشجاعته و سلطته، بالحديث عن هدفه أمامهم على النحو التالي: "يبدو لي أن قرار قباطنة هذه السفن الصغيرة هو العودة إلى المملكة، خوفا من أن يدركهم فصل الشتاء في مكان أبعد مما نحن الآن. لكن بالنسبة لنا نحن الآخرين، أيها السادة و الأصدقاء الشرفاء، فإنكم تعلمون جيدا نية مولانا الأمير: فكم كان يهتم كثيرا بمعرفة أي شيء عن أرض الزنوج، و بالأخص نهر النيل[129]، لذا فإنني قررت السفر إلى تلك البلاد و سأبذل ما في وسعي لتحقيق ذلك، سأسعى أيضا ما وسعني ذلك إلى الحصول على أكمل المعلومات حول أمور أخرى، فبهذا الخصوص فإن أملي كبير في الحصول على مكافأة كبيرة خاصة بي، ذلك أني على يقين من أن الأمير سيمنحني الحظوة و التقدير على ذلك، و هو ما سيمكنني من الحصول على مكسب عظيم؛ و بما أنني أتوفر على سفينة جيدة، فإني سأكون مخطئا إن لم أسلك طريقا غير هذا، فإن رغب أي منكم أن يكون من رفقتي، فسأبقى منصاعا لأوامركم ما دامت لا تتعارض مع خطتي هذه."
رد عليه لانساروته قائلا: " الحقيقة أن ما تسعى إليه هو مسعاي الأول قبل أن تتحدث عن أي شيء بخصوصه، فيسرني أن أوافقك على اقتراحك، فذلك ما كلفني به الأمير، مولاي. ثم قال ألفارو دياز: " و أنا لست الرجل الذي لا ينضم إلى هذه الرفقة، بل أقول إن علينا أن نسير قدما بكل الوسائل التي تختارون، و لو كان ذلك

---

[129] بحسب المعلومات الجغرافية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، فإن نهر النيل يكاد يكون النهر الوحيد في إفريقيا، لذا فإن المستكشفين البرتغاليين الرواد و بتوجيهات من الأمير هنريك (هنري) الملاح كانوا يبحثون عن أي معلومات عنه و هو ما يبدو أنه حملهم على الاعتقاد بأن نهر أزناكه / صنهاجة (السنغال) هو نهر النيل، كما سنرى لاحقا. (المترجم).

إلى الفردوس الأرضي[130]." ثم وافق ثلاثة آخرون على رأي الرجال الثلاثة، يتعلق الأمر بكل من رودريغ آنس دي ترافاسوس، و هو فارس من جيش وصي العرش و لاورنس دياز، و هو في نفس الرتبة في جيش الأمير السيد هنريك ثم فيسنت دياز و هو تاجر. بعد ما اجتمع هؤلاء على هذا الهدف انطلقوا في رحلتهم، بعد هؤلاء انطلقت سفينتان أخريان، يملك تافيلا إحداهما، أما الأخرى فتعود إلى رجل من لاغوس يدعى بكانسو، بيد أنه بخصوص سفر هؤلاء الأخيرين فإننا سنؤجل سرده إلى مقام آخر، ذلك أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى أرض الزنوج.

بعد أن انطلقت هذه السفن الست واصلت طريقها بمحاذاة الساحل إلى أن تجاوزت بلاد الصحراء التي يملكها أولئك البيظان الذين يعرفون بأزناكه، و هي أرض يسهل تمييزها عن الأخرى بسهولة نظرا لانتشار الرمال هناك، ثم بانعدام الاخضرار بسبب الندرة الشديدة للمياه فيها، و هو ما تسبب في جفاف حاد للتربة. في هذه الأرض توجد كافة أنواع طيور السنونو و كذلك كل الطيور التي تظهر في بعض الأوقات في المملكة، و هي طيور اللقلاق و السماني و الحمام البري و الصعر و الهزار و التفاحي و أجناس أخرى متنوعة من الطيور. ثم إن بعضها يتواجد هناك بسبب برودة الشتاء، حيث إنها تهاجر من بلاد لتستقر في أخرى بحثا عن الدفء. بيد أن أجناسا أخرى من الطيور تغادرها في فصل الشتاء،

---

[130] بحسب الاعتقاد الذي كان سائدا في أوساط المسيحيين في الغرب، فإن الفردوس الأرضي يوجد في الطرف القصي الجنوبي من الأرض، انظر بهذا الخصوص: Montfaucon, *Nova Collectio Patrum*, vol. ii؛ كما توجد وجهة نظر أخرى تقول بأن هذا الفردوس يوجد في وسط البحار، راجع: Dante, *Purgatorio*, cant. xxvi, v° 100 e 127, Divina Commedia./ للمزيد عن هذا الموضوع، راجع: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص. 274 . و كذلك: غوميس إيانيس دي آزورار: *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea* ، مرجع سابق، الجزء الثاني، الفصل 59 ،الهامش رقم 137.

مثل الصقور و مالك الحزين و الحمام و طائر القلاع و طيور أخرى تتكاثر في تلك البلاد، ثم بعد ذلك تستقر فيها لأن الغذاء الذي تجده هناك مناسب لطبيعتها. لقد عثر رجال السفن على العديد منها على البحر و على اليابسة في الأماكن التي تعيش فيها. فما دمت قد بدأت في الحديث عن هذا الموضوع، فإني سأتحدث إلى حد ما بخصوص مختلف أنواع الطيور الأخرى و الأسماك التي توجد في تلك البلاد، حيث يمكن البدء بالحديث عن بعض الطيور التي تدعى فلامينغو و هي بحجم مالك الحزين و ذيلها طويل، بيد أن ريشها قصير، كذلك فإن رؤوسها صغيرة مقارنة بأجسامها، إلا أن مناقيرها كبيرة، رغم قصرها، و أكثر سمكا إلى حد أن أعناقها لا تستطيع حمل وزنها، بحيث إنه لمساعدة أعناقها، فإنها تضع دوما مناقيرها على أرجلها و تستريح عليها أو على ريشها بقية الوقت. كما توجد هناك أيضا طيور أخرى أكبر من التم تدعى أبو قرن، و التي سبق أن تحدثنا عنها.

أما بخصوص أسماك تلك النواحي، فإن طول فتحات أفواه بعضها قد يصل ثلاثة أو أربعة أضعاف طول راحة اليد، ثم منها ما هو صغير و منها ما هو كبير، بحيث توجد أسنان في أفواهها من كل جانب و متقاربة بحيث لا يمكن وضع الأصبع بين الواحدة منها و الأخرى، و تتوفر على حسكة جيدة، و هي أكبر قليلا من أسنان المنشار و أكثر تباعدا. بعض هذه الأسماك في حجم سمك القرش و البعض الآخر أكبر حجما من هذا الأخير، كما أن حجم عظام الفك لهذه الأسماك ليس أكبر مما هو في الأسماك الأخرى. يوجد هناك أيضا نوع آخر صغير من الأسماك، بحجم سمك البوري، تحمل أسماك هذا الصنف أكاليل على رؤوسها، كخياشيم تتنفس بواسطتها، فعند وضع هذه الأكاليل باتجاه الأسفل في حوض مائي فإنها تلتصق بالقاع بقوة، بحيث إنه عند محاولة سحبها فإنها ترفع

الحوض معها، كما تفعل أسماك الشلق بأفواهها عند ما تكون حية بالفعل.
ثم إنه توجد أيضا طيور و حيوانات أخرى في تلك البلاد لا يمكننا أن نصف مظهرها الخارجي بشكل مفصل، إذ سيكون ذلك فرصة للاستغراب تبعدنا كثيرا عن سردنا التاريخي.

الفصل 60
كيف وصلت تلك السفن إلى نهر النيل و الغينيون الذين أخذوهم سبايا

بعد أن تجاوزت هذه السفن أرض الصحراء، كما ذكر سابقا، ظهرت للعيان نخلتان كان دينيس دياز قد عثر عليهما في السابق، فبواسطتهما فهموا أن ذلك بداية بلاد الزنوج. عند ما شاهدوا ذلك عمتهم الفرحة و رغبوا في النزول على الشاطئ بسرعة، بيد أنهم وجدوا البحر مضطربا على الساحل بحيث لم يستطيعوا بأي حال من الأحوال تحقيق مقصدهم. ثم إن بعض من كانوا موجودين قال بعد ذلك إنه من الواضح من خلال الرائحة التي تنبعث من الأرض أنه لا محالة أن تكون فواكه تلك البلاد جيدة، فكانوا يشعرون، رغم أنهم كانوا في البحر، كما لو أنهم متواجدون وسط بستان فاكهة جميل و مرتب هدفه الوحيد هو توفير جو ممتع لهم.

فإذا كان رجالنا قد أظهروا من جانبهم رغبة كبيرة في الوصول إلى البر، فإن السكان المحليين قد أبدوا تلهفا كبيرا للقائهم، بيد أني لا أود الحديث عن الاستقبال الذي خصصوا لهم، ذلك أنه بحسب الإشارات التي أظهروا لرجالنا منذ البداية فإنهم لم يكونوا يعتزمون ترك الشاطئ إلا بخسارة في صفوف أحد الجانبين. ثم إن سكان تلك البلاد كلهم سود، من هنا جاءت تسميتها ببلاد الزنوج أو أرض غينيا، لذات السبب يدعى الرجال و النساء هناك "الغينيون"، كما لو كنا نريد أن نقول: "السود". عند ما شاهد رجالنا النخلات الأولى و الأشجار الفارعة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، فهموا مباشرة أنهم أصبحوا قريبين من نهر النيل، في النقطة التي يصب فيها في البحر الغربي، و يسمى هذا النهر هناك صاناغا[131]، ذلك أن الأمير

[131] في النص الأصلي بالبرتغالية: Çanaga، انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné ، مرجع سابق، ص278 .

قد ذكر لهم أنه بعد عشرين فرسخا من رؤية تلك الأشجار فإن عليهم أن يبحثوا عن النهر المذكور الذي حصل على معلومات عنه بواسطة أسراه من أزناكه[132].

هكذا و أثناء مسحهم للشاطئ للعثور على النهر شاهدوا أمامهم على بعد حوالي فرسخين لونا في الماء يختلف عن لون غيره، حيث كان ذلك اللون لون الطين. لقد اعتقدوا أن ذلك يمكن أن يقع بسبب المياه الضحلة، لذا فقد أخذوا مسابيرهم لتأمين سفنهم، بيد أنهم لم يعثروا على فرق في هذا المكان مع الأماكن الأخرى التي لا توجد فيها حركة كهذه، فأصابهم جميعا الذهول بسبب ذلك، و بالأخص إزاء الفرق في اللون. لقد حدث أن أحد الذين رموا المسبار، و بالصدفة و دون أي علم مؤكد، قد لامست يده فمه فشعر بأن الماء عذب، فصاح باتجاه زملائه: "هنا وجدنا أيضا أعجوبة أخرى، ذلك أن هذا الماء عذب"، عندها رموا دلوا في البحر و اختبروا الماء، فوجد كل منهم أنه جيد، فقالوا: "بالتأكيد نحن الآن بالقرب من نهر النيل، ذلك أن الماء أتى منه، و نظرا لقوته فإن تدفقه يقطع البحر و يتوغل فيه." عندها أشاروا إلى السفن الأخرى و بدؤوا كلهم في البحث عن النهر، و سرعان ما وصلوا إلى المصب.

عند ما كانوا قريبين من مصبه، وضعوا المراسي على جانبه من البحر، ثم أطلق طاقم سفينة فيسنت دياز قاربهم و ركبه حوالي ثمانية رجال، كان بينهم مساعد فارس من مدينة لاغوس يدعى

---

[132] يبدو أن لأصل تسمية النهر المذكور علاقة واضحة مع أزناكة / صنهاجة. مما يؤكد ذلك أن الرئيس السنغالي الأسبق، ليوبولد سدار سنغور، و في مقابلة مع إذاعة فرنسا الدولية في شهر ابريل سنة 1989 تعليقا على الأحداث التي جرت بين موريتانيا و السنغال في تلك الفترة قد ذكر، في مضمار تأكيده على عمق العلاقات التاريخية التي تربط البلدين، أن تسمية السنغال يعود الفضل فيها لجاره الشمالي:
….nous devons notre nom, le Sénégal, à notre voisin du nord. (المترجم)

ستيفاو أفونسو، و هو من سبق أن تحدثنا عنه و هو نفسه من توفي في كناري[133]، حيث قام بتجهيز جزء من تلك السفينة.
ثم ذهب الثمانية في القارب، فعند ما كان أحدهم ينظر ليرى مصب النهر، إذ شاهد باب كوخ ثم قال لرفاقه: " لا أدري كيف تبنى أكواخ هذه البلاد، بيد أنه بمقارنتها مع ما قد شاهدته من قبل، فإن ما أشاهده أمامي قد يكون كوخا و افترض أنه يعود لمجموعة من الصيادين جاؤوا للاصطياد في هذا النهر، فإن تمعنتم جيدا فأعتقد أنه علينا أن نذهب و ننزل وراء ذلك الرأس، بحيث لا يمكننا أن ننكشف من باب الكوخ، فلنترك البعض ينزل و يقترب من خلف تلك الكثبان الرملية، فإذا كان هناك أي من السكان المحليين في الكوخ فإنهم يستطيعون أن يأسروهم قبل أن يشاهدوهم." لقد رأى الآخرون أن ذلك رأي سديد، ثم بدؤوا في تنفيذه. فعند ما وصلوا إلى البر، قفز ستيفاو أفونسو و خمسة آخرون معه و تصرفوا طبقا لاقتراح زميلهم.
فبينما كانوا يتقدمون و متموهين بانتظام إلى أن اقتربوا من الكوخ، إذ شاهدوا مراهقا أسود يخرج منه و هو عار بالكامل و معه رمح في يده، ألقوا القبض عليه بسرعة و وصلوا بالقرب من الكوخ حيث وجدوا أخته التي تبلغ من العمر ثماني سنوات. لقد عمل الأمير بعد ذلك على تعليمه ليتمكن من القراءة و الكتابة، إضافة إلى المعرفة التي على كل مسيحي أن يتحصل عليها، فبعض المسيحيين هناك لم يكتسبوا المعارف التي حصل عليها هو، إذ تعلم صلاة *باتر نوستير* و *ايف ماريا* و أحكام الإيمان و تعاليم الإنجيل و مختلف أعمال الرحمة و أمورا أخرى، حتى أن البعض قال بخصوص هذا الشاب أن الأمير أمر بتكوينه ليصبح قسا بهدف إعادته إلى موطنه الأصلي هناك ليقوم بالتبشير لدين يسوع

---

[133] جزيرة كناري الكبرى، راجع بهذا الخصوص: *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea*، الجزء الثاني، مرجع سابق ، الفصل 69 ،الهامش AR .

المسيح. بيد أني أعتقد أنه مات قبل أن يصل إلى سن البلوغ. هكذا دخل الرجال إلى الكوخ حيث عثروا على ترس أسود مصنوع من الجلود و دائري الشكل، و هو أكبر قليلا من تلك المستخدمة في ذلك البلد و في وسطه بروز من نفس الجلد كالترس نفسه، و هو معد من أذن فيل، كما علمنا بعد ذلك من بعض الغينيين الذين شاهدوه، فقد قالوا إنهم يصنعون جميعا تروسهم من جلود ذلك الحيوان.

لقد وجدوا أنه أكثر سمكا من اللازم، لذا قطعوا أكثر من نصفه، حيث جعلوه أصغر بوسائل صنعوها بأنفسهم لهذا الغرض. نفس الرجال قالوا، إضافة إلى ذلك، إن حجم الفيلة كان كبيرا لدرجة أن لحم أحدها يكفي لإطعام ألفين و خمسمائة رجل و أن هذا اللحم يعتبرونه في أوساطهم لحما جيدا، كما أنهم لا يستخدمون أنيابها، بل يرمونها بعيدا. لقد علمت أنه في هذه الناحية الشرقية من البحر المتوسط تقدر قيمة أنياب أحد تلك الفيلة بألف دبلون. فعند ما أسروا هذين الشابين و بعض مواد الغنيمة توجهوا إلى قاربهم، فخاطبهم ستيفاو أفونسو قائلا: "كان ذلك سيكون جيدا لو ذهبنا في البر بالقرب من هنا لنرى هل يمكننا العثور على أب و أم هذين الطفلين، فحسب ما يتضح من أعمارهما، فإن أبويهما لن يتركانهما يذهبان بعيدا عنهما." قال الآخرون إن عليه أن يذهب إلى حيث يريد، ذلك أنه لاشيء يحول بينهم مع اقتفاء أثره.

بعد أن قطعوا مسافة قصيرة، بدأ ستيفاو أفونسو يسمع ضربات فأس أو آلة حديدية أخرى بها ينجر شخص قطعة من الخشب، فتوقف برهة للتأكد مما سمعه، ثم أبلغ الآخرين. بعد ذلك عرفوا جميعا أنهم بالقرب مما كانوا يبحثون عنه.

لقد قال: "الآن هلا سرتم في الخلف و تسمحوا لي بالسير إلى الأمام، ذلك أنه إذا سرنا جميعا إلى الأمام، و لو مشينا بخطوات خفيفة، فإننا سننكشف دون عناء، فهكذا و قبل أن نصل إليه، ولو

كان وحيدا، فإنه سيلوذ بالفرار. بيد أني إذا سرت بخفة و انحنيت، فباستطاعتي أسره بمباغتته دون أن ينتبه إلي، إلا أنه عليكم أن لا تكونوا بطيئي الخطى كي تأتوا بسرعة لمساعدتي، إذ قد أحتاج لكم عند ما أكون في خطر."

بعد قبولهم لذلك، بدأ ستيفاو أفونسو بالتحرك قدما و بحذر كبير حيث كان يخطو بتؤدة، فلم يستطع الغيني الانتباه إلى عدوه لانشغاله بعمله إلى أن قفز هذا الأخير باتجاهه، أقول قفز لأن ستيفاو أفونسو كان صغير الحجم و نحيفا، في حين كانت بنية الغيني مختلفة؛ هكذا مسك شعر رأسه بقوة. فعندما استوى الغيني، بقي ستيفاو أفونسو معلقا في الهواء و ارتفعت قدماه عن الأرض.

كان الغيني رجلا شجاعا و قويا و كان يرى أنه من العيب أن يخضع لشيء صغير بهذه الدرجة. تعجب أيضا في قرارة نفسه من ماهية هذا الشيء؛ فمع أنه قاوم بشدة، فإنه لم يستطع أن يخلص نفسه، و نفس الشيء بالنسبة لعدوه الذي تشبث بشعره، إذ أن مجهودي الرجلين لا يمكن أن يقارنا إلا بكلب أحمق و شجاع انقض على أذن ثور قوي.

و الحقيقة أن المساعدة التي كان على بقية رفاق ستيفاو أفونسو أن يقدموها له جاءت متأخرة، لدرجة أنه قد يكون ندم على مقصده الأول، فأعتقد أنه و حتى الآن فإنه لو وجدت فرصة للمساومة بغية تخليص نفسه، فقد كان سيبادر إلى الانسحاب مخافة أن يخسر. بيد أنه و عند ما كان الرجلان يتصارعان قدم إليه رفاقه و مسكوا الغيني بذراعيه و رقبته بغية شد وثاقه، ثم إن ستيفاو أفونسو قد ترك شعره معتقدا بأنه وقع في الأسر في أيدي الآخرين، بيد أن الغيني حين شعر أن رأسه قد تحرر، خلص ذراعيه من الآخرين و دفعهم إلى الجانب الآخر، ثم شرع في الفرار. لقد كان من غير المجدي بالنسبة للآخرين مطاردته، ذلك أن سرعته منحته تفوقا على مطارديه، فلجأ إلى غابة مليئة بالأعشاب الكثيفة.

ففي حين كان البعض يعتقد أنه سبق لهم أن ظفروا به و يبحثون للعثور عليه، فإنه كان قد دخل بالفعل في كوخه بهدف تأمين أبنائه و أخذ أسلحته التي تركها معهم. بيد أن مشقته السابقة لم تكن شيئا مقارنة بغياب طفليه و اللذين قد وجدهما ذهبا، مع أنه قد بقي له بصيص من الأمل من أنهما قد يكونا مختبئين في مكان ما. عندها ظهر فيسنت دياز و هو تاجر و كان قبطان تلك السفينة التي يعود إليها القارب الذي أقل هذه المجموعة إلى البر. فيبدو أنه، و قد اعتقد أنه إنما جاء فقط للاستجمام على طول الشاطئ، كما كان يفعل في السابق في مدينة لاغوس، لم يكلف نفسه عناء حمل أي سلاح. بيد أن الغيني و فور مشاهدته له، حيث كان يحترق حنقا كما يمكنكم تخيل ذلك، توجه نحوه بكل استعداد.

و مع أن فيسنت دياز قد شاهده و هو قادم إليه و قد استشاط غضبا، فمن الواضح أنه كان عليه أن يتوفر على سواعد قوية للدفاع عن نفسه، لقناعته بأن الهروب لا يسعفه، فبدل أن يؤذيه بأي طريقة، فقد انتظر عدوه دون أن يبدي له أي شعور بالخوف. ثم إن الغيني حمل عليه بقوة و جرأة، فأصابه بجرح في وجهه بواسطة رمحه، فقطع أحد خديه بالكامل، بالمقابل أصيب الغيني بجرح، لكنه لم يكن بقدر الجرح الذي تسبب فيه للتو. و لأن أسلحتهما لم تكن كافية لمواجهة كهذه، فقد رمى كل منهم الآخر و تصارعا، و في وقت وجيز كان كل منهما يتدحرج على الآخر، كل يكابد لإحراز النصر.

و بينما كان الحال كذلك، إذ شاهد فيسنت دياز غينيا آخر عمره يقترب من البلوغ و قد جاء لمساعدة أخيه في الوطن، و رغم أن الغيني الأول كان قويا جدا و شجاعا و ينزع إلى القتال بالاستعداد الذي أوضحنا، فإنه ما كان بوسعه أن يفلت من الأسر لولا قدوم

الرجل الثاني، و خوفا منه فقد كان عليه[134] بالتالي أن يخفف قبضته عن الأول[135]. في هذه اللحظة جاء برتغالي آخر، بيد أن الغيني و قد أصبح طليقا من أيدي عدوه، بدأ يحتمي هو و رفيقه كمن تعودا على الجري، لا يأبهان كثيرا بعدوهما الذي حاول مطاردتهما. في النهاية عاد رجالنا إلى سفنهم مع الغنيمة الصغيرة التي سبق لهم و أن وضعوها في قاربهم.

---

[134] دياز، راجع بهذا الخصوص: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق، الفصل 60، الهامش رقم AW .

[135] الغيني، نفس المرجع السابق، الهامش AX .

الفصل 61
و فيه يروي الكاتب بعض الأمور الخاصة بنهر النيل

يبدو لي أننا ما دمنا قد تحدثنا في الفصل الأخير عن كيفية وصول سفننا إلى نهر النيل، فإنه علي إذا أن أحدثكم عن بعض عجائبه، و ذلك كي يحصل أميرنا على أعظم شرف لإيفاده رجالنا لتحقيق غنائم في أنبل أنهار العالم. بخصوص عظمة هذا النهر، هناك شهادات غريبة تحدثت عنها مثل تلك التي أوردها أرسطوطاليس و بوطليموس و بليني و هوميروس و إيسيدور و لوكان و باولوس أوروسيوس، و غيرهم من أهل العلم، بيد أنهم لم يستطيعوا تقديم سرد شامل بعجائبه بنفس المستوى. ففي المقام الأول، قال باولوس أوروسيوس أنه يبدو أن النهر ينبع من حيث يبدأ ساحل البحر الأحمر، من مكان يسميه اليونانيون موسيلون امبوريون[136] و من هنا، حسب قوله، يسير باتجاه الغرب و يمر عبر بلاد عديدة و يكون في منتصفه جزيرة تدعى مروء. و هذه المدينة تتبع لسلطة أثيوبيا و فيها بعث موسى بأمر من فرعون مع القوة الكاملة لمصر، كما كتب يوسفوس رابانوس[137] و المعلم بطرس؛ ثم ذُكِر أنها كانت تدعى سبأ و كانت عاصمة إثيوبيا، بيد أنه بعد فترة طويلة فإن قمبيز الذي كان ملك تلك البلاد قد منح تلك المدينة اسم مروء[138] كذكرى لأخت له، كما أورد المعلم بطرس.

---

[136] *Mossylon Emporion*، نفس المرجع السابق، الفصل 61 ، إحالة رقم 146 .

[137] هو فلافيوس يوسفوس و هو مؤلف كتاب عن تاريخ اليهود بالسريانية ثم باليونانية، و قد حظي هذا الكتاب باهتمام الامبراطور الروماني تيتوس، فامر بوضعه في المكتبة العمومية، نفس المرجع السابق، الفصل 61 ، إحالة رقم 147 .

[138] بخصوص هذه الجزيرة الإفريقية، يمكن للقارئ الرجوع إلى : *Ptolemy*, iv, و بالأخص 8; *Diodorus Siculus*, i, 23; *Herodotus*, ii, 29; *Strabo*, Bks. XVII-XVIII، نفس المرجع السابق، الفصل 61 ، إحالة رقم 148 .

غير أن المعلم غوندولفو[139] يتحدث في الجزء التاسع من الكتاب الذي ألفه و الذي يدعى: "بانتيون" أنه قبل أن تتسمى بالاسم الآخر فقد كانت تدعى نادابث و أن ذلك هو الاسم الأول الذي عرفت به مباشرة بعد تأسيسها. هكذا فإن النيل بعد أن يصل إلى هذه الجزيرة يواصل جريانه باتجاه الشمال ثم يعود إلى الجنوب، وطبقا للوصف الذي قدمه، فإنه يغمر ضفافه في بعض أوقات السنة و يروي كل سهول مصر.

بيد أن بليني يعرض الأمور بطريقة أخرى، ذلك أنه يقول إن منابع نهر النيل لا يعرفها أحد و أنه يأخذ مسارا طويلا عبر بلاد متصحرة و أراض حارة، لدرجة أنها كانت ستشتعل و تحترق لولا وجود هذا النهر. كما قال أيضا إن البعض قد بذل جهودا كبيرة لمعرفة من أين ينبع هذا النهر، بيد أن من حصل على أكبر قدر من المعرفة بهذا الخصوص هو الملك جوبا و الذي ترك وثيقة مكتوبة بأنه وجد أن نهر النيل ينبع من جبل يدعى الأطلس و هو في بلاد موريتانيا، في الطرف القصي من إفريقيا باتجاه الغرب، ليس بعيدا من البحر العظيم حيث يخرج من منبع ليشكل بحيرة كبيرة تسمى نوليدوم حيث تعيش فيها بعض الأسماك التي يدعى بعضها أللتتيس و البعض الآخر كاراسينوس و نوع آخر يدعى سيلوروس، و يقال أيضا إن التماسيح تعيش هناك.

فبخصوص ذلك، يروى أن سكان مدينة شرشل[140]، التي توجد في نفس بلاد موريتانيا، أخذوا تمساحا و وضعوه على أحد معابدهم و يدعى أسيو و أنه بقي هناك لسنوات عديدة كشاهد على أن التماسيح المذكورة توجد في تلك البحيرة؛ ثم إن بلين روى أن سكان تلك البلاد الذين تمعنوا في الأمر وجدوا بالفعل أنه تم التأكد

---

[139] هذا الكاتب كان قد سافر إلى فلسطين و دونت حياته في كتاب: *Anglia Sacra*، ج. 2، انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، إحالة رقم 2 ، ص. 291 .

[140] مدينة في شمال الجزائر.

من حقيقة أنه بنفس الطريقة التي تتساقط الثلوج و الأمطار في بلاد موريتانيا التي ينبع منها، بنفس الطريقة يرتفع نهر النيل و ينخفض، بحيث إنه عند ما يخرج من تلك البلاد و يصل إلى أرض الرمال، فإنه لا يجري على هذه الرمال و لا عبر الأماكن الصحراوية و الجدباء، بل يتلاشى هناك بحيث يتدفق بشكل مخفي تحت الرمال لمسافة عدة أيام.

ثم يذكرون أيضا أنه بعد أن يصل إلى موريتانيا القيصرية، و التي ليست بلدا رمليا، فإنه يجري فوق سطح الأرض و هناك يشكل بحيرة أخرى تنمو فيها الحيوانات و الكائنات التي تعيش في البحيرة الأخرى. لذلك فإن الناس يعتقدون أن كل تلك المياه تأتي من النيل، فبعد أن يغادر هذه المنطقة و يصل إلى الرمال التي توجد ما وراء من موريتانيا و باتجاه الحبشة، يختفي أيضا و يجري لمسافة عشرين يوما تحت الأرض، إلى أن يصل إلى أرض الحبشة. هنا يظهر أيضا على سطح الأرض، مبرزا بشكل واضح أنه يخرج من منبع كذلك الذي في موريتانيا و يدعى نغريس، حيث تعيش أيضا نفس الحيوانات و أشياء أخرى سبق أن ذكرناها.

من هنا فإنه لا يجري أبدا على سطح الأرض دون أن يختفي تحت التربة، ثم إنه يفصل إفريقيا عن الحبشة و يكون بحيرات يستمد منها سكان تلك البلاد مصدر عيشهم، و بنفس الطريقة توجد هناك مخلوقات تعيش في أماكن عديدة من النهر المذكور. فمن المكان الذي يبدأ منه جريانه فوق الأرض دون أن يجري تحت الأرض و حتى المكان الذي يبدأ فيه التفرع و الذي يدعى النيجر، فإن جريانه هذه الناحية يكون قويا، و هنا ينقسم إلى ثلاثة روافد كل منها يشكل نهرا بمفرده.

فأحد هذه الأنهار الثلاثة يدخل الحبشة و يجري في وسطها و يدعى أستابوس، فمعنى ذلك، وفقا للسان أهل تلك البلاد، "الماء الذي ينبجس من السواد." يقوم هذا النهر بري العديد من الجزر و هي كبيرة لدرجة أنه عند عبوره بأصغرها، و مع أنه يتدفق في

مجراه بسرعة، فإن ذلك يستغرق خمسة أيام. بيد أن أهم تلك الجزر هي تلك التي تدعى مروء و التي تحدثنا عنها سابقا؛ ثم إن الرافد الثاني من هذه التفرعات الثلاثة يطلق عليه اسم أستابوراس، و هو ما يعني في لغتهم " الخليج الذي يأتي من الظلمة"، و الذي يواصل مجراه باتجاه اليسار؛ أما الرافد الثالث فيدعى أستوسبيس و يعني "ماء البحيرة" و هو يمتد كذلك باتجاه اليسار، فهذه الأنهار، بما أنها تجري بشكل منفصل، فإنها تحمل هذه الأسماء التي أوردنا.

بيد أنها عند ما تلتقي جميعا في نهر واحد فإن النهر يتسمى باسمه الخاص به، أي "النيل"؛ غير أنه لم يكن يسمى كذلك من قبل، مع أن جميع هذه الجداول هي من مصدر مائي واحد. عند ما يغادر الجزر فإنه يستقر في بعض الجبال، بيد أنه لا يتدفق جريانه بشدة و سرعة مثلما يقع في مكان من الحبشة يدعى كاتادوبيا، فابتداء من هناك ينقسم مجراه في صخور عظيمة على امتداد مسافة طويلة.

تقطع هذه الصخور مجراه، فيسير النهر بسرعة عبر تلك الصخور و يحدث بذلك ضجيجا رهيبا، لدرجة أن أهل العلم يقولون إن أي امرأة حامل عليها أن لا تسكن على بعد فرسخين من ذلك المكان، ذلك أن الرعب الذي يتسبب فيه هذا الضجيج يؤدي مباشرة إلى الإجهاض.

عند ما يخرج من مجموعة الصخور العظيمة تضعف قوة المياه و يتدفق المجرى كما لو أصبح مرهقا، مع أن جريان الماء يصبح هادئا جدا. يفصل عند دخوله إلى سهول مصر بين العديد من الجزر تحمل أسماء غير تلك التي كانت تعرف بها في السابق، عندها يتدفق مباشرة باتجاه البحر، غير أنه قبل ذلك يشكل العديد من البحيرات و المساحات المائية بواسطتها يتم ري كافة سهول مصر، بعد ذلك يلتقي النهر بالبحر عبر مجرى وحيد بالقرب من مدينة تدعى دمياط.

الفصل 62
حول قوة النيل و فيضانه بحسب الفلكيين

كيف يمكن لأي كان أن يحسم الجدل الكبير الحاصل بين العلماء بخصوص منبع و قوة هذا النهر: بالنسبة للإسكندر، الذي كان أقوى الملوك و الذي صلّت من أجله محافظة منفيس بمصر، فقد كان ناقما على النيل لأنه لم يتمكن من معرفة حقيقة المنبع المذكور، رغم أنه كان سيد العالم. لم يكن وحده المتعطش لهذه المعرفة، بل كانت أيضا محل اهتمام ملوك مصر و الفرس و مقدونيا و اليونان.

بيد أننا سنبين هنا باقتضاب مجرى هذا النهر بحسب الفلكيين، الذين يقولون إن عطارد هو مصدر القوة على المياه و أن له تأثيرا عليها، كذلك فإنه عند ما يتواجد في تلك الجهة من السماء التي تلتقي فيها كواكب برج الأسد بكواكب برج السرطان أو مع كوكب الشِّعرى، و من هنا سميت تلك الأيام أيام الشعرى، فإنه يصب نيرانا من الغضب من فوهته و هكذا يغير دورة السنة، و كذلك الفصل أيضا، فلذا ينتهي الصيف و يبدأ الخريف. و بنفس الطريقة عند ما يمر كوكب عطارد، الذي هو سيد المياه، ببرجي الجدي و السرطان من جديد و اللذين يختفي تحتهما مصب نهر النيل، فإن عطارد يضرب على المصبات، أي في تلك الجهات التي ينبع منها النيل، بالنظر إلى أنه تحت نيران مجموعة نجومه. عندها فإن النيل يفتح منبعه و يجري.

فبقدر ما أن البحر يعرف المد مع نمو القمر، فإن النيل يتدفق كما لو كان ذلك بأمر من عطارد و يرتفع فيضانه ليغطي كل الأراضي، لذا تحصل مصر على غذائها الأساسي. فهو لا يجمع مياهه كلها، كما لا تعود هذه المياه إلى حوضه إلى أن تتساوى ساعات الليل و النهار. مع ذلك هناك من كانوا يقولون إن فيضان

هذا النهر سببه الرئيسي هو ثلوج إثيوبيا، بيد أننا وجدنا أن ذلك ليس صحيحا، إذ لا يوجد دب أصغر في جبال الحبشة المذكورة و لا أي من الدببة القطبية، أي أليس و سنوسور، أي الأكبر أو الأصغر، لتبريد الأرض و التسبب في الثلج و الصقيع، كما لا تهب رياح شمالية شرقية تحمل معها الصقيع.

بخصوص ذلك يوجد دليل دامغ يتمثل في اللون الخاص بسكان الحبشة حيث إن دمهم أحرقته أشعة الشمس الشديدة و التي كانت تسقط بكامل قوتها، و كذلك هبوب الرياح الجنوبية الغربية و التي هي الرياح الأشد حرارة، فلذلك فإن لون سكان تلك البلاد شديد السواد. و الأكثر من ذلك، لا يوجد أي نهر، مهما كان، يفيض بسبب الثلج أو الجليد الذي يذوب فيه، إلا عند بداية فصل الصيف، ذلك أن الجليد يبدأ في الذوبان تحت تأثير الحرارة. بيد أن مياه النيل لا ترتفع كثيرا، كما أن فيضانه لا يحدث قبل ظهور كوكب الشعرى، كما أن المياه لا تفيض إلا عند ما تكون ساعات الليل متساوية مع ساعات النهار، فيحدث ذلك في شهر سبتمبر عند ما تكون الشمس قد دخلت برج الميزان.

فيبدو بشكل واضح من خلال ذلك أن النيل لا يخضع لقاعدة أي مجرى آخر. فعند ما تسخن السماء في ذروة درجة حرارة الشمس، عندها فإن مياه هذا النهر تبدأ في الارتفاع في حدود منتصف النهار حيث تكون ساخنة لدرجة أنها تحرق، فبسبب ذلك لا يضرم محور القبة الزرقاء النار في الأرض لارتفاع منسوب مياهه. لذا فإن النيل نجدة للعالم، فعند ما يشتعل فم برج الأسد و عندما يحترق السرطان فوق مدينة سينه بمصر فإن النهر يفيض ضد فوهتي هذين البرجين لإخماد نيرانهما، و هو أمر تعتبر شعوب العالم في أمس الحاجة إليه.

هكذا ينثر النيل مياهه على الأرض و لا تعود إلى حوضه إلا بعد أن تعود الشمس في فصل الخريف و قد ضعفت قوتها و عند ما

تبدأ الظلال تكبر في مدينة مروء، حيث لا توفر الأشجار أي ظل في فصل الصيف، عند ما تكون أشعة الشمس مسامتة لكل شيء.

في الختام، فإن قوة النيل يصدق عليها ما قاله أسقف أكوريوس[141] لقيصر وفقا لما أورد لوكان: " أيها النهر العظيم، حيث إن منبعك جاء من محور القبة السماوية و تجرأت على رفع مياهك فوق ضفافك ضد برج السرطان عند ما تكون حرارته قد بلغت أقصى درجاتها؛ أنت الذي تتقدم مباشرة باتجاه الشمال الشرقي مع مياهك و تسلك مجراك وسط السهل؛ أنت الذي من ثم تنعكف باتجاه الغرب و من جديد نحو الشرق؛ أنت الذي تظهر تارة في شبه الجزيرة العربية و تارة في رمال ليبيا، تظهر نفسك لسكان تلك البلاد فتمنحهم مزايا عظيمة، فالحقيقة أن ساكنة تلك الأراضي لا يمكنهم الاستغناء عنك أو العيش دونك، فهؤلاء هم أول الأجناس البشرية الذين شاهدوك. فقدرتك تكمن في الفيضان على المدارات، فمنها ما يصادف الأول من ديسمبر و الآخر في يونيو، ثم إنك ترتفع في الربيع الغريب عليك.

لقد منحتك الطبيعة اختراق محوري القبة السماوية، أي محور الشمال و محور الجنوب، فزبدك يصارع الكواكب السامقة فترفعه بقوتك، و أمام أمواجك ترتعد الأشياء كلها. ما ذا أقول عنك باستثناء أنك الحبل السري للعالم، فبنفس الطريقة التي تتغذى بها الكائنات التي توجد في بطون أمهاتها عبر الحبل السري، فيمكن الجزم بنفس الطريقة بخصوص عظمتك في شؤون الأرض."

---

[141] كبير أساقفة مصر و قد ذكره لوكان في كتابه: *Pharsalia*, Canto x.، انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، إحالة 1 ، ص. 300 .

الفصل 63
كيف انطلقت السفن من النهر و الرحلة التي قامت بها

لقد ظهرت الأسرار و العجائب التي صنعتها عبقرية أميرنا عيانا لشعب مملكتنا، فكافة الأمور التي تم التطرق لها بخصوص عجائب نهر النيل، لا يمكنه التأكد منها عيانا لاستحالة ذلك، فقد كان أمرا عظيما أن تصل سفنه إلى هنالك، حيث لم يسجل أبدا وصول سفينة أخرى إلى تلك النواحي. يمكن تأكيد ذلك بحسب الأمور التي ذكرتها في بداية هذا الكتاب و المتعلقة بمعبر بجدور، و أيضا من الاستغراب الذي أظهره السكان المحليون في تلك البلاد عند ما شاهدوا السفن الأولى، فاعتقدوا أنها أسماك أو بعض مخلوقات البحر.

بيد أنه بالعودة من جديد إلى تاريخنا، فبعد القيام بهذا العمل بتلك الطريقة، فقد كانت رغبة القباطنة في السعي لتحقيق غنيمة مشرفة عبر المجازفة بأجسادهم في أي مخاطرة قد تكون ضرورية، بيد أنه يبدو أن الرياح قد غيرت اتجاهها بقوة نحو الجنوب، حيث كان من اللازم الانطلاق بسرعة. فبينما كانوا يبحرون باضطراب بغية معرفة ما تمكنهم الرياح من فعله، إذ تغير اتجاه الرياح نحو الشمال، عندها توجهوا صوب الرأس الأخضر، إلى حيث كان دينيس دياز في السنة الأخرى. لقد واصلوا سيرهم إلى أبعد نقطة ممكنة فلحقت بهم جميع السفن، باستثناء سفينة رودريغيانيس دي ترافاسوس و التي انقطعت عنهم و قامت برحلة سيتم الحديث عنها.

عند ما كانت السفن مباشرة قبالة الرأس، شاهدوا جزيرة فنزلوا فيها ليروا إن كانت مأهولة، إلا أنهم وجدوها مهجورة، لقد عثروا فقط على أعداد كبيرة من الماعز، أخذوا البعض منها ليستخدموها في تغذيتهم، و قد رووا أن ذلك الماعز لا يختلف بأي حال من الأحوال عن الماعز الموجود في بلدنا، باستثناء أن آذانها كبيرة. تزودوا أيضا

من تلك الجزيرة بالماء و واصلوا طريقهم إلى جزيرة أخرى و جدوا فيها جلود معز حديثة و أشياء أخرى فهموا من خلالها أن سفنا أخرى قد تقدمتهم، و كدليل آخر على ذلك و جدوا أسلحة الأمير منقوشة على الأشجار و أيضا كلمات تشكل شعاره. قال الكاتب: "بالتأكيد، أشك في أنه قد وجد منذ الحكم العظيم للاسكندر و قيصر أمير في هذا العالم بلغت أمارات فتحه مسافة كهذه من بلده الأصلي."

فعبر هذه الإشارات التي عثر عليها رجال السفن هؤلاء على الأشجار، فهموا أن آخرين قد ساروا أمامهم، لذا قرروا العودة إلى سفنهم، و كما عرفوا فيما بعد، كانت تلك سفينة جوآو غونسالفيز زاركو، قائد جزيرة ماديرا هي التي سبقتهم.

فبما أنه كان هناك عدد كبير من هؤلاء الزنوج على اليابسة و لم تكن هناك أي وسيلة تمكنهم من النزول ليلا أو نهارا، فقد سعى غوميز بيريز أن يبين لهم رغبته في الذهاب إليهم بطريقة سلمية، فهكذا وضع على الشاطئ كعكة و مرآة و صفيحة من الورق رسم عليها صليبا. عند ما قدم السكان الأصليون و وجدوا تلك الأشياء، قاموا بتكسيرها و رموها برماحهم و هشموا المرآة إلى أن أصبحت عدة شظايا، معربين عن عدم اكتراثهم بأي من هذه الأشياء.

خاطب غوميز بيريز قذافيه، قائلا: "ما دام الأمر كذلك، ارموهم بأسلحة أقواسكم حتى يفهموا على الأقل أننا قوم نستطيع أن نصيبهم، ما داموا لم يقبلوا بتفاهم أخوي." بيد أن الزنوج و قد رأوا نوايا الآخرين، بدؤوا بالرد عليهم، حيث رموهم بأقواسهم و رماحهم و قد حمل رجالنا بعضها إلى هذه المملكة. لقد كانت تلك السهام مصنوعة بشكل جيد، إلى حد أنها لا تحمل ريشا و لا ثلمة لدخول الخيط، بيد أنها ملساء و قصيرة و هي مصنوعة من الأسل و القصب و سنانها الحديدية طويلة و بعضها مصنوع من الخشب و مثبت على دعامة، كالمغازل الحديدية التي تغزل عليها نساء هذا البلد. ثم إنهم يستخدمون أيضا حرابا حديدية صغيرة، هذه السهام كلها مسممة

بالأعشاب، ثم إن كل رمح من رماحهم مصنوع من سبع إلى ثمان نتوءات تشبه الحراب، كما أن النبات الذي يستخدمونه سام جدا.
لقد وجدوا في هذه الجزيرة التي نقشت فيها أسلحة الأمير أشجارا ضخمة و ذات أشكال غريبة، من بين هذه الأشجار ما يصل محيط جذعه 108 كفا، هذه الشجرة ليست طويلة و لكنها ضخمة كشجرة الجوز، فمن لحاء وسطها يصنعون خيوطا جيدة للحبال و تحترق كالكتان، كما أن ثمرتها كاليقطين و بذورها كالبندق و الفاكهة التي يأكلونها طازجة، أما البذور فيجففونها. ثم إنهم يتوفرون على وفرة كبيرة منها و أعتقد أنهم يستخدموها في معيشتهم عند ما تنفد الفواكه الطازجة. لقد روى البعض ممن كان هناك أنهم شاهدوا طيورا هناك تشبه الببغاوات.
هكذا وافق جميع القباطنة على الإبحار بهدف الدخول إلى نهر النيل، بيد أن أيا منهم لم يكتشف مكانه باستثناء لاورنس دياز، مساعد فارس الملك. ثم إنه بسبب أنه كان وحيدا فلم يجرؤ على دخول النهر، غير أنه ذهب على متن قارب صغير إلى المكان الذي أخذوا منه الزنجيين خلال رحلة الذهاب، مع ذلك فقد عاد دون إنجاز شيء يذكر. بما أنه لم يعثر على القافلة من جديد، فقد توجه مباشرة إلى لاغوس. و بنفس الطريقة فقد غوميس بيريز الاتصال مع السفن الأخرى و واصل طريقه باتجاه البرتغال، فبعد أن تزود بالماء من جزيرة آرغين، وصل إلى وادي الذهب ثم أبحر إلى أن وصل إلى مرفأ كان قد زاره السنة الماضية مع أنتاو غونسالفيزو ديغو أفونسو حيث قدم البيظان إلى هناك.
فبعد أن أخذ الأمان منهم، علم أنه لا يوجد تجار هناك، بيد أنهم باعوا له زنجيا بسعر خمسة دبلونات[142] دفع لهم مقابلها بأشياء كانت بحوزته. ثم حملوا له الماء على جمالهم و أطعموه واستقبلوه بحفاوة؛ و فوق كل ذلك فقد أصبح محل ثقتهم دون تردد، لدرجة أن كثيرين

[142] عملة ذهبية ثنيمة. (المترجم).

منهم دخلوا السفينة و هو ما لم يكن يرضى عنه، حيث لم يقبل بدخول أي شخص آخر، بيد أنه في النهاية، و دون أن يصيب أحدا منهم، قام بإنزالهم على اليابسة و اتفق معهم على أنه في السنة المقبلة و في شهر يوليو قد يعود إلى هناك إن كان بإمكانه الحصول على الكثير من الزنوج و الذهب و البضاعة لكسب ربح كبير. فضلا عن ذلك، حمل غوميز بيريز معه في تلك الرحلة الكثير من جلود عجول البحر حيث شحن سفينته منها، و هكذا عاد إلى المملكة.

الفصل 64
كيف أسر لانساروته و ألفارو دي فريتاس اثني عشر من البيظان و أخذوا سبايا

لقد كان من غير المنطقي أن لا نعود في سردنا لأخبار السفن إلى المكان الذي أخذناهم فيه في البداية، فما دمنا قد أوضحنا عودة بعضها إلى المملكة، فإن علينا أن نتحدث عن مصير البقية، لذا سنتحدث بسرعة عن لا نساروته و ألفارو دي فريتاس. فقد حدث أن كان فيسنت دياز مع هذين القائدين، و أعني هنا فيسنت دياز الذي كان قد جرحه الغيني على شاطئ النيل، كما ذكرنا سابقا، فبالصدفة انقطع عن مرافقة الآخرين؛ إذ لم يكن قادرا على العثور على أصدقائه، لأن الوقت كان ليلا.
ففي حين نتركه يأخذ طريقه لوحده، فمن المناسب أن نتحدث عن إنجازات الآخرين. فلأنهما كانا غير راضين عن الغنيمة التي حصلا عليها سابقا، فقد قررا سوية العمل على زيادة المكسب الذي حققاه في البداية. هكذا و بعد مواصلتهما لطريقهما باتجاه جزيرة تيدره، حيث كانا يعتقدان أن بإمكانهما أيضا العثور على شيء يستطيعان من خلاله تحقيق مغنم، وصلا إلى نقطة تيرا. من هنا تحدثا مع مجموعتهما و قالا: إنهما يعلمان أن الأرض مأهولة، و يبدو من المناسب لهما أن يخرج من في السفن و ينزلوا، ثم يحاولوا الحصول على أي مكسب. بخصوص هذا السبب لم يثر أي نقاش، بل قال الجميع إنهم سيفعلون ما يرضيهما، ذلك أنهم يعلمون أن لهم قائدين لا يمكنهما أن يشيرا عليهم إلا برأي سديد.
تم تجهيز القوارب بسرعة، وصعد على متنها القبطانان مع رجالهما، تاركين السفن تحت حراسة مناسبة. بخصوص من ذهبوا في القوارب فقد نزلوا، بعضهم سار مشيا على الأقدام، أما من بقوا في القوارب فقد كانوا يتقدمون محتمين بالميدان . فبينما كان كل من

الطرفين يتقدم على مساره، ذكر من كانوا على الشاطئ أنهم عثروا على أثر أناس مروا من تلك الطريق، و أنه يبدو أنه لم يمض على ذلك الأثر وقت طويل، و منه اكتشفوا أثر أقدام نساء و أطفال.
قال القائدان: "فلنقتف أثرهم إذا، ذلك أن الأثر حديث العهد لدرجة أن أصحابه لن يكونوا بعيدين." و بما أنهم كانوا مستعدين لهذه العملية و كان الأثر واضحا، فقد قطعوا مسافة طويلة دون أن يشاهدوا البيظان الذين يبحثون عنهم، إلى حد أن البعض قال إن حملة على طول مسافة بعيدة بهذه الدرجة تبدو غير منطقية و أن عليهم أن يعودوا. بيد أن الآخرين الأكثر تعطشا للكسب لم يكترثوا بالكلام السابق و واصلوا طريقهم رغم ذلك.
فبينما كانوا يتقدمون غير بعيد من هناك، و عند ما اجتازوا كثيبا رمليا، شاهدوا البيظان في منخفض و كانوا مسافرين. عندها قال من يتولون مسؤولية القباطنة للآخرين: يمكنكم أن تبرهنوا على مدى استعدادكم بالعمل على ملاحقة هؤلاء الأعداء." فمع أن هؤلاء الرجال قد أصابهم الإعياء، إلا أنهم شعروا كما لو أنهم قد خرجوا لتوهم من سفنهم و تملكتهم رغبة كبيرة في الظفر بالعدو. لقد جسدوا عمليا هذه الرغبة بسرعة، فتمكن البيظان من الفرار قبل أن ينقض عليهم رجالنا، ثم إن البعض منهم حاول أن يبدي مقاومة، لكنهم و في وقت وجيز أدركوا خطأ طائفتهم، ذلك أنهم قتلوا بسرعة و بلا رأفة من قبل رجالنا، إلى حد أنه لم يبق منهم على قيد الحياة سوى اثني عشر رجعوا بهم كأسرى. فمع أن الغنيمة لم تكن كبيرة، مقارنة مع السلب الذي قاموا به سابقا في تلك البلاد، مع ذلك فقد كانوا فخورين بها، ذلك أن هذا النصر قد تحقق بعدد قليل من الرجال أكثر منه تقسيما لمكسب حسب النصيب التي قد يحصل عليه كل واحد منهم.

الفصل 65

كيف قام لانساروته و ألفارو دي فريتاس و فيسنت دياز بسبي سبعة و خمسين من البيظان

عند ما حصلوا على تلك الغنيمة، و لو أنها قليلة، اتفق القباطنة على التوجه مباشرة إلى جزيرة آرغين للتزود من هناك بالماء الذي يحتاجونه و مناقشة مستقبل الرحلة. عند ما وصلوا إلى الجزيرة المذكورة، و التي قاموا باستطلاعها أولا كإجراء أمني، و تأكدوا من خلوها من الأعداء، نزلوا كلهم. بعد استراحة قصيرة، قاموا بتخزين مائهم، حيث منحهم متعة خاصة، ذلك أن أهم ما يستمتع بها رجال البحر بعد أن يكونوا قد أمضوا وقتا في البحر هو الماء الشروب، عند ما يحصلون عليه في أي وقت. بعد أن استراحوا هناك تلك الليلة، و بينما كانوا على وشك عقد اجتماع لهم في اليوم الموالي، شرع أحدهم في القول بأنه يعتقد أنه شاهد مركبا يتقدم نحوهم، عند ما نظروا إليه تأكدوا أنها سفينة، فافترضوا أنها سفينة فيسنت دياز، و التي سبق لها أن افترقت مع المجموعة منذ وقت قصير، لهذا السبب علقوا اجتماعهم رغبة منهم في أن يحضره الجميع.

عند ما وصلت إليهم السفينة، سألوا فيسنت دياز إن كان يرى أن ينزل و يشارك في اجتماعهم، فقال لهم: "أيها الأصدقاء، أمهلونا حتى يروي أفرادي ظمأهم من ماء هذه الجزيرة، ذلك أننا قدمنا إلى هنا و قد أصابنا عطش شديد." بعد أن شربوا، بدأ الاجتماع و فيه أبدى القباطنة رغبتهم في بذل المزيد من الجهد بغية تحقيق المزيد من الغنائم، ذلك أنه عند عودتهم بمكسب صغير فإن ذلك قد يكون مدعاة لتوجيه اللوم لأشخاص بمستواهم.

قال بعضهم: "أيها الأصدقاء، إن اقتراحكم كان سيعتبر جيدا لو أن المكان الذي ستبذل فيه الجهود يمكن منه الحصول على مكسب، بيد أن هذه الأرض، كما تعلمون، قد تم تمشيطها من كل أطرافها

و عانت من المضايقات ألف مرة و تجوب سواحلها السفن كل يوم، لذا لا يوجد بيظاني، مهما كانت سذاجته، يمكن أن تطأ قدماه أي نقطة من هذه الأرض، بل إن المنطق يدلنا على أنه يتعين عليهم أن يكونوا قد تملكهم الرعب و فروا من هنا إلى أبعد مكان. لذا يبدو لنا أن علينا أن نكتفي بالغنيمة التي حصلنا عليها و أن علينا أن نعود إلى مملكتنا و لا نضيع وقتنا في أمر نعلم علم اليقين أننا لن نحصل منه على مكسب."

ثم قال آخرون: "هذا هو عين الصواب، ذلك أن هذه الأرض قد تم استفزازها بانتظام كما ذكرتم، بالتالي هناك احتمالان لا أكثر: إما أن البيظان أصبحوا على مسافة بعيدة من هنا، أو أن يكونوا هنا و في استعداد تام يجعلهم قادرين على انتظار أي هجوم معاد يمكن أن يشن عليهم دون أن يخشوه، فحيث نتطلع إلى أخذ أسرى فقد نسقط نحن أيضا في أيديهم. و حتى لو لم نكترث بأي شيء من ذلك، فعلينا أن نتأمل ما وقع لسفن لشبونة، فبعد أن حصلت على حمولة تمكنها منطقيا من العودة بها، فقد أرادت أن تخاطر بكل شيء، و النتيجة كانت ما سمعتم به."

أما الرأي الثالث، أي رأي القباطنة و بعض رجال الصفوة فقد تأجل قليلا، بيد أنهم أكدوا مع ذلك أن الإنزال لا رجعة فيه، لقد قالوا: "كما تعلمون كيف أنه في جزيرة تيدره[143] قد قتل بعض البيظان و أسر البعض الآخر، فهكذا لا يمكن أن ينظر إليهم بحسب عددهم السابق، ثم إن المتبقي تلقى نصف هزيمة، ذلك أنهم فروا أمام أسنة رماحنا كأناس لايجرؤون على اختبار قوتهم ضدنا. لكن دعونا نذهب و نرى إن كان بإمكاننا العثور على أي منهم هناك، ذلك أنهم إن كانوا هناك، فهما يكن من أمر، فسنأسر منهم عددا كبيرا. فإن حدث أن كانت الجزيرة خالية من السكان، فإنه بإمكاننا أن نبلغ الأمير مولانا بخبر

---

[143] إحدى جزر حوض أرغين التي يظهر أنها لعبت دورا محوريا في مواجهة الاستعمار البرتغالي، مما يسمح بالاعتقاد بإمكانية وجود نواة سلطة للبيظان فيها أو بالقرب منها إبان الغزو البرتغالي. (المترجم).

أكيد، فبهذا تكون حملتنا مفيدة، ذلك أن البيظان لم يكونوا قد اكتفوا بالفرار منا مرة واحدة، بل هجروا جميعا أكواخهم و الأرض التي ولدوا و عاشوا فيها خوفا منا."

لقد ساند هذا الراي بقوة أغلبية القادة، إلا أن الناس من ذوي المستويات الدنيا كانوا يرغبون في عدم القيام بأي شيء سوى أن يعودوا إلى المملكة. رغم ذلك، فقد قبلوا رأي من هم أعلى شأنا منهم و الذين فهموا بشكل أفضل منهم؛ هكذا فقد بدؤوا الحملة، و قبل حلول الليل وصلوا قبالة الجزيرة حيث أرسوا سفنهم، لكن ليس قريبا جدا منها، فانتظروا حتى غربت الشمس.

ثم إنه لما كست ظلمة الليل السماء، أخرجوا قواربهم و ركبوها ثم توقفوا في خليج يجري يمر من جانب اليابسة، ذلك أنه قبالة البر المذكور توجد جزيرة أخرى تدعى سرينا[144]. هكذا نزلوا في تيدره،

---

[144] [لنقارن بين ما ورد في نصنا و خريطة فاز دورادو الممتازة، فسنجد على الأخيرة هذه الجزيرة و قد ظهرت كأقرب الجزر من الوجه القاري، كما أنها الأقرب كذلك من مصب نهر سانتو جوآو S. João. لقد رسم دورادو أرغين في الشمال و جنوب مرفأ الملوك (P. dos Reys) رسم أربع جزر، هي جزيرة طيور مالك الحزين و نأر و تيدره Herons , Naar, Tider [das Garças] و كذلك هذه الجزيرة التي ذكر آزورارا. فخريطة دانفيل المتضمنة في كتاب الأب لابات: Nouvelle relation de l'Afrique، الجزء الأول، تشمل جزءا من الساحل يمتد من الرأس الأبيض (Cape Branco) إلى نهر القديس يوحنا (Riv. S. Jean)، فيمكننا أن نقرأ فوق جزيرة قريبة جدا من تيدره كلمة "غرينه / Grine " التي يبدو أنها هي سرينا / Cerina التي ذكر آزورار] دي شانترن. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص. ص. 315 - 316 . و كذا The Chronicle of Guinea the Discovery and Conquest of، الجزء الثاني، مرجع سابق ، الفصل 65 ،الإحالة رقم 161 .

يمكننا أن نضيف انه عند ما عدنا إلى خريطة لبات (Labat) المذكورة و أمعنا النظر فيها، وجدناه قد رسم جزيرة فوق جزيرة تيدره مباشرة و إلى الشمال منها تحمل اسم " جزيرة أرسرينا / Isle Arserina "، مع أن جزيرة غرينه / Grinc التي ذكر دي شانترن تظهر بالفعل في هذه الخريطة بالقرب من تيدرة في الناحية الجنوبية الشرقية منها، فتكاد تكون هاتان الجزيرتان على نفس المسافة من تيدره. لكن يبدو لنا ان ارسرينا / Arscrina هي الأقرب إلى سرينا / Cerina، بالنظر إلى انها تقع فعلا قبالة البر، كما ورد في النص، و هو ما قد يفسر مرور لانزاروته بها ليهاجم تيدره التي تقع جنوبها و ذلك كما يبدو تحسبا لانسحاب البيظان باتجاه عمق اليابسة، لأن ذلك يعتبر أمر جد وارد. فعلى ضوء ذلك، من المحتمل أن يكون دي شانترن قد غفل عنها عند ما كان يلقي نظرة على خريطة لبات المذكورة. من ناحية أخرى، فإن ورود اسم هذه الجزيرة في تاريخ أزورارا يكتسي اهمية تاريخية كبرى، ذلك أن هذه التسمية تكاد تتطابق مع اسم الجزيرة الذي ورد في رحلة القائد

بيد أنهم لم يعثروا على أي شخص، لذا رجعوا و انسحبوا باتجاه قواربهم ثم تقدموا بعيدا و حتى طلوع الشمس.

ثم إن لانساروته خرج من جانب سرينا و سار بمحاذاة البر، آمرا القوارب بالتحرك عبر الماء، فعند ما أدركوا أنهم لم يعثروا على أي شيء، قال لانساروته للآخرين أنه قد يكون من الصواب أن يتحركوا قد ما إلى رأس بحري، فوافقه الجميع. فينما كانوا يسعون لتحضير أنفسهم ليلتقوا جميعا للانطلاق، سمع لانساروته نهيق حمار.

قال للآخرين : " أعتقد أني سمعت نهيق حمار، كما لو تم ادخار الحبور لنا، فالرب قد يكون أراد أن لا نبرح هذا المكان دون غنيمة."

و بما أنه لم يكن هناك شك فيما سمع، طلب منهم أن ينتظروه هناك و أنه سوف يصعد على بعض الكثبان الرملية ليعرف حقيقة ذلك.

ففي حين كان الآخرون ينتظرون، صعد إلى الكثبان الرملية و من هناك و عند ما كان يرصد في كل الاتجاهات إذ شاهد البيظان في مكان تواجدهم، حيث كان عددهم أكبر من عدد رجالنا. لقد كان هؤلاء البيظان قد أعدوا حميرهم و جمعوا أمتعتهم كما لو كانوا يريدون مغادرة ذلك المكان، دون أن يكونوا يكترثون بما قد يحل بهم بعد ساعات قليلة. الحقيقة أنهم كانوا يحاولون أن ينطلقوا، بيد أنهم كانوا يعتقدون أن ذلك لن يكون سفرا طويلا.

الفينيقي هنون (القرن السابع؟ - الرابع؟ ق.م.) و الذي ذكر في رحلته تلك أنه مر بجزيرة تدعى سرنه Cerné / Kerné على الساحل الإفريقي الغربي. لقد أثار موضوع تحديد مكان هذه الجزيرة جدلا واسعا بين الباحثين لا يزال متواصلا، حيث لم يحسم بعد و حتى منتصف هذا العقد الثاني من القرن الواحد و العشرين. من هنا فإن سرينا التي ظهرت في كتاب آزورارا، مع ظهور اسم مشابه لها في خريطة دانفيل التي أوردها لبات في كتابه المذكور أعلاه، تسمح لنا بالقول بأنها لحد الآن هي الأقرب لاسم الجزيرة التي ذكر الرحالة الفينيقي. بخصوص هذا الموضوع، نعتزم في المستقبل المنظور القيام ببحث نأمل أن يكون أكثر تفصيلا. أخيرا فإن هذه الجزيرة تظهر في خريطة حوض آرغين الموجودة في مكتبة جامعة تكساس (انظر ملحق رقم 6) باسم سَرَنّي / Serenni (المترجم).

غير أن لانساروته، و فور مشاهدتهم، نزل بسرعة من المكان الذي كان فيه و جاء ليروي الخبر للآخرين، فتدركون جيدا كم كان فرحهم عند سماعهم ذلك. لقد قال لهم:" إذا فلنحمد الرب، لقد حصلنا على ما كنا نسعى إليه. إن البيظان هنا و هم جاهزون للتو للرحيل و عددهم يفوق عددنا: فقط عند ما تبذلون مجهودا سيكون النصر حليفنا. تشجعوا و كونوا سريعي الخطى، ذلك أن انتصارنا الكامل مرهون بالمواجهة الأولى."

كان من المستحيل وصف مدى التحمس الذي شعر به الجميع عقب ذلك، فلم ينه لانساروته كلامه بالكاد حتى انطلق الجميع و هم يجرون. غير أن أحسن ما فعلوه أنهم تحركوا دون ضجيج إلى أن أصبحوا على الكثبان الرملية، بيد أنهم عند ما وصلوا إلى هناك كانوا غير قادرين على السيطرة على مشاعرهم و هو ما دفعهم إلى الصراخ. عند ما اقتربوا من البيظان رفعوا أصواتهم و التي لم تكن إطلاقا سوى قوة كل فرد شجاع .

عند ما سمع البيظان ذلك أصيبوا بهلع و ارتباك شديدين. عندها شرع رجالنا في الهرولة و هو يصيحون بصراخهم الاعتيادي، أي: "القديس يعقوب"، " البرتغال"، "القديس جورج"، بيد أن هذا الصراخ لم يكن ممتعا بالنسبة للأعداء، فلم يجدوا الوقت الكافي لوضع الأُكُفّ[145] على حميرهم، فأولئك الذين كانوا يحملون الرزم على أعناقهم خلصوا أنفسهم من تلك الأثقال، أما الملفت حقا للانتباه فهو أن منهم من كانوا يحملون أطفالهم على مناكبهم، فعند ما شاهدوا أنهم لا يستطيعون إنقاذهم تركوهم يسقطون على الأرض مع الارتطام العنيف الذي يمكنكم أن تتخيلوه. هكذا و في خضم هذا الكرب بدؤوا يفرون، ليسوا مجتمعين و لا حتى في طريق واحد، بل كل حسب طريقه و هم يتركون خلفهم نساءهم و أطفالهم، دون أي أمل في تخليصهم. مع ذلك، و الحق يقال، فإن منهم من تحلى

[145] جمع إكاف، و هي الأقتاب التي توضع على ظهور الحمير.

بالشجاعة و أظهر نوعا من الدفاع، رغم إدراكهم للانهيار الواضح لفريقهم، فهؤلاء قد لقوا مصرعهم فورا. في النهاية تم سبي ما مجموعه سبعة و خمسين من هؤلاء الناس ؛ تم قتل البعض الآخر و فر آخرون.

آه، لو كان من بين الذين فروا من يفهم بعض الأمور السامية. أعتقد جازما أن السرعة التي أبدوا و هم يفرون، كان عليهم أن يفعلوها إلى حيث يمكنهم ذلك من تخليص أرواحهم و إصلاح شؤونهم في هذه الحياة. مع أنهم قد يظنون أن طريقة حياتهم التي كانوا عليها تسمح لهم بالعيش بحرية، فإن أجسامهم في الواقع تبقى ترزح تحت نير عبودية أعظم، بالنظر إلى طبيعة بلدهم و وحشية حياتهم[146]، مما قد

---

[146] محاولة من قبل الكاتب لتبرير ما قام به هذا الاستعمار و ما ارتكبه من عنف غير مسبوق على الشواطئ الموريتانية، و ربما في داخل البلد أيضا. فمن ناحية، هناك تجاهل للإسلام باعتباره خلاصة الديانات السماوية و تجاهل أيضا لحقيقة أن المسلمين أقاموا حضارة عظيمة في أكثر بقاع العالم، بما في ذلك شبه الجزيرة الإيبيرية، لا تزال آثار عظمتها شاهدة حتى اليوم. فهناك حدثان كنت شاهد عيان عليهما عند ما كنت في إسبانيا سنتي 1998 و 1999 لدراسة اللغة الإسبانية هناك، حيث أعتقد أنهما يشكلان الرد التاريخي المناسب على ما ذهب إليه المؤلف: الأول، كان سنة 1998 و يتعلق بتخليد ذكرى مرور ثمانية قرون على رحيل الفيلسوف و المفكر الأندلسي الكبير ابن رشد الحفيد، و هو الحدث الذي تنادى له المفكرون من كافة أنحاء أوربا و من بعض الدول العربية و العالم ليؤكدوا من خلاله على الدور المحوري لخليفة أرسطو في نهضة أوربا بعد سبات عميق؛ أما الحدث الثاني فقد عشته في صيف سنة 1999 في الأندلس، و بشكل خاص في مدينة غرناطة حيث لاحظت أن قصر الحمراء و ما يحويه من روائع معمارية و جمالية جعلته قبلة لمئات الآلاف من السياح، بل ربما الملايين، يتقاطرون عليه في كل فصول السنة من شتى بقاع العالم، و ذلك للتمتع بمشاهدة هذه المعلمة الحضارية الفريدة، مع المردودية الاقتصادية الكبيرة التي يجنيها الإسبان من ذلك. لقد سقت هذين المثالين، حيث إن الأول يعكس القيمة المعنوية الخالدة للحضارة الإسلامية و الثاني يجسد قيمتها المادية المتواصلة على دولة مثل إسبانيا كانت ضمن دائرة الحضارة العربية الإسلامية لأزيد من سبعة قرون، تماما كالبرتغال التي أثرت فيها هذه الحضارة لمدة ستة قرون تقريبا، و هو تأثير يلتزم أزورارا حياله صمتا مطبقا، إلى حد أن شخصا قرأه و لا يعرف الكثير عن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية قد يظن أن المسلمين لم يستقروا بها قط.هذا طبعا إضافة إلى مختلف صنوف العلوم و المعارف التي برع فيها المسلمون و غيرهم في هذا الجزء من أوربا الغربية و ألفوا فيها كتبا قيمة لا تزال تغص بها مكتبات بقاع الدنيا في ظل حضارة كان يتعايش فيها المسلمون مع المسيحيين و اليهود في انسجام لا يزال حتى اليوم يشكل مصدر إلهام للعديد من سكان إسبانيا و البرتغال. فتتعجب كيف يتجرأ الكاتب على وصف بعض المسلمين - و لو كانوا سكان الصحراء - بهذه الأوصاف، أم أنه، و هذا هو الاحتمال الأرجح، أراد ركوب الموجة في وقت لا يزال فيه صراع الاسترجاع (*Reconquista*) على أشده بين المسيحيين و المسلمين في جنوب الأندلس، حيث لا تزال إمارة غرناطة الإسلامية إذ ذاك قائمة. بيد أن هذا الموقف يوضح بجلاء

يعيشون فيه بين ظهرانينا في ظل قانون غريب عليهم، و العلة في كل ذلك تيه أرواحهم، و هو أمر عليهم أن يدركوه بأنفسهم قبل أي شخص آخر.
بالتأكيد فإنه رغم أن أبصارهم الجسدية لا يمكنها أن تدرك أي جزء من مصيرهم الخير، فإن بصائرهم، أي الروح الخالصة و النظيفة ذات المجد الأبدي، عند قبولها في عالم سر القربان المقدس و بعد أن تترك هذه الحياة مع نزر قليل من الإيمان، ستكون بسرعة قادرة على الاعتراف بالخطأ السابق لعماها.
هنا أنهت السفن الثلاث تلك الرحلة و عادت إلى المملكة، حيث كان الفرح يغمر من كانوا فيها بفعل المكسب الذي أدركوا أنهم حققوه على رفاقهم الآخرين بحصولهم على غنيمتهم الأخيرة.
بيد أنه علينا الآن أن نتحدث عن أولئك الذين لا يزالون في البحر، بغية إطلاعكم على كل ما أنجزوه.

محدودية ما ظل الكاتب يكرره دوما في فصول هذا الكتاب من أنه يتوخى الحقيقة و الموضوعية في سرده للأحداث التاريخية. (المترجم).

الفصل 66

كيف التحق كل من رودريغيانيس و دينيس دياز بالمجموعة

آسف حقا أني لم أستطع الحفاظ على الترتيب الذي يمليه المنطق، لأن موضوع هذا التاريخ قد تم تناوله عدة مرات، فمن الضروري بالنسبة لي أن أخصص فصلا لموضوع كان يمكنني أن أمر عليه مر الكرام بذكر كلمتين، كما في هذا الفصل. في الوقت الحالي و بغية ربط سفينة رودريغيانيس بسفينة دينيس دياز، علي إنشاء خانة جديدة. فهاتان السفينتان اللتان قد انفصلتا عن السفن الأخرى قد واصلتا البحث عنها إلى أن التقتا على النحو الذي سبق و أن تم توضيحه. بعد أن أدرك من كانوا فيهما أنه ليس بمقدورهم الحصول على المزيد من المعلومات، أبحرت السفينتان معا؛ أما بخصوص ما و جرى لهما بعد ذلك، فسنتحدث عنه بالتفصيل.

الفصل 67
كيف عادت السفن الخمس إلى المملكة و ما قامت به قبل ذلك

هكذا و كما سبق أن قلنا في الفصول السابقة، فإن هذه الأمور حدثت لأن القدر أراد لها أن تحدث. فمن أجل أن يكون بمقدوري العودة مع كل السفن إلى لاغوس كما وعدت بذلك، كلما كان ذلك ضروريا، فإني أود أن أتحدث في الفصل الحالي عن هذه السفن الخمس و التي انفصلت عن مرافقة بقية السفن بعد اجتياح جزيرة تيدره. لقد كان هناك ذلك الفارس الشهم سويرو دا كوستا، قائد لاغوس و أربعة قباطنة آخرين يقطنون تلك البلدة أو ولدوا فيها، فبعد أن اتفقوا على العودة، كما سبق أن ذكرنا، تدارسوا مواصلة رحلتهم، ذلك أنهم تصوروا أن غنيمتهم الأولى كانت قليلة، مع أنها مشرفة، مقارنة بالمجهود الذي بذلوه و النفقات التي قيم بها.

بعضهم قال: "لسنا قادرين على تغيير رأينا الأول بخصوص قرار رجوعنا لسببين، أولهما يتعلق بصغر حجم سفننا و الثاني أنه لا توجد آراء متعددة في صفوفنا. بيد أنه قد يكون من الأفضل بالنسبة لنا مع ذلك مواصلة رحلتنا و محاولة زيادة غنيمتنا على مسارنا كلما وجدنا الفرصة سانحة لذلك، مع أنها منطقيا ستكون قليلة بالنظر إلى الرحلات المتعددة التي قامت بها سفننا لهذه البلاد. مع ذلك، علينا أن نحاول، فعسى الرب أن يوفقنا في تحقيق نتيجة مرضية.

بيد أنه وفقا لقواعد المنطق فإنه لا يوجد أي مكان مناسب يكون أمل نصرنا في المجهود الذي سنقوم به كبيرا إلا ذلك الذراع البحري الموجود في الرأس الأبيض، فسندخل فيه و نرى إلى أين يؤدي. فإن كان يتوغل بعيدا في البر فقد نعثر على شيء قريب من هناك نستطيع أن نحصل منه على غنيمة و إلا فلن نتعب أنفسنا أكثر في ذلك المسعى."

وافق الجميع على أن ما قاله المتحدثون الأوائل كان كلاما جيدا، ثم أبحروا في ذلك الاتجاه إلى أن وصلوا إلى النهر المذكور. هناك دخلوا لمسافة قصيرة ثم أرسوا سفنهم، فبعد أن أنزلوا قواربهم بدؤوا في محاولة الوصول إلى نهايته. هنا اتفقوا على النزول ليروا إن كان بإمكانهم العثور على بعض الأشخاص ليزيدوا بهم غنيمتهم الأولى الهزيلة. بيد أنهم ساورهم الشك بخصوص إمكانية الحصول على أي شيء، لمعرفتهم بأن البلاد كانت في حالة استنفار و قد تم اجتياحها عدة مرات؛ فالمجهود الذي بذلوه كانت تفرضه على الأقل الحاجة إلى إبلاغ زملائهم بأنهم كانوا على الشاطئ.
ثم إنهم عند ما نزلوا أرسلوا عنصر استطلاع إلى اليابسة، بيد أنهم لم يسيروا طويلا حتى شاهدوا أمامهم أكواخا صغيرة، فهرولوا نحوها دون انتظار أي اتفاق حيث عثروا على عدد قليل من البيظان قاموا بأسر ثمانية منهم.
فمع أنهم حاولوا الحصول على معلومات منهم بخصوص إمكانية وجود تجمعات سكانية أخرى في النواحي القريبة بتهديد بعضهم، فإنهم لم يتمكنوا من الحصول على أي خبر سوى أنه في كل هذه الأرض لا يوجد أي تجمع آخر. لقد اتفق الثمانية على ذلك، بعد أن تم أخذ كل واحد منهم جانبا على انفراد عند ما يحين دوره. لهذا السبب كان من الضروري بالنسبة لهم أن يعودوا إلى سفنهم، مع النية الآن في العودة إلى أوطانهم، و عدم الانشغال بأي أمر آخر، ذلك أنهم أدركوا أنه لم يعد بإمكانهم تحقيق أي منفعة أخرى عبر بذل المزيد من الجهود. لقد وافق هذا القرار جميع أفراد السفن الآخرين باستثناء قائد لاغوس، الذي قال إنه يرغب في العودة إلى تيدره للحصول على فدية امرأة من البيظان و ابن أحد أسياد تلك البلدة[147].

[147] كما سبق أن نبهنا إلى ذلك في هامش سابق، تبدو جزيرة تيدره في هذه الحقبة التاريخية مركزا بحريا هاما، ليس فقط لموقعها، بل للقوة التي يتوفر البيظان عليها مع وجود شخصيات مؤثرة من ضمنهم، كما يمكن ان نستشف من خلال هذا المقطع و من المواجهات السابقة مع البرتغاليين. (المترجم).

فمع أنه تلقى نصيحة بعكس ذلك، إلا أنه لم يتخل أبدا عن خطته، و لو أنه تأسف عليها كثيرا بعد ذلك. فعند ما وصلوا إلى الجزيرة، بدأ يعطي الإشارات إلى البيظان الذين نزلوا إلى الشاطئ فور مشاهدتهم لإبحار السفينة باتجاههم.

استلم سويرو دا كوستا منهم بيظانيا لضمان أمنه، في حين سلم لهم قائد السفينة و يهوديا كان من ضمن طاقمه. بيد أنهما عند ما أصبحا تحت سلطة البيظان، فإن المرأة البيظانية التي كان يسعى القائد للحصول على فديتها رمت بنفسها في الماء، و نظرا للمهارة التي أبدت في هذا النوع من الأمور و سرعتها فقد وصلت إلى البر و التحقت بأقاربها و أصدقائها[148]. بعد أن رأى البيظان ذلك، اعتبروا أن عليهم عدم تسليم الرهينتين دون الحصول على مكسب أكثر مما كانوا يسعون للحصول عليه؛ في النهاية رفضوا تسليم من هم في قبضتهم إلى أن يستلموا ثلاثة من البيظان. فمع أن الرضوخ لهذا المطلب كان أمرا صعبا بالنسبة للقائد، فقد وافق عليه رغم ذلك، بالنظر إلى ما يمليه الموقف. مع ذلك فقد وجه اللوم لنفسه لعدم قبول رأي رفاقه. بعد أن أدرك أنه لا يمكنه الحصول على مكسب إضافي من هذه الفدية، قفل راجعا إلى المملكة.

---

[148] مما يلفت حقا الانتباه في المعلومات التي أورد آزورارا عن البيظان على امتداد شواطئهم مدى إتقانهم للسباحة رجالا و نساء و أطفالا، في حين أن البرتغاليين كانوا متأخرين جدا في هذه الرياضة مقارنة معهم. (المترجم).

الفصل 68

كيف أبحرت سفن ألفارو غونسالفيز داتايده و بيكانسو و تافيلا في مجموعة واحدة و الكناريون الذي أخذوهم سبايا

لقد ذكرنا في فصول أخرى كيف أن سفينتي تافيلا و بيكانسو قد تركتا السفن الأخرى و توجهتا إلى غينيا و من ثم اتفقتا على العودة معا إلى البرتغال. فخلال رحلة عودتهما التقيتا بسفينة ألفارو غونسالفيز داتايده، و التي كان قبطانها يدعى جوآو دي كاستيلها، فعند ما سألوه عن وجهته، رد عليهم بأنه ذاهب إلى غينيا، فقال بعضهم: "ما الفائدة من ذهابك في وقت كهذا، ذلك أننا قدمنا للتو من هناك، كما ترى، و فصل الشتاء قد بدأ، و بالتالي فإنك إن واصلت سفرك ستعرض حياتك للخطر و ستحصل على شرف و مكسب أقل؛ بيد أنه إن رأيت أن تتبع رأينا فعد معنا و سنذهب إلى جزيرة بالماء، فنرى إن كان بإمكاننا أسر بعض أولئك الكاناريين هناك."
فمع أن جوآو دي كاستيلها قد ساورته الشكوك بخصوص عودة كهذه، لأنه لم يكن واثقا من الأخبار التي سمع عن سكان تلك الجزيرة و كيف أنه من الصعوبة بمكان أسرهم، إلا أنه، و قد أرغمته المسوغات التي قدمها الآخرون، فقد قرر العودة معهم. هكذا و بعد أن ذهبوا معا وصلوا إلى جزيرة غوميرا، حيث ساروا على الشاطئ و شاهدوا بعض الكناريين، فاحترزوا منهم قبل أن يغادروا جميعا قواربهم.
لقد منحهم الكناريون ذلك دون أي تردد، كما لو كانت نيتهم تقديم خدمة لهم بدل وضع العقبات في طريقهم. و فورا قدم قائدان من تلك الجزيرة و قالا بأنهما كانا خادمين للأمير السيد هنريك (فكبرهان على ذلك، كانا يخدمان سابقا في قصري ملك قشتالة و ملك البرتغال) و كيف أنهما لم يلتقيا بأي منهما، مع الامتيازات التي حصلا عليها بعد ذلك من الأمير هنريك، ذلك أنه عاملهما معاملة

حسنة عند ما كانا في قصره خلال الفترة التي أمضياها هناك، فوفر لهما الكسوة الجيدة و أرسلهما في سفينة إلى بلدهم الأصلي، فلذلك فإنهم مستعدون لخدمته.
ثم رد عليهم أصحاب السفن قائلين: " نحن أيضا جنوده و خدمه و بأمر منه تركنا بلدنا، لذا إن كان ذلك هو ما تفكرون به، فهذه فرصتكم في البرهنة على ذلك، ذلك أننا ننوي الذهاب إلى جزيرة بالما و سنحاول أخذ بعض الأسرى، لذا فإن مساعدتكم في ذلك ستكون مفيدة لنا، فحبذا لو أرسلتم معنا بعض رعاياكم لمساعدتنا و ليرشدونا، ذلك أننا لا نعلم شيئا عن تلك البلاد و لا نعرف طريقة القتال المتبعة من قبل سكانها." لقد كان بروكو اسم أحد هذين القائدين، أما الآخر فيدعى بيسته، و قد كان جوابهما أنهما مسروران جدا ببذل أي مجهود يكون في خدمة المولى الأمير السيد هنريك، ثم إنهما قدما شكرهما للرب لمنحهما الفرصة لإظهار ما كانا يضمران له من استعداد لخدمته. لقد قال بيسته: " سترون مدى رغبتي في خدمته، سأرافقكم و سآخذ معي العدد الذي ترغبون فيه من الكناريين."
قال المؤلف: " أرى أن عرفان هؤلاء الرجال بالجميل هو عار على من حصلوا على أشياء أفضل و أعظم من أميرنا هذا و لم يفعلوا مع ذلك أمورا للاعتراف بالجميل بذلك. آه، أي خزي لأولئك الذين تربوا في بيته و بعد ذلك عينهم في مناصب اعتبارية و قيادية، فنسوا ذلك بالكامل و فروا من خدمته عند ما كانت الحاجة ماسة لخدمتهم، فسنذكر أسماء هؤلاء و ما قاموا به في تاريخ المملكة عند ما نتحدث عن حصار طنجة."
هكذا قدم ذلك القائد نفسه مع جنوده، حيث صعدوا مباشرة إلى السفن بالعدد الذي اختار القباطنة ثم انطلقوا دون تأخير، فوجهوا مسارهم باتجاه جزيرة بالما الأخرى حيث وصلوا في حدود الصباح. و مع أن المنطق كان يملي عدم النزول في مثل ذلك التوقيت، فرغم ذلك اتفقوا جميعا على السير فورا على الشاطئ. لقد قالوا " بما أنه قد

تمت مشاهدتنا، فبمجرد أن ننتظر فإن غنيمتنا ستضيع، ذلك أن الكناريين سيحتمون، في حين أنه عند ما ننزل فورا سنكون قادرين على أسر بعضهم؛ فرغم أنهم سريعو الخطى، فإن لدينا رجالا يستطيعون ملاحقتهم. بالتأكيد فإن مالكي تلك القطعان و الذين يهيمون هناك أمام أعيننا سيسرعون ليضعوها في مكان آمن، ذلك أنه من عادتهم أن يبذلوا فيها من المجهود أكثر تقريبا مما يبذلوه في أنفسهم."

و مع أن ذلك القرار كان خطيرا، إلا أنهم وافقوا عليه جميعا، فبعد مسافة قصيرة كانوا جميعا على الشاطئ، البرتغاليون و الكناريون[149] على حد سواء. فبينما كانوا يواصلون سيرهم بالقرب من الشاطئ، شاهدوا الكناريين[150] يفرون، و عند ما بدؤوا في ملاحقتهم، قال أحد أفراد المجموعة للآخرين: " لماذا القيام بمجهود عديم الفائدة بمطاردة أولئك الرجال؟ فمهما فعلتم فلن تستطيعوا أن تتمكنوا منهم، بل علينا أن نطارد تلك النعاج و الخراف التي تسير في ذلك الجرف، ذلك أن أغلب الذين معهم هم شباب و نساء، فإن نحن طاردناهم جيدا فإننا بالتأكيد سنتمكن من أسر بعضهم." بالكاد انتهت تلك الكلمات حتى شرع الرجال في الهرولة و تركوا الكناريين الآخرين الذين كانوا يقتفون أثرهم. بيد أن أولئك الرعاة و قطيعهم دخلوا في واد عميق و خطير، حيث كان من السهل التعجب منه أكثر من سرد كيف يمكن لأي كان أن يجتازه.

بيد أن المسيحيين، البرتغاليين و الكناريين على حد سواء، قد لاحقوهم بحماس كبير بحيث أنه عند ما بدأ أولهم بالدخول في الوادي، كان رجالنا قريبين منهم، فدخل الجميع الوادي لدرجة أن الرعاة كان عليهم الاحتماء وسط امتداد جروف صخرية كانت

---

[149] الذين كانوا أصدقاء لهم.

[150] سكان بالما. راجع بهذا الخصوص:
The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق، الفصل 68، الهامش رقم BO .

خشونتها محل استغراب، بيد أن الأكثر غرابة هو سهولة سير كناريي تلك الجزيرة في تلك الصخور كرضاعتهم للبن أثداء أمهاتهم، ذلك أنهم بدؤوا في السير في تلك الأماكن للمرة الأولى.
فكما أن كلا من بسيلي و مارمارداء[151]، اللذين كانا يعيشان في ما وراء الصحراء الليبية، لا يعترفان بشرعية أبنائهم إلا إذا أصبحوا يلمسون منذ طفولتهم الأولى، و دون جزع، الأفاعي العظيمة في هذه الصحراء التي يقدمها لهما أبواهما؛ فبنفس الطريقة يعتبر كناريو تلك الجزيرة أن أطفالهم، إن لم يولدوا مع هذه السرعة، فقد يكونوا ولدوا من زنى خبيث.
لكن ما ذا عن بني جلدتنا الراغبين في مطاردتهم، فمع أنهم أدركوا خشونة الميدان، فإنهم مع ذلك لم يتخلوا عن مطاردتهم؛ فقد كان هناك شاب نبيل المهجة، فأثناء سيره على تلك الصخور، انزلق من جرف كبير و خشن فسقط و مات. عليكم أن لا تظنوا أن ذلك قد حدث حصرا لذلك الساكن الأصلي من بلدنا، بل إن العديد من الكناريين سقطوا و ماتوا أيضا، فمع أن الطبيعة قد منحتهم منذ القدم موهبة السير على تلك المرتفعات الصخرية، إلا أنه نظرا لسرعة أعدائهم، الذين شاهدوهم بالقرب منهم، معتقدين أن ذلك هو الملاذ الأخير نتيجة خشونة الصخور، فكان الأفضل لهم أن يشقوا طريقهم ظنا منهم أن أعداءهم سيخافون من ملاحقتهم.
فمع أن ديغو غونسالفيز، و هو وصيف الأمير (سبق لنا أن تحدثنا عنه في الفصل الذي سردنا فيه كيف أنه كان أول من رمى بنفسه في الماء و سبح في الجزيرة التي أخذوا فيها ثمانية و خمسين من البيظان)، أقول إذا مع أنه تلقى الثناء على شجاعته الممتازة، فسأرفع من ذلك الثناء عليه بهذه المناسبة، ذلك أنه رجل تميز حقا في ذلك اليوم. سأعتب على المصير بخصوص هذا الشاب و الذي تمت مكافأته من قبل الأمير بزواج حديث في مدينة لشبونة و جمع ثروة

---

[151] في النص الأصلي بالبرتغالية ورد: Silos و Marmorios. المرجع السابق، هامش BP.

كبيرة في منزله لدعم حياته، فالتهم حريق ناتج عن خطأ ارتكبه خادمه كل ما يملك من أشياء، بيد أن الحظ كان لطيفا معه حيث ترك له بعض الثياب المتواضعة التي فر بها هو و ذووه من المنزل المذكور.

لقد كان ما قام به رجالنا عظيما في ذلك اليوم، رغم أنه لم يتم عبر القتال بشكل كبير، مع أنه كان في منتهى الخطورة، و بالأخص بالنظر لكمية الحجارة التي يقاتل بها الكناريون أعداءهم بالأساس، فسواعدهم قوية و رمياتهم قاتلة، فمن الصعب جدا لأحد آخر أن يضربهم، ذلك أنهم يتقنون تفادي الضربات، و بالأخص إن كانت عن طريق الرمي، فالرامي القناص فقط هو من يستطيع إصابتهم بعد وقت طويل و حظ كبير. ثم إنهم يحملون أيضا أسلحة أخرى و بشكل جيد بحسب طريقة حياتهم الوحشية، و هي رماح طويلة مع قرون حادة في الرؤوس، بدل المسامير الحديدية و أشياء حادة في الأجزاء السفلية.

فرغم أن المجهود كان كبيرا، فقد كان مشهده مع ذلك ممتعا. فأي شخص قد شاهد تلك المناوشة، رغم اضطرابها و ارتباكها، و في ذلك المكان (حيث باشر المسيحيون في أسر الكناريين و فصل القطيع معهم بغية التأمين الجيد لغنيمتهم، أما الأعداء فكانوا يبذلون ما بوسعهم للنجاة بأرواحهم و قطعانهم) يمكنه أن يقول إن ذلك المشهد كان أكثر متعة من أي مشهد آخر تنقصه هذه النهاية. هكذا فإن غنيمة ذلك اليوم كانت سبعة عشر كناريا، من رجال و نساء، و من هؤلاء الأخيرات أسروا إحداهن كان حجمها غريبا بالنسبة لامرأة، لقد قالوا إنها كانت ملكة في إحدى نواحي تلك الجزيرة. بعد أن جمعوا معا أسراهم و القطيع، بدؤوا في الانسحاب باتجاه قواربهم، بيد أن الكناريين كانوا يقتفون أثرهم عن قرب، لدرجة أنهم كانوا مرغمين على التخلي عن الجزء الأكبر من القطيع الذي أخذوه منهم، نظرا لذلك فقد عانى رجالنا كثيرا أثناء انسحابهم.

الفصل 69
كيف قاموا بسبي بعض الكناريين رغم الأمان

بعد أن صعدوا جميعا على السفن، رفعوا أشرعتهم و عادوا إلى الجزيرة الأخرى التي انطلقوا منها سابقا؛ و نظرا إلى أنهم حصلوا على مساعدة كبيرة من جانب أولئك الكناريين الأوائل الذين كانوا معهم، فقد قدموا تشكراتهم الخالصة إلى ذلك الرئيس باسم الأمير مولاهم على العمل الذي قام به خدمة له، و أكثر من ذلك على التفاني الذي نفذه به، حيث وعدوه بالحصول على مكافأة أهم من تلك التي حصل عليها في السابق. فبالتأكيد أن ذلك لم يكن دون جدوى، ذلك أن هذا القائد، الذي يسمى بيسته، قدم بعد ذلك إلى المملكة مع آخرين من تلك البلاد و حصلوا على الكثير من الامتيازات و كرم الضيافة من قبل الأمير، و هو ما أعتقد جيدا أنه لن يجعلهم يندمون على ما قاموا به في السابق.
لقد كنت، أنا الذي جمعت و رتبت هذا الكتاب، شاهدا بالفعل على ذلك، إذ حدث أن كنت في مملكة الغرب في قصر هذا الأمير عند ما كان هؤلاء الكناريون يقيمون هناك، و قد شاهدت بالفعل كيف أنهم كانوا يعاملون معاملة جيدة، فأعتقد أن ذلك القائد و بعض الذين كانوا يرافقونه قد أقاموا فترة طويلة في المملكة إلى أن قضوا نحبهم هناك. لقد ذكرت سابقا كيف أن جوآو دي كاستيلها، الذي كان قبطانا لسفينة ألفارو غونسالفيز داتايده، لم يتمكن من الوصول إلى غينيا كما فعل الآخرون، كما لم يحصل لي علم بأنه قام بأي غنيمة أخرى، باستثناء أولئك الكناريين الذين أسروهم هناك. لقد تصور أن تلك الغنيمة شيء قليل للعودة به إلى المملكة، و بالأخص لأن السفن الأخرى كانت تتفوق عليه من حيث المكاسب التي حصلت عليها، فكان يتأثر بشكل بالغ بذلك.

لقد تصور خطة سيئة تمكنه من زيادة القليل الذي كان يحمله، فبدأ يبحث مع الآخرين إن كانوا يقبلون بأسر بعض هؤلاء الكناريين رغم الأمان، و بما أن الجشع هو أصل جميع الشرور، فمع أن الكثيرين رأوا أن مثل هذا التصرف خال من أي منطق، فرغم ذلك وافقوا على ما أوضح لهم جوآو دي كاستيلها أنه مفيد على عدة صعد. فبما أنه كان يبدو لهم أمرا سيئا أن يقوموا بأسر أي من أولئك الرجال الذين قدموا لهم عونا بهذه الأهمية، فقد تنقلوا من ذلك المكان إلى ميناء آخر. فهناك قام بعض الكناريين، و قد منحوا ثقتهم لرجالنا، بالتوجه إلى السفينة. أعتقد أن عدد هؤلاء كان واحدا و عشرين، ثم أبحروا بهم إلى البرتغال.
بعد أن علم الأمير بذلك، غضب غضبا شديدا على أولئك القباطنة، و فورا نقل الكناريين إلى منزله الخاص و قدم لهم كسوة مهيبة و أعادهم إلى وطنهم. هناك مدح السكان الاصليون الأمير على هذا العمل الخير و كانوا بسبب ذلك أكثر تفانيا في خدمته. فبخصوص القدوم الأول لأولئك الكناريين إلى مملكتنا هذه وعن الأمور الأخرى التي جرت لهم، سنتحدث بشكل مفصل عن ذلك في التاريخ العام لأحداث المملكة.

الفصل 70
حول كيفية ذهاب تريستاو من الجزيرة[152] إلى الرأس الأبيض

لقد ذكرنا سابقا كيف أن ترستام، أحد قادة جزيرة ماديرا، قد جهز سفينة لتذهب رفقة سفن أخرى. و رغم أنه مخلص في خدمة الأمير و يرغب في الحصول على مكسب خاص به، إذ كان محبا لجمع المال إلى حد كبير، رغم ذلك فقد كان مصيره أنه عند ما تجاوز مباشرة الرأس الأبيض، أصبح اتجاه الرياح عكسيا عليه، لذا عاد القهقرى، و رغم أنه حاول بعد ذلك جاهدا العودة و واصل طريقة الأولى، إلا أنه لم يكن بمقدوره أن يبحر إلا مع رياح عكسية مما اضطره إلى العودة إلى الجزيرة التي انطلق منها. كذلك فقد قام ألفارو دورنلاس، و هو مساعد فارس و خادم الأمير و رجل خير و شجاع، بتجهيز سفينة أخرى و بذل فيها مجهودا كبيرا لإنجاز عمل للرفع من مكانته، رغم ذلك فلم يستطع أسر سوى اثنين من الكناريين أخذهما من إحدى تلك الجزر، فأعاد بهما في السفينة حيث أعطى الشحنة لمساعد فارس ليصلحها له و ليعود هناك قبل السنة المقبلة. سنسرد فيما بعد جزءا من مصير مساعد الفارس هذا و المجهود الكبير الذي بذله دفاعا عن مكانته.

[152] أي جزيرة ماديرا، راجع بهذا الخصوص: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق ، الفصل 70 ،الهامش رقم BQ.

الفصل 71
كيف أن رجال بالنسو قاموا بسبي ستة من البيظان

كما ذكرنا ذلك سابقا، جهز دينيس دياز سفينة للسيد ألفارو دي كاسترو و انطلقت في البداية مع مجموعة بالنسو الذي أخرج سفينة صغيرة لم يكن يريد استخدامها لشيء سوى دخول نهر النيل[153]، ذلك أنها كانت سفينة قديمة و كان ينوي تركها عند ما يتأكد من أنها لم تعد صالحة للخدمة. هكذا وصالت هاتان السفينتان رحلتهما حتى وصلتا جزيرة آرغين، و بعد التزود بالماء، تم الاتفاق على مواصلة الرحلة على طريقهما إلى أن يصلا أرض الزنوج، وفقا للهدف الذي وضعاه عند ما كانا في المملكة.

بعد أن تجاوزا موقع سانتا آنا[154] بمسافة لا بأس بها و استراحا يوما، قال بالنسو إنه لا ضير من أن ينزل بعض الرجال و يحاولوا أسر بعض البيظان. رد عليه دينيس دياز: " لماذا يستخدم الرجال في مغامرة كهذه؟ علينا بالأحرى أن نواصل مباشرة على طريقنا، فإن وفقنا الرب في الوصول إلى بلاد غينيا تلك فيمكننا بالتأكيد الحصول على مسلمين بعدد كاف لنشحن منهم سفينتينا." إن ما قاله دينيس دياز صحيح، ذلك أنه يمكن العثور على الكثير من المسلمين هناك، بيد أن أسرهم ليس بالأمر السهل، عكس ما يعتقد، ذلك أني أرى أنهم رجال شجعان و يتوفرون على الكثير من الوسائل للدفاع عن أنفسهم، و هو ما ستطلعون عليه في الفصول التالية عند ما نتحدث عن طرق القتال التي يتبعونها.

رد بالنسو: "أيها الصديق، حتى ولو قدر لنا أن نأسر الكثير من المسلمين هناك، فما ذا سنخسر إن منحنا الرب بعضهم هنا أولا؟

---

[153] للتذكير فإن نهر النيل هو نهر أزناكة / صنهاجة (السنغال)، كما سبق أن رأينا. (المترجم).

[154] نقطة توجد جنوب نهر القديس جوأو و تظهر على خريطة جوأو فريره لسنة 1546، راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.336.

فمهما يكن من أمر" ،حسب قوله، "أرى بالفعل أنه علينا أن نحاول أسرهم، فعسى الرب أن يوفقنا في سبي الكثير منهم هنا لنستغني عن السفر بعيدا في هذا الوقت." ثم قال دينيس دياز:" ما دام الأمر كذلك، فاصدر الأوامر بما تشاء." عندها جهز بالنسو فورا سفينته الصغيرة للذهاب إلى الشاطئ، فمع أن البحر كان هادئا، بيد أنه كانت هناك موجة كبيرة على الساحل تمنع السفينة الصغيرة من الوصول إلى الشاطئ. بيد أنه و لرغبته في إكمال ما قد بدأ، فقد قال لمجموعته: " ترون، أيها الأصدقاء، أن هيجان البحر بالقرب من هذا الساحل لا يسمح لنا بالوصول إلى الشاطئ؛ مع ذلك فإن نيتي هي الرسو، بيد أنه نظرا لعدم معرفتي بالسباحة، فقد يكون أمرا جنونيا التجرؤ على ذلك. غير أنه إن كان منكم من يستطيع الذهاب إلى الشاطئ سباحة فبالتأكيد سأشكرهم كثيرا على فعل ذلك و بعد ذلك سيحصلون على الثناء الذي يستحقه الرجال الخيرون و الصادقون على ما قاموا به من أعمال بطولية."

أجابه بعضهم " لقد قلت الحق و نحن على استعداد لتحقيق رغبتك، بيد أن هناك خطرين يترتبان على ذلك: الأول هو أننا لا نعرف ما ذا سنجد على الشاطئ، ذلك أن هذه الأمواج التي هنا قد ترمينا إلى اتجاه نفقد معه التحكم في أطرافنا و سنهلك بسرعة، فقد حدث ذلك لآخرين في السابق. أما الخطر الثاني فهو أنه إن نحن ذهبنا إلى البر و التقينا ببعض الناس و الذين كان علينا أن لا نحاربهم إلا بمساعدتكم، و إذا كانت حالة البحر هذه بحيث لا يمكنكم الوصول إلى الشاطئ، فماذا سنفعل؟"؛ فكما تلاحظون، بقدر عدد الرجال تتعدد الآراء، فعند ما كان بالنسو يستمع إلى الآراء التي يقدمها هؤلاء الرجال، ذهب بعضهم جانبا و لم يصغ إلى ما دار في ذلك النقاش، بل ظهروا عراة أمام بالنسو و مستعدين ليلقوا بأنفسهم في الماء. لقد قالوا: " نتواجد هنا فأوعز إلينا بما تريد أن نفعل، بخصوص الموت فإنها هي نفسها في كل

مكان، فإن شاء الرب أن نموت هنا في خدمته، فإن ذلك هو الأفضل لإنهاء حياتنا."
بعد ذلك، و بإيعاز من القبطان، جهزوا ثيابهم و أسلحتهم ما وسعهم ذلك و غطسوا و هم يسبحون. فبنعمة الرب و رغم اضطراب البحر هناك، فقد وصل الاثنا عشر إلى الشاطئ كما غادروا السفينة، ثم بدؤوا يسيرون بمحاذاة الشاطئ، فلم يقطعوا إلا مسافة قصيرة حتى تحدث إليهم أحدهم كان يتقدمهم قائلا لهم أن يتريثوا، ذلك أنه شاهد أثر أقدام أناس، و أنه من الأرجح بالنسبة له أنه أثر لم يمض عليه وقت طويل. حينها قال: "يبدو لي أن علينا أن نقتفي أثرهم، ذلك أنه حسب ما يبدو من أثر أقدامهم، فإنهم لن يكونوا بعيدين." ثم قال آخرون: " من أجل ماذا نغامر بأرواحنا أمام زملائنا للقفز في البحر، إن كان علينا أن نقوم بشيء آخر غير هذا؟" ثم أمروا ثلاثة رجال للسير أمامهم و متابعة اقتفاء الأثر ثم يتبعهم الآخرون.
عند ما قطعوا مسافة حوالي فرسخين، عثروا على واد و هنا شاهد أولئك الذين كانوا في المقدمة البيظان الذين كانوا يقتفون أثرهم، إلا أنهم اعتقدوا أن عددهم كان قليلا جدا لدرجة أنهم أسفوا كثيرا لذلك، رغم الاستعداد الذي هم عليه، مع أنهم كانوا واثقين من تحقيق النصر. هكذا فقد وجهوا أنظارهم صوب الآخرين الذين كانوا يسيرون خلفهم، فكانت كلماتهم مقتضبة، بحيث أنهم عند ما شرعوا في التفوه بكلمة "بيظان"، كان الرجال الذين خلفهم قد بدؤوا في الهرولة و بصيحات الحرب و هم يجرون، فنبه صوتها الأعداء و اصابهم بالحزن في نفس الوقت.
بيد أنه لم يكن لهؤلاء من بد سوى الفرار، ذلك أنهم لم يكونوا يعيرون اهتماما كبيرا لأغراضهم التافهة و الهزيلة، فأنا متأكد من أن الذين فروا من هناك سيتأخرون في العودة مع أسف شديد على أمتعتهم. ثم بدأ جنودنا في مطاردتهم بسرعة و كان الإعياء قد

أصابهم بسبب الإنزال من السفينة و مسيرهم، لذلك لم يكونوا قادرين على مطاردتهم لمسافة أطول، فلهذا السبب تناقصت غنيمتهم، إذ لم يتمكنوا من أسر سوى تسعة أشخاص. فقال بعضهم: "قد يكون من الأفضل أن نعين ستة منا لسوق هؤلاء الأسرى إلى السفن، أما الستة الباقون فعليهم أن يقوموا بتمشيط تلك الأحراش الكثيفة لعلهم يعثروا فيها على بعضهم[155] مختبئين." بالتالي فإن الذين كان عليهم أن يعودوا رفقة الأسرى قد انفصلوا مباشرة عن الآخرين و بدؤوا في تقييد أسراهم بأحسن طريقة ممكنة، غير أنه يبدو أنهم لم يفعلوا ذلك بالطريقة التي يتطلبها الموقف، فمع أن ستة كانوا يكفون لحراسة تسعة، فقد مر بكم من قبل أن آخرين رافقوا عددا أكبر دون حدوث أي مشكل.
و بما أن النساء بطبيعتهن عنيدات فإن إحدى نساء تلك المجموعة بدأت تراودها فكرة رفض السير، فرمت بنفسها على الأرض و تسببت في جعلها تُسْحب بشعرها و رجليها دون أن ترأف على نفسها؛ لقد أرغم عنادها المفرط رجالنا على تركها هناك و هي مكبلة بنية العودة لها في يوم آخر. ففيما كانوا في خضم هذه المناوشة، بدأ آخرون يتفرقون، بعضهم فر في اتجاه و البعض في اتجاه آخر، فتمكن اثنان منهم من الهروب، علاوة على البيظانية التي تركوها قبل ذلك مقيدة. فرغم أن رجالنا بذلوا قصارى جهدهم في إلقاء القبض عليهم إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك، ذلك أنه يبدو أن المكان كان مواتيا للحيلولة دون رؤيتهم. هكذا فقد كانوا مرغمين على نقل هؤلاء إلى الشاطئ مع الكثير من الامتعاض على سوء طالعهم.
ثم وصلت المجموعة الأخرى بعد ذلك دون الحصول على شيء، مع أن البعض كان لا يزال يرغب في العودة إلى المرأة البيظانية التي تركوها خلفهم و هي مقيدة، لكن بما أن الوقت كان متأخرا مع

---

[155] أي بعض السكان الأصليين.

خطورة البحر، فقد تخلوا عن تلك المحاولة، بعدها لم تعد أمامهم فرصة، ذلك أن السفينة انطلقت مباشرة؛ فهكذا بقيت المرأة البيظانية مع عنادها الجنوني و قد شُدَّ وثاقها في تلك الأحراش، حيث أعتقد أنها ستكون قد لقيت حتفا عاصفا[156].

أما بخصوص من فروا من هناك، فنظرا إلى أن الفزع قد أصابهم عند أول مواجهة، فإنهم لن يعودوا فورا إلى تلك الطريق. فبينما كانت السفينتان تبحران على مسارهما، بدأت الرياح تبرد و تضرب بقوة، إلى حد أن ضرب العاصفة للسفنينتين جعل السفينة الصغيرة تبدأ في الغرق و تسرب إليها الماء، مما أقنع بالنسو بأنه لا يمكنه أن يواصل مسافة أطول. ذلك أنه إن فعل ذلك قد لا يصل إلى المكان الذي ينوي الوصول إليه، ثم إنه من الممكن أن تهب رياح تجعل السفينة الأخرى تفترق معه و عندها ستكون حياتهم مهددة. هكذا قال لدينيس دياز أن عليه أن يستقبله في سفينته و كذا بقية الطاقم مع كافة تجهيزات و حبال السفينة الصغيرة و كذا حطب الوقود، فعند ما تم حمل ذلك على المتن، تركوا السفينة الصغيرة تغرق، ثم واصلوا رحلتهم.

---

[156] يعتبر ترك هذه المرأة مكبلة في الفلاة أكبر دليل على مدى عنف هذا الاستعمار و تحلله من أبسط القيم الإنسانية. (المترجم).

الفصل 72
بخصوص ما حدث لرودريغيانيس و ترافاسوس و دينيس دياز

لقد روينا سابقا كيف أن رودريغيانيس و دينيس دياز قد أبحرا رفقة بعضهما البعض، بيد أننا نعتقد أن هذا هو المقام المناسب لنا لنذكر بالفعل ما وقع لهما. فهكذا و بعد أن أبحرا معا بالطريقة التي تحدثنا عنها سابقا، و التي نعتقد أنها بعد غرق السفينة الصغيرة، و صلا إلى الرأس الأخضر و من ثم واصلا باتجاه الجزر[157] للتزود بالماء، و بالتأكيد علما بواسطة الآثار الموجودة أمامهم في كل مكان أن سفنا أخرى سبق لها أن مرت من هنا. من هناك بدؤوا في اختبار الغينيين عن طريق من يكون قد سافر إلى هناك، بيد أنه تبين لهم أنهم مستعدون جيدا، حيث أنه رغم أنهم حاولوا الاقتراب من الشاطئ عدة مرات فإنهم يلقون مقاومة قوية، إلى حد أنهم لم يعودوا يستطيعون التجرؤ على الاقتراب منه.

ثم إن دينيس دياز قال: "قد يكون هؤلاء الناس لا يمتلكون من الشجاعة ليلا مثلما يمتلكونه نهارا، لذا سأختبر مدى شجاعتهم، و سأعرف ذلك بسرعة هذا المساء." لقد قام بالفعل بذلك، ذلك أنه عند مغيب الشمس ذهب إلى الشاطئ و معه رجلان فعثر على موقعين مأهولين وقد أدرك أنهما كبيران، إلى حد أنه ارتأى أن من الأفضل بالنسبة له تركهما، فمهمته ليست بهدف المخاطرة بأي شيء، بل تقتصر فقط على إخطار زملائه بما عليهم فعله.

---

[157] بحسب دي شانترن، فإن هذه الجزر قد تكون تلك التي تظهر في بعض الخرائط و بالأخص الخرائط الفرنسية تحت اسم جزر مادالينا Ilhas da Madalena ، راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص. 342 .

ثم عاد إلى السفينة و وصف لرودريغيانيس و للآخرين ما عثر عليه، حيث قال: "سنتصرف برعونة إن نحن أردنا المجازفة في معركة كهذه، ذلك أني اكتشفت قرية مقسمة إلى جزأين كبيرين مكتظين بالمساكن، فأنتم تعلمون أنه ليس من السهل أسر سكان هذه الأرض كما نود، ذلك أنهم رجال أقوياء جدا و مجربون و مدربون جيدا للمعارك التي يخوضون، و الأدهى من ذلك أن لهم سهاما مسممة بعشب جد خطير. لذا أرى أن نعود، فكل المجهود الذي سنقوم به سيهلكنا إن نحن حاولنا الهجوم على هؤلاء الناس."
رد الآخرون على ذلك بأن ما قيل صواب، ذلك أن الجميع يعلم أن ما ذكره صحيح. عندها رفعوا أشرعتهم و بدؤوا في الانطلاق، ثم إن دينيس دياز ذكر أنه شاهد شيئا في تلك الجزيرة يرى أنه جديد، إذ اعتقد أنه شاهد بين الأبقار حيوانين غريبين مقارنة بالماشية الأخرى، بيد أنه مادام هذان الحيوانان يسيران معها فمن المحتمل أن يكونا جاموسين لأنهما حيوانان من طبيعة الأبقار، لقد كان الأمر كذلك. عند ما كان أولئك الرجال عائدين فإن رودريغيانيس، الذي كان يغادر تلك البلاد و هو مستاء بسبب عدم حصوله على فرصة لإظهار مدى استعداده للقيام بعمل مشرف، قال لدينيس دياز إنه يرى أن يرسل بعض رجاله إلى الشاطئ، ذلك أنه من المحتمل أن يكون بعض البيظان قد قدموا لأخذ بعض خشب السفينة الصغيرة التي سبق أن تركوها تغرق، فإن تصادفوا معهم فلن يخفقوا في أسر بعضهم. لما قبل دينيس دياز بذلك، أخرجوا قواربهم و أرسلوا فيها عشرين من رجالهم إلى الشاطئ.
لقد كان جليا أن رودريغيانيس لم يكن مخطئا في تفكيره، حيث كان البيظان منهمكين في جمع الخشب على الشاطئ و عند ما شاهدوا الزوارق تتجه إلى البر، تراجعوا مسافة من الشاطئ، و كأن لسان حالهم يقول: "هؤلاء جاؤوا للبحث عنا، لذا فإن علينا أن نبحث عن طريقة تمكننا ليس فقط من تأمين أنفسنا، بل لننال

منهم أيضا." لذا توزعوا على كمينين بهدف جر رجالنا بعيدا عن الشاطئ و لاستخدام قوتهم بأمان و دون خطر عليهم هم أنفسهم.
في تلك الأثناء نزل رجالنا و انتظروا برهة لترتيب تحركهم، و ذلك لأنهم اكتشفوا أثر البيظان، فاعتقدوا أنهم لن يكونوا بعيدين من هناك، رغم أنهم أدركوا بحسب عدد الآثار أن العدو كان كثير العدد، مقارنة بما تستطيع قواتهم التصدي له، و هو ما جعل بعضهم يطالب بأن عليهم أن يعودوا، قائلين إن ذلك أمر يجب عدم اختباره. بيد أن آخرين قالوا: "إن ذلك أمر لا مفر منه، فنحن الآن أصبحنا على الشاطئ و سيكون من العار أن نتراجع، فلنترك القوارب تعود و لنواصل قدما البحث عن الأعداء، ولنتوكل على الرب في كل ما قد يصيبنا." فمن بين العشرين الأوائل عاد ستة إلى القوارب لأخذها إلى السفن، ثم تقدم الأربعة عشر لأنهم وجدوا أن الأثر سار في اتجاه البر. بيد أنهم لم يعانوا مشقة مسير طويل، فها هو الكمين الأول بدأ يتظاهر و كان فيه حوالي أربعين من البيظان، حيث خرجوا قدما باتجاههم و بتلهف، و كأنهم شعروا بتحقيق نصر أكيد بالنظر لعددهم المتفوق و كذا لأنهم يعولون على مساعدة الآخرين الذين ينصبون الكمين الثاني.

بيد أنه مع أن البيظان حملوا بجرأة فإن المسيحيين لم يتراجعوا، بل جهزوا أسلحتهم و بعد ذلك انتظروا قدوم أعدائهم دون وجل. إثر ذلك اندلع قتال شرس بينهم حيث استخدمت الرماح و السهام التي لم تجد تجهيزات و لا سترة من درع الزرد قادرة على الوقوف في وجهها. فبما أنه لم تكن توجد صخور في الميدان يمكن للبيظان أن يستخدموها، و بما أنهم لا يتوفرون على دروع[158] و لأن المسيحيين بذلوا ما بوسعهم لإصابتهم بجروح أو قتلهم، بدأ البيظان يشعرون بأنهم خسروا المعركة و انسحبوا من رجالنا إلى أبعد مسافة ممكنة. ففي هذه المعركة، أبلى وصيف في بيت الأمير يدعى مارتين بريرا بلاء حسنا، فقد أصيب درعه بأسلحة العدو، لدرجة أنه صار كظهر شيهم عند ما يتخلص من ريشه.

---

[158] بالفعل، فإن عاملي طبيعة الميدان و نوعية الأسلحة المستخدمة في هذه الحرب التي خاضها البرتغاليون ضد البيظان على الشواطئ و حتى في عمق اليابسة أحيانا كانا لصالح البرتغاليين. فعلى طول هذا الشاطئ، من رأس نوانيبو و حتى مصب نهر صنهاجة (السنغال)، تكاد الأشجارتنعدم و الأرض في الغالب مستوية و مكشوفة، بحيث لا تمكن من الاحتماء أو التمويه، ثم إن أسلحة البيظان بدائية، مقارنة بترسانة البرتغاليين الحديثة و فق معايير تلك الحقبة. فإضافة إلى هذين العاملين، فإن البرتغاليين كانوا في الغالب الأعم هم من يباغتون، كما مر معنا؛ فإن حدث أن كان البيظان هم من يأخذ المبادرة و بنصب كمائن للعدو، كما رأينا في عملية تيدره التي قتل فيها سبعة من البرتغاليين و في عمليات أخرى من ضمنها العملية الحالية، تكون الكفة لصالحهم أو تكون الإصابات موزعة بين الطرفين، لأن تلك هي فرصتهم الوحيدة للانتصار على أعدائهم أو تكبيدهم بعض الخسائر. (المترجم).

الفصل 73
كيف ظهر الكمين الثاني و كيف تم التغلب على البيظان

لم ينسحب البيظان بعيدا لأن القتال بين الطرفين تواصل بضراوة، و السبب الرئيسي في ذلك هو أنهم كانوا ينتظرون الدعم من الكمين الثاني، مع أنهم رأوا أنه تأخر أكثر من اللازم، رغم ذلك خرج في النهاية خمسة و عشرون من البيظان الذين كانوا ضمن الكمين المذكور و قد ألهبت صيحاتهم حماس زملائهم، عندها يمكنكم تخيل مدى الجهد الذي بذله مسيحيونا بأعدادهم القليلة و المتواجدين وسط هذا العدد الهائل من الأعداء.

بالتأكيد فقد اتضحت قوتهم بشكل جلي في تلك المناسبة، فمع أنهم كانوا مرهقين و حمل عليهم مقاتلون جدد، رغم ذلك لم يغيروا من موقفهم الذي كانوا عليه في السابق، فكرجال أخيار و شجعان بدؤوا في النزال، فصاح كل منهم نحو الآخر" اللعنة على من تراجع في موقف كهذا." ثم إن البيظان الذين أظهروا لهم إشارات على أنهم غلبوا،عادوا بجسارة لخوض القتال من جديد، فازدادت ضراوة المعركة بين الطرفين؛ غير أن المسيحيين حملوا عليهم بشدة إلى حد أن العدو أصبح يتملكه الخوف و لم يستطع الاقتراب من حيث تتواجد القوة الرئيسية لرجالنا. غير أن ذلك لم يفدهم شيئا، فقد أصيب بعضهم بجروح قاتلة قضت على حياتهم بشكل سريع. فلم يمض وقت طويل حتى شاهد البيظان سقوط بعض زملائهم الذين كانت غالبيتهم تقريبا قد جرحوا، ثم أدركوا أنهم كلما مكثوا وقتا أطول هناك، كلما تفاقمت إصاباتهم. لذا بدؤوا في الفرار.

ثم إن الذين بقوا في السفن، مع أنهم عندما شاهدوا دخول زملائهم في المعركة الأولى كانوا متحمسين للاعتقاد بأنهم قد لا يحتاجون دعما، إلا ذلك الذي لا يمكن لأي كان الاستغناء عنه، أي دعم الرب، فقد كانوا مسرورين جدا بالشجاعة الملفتة التي تحلى بها

هؤلاء الرجال. بيد أنهم بعد أن رأوا ظهور الكمين الثاني، تملكهم خوف شديد بخصوص قدرتهم على الصمود في وجههم، مع أنهم بذلوا ما في وسعهم و بسرعة لمساعدتهم؛ ثم إنه نظرا لطول المسافة، لم يستطيعوا الوصول إلى ميدان المعركة بسرعة.

ففي وقت وجيز فر جميع البيظان، إلا أن رجالنا لم يطاردوهم بسبب ما عانوه من مشقة، لأنهم كانوا مرهقين للغاية. هكذا فقد عادوا مع آخرين كانوا قادمين لمساعدتهم للاحتماء بسفنهم و تضميد جروحهم، و التي لم ينج منها إلا القليل منهم، سواء كانت عادية أم خطيرة، وفقا لنصيب حظ كل منهم. ثم إن البيظان، عند ما شاهدوا المسيحيين و قد بدؤوا بالعودة بالفعل، عادوا إلى ميدان المعركة بغية نقل أحد أولئك الرجال الذين قتلوا و الذي يبدو أنه يعتبر من نبلائهم، فعند ما فهم رجالنا نيتهم عادوا إليهم لاستئناف القتال. غير أن الأعداء، و قد أنذرتهم الإصابة التي حدثت لهم من قبل، تركوا الرجل الميت الذين كانوا يحملونه، ثم فروا بأقصى سرعة ممكنة، عندها ارتأى رجالنا ضرورة العودة إلى سفنهم للخلود إلى الراحة و الاعتناء بالجرحى و المنهكين[159].

---

[159] تعتبر هذه المعركة من أشد المعارك التي وقعت بين البيظان و البرتغاليين و أكثرها ضراوة. يكفي أن نلاحظ أن البرتغاليين، رغم تفوقهم من حيث التسليح، لم يتمكنوا من أسر أي من البيظان، بل على العكس فقد أصيبوا بجروح خطيرة ربما تكون تسببت في موت كافة من شارك منهم في هذه العملية، أما من جانب البيظان فهناك على ما يبدو قتيل على الأقل و بعض الجرحى. (المترجم).

الفصل 74
كيف رجع رودريغيانيس و دينيس دياز إلى المملكة و ما وقع لهما أثناء رحلتهما

فمع أني قد تحدثت في السابق عن الأعمال النبيلة و العظيمة في هذا التاريخ، فبالتأكيد فإنه ليس اعتباطا أن أضيف ما قام به أولئك الرجال الأربعة عشر إلى مدح كل الأخيار، ذلك أن استحقاقاتهم جديرة بالتعظيم بين الأحياء، و أكثر من ذلك أمام وجه المولى السرمدي (و الذي مركزه، كما قال هيرميس، موجود في كل جهة بشكل لا متناه و محيطه لا يسعه حيز)، فعسى أن تحصل أرواحهم على المباركة المجيدة من لدنه[160].

فاستكمالا لما قامت به هاتان السفينتان، أقول باختصار أنه فور انتهاء القتال، وافق القبطانان على العودة مباشرة إلى المملكة. غير أنهما عند ما وصلا إلى رأس تيرا تم الاتفاق بينهما على وضع بعض الرجال على الشاطئ لعلهم يحصلوا على أي غنيمة، مع أنهم يعرفون أن المنطقة قد تم تمشيطها عدة مرات في السابق.

هكذا و عند ما نزل هؤلاء على الشاطئ، و كان عددهم خمسين، بدؤوا في السير بمحاذاة الشاطئ إلى أن وجدوا أثر أقدام رجال باتجاه البر، فبما أنه كان يبدو أن الأثر جديد فقد أبلغوا قبطانيهما بذلك، فتلقوا منهما الأمر بتخصيص بعضهم ليسير أمامهم و يقتفي أثر البيظان إلى أن يعثروا عليهم. فبما أن الأرض كانت مستوية جدا، فقد شاهدهم البيظان عن بعد و بدؤوا في الفرار، فمع أن المسيحيين قد هرولوا بسرعة نحوهم، فإنهم لم يكونوا قادرين على ملاحقتهم؛ بيد أنه حدث أن اثنين من شباب المجموعة وجدا رجلا من البيظان رجعا به معهم كدليل على المجهود الذي بذلا. فمن هناك أبحروا فورا إلى لشبونة حيث تلقوا التعظيم و المكافأة من الأمير بعد أن أدوا له ما يستحق.

---

[160] يبدو أن تلك الإشارة ربما تفيد بأن هؤلاء الرجال الأربعة عشر قد ماتوا جميعا أو أغلبهم خلال هذه الرحلة متأثرين بجراحهم. (المترجم).

الفصل 75
بخصوص كيفية وصول سفينة جوآو غونسالفيز زاركو إلى أرض الزنوج

لقد بقي علي أن أذكر ما وقع لسفينة جوآو غونسالفيز زاركو، و الذي أعتقد أنه دخل في هذا الأمر دون أن يأمل أي نفع أكثر من الآخرين الذين أرسلوا إلى هناك؛ ذلك أن جميع الآخرين، كما سبق أن رأيتم كانت لهم عقلية الكسب الشخصي إضافة إلى خدمة الأمير. بيد أن جوآو غونسالفيز هذا، الذي كان نبيلا في كل ما قام به، أراد أن يعلم الجميع أنه رتب لتلك الرحلة فقط لخدمة مولاه. لأجل ذلك جهز سفينة جيدة للغاية و منح قيادتها لابن أخته[161]، المسمى ألفارو فرنانديز و الذي تولى الأمير تنشئته في بيته، فأمره بعدم الاهتمام بأي منفعة باستثناء ما يستطيع من رصد و معرفة أي أمر جديد، ثم إن عليه عدم الانشغال بالقيام بغارات على أرض البيظان، بل التوجه مباشرة إلى بلاد الزنوج و تمديد سفره من هناك أطول فترة ممكنة، مع السعي إلى حمل شيء جديد للأمير، و هو ما كان يرى أنه سيجلب له السرور.
كانت السفينة تتوفر على التموينات الكافية و تتوفر على رجال جاهزين للعمليات التي تتطلب التحمل، ثم إن ألفارو فرنانديز كان شابا و جسورا. هكذا شرعوا في سفرهم و هم مصممون على تحقيق الهدف الذي أرسلهم من أجله، فركبوا ذلك البحر العظيم و تابعوا رحلتهم حتى وصلوا إلى نهر النيل[162] فعرفوه بسبب الأمارات التي سبق لي أن ذكرت، حيث أخذوا منه أنبوبين من الماء، أحدهما حملوه إلى مدينة لشبونة. فلا أدري إن كان الإسكندر

---

[161] أو ابن أخيه.
[162] بحسب دي شانترن، السنغال أو نيل الزنوج. انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.353 .

الذي كان أحد أعظم ملوك العالم قد شرب يوما من ماء جلب له من مسافة بعيدة كهذه. من هناك تقدموا إلى أن تجاوزوا الرأس الأخضر، فعثروا على جزيرة[163] تقع بعده فقاموا بالإنزال عليها لمعرفة إن كان بإمكانهم أن يعثروا أيا من السكان المحليين، مع التزام الحذر الذي شعروا بضرورته في ذلك المكان. فبينما كانوا يسيرون في تلك الجزيرة، إذ عثروا على معز أليف و ليس معه أي أحد يرعاه أو يقيم في أي ناحية من تلك الجزيرة، بعد ذلك طعموا منه.

لقد ذكرنا من قبل كيف أن آخرين عثروا على آثاره عند ما وصلوا إلى تلك الجزر، فقد كان ألفارو فرنانديز هذا هو أول من جاء إلى هناك، و بما أن القصة لم يكن لها أن تسرد بطريقة أخرى، فقد قمنا بذكرها قبل أي شيء آخر بالطريقة التي رأيتم. من هناك واصلوا قدما إلى المكان الذي توجد فيه النخلة، و هي الشجرة الضخمة التي تكلمنا عنها في فصول سابقة، و هنا وجدوا أسلحة الأمير مع عدته و شعاره. من هناك اتفقوا على الذهاب و المكوث بالقرب من الرأس، ذلك أنه من المحتمل أن تعود بعض المراكب إليهم و التي يمكنهم التحدث إليها، على الأقل عن طريق الإشارات، ذلك أنهم لا يتوفرون على مترجم.

فعند ما كانوا بالقرب من الرأس على مسافة قد تصل ثلث فرسخ، رسوا و استراحوا وفق ما رتبوا لذلك، بيد أنهم لم يمكثوا هناك طويلا حتى ظهرت لهم من اليابسة زوارق و على متنها غينيون حيث بدأت مباشرة في التوجه صوب السفن، كأناس قدموا بشكل سلمي. عند ما كانوا قريبين من هناك، قاموا بإشارة يطالبون من خلالها بالأمان، فمنح لهم، و فورا و دون أي احتراز، صعد خمسة منهم على متن السفينة، حيث أكرم ألفارو فرنانديز ضيافتهم ما وسعه ذلك، معطيا الأوامر بتقديم الطعام و الشراب لهم و لكافة

---

[163] هي جزيرة غوري السنغالية، نفس المرجع السابق.

الأشخاص الآخرين الذين قد يشكلون جزءا من مجموعتهم. بعد ذلك غادروا مقدمين إشارات بشعورهم بالرضى، بيد أنه يبدو أنهم قدموا لشيء مغاير سبق و أن دبروه. ففور وصولهم إلى البر حكوا لأصدقائهم ما عثروا عليه، فانطلاقا من ذلك ارتأوا أن عليهم أن يقوموا بأسرهم[164].
فبحسب هذه الخطة جهزوا ستة زوارق و على متنها خمسة و ثلاثين إلى اربعين رجلا من مجموعتهم بنية القتال، بيد أنهم عند ما اقتربوا، شعروا بالخوف من الهجوم على السفينة، فبقوا على بعد مسافة قصيرة منها دون أن يتجرؤوا على مهاجمتها. عند ما أدرك ألفارو فرنانديز أنهم لم يكونوا جريئين على القدوم إليه، أعطى الأوامر بإنزال زورقه من السفينة و أمر ثمانية رجال بالصعود فيه من بين من اعتبرهم أكثر استعدادا لتلك المهمة، ثم إنه رتب لذلك، بحيث يكون الزورق في جانب السفينة الآخر حتى لا يراه العدو، أملا في الاقتراب أكثر من السفينة. أمضى الغينيون بعض الوقت هناك إلى أن أقدم أحد زوارقهم على التحرك قدما و الابتعاد عن الزوارق الأخرى باتجاه السفينة، فكانوا خمسة غينيين شجعانا و أقوياء متميزين من هذه الناحية بين أعضاء المجموعة الأخرى. عند ما أيقن ألفارو فرنانديز أن هذا الزورق أصبح بالفعل في وضعية تمكنه من الوصول إليه قبل أن يحصل على مساعدة الآخرين، أمر قاربه بالخروج بسرعة و اعتراضه. فنظرا للتفوق الكبير لرجالنا في طريقة جدفهم، فقد حملوا بسرعة على الأعداء، الذين عند ما وجدوا أنفسهم و قد باغتوهم و لا أمل لهم في الدفاع عن أنفسهم، قفزوا في الماء، في حين لاذت الزوارق الأخرى بالفرار في اتجاه البر.
بيد أن رجالنا بذلوا جهودا كبيرة في أسر من كانوا يسبحون، ذلك أنهم غطسوا كطيور الغاق، إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة عليهم،

---

[164] أي البرتغاليين.

رغم أنهم أسروا بسرعة أحدهم، لكن بصعوبة، بيد أن أسر الثاني جعلهم يخسرون كافة الآخرين، فقد كان شجاعا لدرجة أن رجلين قويين لم يكن بإمكانهما سحبه إلى القارب إلا بعد وضع محجن فوق إحدى عينيه، فالألم الذي سببه ذلك له جعله ينقص من شجاعته و يقبل بأن يوضع داخل القارب. فعادوا بهذين الأسيرين إلى السفينة. و لأن ألفارو فرنانديز رأى أنه ليس من المصلحة البقاء في ذلك المكان، بل إن ذلك قد يلحق الضرر بهم، لأنهم قد علموا بوجوده، فقد قال إن عليه أن يسير مسافة أبعد لعله يعثر على شيء جديد يحمله إلى مولاه الأمير. بعد أن انطلق من هناك، وصل إلى الرأس الذي توجد فيه أشجار نخل خالية من السعف، فأطلقوا عليه اسم رأس السواري[165]. لما واصلوا مسيرهم، وضع ألفارو فرنانديز سبعة من رجاله على متن قارب و أمرهم بالتجديف على طول الساحل، فرأوا أربعة غينيين جالسين على حافة الماء، و بما أن الرجال الموجودين في القارب رأوا أنهم لم يشاهدوهم، فقد قفز ستة منهم و واصلوا سيرهم مموهين أنفسهم قدر المستطاع إلى أن وصلوا بالقرب من الغينيين، فبدؤوا يهرولون لأسرهم. يبدو لي أن هؤلاء كانوا قواسين كانوا يعتزمون قتل صيدهم الوحشي في المرتفعات بالسم، تماما كما يفعل النبالون في إسبانيا الخاصة بنا.

فمع أن رجالنا قد هرولوا باتجاههم، فإنهم لم يستطيعوا المسك بهم، و لو أنهم في بعض الأوقات كانوا قريبين منهم، و السبب في ذلك أن هؤلاء الرجال يسيرون عراة و لهم شعر جد قصير، لذا فإنهم لم يكونوا قادرين على مسكهم به. هكذا فقد فروا من رجالنا الذين استطاعوا مع ذلك أخذ نبالهم و أكنتهم و سهامهم، مع كمية كبيرة من لحم الخنزير البري المشوي. ثم إنه من بين الحيوانات التي عثروا عليها كان أحدها يشبه الظبي و كان هؤلاء الغينيون

---

[165] بالبرتغالية: Cabo dos Matos، انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.356 .

يضعون عليه سلة كخطام على فمه لمنعه من الأكل، فهكذا أدرك رجالنا النبهاء أنهم كانوا يستخدمون هذا الحيوان كخدعة يمكنها أن تجلب لهم الظباء الأخرى بفضل لطافته.
و لأنهم وجدوه أليفا جدا لم يقتلوه، ثم عادوا بعد ذلك إلى سفنهم حيث قرروا العودة إلى المملكة، فتوجهوا مباشرة إلى جزيرة ماديرا و من هناك إلى مدينة لشبونة، حيث وجدوا الأمير و حصلوا منه على الكثير من العطايا، حصل جوآو غونسالفيز على نصيب الأسد منها جزاء له على الإخلاص الذي دفعه لخدمة الأمير في ذلك المشروع. فهذه السفينة هي التي وصلت أبعد مسافة، أكثر من أي سفينة أخرى سافرت إلى تلك البلاد.

الفصل 76
كيف بدأ المؤلف[166] يتحدث عن حال تلك البلاد

من المفيد أن نؤجل تلك الأمور إلى حين و أن نتناول تخوم تلك البلاد التي سافر إليها رجالنا و كابدوا بحسب ما تطرقنا إليه، بغية فهم كنه الوهم الذي كان أجدادنا يعيشونه و الذي جعلهم يخشون عبور ذلك الرأس خوفا من تلك الأشياء التي سبق أن تحدثنا عنها في بداية هذا الكتاب. كذلك من أجل أن تفهموا الثناء الكبير الذي يستحقه أميرنا، عبر كشف شكوكهم أمام الملإ، ليس فقط أمامنا نحن الذين نعيش الآن، بل أمام كل من سيولدون في قابل الأزمنة. فبسبب أحد الأمور التي ادعوا أنها تشكل عقبة في العبور إلى تلك البلاد و المتمثلة في قوة التيارات البحرية التي كانت هناك، و التي بسببها كان من المستحيل لأي سفينة أن تمخر تلك البحار، فقد اطلعتم الآن بوضوح على خطئهم السابق، لأنكم شاهدتم السفن تبحر جيئة و ذهابا دون أن تتعرض لأي خطر، كما في كل البحار الأخرى.
ثم إنهم من جهة أخرى زعموا أن الأراضي كلها رملية و غير مأهولة، صحيح أنه بخصوص الرمال فإنه لم يكونوا مخطئين بالكامل، بيد أن هذه لم تكن كبيرة لدرجة ما كانوا يعتقدون. أما بخصوص السكان، فقد رأيتم عكس ذلك، حيث شاهدتم سكان تلك النواحي يوميا أمام ناظريكم، مع أن أماكن تواجدهم الرئيسية في القرى و في بعض المدن القليلة. ذلك أنه من رأس بجدور إلى مملكة تونس فإنه لن يكون هناك ما بين المدن و الأماكن المحصنة للدفاع ما مجموعه خمسين. لقد كانوا مخطئين بخصوص عمق البحر، فقط سجلوا على خرائطهم بأن الشواطئ كانت ضحلة

[166] بتعبير آزورارا نفسه.

لدرجة أنه على مسافة فرسخ من البر كان يوجد فقط باع[167] من الماء، بيد أنه ظهر أن ذلك ليس صحيحا، فالسفن قد وجدت دوما و تجد الآن العمق الكافي لحركتها، باستثناء بعض الأماكن الضحلة و بعض الضفاف الجافة، كما قد تجدون الآن في بعض خرائط الملاحة التي أوعز الأمير بإعدادها.

ففي أرض الزنوج لا يوجد مكان به عمران سوى ما يطلقون عليه وادم[168]، كما أنه لا توجد هناك تجمعات باستثناء ما يوجد على الشواطئ و الضفاف من منازل من القش، حيث تم إفراغها من سكانها من قبل أولئك الذين يأتون في سفن هذه البلاد[169]. صحيح أن البلاد عموما مأهولة، بيد أن نمط العيش هو بالأساس في الخيام و الخدور[170]، كما نفعل هنا عند ما يسير أمراؤنا في زحف عسكري؛ ثم إن الذين تم أسرهم هناك أكدوا ذلك، كما أن جوآو فرنانديز، و الذي سبق أن تحدثنا عنه، ذكر المزيد بخصوص ذلك. فاهتمامهم و نشاطهم يرتكز بالأساس على رعي ماشيتهم، و هي البقر و الضأن و الماعز و الإبل، و هم يرحلون تقريبا كل يوم، فأطول فترة يمكنهم أن يقضوها في مكان واحد هي ثمانية أيام. ثم إن بعض قادتهم يتوفرون على بغال يربون بواسطتها الخيول، مع أنها قليلة.

يتكون غذاؤهم أساسا من اللبن، و في بعض الأحيان من قليل من اللحم و بذور الأعشاب البرية التي يجمعونها من تلك المرتفعات، ثم إن البعض الذي كان هناك ذكر أن هذه الأعشاب (مع أنها قليلة) تبدو دخن تلك البلاد. كذلك فإنهم يأكلون القمح عند ما يجدوه بنفس

---

[167] وحدة قياس بحري بطول متر إلى مترين حسب البلدان.

[168] وادان، و قد ذكرها كادا موستو باسم Oadem و Hoden. نفس المرجع السابق، ص. 361 .

[169] إقرار لا لبس فيه من قبل الكاتب "بإفراغ القرى الواقعة على الساحل من سكانها" بالقتل و السبي الجماعيين لسكان السواحل الموريتانية من قبل البرتغاليين، و هو ما قد يكيف في الاصطلاح القانوني الحديث بالتطهير العرقي أو الإبادة الجماعية.(المترجم).

[170] يقصد الخدور التي توضع للنساء على ظهور الجمال. نفس المرجع السابق، ص. 361

الطريقة التي نأكل بها كونفتي[171] في هذه البلاد. فلعدة شهور من السنة لا يتغذون هم و خيولهم و كلابهم إلا على شرب اللبن. ثم إن الذين يعيشون على الشاطئ لا يأكلون شيئا غير السمك و في أغلب الأحيان، دون خبز أو أي شيء آخر، باستثناء الماء الذين يشربون، و عادة ما يأكلون السمك نيئا و مجففا.

أما لباسهم فعبارة عن سترة من الجلود مع أطراف من نفس الثوب، بيد أن أشرافهم يلبسون البرانس؛ كما أن بعض الرجال الأكثر نبلا و الذين يتمتعون بمكانة مرموقة على البقية، يتوفرون على لباس جيد كالمسلمين الآخرين، كما يملكون الخيول و السروج و الرُّكُب الجيدة، إلا أن هؤلاء قليلون جدا.

ترتدي النساء البرانس و هي كالمشامل، فتغطين بها وجوههن فقط، و بذا يعتبرن أنهن سترن عوراتهن، ذلك أنهن يتركن أجسادهن عارية تقريبا. يقول كاتب هذا التاريخ: "بالتأكيد فإن هذا هو أحد الأمور التي من خلالها يمكن معرفة مدى توحشهم، ذلك أنهم لو كانوا يتوفرون على ذرة من العقل لاتبعوا الطبيعة و غطوا تلك الأماكن فقط التي يتعين سترها عن المشاهدة، ذلك أننا نرى أنه في كل من تلك الأماكن الحساسة توجد دائرة من الشعر كدليل على أن الطبيعة أرادت إخفاءها؛ ثم إن بعض أنصار الطبيعة يؤكدون أنه لو تركْتَ ذلك الشعر لوحده لنما و غطى كافة تلك المناطق الحساسة منك." أما زوجات الرجال الأكثر نبلا فيضعن أقراطا من الذهب في أنوفهن و آذانهن و كذلك حليا آخر.

---

[171] يمكن العودة بهذا الخصوص إلى كتاب: *Itinèraire de Tripoli de Barbarie à la ville de Tomboctu* للشيخ حق - قاسم و الذي نشره السيد ولكناير Walckenaer في كتابه: *Recherches sur l'intérieur de l'Afrique*، ص. 425، *حيث تتفق روايته مع ما ورد في النص*. راجع بهذا الخصوص: انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص. 362.

الفصل 77

بخصوص الأمور التي حدثت لجوآو فرنانديز[172]

بغية تسهيل فهم هذه الأمور، علينا أن نسرد في هذا المقام ما حدث لجوآو فرنانديز في هذه البلاد طيلة سبعة أشهر قضاها هناك في خدمة مولاه الأمير، كما سبق أن مر بكم. فعند ما بقى تحت سلطة علاقات ذلك البيظاني، و هو الذي أتى به أنتاو غونسالفيزإلى هذه البلاد، تم الذهاب به و معه ثيابه و كعكته و بعض ما تبقى له من الذرة و تجهيزات الكسوة؛ فتم أخذ هذه الأشياء كلها منه رغما عنه و إعطاؤه فقط برنوسا، كلباس أي من البيظان. فالناس الذين مكث معهم كانوا منمين يذهبون إلى البادية مع أغنامهم و كان هو يتنقل معهم.

لقد ذكر أن تلك البلاد كلها رملية، لا مرعى فيها، باستثناء الأراضي الواقعة على الضفاف و الأودية حيث يوجد بعض العشب تحصل منه القطعان على تغذية متواضعة. ثم إنه توجد هضاب و مرتفعات رملية بالكامل. تمتد هذه الأرض من تغازه[173] إلى بلاد الزنوج و تلتقي بالبحر المتوسط في الطرف القصي من مملكة تونس و مومديبارك[174]. فمن هناك فإن كل الأراضي هي كتلك التي ذكرت، من البحر المتوسط إلى بلاد الزنوج و الإسكندرية تقطنها مجموعات من رعاة الحيوانات بأعداد كبيرة أو قليلة بحسب وجود المراعي لمواشيهم. ثم إنه لا توجد أشجار فيها باستثناء القليل كشجر التين أو السدر، و في بعض الأماكن يوجد النخيل. ثم إن الماء يؤخذ من الآبار، ذلك أنه لا توجد أنهار جارية، إلا في مناطق محدودة، كما أن عرض هذه البلاد ثلاثة آلاف فرسخ و طولها ألف فرسخ، و لا توجد بها مدن عامرة كبيرة إلا الإسكندرية و القاهرة.

---

[172] في النسخة الإنجليزية يطلق عليه جوهام فرنانديز / Joham Fernandez.

[173] هي تغازه Tagaza التي ذكر كادا موستو. انظر بهذا الخصوص المرجع السابق، ص. 365 .

[174] يقصد منطقة برقة بشرق ليبيا، راجع بهذا الخصوص: *Chronique de Guinée (1453)*، مرجع سابق، ص. 224 و الصفحتين 328 - 329.

أما الحروف التي يكتبون[175] بها و اللغة التي يتحدثون بها فإنها ليست هي التي عند بقية المسلمين، بل إنها تختلف كثيرا، بيد أنهم جميعا على ملة محمد و يسمون العرب و أزناگه و البربر. فنمط حياة هؤلاء جميعا واحد، كما ذكرت سابقا، أي في الخيام و مع مواشيهم، حيثما راق لهم ذلك، دون أي سلطة أو قانون، ذلك أن كلا منهم يذهب إلى حيث يشاء و إلى أبعد مسافة يستطيع الوصول إليها. يدخلون حروبا مع الزنوج عبر السلب أكثر منها بالعنف، لأنهم لا يتوفرون على القوة التي عند هؤلاء.

ثم إنه يأتي إلى أرضهم بعض المسلمين فيبيعونهم بعض الزنوج الذين أخذوهم أو سبق لهم أن أسروهم من مومدييارك، و التي وراء مملكة تونس، ليبيعونهم للتجار المسيحيين الذين يذهبون إلى هناك، فيعطوهم هؤلاء العبيد مقابل الخبز و بعض الأشياء الأخرى، تماما كما يفعلون الآن في وادي الذهب كما سنسرد

---

[175] [هذه المعلومة تبدو غريبة، ذلك أنها توضح أنه في القرن الخامس عشر، عند ما كان جوأو فرنانديز يقيم بين هذه القبائل الرحل، و التي نعتقد أنها من البربر، فإنها لم تعتمد بعد الأبجدية العربية. فمن المؤسف حقا أن لا يكون آزورارا أكثر وضوحا بخصوص هذه النقطة بالذات، بالنظر إلى أن مؤلفين عربا ذكروا كتبا مؤلفة بهذه اللغة. لقد تحدث أودني Oudney عن نقوش مكتوبة بحروف غير معروفة كان قد رآها في بلاد الطوارق. فالقليل من هذه القبيلة [يقصد الطوارق] يتحدث العربية، و هو ما أثار استغرابه، نظرا للتواصل الدائم بينهم و الشعوب التي لا تتحدث إلا هذه اللغة. راجع رحلات كلابرتون ./. Calaperton's travels.] – دي شاتترن. انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.366.

فهل تساهم هذه الملاحظة في الإجابة، و لو بشكل جزئي، على التساؤل الذي طالما ما طرح بخصوص أسباب عدم العثور في الحيز الجغرافي الموريتاني ولحد الآن على كتاب تم تأليفه باللغة العربية من قبل كاتب من هذه البلاد قبل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي؟ بالطبع يتعين ذكر الاستثناء الذي يمثله كتاب الإمام الحضرمي: *الإشارة في تدبير الإمارة*، لمؤلفه أبو بكر، محمد بن الحسن الحضرمي المرادي، المتوفي سنة 489 هـ / حوالي 1096م بأزوگي غرب أطار بموريتانيا، و هو المعروف بالإمام الحضرمي الذي كان قاضيا للمرابطين في الصحراء في زمن الأمير أبو بكر، محمد بن يحي بن عمر، و الذي كانت نشأته، بحسب العديد من الروايات التاريخية، في مدينة القيروان.

نعتقد كذلك أن جوأو فرنانديز هذا ربما لم يحتك إلا بمجموعة صنهاجية لم تتعرب بعد، و لم يلتق ببعض العرب الذين اعترف بوجودهم بعد ما ذكر مباشرة بخصوص لغة القوم و الحروف التي يستخدمون؛ فترجح أن هؤلاء العرب ينحدرون من بني حسان الذين من المحتمل أن يكونوا قد بدؤوا تقدمهم داخل المجال الجغرافي الموريتاني الحالي ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، قادمين من السوس مرورا بالساقية الحمراء و وادي الذهب. (المترجم).

لاحقا. فمن المهم لك أن تعرف أنه في كل بلاد إفريقيا، و التي تمتد من مصر إلى الغرب، لا توجد مملكة إلا مملكة فاس التي تقوم في مراكش و تافلالت، و كذلك مملكة تونس التي تضم مملكة تلمسان و بجايه، أما بقية البلاد فهي للعرب و أزناكه الذين هم منمون على ظهور الخيل أو راجلون ينتجعون على السهول، كما سبق أن أوضحنا. ثم إنه يحكي أن في أرض الزنوج مملكة تدعى ملي، بيد أن ذلك ليس صحيحا[176]، ذلك أنهم يحملون الزنوج من تلك المملكة ليبيعونهم كالآخرين، فمن الواضح أنهم لو كانوا مسلمين لما باعوهم بهذه الطريقة.

فبالعودة إلى ما وقع لجواو فرنانديز و الذي تنقل مع أولئك الرعاة، فقد أخبر أنه و عند ما كان يسافر معهم على تلك الرمال، فإن الكمية التي يحصل عليها من اللبن غالبا ما تكون ناقصة. فقد حدث ذات يوم أن مر فارسان من هناك كانا مسافرين نحو الوجهة التي يوجد فيها أهوده ميمام و الذي تحدثنا عنه في السابق، فسألا جواو فرنانديز هذا إن كان يرغب في الذهاب إلى المكان الذي يقطن فيه ذلك البيظاني؟ فأجابهم هذا الأخير: "بلى، أرغب في ذلك، ذلك أني سمعت أنه رجل نبيل، فأود الذهاب إليه لأراه و أتعرف عليه." هكذا وضعاه على ظهر جمل و بدأ الرحلة معهما في الاتجاه الذي يعتقد أن البيظاني يوجد فيه، ثم واصلوا السير مسافة طويلة لدرجة أن الماء الذي كانوا يحملونه كاد أن ينفد، فلذلك أمضوا ثلاثة أيام دون أن يشربوا.

لقد روى أنهم لا يعرفون المكان الذي يقيم فيه أي منهم إلا بالنظر إلى السماء[177] و حيث يشاهدون غربانا و *هوسوس فرانكوس*[178] التي يعتقدون أنها من الإنس، ذلك أنه في تلك البلاد لا يوجد طريق ثابت إلا ذلك الذي يمر بمحاذاة شاطئ البحر. ثم ذكر جواو

---

[176] [تبين هذه الفقرة أن أزورار لم يكن يؤمن بوجود امبراطورية ملي العظيمة و الغنية بمناجم الذهب، مع أن الرحالة العربي، ابن بطوطة، قد زارها في القرن السابق] ـ دي شانترن. نفس المرجع السابق، ص. 368

[177][ذكر حسن الوزان / Léon l'Africain أنه يمكنك أن تجد من العرب و من شعوب إفريقية أخرى من يعرف جيدا علم الفلك، دون أن يكون قد قرأ أي كتاب.] ـ دي شانترن. نفس المرجع السابق، ص. 368 .

[178] *hussos francos*: كلمات لم يعثر لها على معنى في البرتغالية.

فرنانديز أن أولئك البيظان الذين تنقل معهم في ترحالهم يهتدون فقط بالرياح، كما هو الحال في البحر و عبر تلك الطيور التي ذكرنا سابقا. ثم إنهم سافروا لمسافات طويلة عبر تلك البلاد فعانوا من العطش إلى أن وصلوا إلى المكان الذي يوجد فيه أهُودَه مَيْمامْ مع أبنائه و آخرين يرافقونه، يقدر عددهم بحوالي مائة و خمسين رجلا. لقد أثنى عليه جوآو فرنانديز كثيرا، ذلك أن هذا البيظاني استقبله بحفاوة و أمر بتوفير الطعام له على نفقته، فعند ما رجعت به السفن كانت تغذيته جيدة و لونه جد طبيعي. لقد ذكر أن درجات الحرارة في تلك البلاد كانت مرتفعة و كذلك غبار تلك الرمال، ثم إن غالبية الناس يسيرون راجلين و القليل منهم يركبون الخيل، أما البقية الذين لا يسافرون راجلين فيركبون الجمال، حيث إن من هذه الأخيرة ما هو أبيض و يستطيع قطع مسافة خمسين فرسخا في اليوم. كما أنه توجد وفرة كبيرة في الإبل، ليس فقط الأبيض منها، بل توجد كل الألوان الأخرى، كما توجد الكثير من قطعان الماشية، رغم قلة المراعي، كما ذكرنا سابقا.

لقد ذكر أيضا أنهم يتوفرون على عبيد من السود و أن النساء كريمات المحتد يملكن الكثير من الذهب، حيث يأتون به من بلاد الزنوج. كذلك يوجد في تلك البلاد الكثير من النعام و الظباء و الغزلان و الحجل و الأرانب و طيور السنونو التي تهاجر من هناك[179] في الصيف و تذهب لتقضي فصل الشتاء هنا في تلك الرمال، فأعتقد أن ذلك بسبب الحرارة. ثم إن بعض الطيور الصغيرة تذهب إلى هناك أيضا، بيد أنه ذكر أن طيور اللقلاق تهاجر إلى أرض الزنوج حيث تمكث خلال فصل الشتاء.

---

[179] أي من البرتغال. راجع بهذا الخصوص: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق ، الفصل 77 ،الهامش رقم CF.

الفصل 78
بخصوص الفراسخ التي قطعتها سفن الأمير ما وراء الرأس و أمور أخرى مختلفة

لقد كان شائعا بين الناس في إسبانيا و في مناطق أخرى أيضا أن تلك الطيور الضخمة التي تسمى النعام لا تفرخ بيضها، فعند ما تضع بيضها على الرمل فإنها تتركه هناك؛ بيد أنه ثبت أن العكس تماما هو الذي يحدث، ذلك أنها تضع من عشرين إلى ثلاثين بيضة و تفرخها ككل الطيور. كما أنه[180] ذكر أن من الأشياء التي توجد في تلك البلاد، و التي يمكن أن يستفيد منها من يهتمون بالتجارة، أولئك الزنوج الذين يوجد منهم الكثير هناك حيث يختطفونهم، و كذلك الذهب الذي يحصلون عليه من بلاد هؤلاء الأخيرين و الجلود و الصوف و الزبدة مع الجبنة التي يوجد الكثير منها هناك، و كذلك التمور التي توجد بكميات كبيرة و تجلب من منطقة أخرى و العنبر و عطور قطط الزّبَاد و الراتنج و الصمغ و الزيت و جلود قطط البحر التي تعيش أعداد كبيرة منها في وادي الذهب، كما سبق أن رأينا. يمكنهم أن يحصلوا أيضا على بعض السلع من غينيا و التي توجد منها نوعيات جيدة، كما سنتطرق إلى ذلك لاحقا. ثم إنه قد تبين أنه و حتى هذه الحقبة 1446 سنة بعد ميلاد عيسى المسيح سافرت إلى تلك النواحي إحدى و خمسين سفينة، غير أن عدد البيظان الذين تم سبيهم سيتم الحديث عنه في نهاية هذا الكتاب الأول.

لقد تجاوزت هذه السفن الرأس[181] مسافة أربع مائة و خمسين فرسخا. كما أنه تأكد أن كل الساحل يتجه إلى الجنوب مع رؤوس بحرية، طبقا لما أضافه أميرنا على خرائط الملاحة البحرية. فيجب

---

[180] أي جوآو فرنانديز.

[181] أي رأس بجدور.

أن يعلم أن ما تم التأكد منه من شاطئ البحر العظيم هو ستمائة فرسخ[182]، ثم أضيفت إليها الآن هذه الأربعة مائة و الخمسين. فما تم توضيحه على خريطة العالم بخصوص هذا الشاطئ لم يكن صحيحا، ذلك أنهم رسموها بشكل اعتباطي، لكن ما وضع الآن على خرائط الملاحة البحرية هو أمر قد شوهد عيانا، كما سبق و أن رأيتم.

[182] [نعتقد أنه علينا أن نقرأ الرقم 200 و ليس 600 الذي يبدو خطأ، ذلك أن الجزء المعروف من الشاطئ الإفريقي و حتى رأس بجدور لا يتفق طوله مع العدد المذكور بالحروف في النص.] - دي شانترن. انظر بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص.372.

الفصل 79
الذي يتناول جزيرة الكناري و نمط العيش هناك

أرى أن علي الحديث عن العديد من الأمور في هذا الكتاب، ذلك أني تناولتها باقتضاب إلى حد أن أولئك الذين سيقرؤون هذا الكتاب سيبقوا راغبين و متشوقين لقراءة بعض التفاصيل التي ستعمق معرفتهم. فما دمت قد ذكرت في بداية هذا الكتاب أن الأمير السيد هنريك بعث بحملة إلى جزر الكناري، ثم بعد ذلك كيف أبحرت السفن هناك لتقوم ببعض عمليات الأسر، فإني سأوضح الآن عدد تلك الجزر و نمط حياة سكانها و معتقداتهم، و بعد ذلك كلما يتعلق بهم.

فكما عثرت عليه في الكتب القديمة، في الزمن الذي كان فيه الملك السيد هنريك يحكم قشتالة، و الذي كان ابن الملك جوآو الأول الذي هزم في معركة الجباروتا، خرج أحد أشراف فرنسا من بلده و يدعى مونسييه جان دي بتانكور و هو رجل نبيل و كاثولوكي، فرغب في خدمة الرب، بعد أن علم أن المشركين يسيطرون على تلك الجزر، و ذلك لإخضاعها. عند ما وصل إلى قشتالة حصل على سفن و رجال، إضافة إلى من جاء بهم معه، فزحف عليهم و بذل جهدا كبيرا في غزوهم، بيد أنه في النهاية تمكن من إخضاع ثلاث منها و بقيت أربع يتعين إذعانها.

لقد استنفد مونسييه جان دي بتانكور كل ما أتى به من تموينات و مال، لذا كان مرغما على الرجوع إلى بلاده، مع نية العودة مرة أخرى بغية إكمال غزو بقية الجزر. ففي هذه الجزر الثلاث التي تمت السيطرة عليها من قبل، ترك قيادتها لابن أخته، المسمى السيد ماسيو. بيد أن مونسييه جان، بعد أن وصل إلى فرنسا، لم يعد أبدا إلى تلك البلاد، البعض قال إنه أصيب بمرض خطير منعه من العودة لإكمال تحقيق مشروعه النبيل، في حين أن آخرين قالوا إنه

تم الاحتفاظ به من قبل ملك فرنسا بسبب الحروب التي كان يخوضها و التي كان يحتاج فيها إلى خدماته. هكذا بقي مونسييه ماسيو هناك لفترة، إلى أن عبر إلى جزيرة ماديرا، كما سيتم التطرق إليه لاحقا. فساكنة هذه الجزر و حتى كتابة التاريخ الحالي هي على النحو التالي: ففي الجزيرة التي تدعى لانساروته يقطن ستون شخصا، و في فورتبنتورا ثمانون، أما في الجزيرة الأخرى التي تدعى فرو فيوجد بها حوالي اثني عشر شخصا، ثم إن هذه الجزر الثلاث قد تم إخضاعها من قبل ذلك السيد الفرنسي. فكل سكانها مسيحيون و يؤدون الشعائر الدينية و لهم كنائس و قساوسة.

غير أن هناك جزيرة أخرى تدعى غوميرا قد حاول مونسييه ماسيو غزوها بمساعدة بعض القشتاليين انضموا إليه، لكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها، مع أنه من بين هؤلاء الكناريين من هم مسيحيون. أما بخصوص سكانها، فإن عددهم قد يبلغ سبعمائة شخص، و في جزيرة بالما يقيم خمسة. ثم إنه في الجزيرة السادسة، و هي جزيرة تنريفه أو إنفرنو، نظرا إلى أنه عبر قمة فرجة تخرج النيران منها بشكل مستمر، هناك يقيم ستة آلاف رجل مقاتل. الجزيرة السابعة تدعى كناريا الكبرى، و فيها قد يوجد خمسة آلاف مقاتل. فهذه الجزر الثلاث و منذ بدء الخليقة لم يتم إخضاعها قط، بيد أن الكثير من الرجال قد تم جلبهم من هناك و بواسطتهم تم الحصول على معلومات تتعلق بنمط حياتهم. فبما أنه يظهر أن عاداتهم تختلف كثيرا عن عادات أقوام أخرى، فسأتطرق إليها قليلا، فمن خصهم الرب بهذه النعمة بأن كانوا غير معنيين بهذه القصة الوحشية عليهم أن يشكروه على ذلك، ذلك أنه أراد أن يخلق كافة الأشياء بهذه الأنماط المختلفة، فأتباع ملة المسيح و من يحبونه سيعانون من شظف العيش و سيمنحهم ذلك المزيد من الشجاعة على تحمل ذلك بشكل جيد عند ما يتذكرون أن هؤلاء بشر أيضا يقاسون صعوبة و قساوة الحياة ليتمتعوا و يفرحوا.

فمن بين كافة الجزر التي سبق أن سميتها فإن كناري الكبرى هي أكبرها، فمحيطها يبلغ ستا و ثلاثين فرسخا. ثم إن سكانها يعرفون ببعض الدهاء، لكن مع ضعف في الإيمان؛ فهم يعرفون أنه يوجد إله يجزي الخيرين على أعمالهم الخيرية و يعاقب الشريرين على شرورهم. فيهم رجلان يطلقون على كل منهما لقبي الملك و الدوق، بيد أن حكم الجزيرة هو بيد بعض الفرسان و الذي لا يقل عددهم عن مائة و تسعين فارسا و لا يزيد على مائتين. فعند ما يموت خمسة أو ستة منهم يعقد الفرسان الآخرون اجتماعا و يختارون هذا العدد من بين أبناء الفرسان، كي يحلوا محل من ماتوا، ليبقى العدد كاملا، ذلك أن عليهم عدم اختيار آخرين.

يقول البعض إن هؤلاء الرجال هم من الأرومة الأكثر نبلا، ذلك أنهم كانوا دوما من سلالة الفرسان دون اختلاط مع دم الأرقاء. فهؤلاء الفرسان يعرفون معتقدهم، إلا أن الآخرين لا يعرفون عنه شيئا، إذ يقولون فقط إنهم يؤمنون بما يؤمن به فرسانهم. فعليهم اغتصاب كل فتاة عذراء. فعند ما يطأ أحدهم فتاة فإن أباها أو هذا الفارس يستطيع أن يزوجها لكل من يختاره. بيد أنه قبل الاضطجاع معهن يتم تسمينهن عن طريق اللبن حتى تصبح أجسادهن متغضنة تماما كالتين، ذلك أنهم يعتبرون أن الفتاة النحيفة ليست كتلك الممتلئة، فيرون أن كلما كان حوضها كبيرا، كلما استطاعت حمل طفل كبير. هكذا عند ما تكون ضخمة يعرضونها عارية على أولئك الفرسان، فمن يريد منهم مضاجعتها يقول لوالدها إنها الآن سمينة بما فيه الكفاية. ثم إن أباها أو أمها يدخلانها البحر لمدة عدة أيام حسب وقت محدد كل يوم، حتى تخفف من سمنتها المفرطة، و من ثم يقدمونها للفارس، فعند ما ينتهي منها يأخذها أبوها إلى منزلها.

يقاتل هذا الشعب بالحجارة و ليس له أي أسلحة سوى عصي قصيرة يضرب بها. إنهم مقاتلون أشاوس و أقوياء في البر حيث

تتوفر الحجارة و يدافعون عنه بشكل جيد، ثم إنهم جميعا يمشون عراة و لا يرتدون سوى غصن ملون من سعف النخيل يلفونه حول الأرداف لستر العورة، بيد أن منهم من لا يتوفر على ذلك. فلا يملكون ذهبا و لا فضة و لا نقودا و لا حليا و لا أي معدات قتالية، إلا ما صنعوه من الحجارة التي يستخدمونها كدعامات و منها أيضا يشيدون المنازل التي يسكنون، كما أنهم ينظرون بازدراء إلى الذهب و الفضة و إلى كل معدن آخر، معتبرين أن من يرغب في ذلك يعاني من الجنون، فلا يوجد أحد منهم لديه رأي يخالف الآخرين، كما لا يهتمون أبدا بالثياب أيا كان نوعها، قليلا كان ذلك أم كثيرا، بل إنهم يسخرون ممن يهتمون بذلك، كما يفعلون مع من يهتم بالذهب و الفضة، كما سبق و أن ذكرنا.
فهم يولون اهتماما كبيرا فقط للحديد الذي يستخرجونه من هذه الحجارة و يصنعون منه صنارات للاصطياد بها. يتوفرون على القمح و الشعير، لكنهم لا يتوفرون على الخبرة لصنع الخبز، فيعدون فقط الطحين و يأكلونه مع اللحم و السمن. ثم إنه توجد عندهم أشجار التين و أشجار دم التنين و التمور، مع أن نوعيتها غير جيدة، كما أن عندهم نباتات يأكلونها. علاوة على ذلك يمتلكون الأغنام و الماعز و الكثير من الخنازير، ثم إن عددهم خمسة آلاف مقاتل، كما سبق و أن ذكرنا، و يحلقون شعرهم بالحجارة. بعضهم يطلقون على أنفسهم تسمية المسيحيين، فبعد أن أرسل الأمير السيد فرناندو دي كاسترة هناك و معه أسطوله الذي حمل فيه ألفا و خمسمائة رجل و مائة و عشرين فرسا، أصبح بعضهم مسيحيين، و بما أن السيد فرناندو قد خشي أن تنفد المؤن التي كان يحملها معه، فقد تركها دون السيطرة عليها بالكامل.
بعد ذلك رغب الأمير في إرسال حملة أخرى، بيد أن ملك قشتاله تدخل في الأمر، قائلا إنه هو من فتح تلك الجزر و هو ما ليس صحيحا. لقد بقي ذلك المشروع الديني، أي تمكين هذا الشعب من

العيش في كنف الشريعة المسيحية، دون أن يتحقق. فهذا الأسطول قد أرسل إلى هناك سنة ألف و أربعمائة و ثمان و عشرين من ميلاد المسيح.

يعتقد سكان الجزيرة أن قتل الحيوان أو سلخه شرر عظيم، هكذا فإنهم إن عثروا على مسيحي أجنبي يفرحون بأن يكون جزراهم. فعند ما لا يستطيعون الحصول على من يحتاجونه لهذا الأمر، فإنهم يبحثون عن أسوأ الرجال في الجزيرة ليتولى ذلك، ثم إن النساء لا علاقة لهن بهؤلاء الأشخاص، أما الرجال فلا يأكلون معهم، ذلك أنهم يعتبرونهم أسوأ من المصابين بالبرص بيننا. يوقدون النار بالعيدان بحك أحدها على الآخر. ترضع الأمهات أطفالهن بتقزز، ذلك أن الجزء الأكبر من رضاعة أطفالهم تتم عن طريق ضروع إناث الماعز.

الفصل 80
الذي يتناول جزيرة غوميرا

يقاتل رجال جزيرة غوميرا بعصي قصيرة كالسهام، حادة الأطراف و مكوية بالنار. فيسيرون عراة دون ارتداء أي لباس و لا يستحون من ذلك، ذلك أنهم يسخرون من الثياب، فيقولون إنها ليست سوى أكياس يضع الناس فيها أنفسهم. يتوفرون فقط على كميات قليلة من الشعير و لحم الخنزير أو الماعز، إلا أن ذلك كله قليل، فغذاؤهم الرئيسي اللبن و الأعشاب، كالدواب، و جذوع النباتات، و نادرا ما اللحم؛ يأكلون الأشياء القذرة و المقرفة كالفئران و الذباب و القمل و القراد و يعتبرون أن لحمها جيد.

لا يملكون منازلا، بل يعيشون في مغارات و أكواخ. نساؤهم مشاعة تقريبا بينهم، فعند ما يأتي شخص إلى مكان يوجد به شخص آخر، يقدم له هذا الأخير فورا امرأته كتعبير عن حسن الضيافة، و من يفعل عكس ذلك يعتبرونه رجلا سيئا. فالأبناء لا يرثون فيهم، بل فقط أبناء أخواتهم. يمضون أغلب وقتهم في الرقص و الغناء، ذلك أن رفاهيتهم تتمثل في اللهو دون عمل. يربطون سعادتهم بالفسوق، إذ لا يعرفون شريعة، بل يعتقدون فقط بوجود إله. يوجد فيهم سبعمائة مقاتل و لهم دوق و بعض القادة.

الفصل 81
بخصوص جزيرة إنفرنو أو تنريفه

أرى أن هناك تحسنا في حياة سكان جزيرة إنفرنو، ذلك أنها تتوفر بشكل جيد على القمح و الشعير و الخضروات، مع الكثير من الخنازير و الأغنام و الماعز، ثم إنهم يلبسون الجلود لستر أجسامهم، غير أنهم لا يملكون منازل، باستثناء أكواخ و مخابئ يعيشون فيها. كذلك فإنهم يسترون النقاط الحساسة من أجسامهم و لا يكشفونها إلا عند التناسل أو التبول، كما تفعل الخيول، و يعتبرون من قام بعكس ذلك شريرا، كما نفعل نحن إزاء من يخرج دون ارتداء قليل من اللباس.

يحاربون بعصي مصنوعة من خشب الصنوبر المحلي في شكل رماح كبيرة و حادة جدا و جافة بعد أن تكوى في النار. أما عددهم فمن ثمانية إلى تسع عصابات، لكل منها ملك، عليهم أن يأخذوه دوما معهم، حتى و لو مات، و ذلك حتى يموت الملك الذي خلفه في القيادة، بحيث يكون معهم على الدوام ملك ميت و آخر حي. هكذا عند ما يموت الآخر و يكون عندهم ملكان ميتان، و بما أنه عليهم أن يتخلصوا من أحدهما، طبقا لطقوسهم البهيمية، أو علي الأصح بحسب عادتهم، فإنهم يحملونه إلى حفرة و يرمونه فيها، فمن كان يحمله على رقبته يصيح عند ما يلقيه: "عساه أن يذهب إلى الخلاص".

إن هؤلاء الرجال أقويا و شجعان و لكل منهم زوجة خاصة به، و يعيشون كالبشر أكثر من بعض هؤلاء الآخرين؛ يقاتل الواحد منهم ضد الآخر، فاهتمامهم الأساسي يتركز حول ذلك، ثم إنهم يؤمنون بوجود الله.

الفصل 82
حول جزيرة بالما

لا يتوفر سكان جزيرة بالما على الخبز و لا على الخضروات، بل فقط على الأغنام و اللبن و الأعشاب، فيعيشون على ذلك، لا يؤمنون بوجود إله و ليس لهم أي دين، بيد أنهم يعتقدون أنهم يؤمنون؛ فهم متوحشون كالماشية الأخرى. يقولون إنه يوجد من بينهم من يدعونهم ملوكا، ثم إن قتالهم يتم عبر العصي كما هو الحال بالنسبة لرجال تنريفيه، إلا أنه حيث يجب وضع رأس من الحديد، فإنهم يضعون قرنا حادا و آخر في الطرف السفلي، مع أنه ليس حادا كما هو الحال بالنسبة لما يوضع في الجزء العلوي.
لا يتوفرون على الأسماك، كما أن سكان هذه الجزيرة لا يأكلونها؛ فمع أن جميع سكان الجزر الأخرى يفعلون عكس ذلك تماما، إذ يسعون إلى اصطيادها بالوسائل و يستخدمونها في تدبير شؤون منازلهم، فإن هؤلاء الناس لا يأكلون الأسماك و لا يبذلون أي جهد لاصطيادها. يبلغ عدد السكان حوالي خمسمائة شخص، و هو أمر غريب، ذلك أنه رغم قلتهم، لم يتم غزوهم منذ نشأة الخليقة؛ فانطلاقا من ذلك يتضح أن كل الأمور تتم وفق مشيئة الرب، بحسب الزمان و المكان الذي يريد.

الفصل 83
كيف أصبحت جزيرة ماديرا آهلة بالسكان و الحديث عن الجزر الأخرى الموجودة في تلك الناحية

ما دمت قد ذكرت في الفصل الخامس من هذا العمل، حيث تحدثت عن أمور خاصة قام الأمير بإنجازها لخدمة الرب و سمعة المملكة، كيف أنه من ضمن أمور أخرى قام بها كان جلب السكان إلى هذه الجزر، فسأتناول باقتضاب هذا الإعمار، كما في الفصول القليلة السابقة، و بالأخص عند ما تحدثت عن جزر الكناري. فهكذا فقد كان في جيش الأمير مساعدا فارس نبيلان، تمت تنشئتهما من قبل ذلك السيد و كانا شابين تم إعدادهما للقيام بأمور عظيمة.
بعد أن عاد الأمير من رفع الحصار عن سبتة، بعد أن طوقتها قوة مشتركة لملوك المسلمين، فإن هذين الرجلين التمسا منه الذهاب للقيام بعمل مشرف حيث كانت تتملكهما رغبة كبيرة في تحقيق ذلك، إذ كانا يعتقدان أنهما إن لم يقوما بعمل عظيم باستخدام قوتهم الجسدية فإن وقتهم سيكون قد ضاع. بعد أن أدرك الأمير مدى إخلاصهم، أمرهم بتجهيز سفينة كان عليهم أن يذهبوا فيها في حملة عسكرية ضد المسلمين، و ذلك بتوجيه سفرهم إلى بلاد غينيا، و التي كان يسعى بالفعل لاكتشافها. فلأن الرب شاء أن تحقق تلك المصلحة للمملكة و لنواح أخرى أيضا، فقد وفقهم لدرجة أنه، رغم أن الطقس كان في غير صالحهم، فقد وصلوا إلى الجزيرة التي تدعى بورتو سانتو، القريبة من جزيرة ماديرا، و التي يبلغ محيطها سبعة فراسخ. هكذا فقد مكثوا هناك عدة أيام رصدوا خلالها الميدان بدقة، فرأوا أنه قد يكون من المفيد جدا جعلها آهلة بالسكان. بعد أن رجعوا من هناك إلى المملكة، تحدثوا مع الأمير بهذا الخصوص و أوضحوا له جمال الأرض و رغبتهم في جلب السكان إليها.

استحسن الأمير ذلك كثيرا، و فورا اتخذ قرارا بتوفير كل ما يلزم لهم لتمكينهم من العودة إلى الجزيرة المذكورة. فبينما كانوا منشغلين في تجهيز سفرهم، إذ انضم إليهم بارتولومو بيريستلو، و هو رجل نبيل من بيت الأمير السيد جوآو. فبعد أن أكملوا تجهيزاتهم، انطلقوا في سفرهم إلى تلك الجزيرة، ثم حدث أنه من بين الأمور التي أخذوها معهم لتعمير تلك الجزيرة كانت توجد أرنب سبق أن أهداها لبارتولومو بيريستلو أحد أصدقائه، لقد سافرت تلك الأرنب و هي حبلى ثم وضعت صغيرها على متن السفينة، فهكذا أخذوهما معا إلى الجزيرة. فعند ما كانوا يقيمون في أكواخ لتجهيز مساكن خاصة بهم، قاموا بإخراج الأرنب مع ولدها للرعي، ففي وقت وجيز تضاعف عددهم إلى أن عموا على البر، لدرجة أن رجالنا شاهدوا أنه لم يبق شيء إلا و دمروه.
لقد استغربوا كيف وجدوا في السنة الموالية بعد قدومهم أنه، رغم أنهم قتلوا الكثير من تلك الأرانب، فلا تزال تتواجد بكثرة. لذا تركوا هذه الجزيرة و عبروا إلى جزيرة ماديرا الأخرى و التي يبلغ محيطها أربعين فرسخا و تبعد مسافة اثني عشر فرسخا من بورتو سانتو، فاستقر فيها كل من جوآو غونسالفيز و تريستاو، أما بارتولومو بيريستلو فقد عاد إلى المملكة. لقد اكتشفا أن هذه الجزيرة الثانية ملائمة، و بالأخص بسبب مياهها الجارية الجيدة و التي تسمح بري مساحات شاسعة، فهناك أقاما مزارع كبيرة حصدا منها الكثير من المحاصيل. كما لاحظا في تلك الفترة أن مناخ الأرض جيد و صحي، ثم إنهما عثرا على العديد من أنواع الطيور كانا في البداية بمسكانها باليد، كما اكتشفوا أشياء أخرى جميلة في تلك الجزيرة. بعد أن اطلع الأمير على كل تلك الأمور، عمل مباشرة على إرسال بعض الناس و الزخارف لإقامة كنيسة مع بعض رجال الدين، بحيث أنه في وقت وجيز كان جزء كبير من تلك البلاد قد تم استغلاله.

بعد أن رأى أن هذين الرجلين هما رائدا هذه المستوطنة، منحهما حاكما لشؤون تلك الجزيرة، يتعلق الأمر بجوآو غونسالفيز زاركو الذي كان رجلا نبيلا و رقي إلى رتبة فارس أثناء حصار طنجة في معركة انتصر فيها الأمير يوم الخميس، و التي ستذكر تفاصيلها كاملة في تاريخ المملكة. لقد شارك جوآو غونسالفيز هذا في عمليات هامة، و بالأخص في رفع الحصار عن سبته و صد المسلمين الذي احتلوا مواقع يوم وصولهم. منح الأمير هذا الرجل إدارة جزء من الجزيرة التي تدعى فونشال، ثم منح الجزء الآخر الذي يسمى ماشيكو إلى تريستاو و الذي منح هو الآخر رتبة فارس في غارة تمت على سبته، إذ كان مقداما، بيد أنه لم يكن نبيلا في كافة الجوانب كجوآو غونسالفيز. بدأ تعمير تلك الجزيرة في سنة ألف و أربعمائة و عشرين من ميلاد عيسى المسيح، ففي زمن كتابة هذا التاريخ، كان تعميرها يتم بشكل جيد، ذلك أنه كان يوجد بها مائة و خمسون شخصا، إضافة إلى أشخاص آخرين كالتجار و الرجال و النساء و الشباب غير المتزوجين، و كذا الأولاد و البنات الذين ولدوا في تلك الجزيرة و رجال الدين و القساوسة، و آخرون يغدون و يروحون من أجل تجارتهم و الأشياء الضرورية في تلك الجزيرة. في سنة ألف و أربعمائة و خمس و أربعين بعث الأمير فارسا يدعى غونسالو فلهو، و الذي كان قائد نظام المسيح، للذهاب و إعمار اثنتين من الجزر الأخرى تبعدان من تلك مسافة مائة و سبعين فرسخا باتجاه الشمال الغربي. ثم بدأ الأمير السيد بدرو في إعمارها بالسكان بموافقة أخيه؛ بيد أن وفاته حدثت بعد ذلك بقليل، فكان إذا على الأمير السيد هنريك مواصلة هذ العمل.

لقد أطلق السيد بدرو على تلك البلاد اسم سانت ميغل، نظرا للإخلاص الذي كان يكنه لذلك القديس. ثم إن الأمير أعاد إلى بورتو سانتو بارتولومو بيريستلو بهدف تعميرها، و هو نفس

الرجل الذي الذي سافر إلى هناك مع جوآو غونسالفيز و تريستاو، بيد أنه نظرا للعدد الهائل من الأرانب، و الذي كان يفوق الحصر، فإن الزراعة تستحيل هناك، إلا أن بعض أنواع الماشية يمكن تربيتها هناك، كما أن دم التنين يجمع من هناك و ينقل للبيع في المملكة، كما يتم نقله إلى جهات أخرى أيضا. كذلك فقد استقدم الماشية إلى جزيرة أخرى تقع على مسافة سبعة فراسخ من جزيرة ماديرا بهدف جعلها آهلة بالسكان كالأخرى و اسمها ديسيرتا. فمن بين هذه الجزر السبع، فإن أربعا منها تساوي مساحاتها مساحة ماديرا و ثلاث أصغر منها.

أما بخصوص مكسب نظام المسيح، و الذي كان رئيسه الأمير في زمن ذلك الإعمار، فقد مُنح النظام المذكور كافة المداخيل الكنسية لجزيرتي ماديرا و بورتو سانتو و كافة المداخيل الكنسية و الزمنية للجزيرة الأخرى التي منح قيادتها لغونسالو فلهو. فعلاوة على كل ذلك، فقد أعطى للنظام المذكور عشر و نصف السكر المنتوج في جزيرة القديس ميغل[183].

[183] Sam Miguel. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص. 391 .

الفصل 84
كيف طلب الأمير السيد هنريك من الملك الحق على جزر الكناري

في سنة 1446 بدأ الأمير بتجهيز سفنه للعودة إلى الغزو المذكور، بيد أنه قبل القيام بأي شيء من ذلك، طلب من الأمير السيد بدرو، أخيه، و الذين كان في ذلك الوقت هو حاكم المملكة باسم الملك، منحه ميثاقا يحظر فيه على كافة رعايا هذه الممالك السفر إلى جزر الكناري لخوض الحرب أو للاتجار دون أمر من الأمير المذكور. تم منحه هذا الميثاق، و علاوة على ذلك تم منحه حق التمتع بخمس أي شيء يأتي من هناك، فقد منح ذلك بجدارة، بالنظر إلى النفقات الباهظة التي تحملها هذا الأمير النبيل بخصوص الغزو المذكور. و مع أننا عثرنا على محتوى تلك الرسالة المتضمن في كتاب أفونسو سرفيرا الذي سبق أن ذكرنا، و الذي من خلاله نواصل هذا التاريخ، رغم ذلك فقد تعمدنا عدم ذكر نصها الكامل، ذلك أن الاطلاع على تلك الوثيقة لن يحمل جديدا لأي شخص ذي تجربة، فأسلوبها الاعتيادي قد يجعل القارئ يصاب بالملل، أكثر من الرغبة في الاطلاع على عباراتها المعهودة.

الفصل 85
بخصوص سفينة ألفارو دورنلاس و الكناريين الذين أسروا

في هذا الفصل يتعين علينا الرجوع إلى ما قام به ألفارو دورنيلاس و الذي سبق أن أشرنا إلى أنه استقر في جزر الكناري. لقد بقي هناك دون أن يلطخ سمعته أي عار، ذلك أنه ارتأى أنه سيعتب عليه إن هو عاد إلى المملكة دون غنيمة عبرها يتم الاطلاع على جزء من المجهود المميز الذي بذله. لقد حدث، كما سبق أن ذكرنا، أن أفونسو مارتا قد عاد بسفينته، التي كان عليها أن تتجه إلى جزر ماديرا حيث أمره ألفارو دورنيلاس المذكور بأخذ تموينه من الثمن الذي قد يحصل عليه من بيع اثنين من الكناريين اللذين أرسلهما فيها، فلقاء ذلك كان يعتقد أن بإمكانه تسدد أولئك الأشخاص الذين استدان منهم بالبضاعة ما يساوي ثمن هذين الكناريين. بيد أنه بسبب ظروف الطقس لم يتمكن أفونسو مارتا من التوجه إلى الجزر، فقد أرغم على الدخول من مرفأ لشبونه، حيث كان في ذلك الوقت رجل يدعى جوآو دورنلاس، و هو مساعد فارس تابع للملك و رجل كريم المحتد نشأ في بلاط الملك السيد جوآو و الملك السيد ادوارت و ابن عم ألفارو دوردنيلاس الذي نتحدث عنه الآن، و كان له نصيب متساو من ملكية السفينة المذكورة.

بيد أنه عند انطلاقها، لكن في موعد مغاير لذهابهما الأول، اتفق الرجلان على الذهاب على متنها، غير أن جوآو دورنيلاس تلقى أمرا من الملك بالامتناع عن ذلك السفر في الوقت الراهن، ذلك أنه كان بحاجة إلى خدمته. فعند ما شاهد مساعد الفارس وصول السفينة، عرف مدى حاجة ابن عمه، ثم إنه جهز فورا مؤنا و رجالا و على عجل لتجهيز السفينة، كما أخذ أيضا بضاعة تمكن ابن عمه من تسديد دينه المتعلق بالعبدين اللذين أخذهما. لقد كان جوآو دورنيلاس هذا رجلا شجاعا، و متلهفا لإنجاز أعمال

عظيمة، فلذلك سافر على عجل، رغم أن ذلك كان على نفقته الخاصة حتى وصل في وقت وجيز إلى تلك الجزيرة حيث كان يوجد ابن عمه، و تدعى فورتبنتورا. ثم إن ألفارو دورنيلاس و صل إلى هنالك عند ما علم بمقدمه، فأخذ ابن عمه جانبا و قال له: " بما أني قد قلت للقشتاليين أنني أملك هذه السفينة بالكامل (فتصورت أنهم قد يساعدونني بشكل أفضل في عملياتي، ظنا مني أنك قد لا تأتي إلى هذه البلاد، و أكثر من ذلك أيضا سأتمكن من تجهيز سفينة صغيرة موجودة هنا بمساعدتهم)، فألتمس منك، مع أن ذلك قد يمس من شرفك، أن تتحمل ذلك من أجلي، و تقول للآخرين بأن عليهم أن يقولوا إن السفينة ملك لي، كأنها شيء أملكه وصل إلى هنا مع كل ما تحويه. فابتداء من هذه اللحظة، يا ابن عمي العزيز، يمكنك أن تأمرني في أي قضية أخرى، ليست أقل شأنا، في المستقبل.
ثم إنه عليك أن تكون واثقا من أنه، إضافة إلى التبرير الذي قدمته، فإن حصلت على هذا الامتياز منك، فسأنجزه بالإخلاص الذي ستكون شاهدا عليه." رد عليه جوآو دورنيلاس:" أقسم بالرب، رغم أنه أمر صعب علي أن أنتقص من شرفي، ذلك أني و منذ نعومة أظافري كنت على ما كنت عليه، بيد أنني الآن سأكون مسرورا لوضع كل ذلك جانبا بغية النزول عند رغبتك، مع أن بعض الرجال الذين معي و الذين هم من مستوى معين قد رافقوني هنا من أجل الحصول على مكاسب أكثر مما فعلوا ذلك في إطار الصداقة. ذلك أن معي ديغو فاسكيز بورتوكريرو و هو مساعد فارس للملك مولانا و بعض الرجال الأفاضل، بيد أني سأبذل قصارى جهدي في هذا الأمر." ذلك بالفعل ما قد قام به، فانتهى كل شي وفق رغبة ألفارو دورنيلاس. بيد أن ما عليك أن تعلمه هو أنه قد تصرف بعد ذلك بشكل مغاير تماما لما عبرت عنه كلماته. فلم يمر وقت قليل حتى اكتشف جوآو دورنيلاس خداعه، و بسبب ذلك

أصبح منذ ذلك الوقت في خلاف شديد معه، حتى كادا يتقاتلان، غير أن الأمر ليس مناسبا في هذا المكان.
فهكذا و عندما توصلا إلى الاتفاق الأول، قاما على الفور بتجهيز السفينة الصغيرة و وصلا معا إلى جزيرة غوميرا، حيث تحدث ألفارو دورنيلاس مع أعيان الجزيرة و طلب منهم، باسم الأمير السيد هنريك، مساعدتهم للذهاب إلى جزيرة بالما للقيام ببعض عمليات السبي، فقدموا بكل استعداد ما طلب منهم، فبعد أخذ بعض أولئك الكناريين لمساعدتهم، وصلوا ميناء جزيرة بالما، فنزلوا و فورا اختفوا في واد، لأن الوقت كان نهارا و كانوا يخشون انكشاف أمرهم. بيد أنه مع حلول الليل، بدؤوا في التنقل داخل الجزيرة دون أي دليل أو طريق معروف يمكن أن يؤدي بهم إلى جهة مؤكدة، بل عبر مخاطرة قدر لهم الرب القيام بها، إلى أن وصلوا إلى مكان حيث سمعوا نباح كلاب، ففهموا أنهم قريبون من مكان مأهول. عندها قال بعضهم: " لقد أصبحنا الآن متأكدين مما نبحث عنه، فلنمكث هنا في هذا الوادي وفي وقت مبكر، و بمشيئة الرب، نحمل عليهم، ذلك أننا إذا سرنا الآن نحوهم فإن ذلك سيكون ضرره أكثر من نفعه بالنسبة لنا." هكذا استراحوا هناك إلى أن رأوا أنه حان الوقت للهجوم على أعدائهم، فتحمسوا بقوة، بحيث أنه في ظرف وجيز استطاعوا أسر عشرين منهم.
فلأن الكناريين أزعجوهم كثيرا بمحاولاتهم لتخليص بعض أقاربهم و أصدقائهم و كذلك للانتقام لمن قتل منهم، فقد قال جوآو دورنيلاس لابن عمه بأن عليه أن يأخذ الأسرى و يذهب بهم أمامهم، و أنه هو من سيتولى السيطرة على الآخرين و ذلك حتى لا تنقص الغنيمة. ففي هذا اليوم، و مع أنه كان عليهم ضغط شديد، إلا أنهم مع ذلك نجحوا في الانفلات منهم، تاركين خمسة عشر قتيلا منهم في الوادي، في حين لم يقتل أي مسيحي، مع جرح اثنين فقط. هكذا فقد عادوا إلى جزيرة غوميرا حيث كان ألفارو

دورنيلاس مرغما على البقاء، في حين غادر ابن عمه إلى المملكة. بيد أن نقص التموين وضعهم على شفا الهلاك بحيث لم يكن أمامهم من بد سوى أكل بعض أولئك السبايا، إذ أدركوا أنه لا يمكنهم أن ينجوا بأي طريقة أخرى. بيد أنه، و بفضل الرب، و قبل الوصول إلى هذا الشطط وصلوا إلى ميناء تافيرا[184] الواقع في مملكة الغرب.

[184] في النص البرتغالي: تافيلا.

الفصل 86
بخصوص ظروف مقتل نونو تريستاو في بلاد غينيا و الذين ماتوا معه

آه، بأي كلمات مقتضبة أستطيع تسجيل موت فارس نبيل كنونو تريستاو و الذي أود الحديث في هذا الفصل بخصوص مقتله المفاجئ. فبالتأكيد لا يمكنني أن أمر عليه دون أن أبكيه، لا أدري، يكاد يكون ذلك تنبؤا إلهيا، إذ يبدو لي أنه على جميع المسيحيين الحقيقيين اعتباري تواقا إلى المتعة السرمدية التي ذاقتها روحه، فهلا كان علي أن أنتحب موت من قضى الرب أن يكون من ضمن من جعلهم من الخالدين. فبالتأكيد أنه ما دام أول فارس منح لنفسه ذلك الشرف في بلاد أجنبية، و بما أنني قد بدأت هذا الكتاب بقصة الغنيمة التي حصل عليها، فإنني سأختمه تقريبا بوفاته، مانحا روحه المقدسة المكانة الأسمى في المجد الأخروي بوصفه الثمرة الأولى لكافة الآخرين و الذين سيقضون نحبهم في تلك البلاد ابتغاء لوجه الرب.

لقد كان هذا الفارس النبيل على اطلاع تام بالغاية و المسعى العظيمين لأميرنا الفاضل، لأنه كان من ضمن هؤلاء الشباب الأوائل الذين تربوا في كنفه، و بالنظر إلى أن الأمير كان يبذل قصارى جهده لإرسال سفنه إلى بلاد الزنوج، و حتى أبعد من ذلك، متى استطاع إلى ذلك سبيلا، و بعد أن سمع أن بعض السفن تجاوزت نهر النيل و الأمور التي وردت أخبارها من هناك، فقد ارتأى أنه إن لم يكن هو نفسه من ضمن المجموعة التي سيتم اختيارها و يقدم خدمة للأمير مولاه في تلك البلاد في أي أمر مناسب يمكن القيام به أو العثور عليه هناك، فإنه قد لا يستحق أن يطلق اسم رجل خير و حقيقي. لذا أعد فورا سفينة و جهزها و بدأ رحلته، فلم يمكث في أي ناحية، بل واصل مساره باتجاه بلاد

الزنوج. بعد أن مر بالرأس الأخضر، قطع ستين فرسخا بعد ذلك حتى وصل نهرا، فاعتقد أنه يجب أن تكون هناك أماكن مأهولة. لذا قام بإخراج قاربين صغيرين كان يحملهما معه فركبهما اثنين و عشرين رجلا، بحيث كان عشرة في أحدهما و اثنا عشر في الآخر.

فعند ما بدؤوا رحلتهم في النهر صعودا كانت الموجة التي دخلوا منها مرتفعة، ثم إنهم توجهوا إلى بعض المنازل التي شاهدوها علي يمينهم. لقد حدث أنه قبل نزولهم على اليابسة ظهر اثنا عشر زورقا على الضفة الأخرى و فيها ما يتراوح بين سبعين إلى ثمانين غينيا، و هم جميعا زنوج و يحملون أقواسا في أيديهم. و بما أن المياه كانت مرتفعة، فإن أحد قوارب الغينيين رسا على الضفة الأخرى و أنزل على الشاطئ من كانوا على متنه، فمن هناك بدؤوا يرمون السهام على رجالنا في القوارب.

ثم إن الآخرين الذين بقوا في القوارب غيروا من وضعيتهم بحيث يتمكنوا من إصابة رجالنا، فعند ما أدركوا أنهم أصبحوا في مدى أسلحتهم، أطلقوا عليهم وابلا منها على أجساد رجالنا حيث كانت مشحونة بالسم. لقد طاردوهم إلى أن وصلوا إلى السفينة التي كانت موجودة خارج النهر على سطح البحر، فأصيبوا جميعا بتلك السهام المسممة، لدرجة أنهم قبل الصعود على متنها توفي أربعة منهم في القوارب. هكذا و رغم أنهم أصيبوا بجراح فإنهم حركوا قواربهم بسرعة باتجاه السفينة و بدؤوا في الاستعداد للسفر و ذلك لخطورة وضعيتهم؛ بيد أنهم لم يستطيعوا رفع المراسي بسبب كثرة السهام التي انهالت عليهم، مما اضطرهم إلى قطع جميع الحبال. هكذا أبحروا تاركين القوارب وراءهم، ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على رفعها. فلم ينج من بين الاثنين و العشرين إلا اثنان، هما أندري دياز و ألفارو دا كوستا، و هما مساعدا فارس مع الأمير و ينحدران من مدينة أفورا، أما التسعة عشر الآخرون فقد ماتوا،

ذلك أن السم كان محضرا بفنية، لدرجة أنه عند وقوع جرح طفيف يدمي، فإنه يقضي على حياة الشخص.
فهناك قتل الفارس النبيل نونو تريستاو، الذي كان شديد التعلق بهذه الحياة، بحيث لم يجد فرصة لتفادي موته، إذ كان رجلا مغوارا. لقد مات هناك أيضا الفارس الذي يسمى جوآو كورَيا و كذلك شخص يدعى دوارته دولندا، إضافة إلى أستيفاو دالميدا و ديغو ماشادو و هم رجال من أرومة نبيلة و شباب نشأوا في بيت الأمير و كذا مساعدو فوارس و جنود و بحارة مروا بنفس المسار، و ناس آخرون كانوا من ضمن المفرزة التي في السفينة.
من المهم الإشارة إلى أن عددهم الإجمالي كان واحدا و عشرين[185]، ذلك أنه من بين السبعة الذين بقوا في السفينة جرح اثنان عند ما كانا يحاولان رفع المراسي. فمن سيجهز هذه السفينة التي كان عليها أن تواصل رحلتها و تنطلق وسط ذلك الجنس الشرير؟ ذلك أن مساعدي الفارس اللذين بقيا، كما سبق أن قلنا، لم ينجوا تماما من الخطر، لأنهما جرحا و كادا يموتان، فبقيا طريحي الفراش لمدة عشرين يوما، و بالتالي غير قادرين على تقديم أي مساعدة للآخرين الذين كانوا يبذلون ما في وسعهم لقيادة السفينة.
فعدد هؤلاء الآخرين لم يكن يتعدى الخمسة، فهم بحار شاب غير ملم بفن الملاحة و مراهق من بلاط الأمير يدعى آيراس تينكو و كان يقوم بوظيفة محاسب السفينة، ثم طفل غيني سبق أن تم سبيه مع الأسرى الأوائل الذي أخذوا من تلك البلاد، إضافة إلى مراهقين آخرين، لا يزالان يافعين كانا يعيشان مع بعض مساعدي الفوارس الذين قضوا هناك. فلا شك أنهم يستحقون التعاطف على المجهود الكبير الذي بذلوه في ذلك الوقت.

[185] من دون نونو تريستاو. راجع بهذا الخصوص: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق ، الفصل 86 ،الهامش رقم 302a .

لقد ساروا و هو يبكون و يتحسرون على موت ذلك القائد و رفاقهم و أصدقائهم الآخرين، كما كانوا يخشون من أن يكون أعداؤهم البغيضون يدركون أنهم قريبون منهم و الذين بسبب جروحهم القاتلة قضى هذا العدد الكبير من الرجال الأبطال في وقت وجيز. لقد حزنوا بشكل خاص لأنهم لم يجدوا سوى وسيلة هشة مكنتهم من النجاة، ذلك أن البحار الشاب و الذي وضعوا فيه كل أملهم، قد أقر لهم بوضوح بمعرفته المحدودة، قائلا إنه لا يعرف كيف يغير مسار سفينة أو أي شيء آخر من هذا القبيل يمكن أن يكون مجديا، بيد أنه، إن قام شخص آخر بتوجيهها، فيمكنه فقط أن يبذل ما بوسعه للقيام بما هو مطلوب. آه، يا من تبادر بغوثك العظيم كل ملهوف و منكوب، يا من لا تترك من يصرخون عاليا إليك يطلبون عونك، و من يستمع الآن إلى صرخات هؤلاء الرجال الذين يتأوهون إليك، تشخص أبصارهم فوق الغيوم و يناجونك بتوسلاتهم، حينما أرسلت إليهم عونك الإلهي في وقت وجيز. لقد منحت الشجاعة و المعرفة لشاب ولد و نشأ في أوليفنسا، و هي مدينة قارية بعيدة من البحر. فبعد أن استنار بالنعمة الإلهية قاد السفينة و وجهها في اتجاه الشمال، مع انحراف طفيف باتجاه الشرق، أي باتجاه الرياح التي يسمونها الشمالية - الشرقية، ذلك أنه كان يعتقد أن مملكة البرتغال تقع هناك و هي التي يرغبون في السفر باتجاهها.

فبينما كانوا في طريقهم إلى هناك، بعد أن أمضوا جزءا من النهار، تفقدوا نونو تريستاو و الجرحى الآخرين فوجدوهم قد ماتوا، لذا كانوا مرغمين على رميهم في البحر، ففي هذا اليوم رموا خمسة عشر، ثم بقي أربعة في القوارب، و في اليوم الموالي رموا اثنين. غير أني لن أتحدث عن الشعور الذي من المحتمل أنه انتابهم عند ما رموا تلك الجثث في الأمواج المتلاطمة و هم يدفنونها في بطون الأسماك. لكن، هل يضيرنا أن لا تتوفر أجسامنا على شاهد قبر؟ ما

دمنا سنشاهد في أجسادنا المخلص، طبقا لما بينه الكتاب المقدس، فلا فرق بين أن ندفن في الأرض أو في البحر أو أن تأكلنا الأسماك أو الطيور. فهمنا الأساسي هو في أعمالنا و التي عبرها سنعثر بعد الموت على حقيقة كل تلك الأمور التي نراها هنا عيانا. فلأننا جميعا نؤمن و نقر بأن البابا هو رئيس الأساقفة و الحبر الأعظم، و الذي عبر سلطته يمكننا الحصول على الغفران أو على الإدانة، طبقا لما ورد في الإنجيل، فإننا كمسيحيين ملزمون بالإيمان بأن أولئك الذين سيغفر لهم، إن هم يستوفون شروط قراره، سيكونون من بين القديسين. لذا يمكن أن نقول لهؤلاء الرجال:" طوبى لمن مات في رعاية الرب"[186].

علاوة على ذلك، فإن كل من سيقرؤون هذا التاريخ سيجازيهم الرب إن هم تذكروا مقتل هؤلاء الرجال في صلواتهم، فبما أنهم قضوا في خدمة الرب و مولاهم، فإن موتهم سعيد.

فهكذا فإن هذا الشاب الذي ذكرت هو نفسه آيراس تينوكو الذي سبق أن تحدثت عنه و الذي وفقه الرب، إذ إنه خلال شهرين قام بقيادة مسار تلك السفينة؛ بيد أن الجميع كانوا مشككين بخصوص مصيرهم، ذلك أنهم و خلال شهرين لم يروا اليابسة. في نهاية هذه الفترة شاهدوا سفينة خفيفة كانت تقوم بنشاط عسكري، فشعروا بخوف كبير منها لاعتقادهم بأنها للمسلمين، بيد أنه بعد أن عرفوا أنها تعود لأحد القراصنة الغالسيين، يدعى بيرو فالكوم، غمرتهم الفرحة و ازدادت عند ما قيل لهم أنهم قبالة السواحل البرتغالية، مقابل مكان يعود إلى قائد سفينة سانتياغو يسمى سينيس[187]. هكذا

---

[186] *Beati mortui qui in Domino moriuntur.*

[187] تقع سينيس Sines في أقصى الجنوب الغربي لإقليم أسترمادورا البرتغالي و هي مسقط رأس فاسكو دي غاما مكتشف الطريق البحري إلى الهند و يعد من أعظم الملاحين في العالم. راجع بهذا الخصوص: The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea، الجزء الثاني، مرجع سابق ، الفصل 86 ، هامش 204 .

وصلوا إلى لاغوس، و فورا ذهبوا إلى الأمير لإبلاغه بالمأساة التي حصلت لهم خلال رحلتهم و قدموا له عددا كبيرا من السهام التي قتلت رفاقهم.

حزن الأمير حزنا بالغا على خسارة هؤلاء الرجال، ذلك أن غالبيتهم قد نشأت في كنفه، و رغم أنه كان يؤمن إيمانا راسخا بأن أرواحهم قد حصلت على الخلاص، فإن ذلك لم يحل دون حزنه على من تربوا و تكونوا بحضوره لسنين عديدة. فلكونه أحس من موقعه كقائد أنهم قضوا في خدمته، فقد منح زوجاتهم و أطفالهم رعاية خاصة.

الفصل 87
كيف عاد ألفارو فرنانديز مرة أخرى إلى بلاد الزنوج و الأمور التي قام بها هناك

إن إحدى الخصائص التي تميز القلب النبيل هي أنه لا يكتفي بالأمور الصغيرة، بل إنه يسعى دوما إلى الأفضل و ذلك كي يرتفع شأنه عبر الأعمال النبيلة، داخل بلده و خارجه. ينطبق ذلك على جوآو غونسالفيز، قائد الجزيرة؛ فلكونه لم يكن راضيا عن الرحلة السابقة التي قامت بها سفينته السنة الماضية إلى بلاد الزنوج، حيث حضر مرة أخرى ألفارو فرنانديز مع سفينته المجهزة بشكل جيد و كلفه بمواصلة السير إلى أبعد مسافة ممكنة و أن يبذل ما في وسعه لخدمة ذلك المولى الذي نشأ في كنفه. هكذا فقد أنجز هذه المهمة كمسؤولية مشرفة و كمن يمتلك رغبة لا تقل[188] للقيام بما عهد إليه به عمه[189].

بعد أن تم تموين السفينة، انطلقوا في رحلتهم مباشرة إلى الرأس الأخضر، إلى حيث أسروا السنة الماضية اثنين من الغينيين سبق و أن تحدثنا عنهما في مكان آخر، فمن هناك عبروا إلى رأس السواري[190] فمكثوا هناك لوضع بعض الرجال على الشاطئ. فبهدف رؤية اليابسة فقط، اجتمع سبعة رجال، فعند ما نزل هؤلاء على الشاطئ اكتشفوا آثار أقدام أناس يسلكون طريقا، فاقتفوا أثرهم و وصلوا إلى بئر حيث عثروا على بعض الماعز يبدو أن الغينيين تركوه هناك، فقد يكون ذلك، حسب ما أرى، بسبب أنهم أحسوا بأن هناك من يبحث عنهم. سار المسيحيون مسافة طويلة، و لكونهم لم

[188] أي لا تقل عن رغبة عمه / خاله.
[189] أو خاله.
[190] Cabo dos Matos.

يكونوا قادرين على مواصلة مسيرهم، فقد عادوا إلى سفينتهم، لكنهم و في طريقهم و عند ما شرعوا في إطلاق قاربهم عثروا على رجيع فيل بحجم إنسان، بحسب تقدير من شاهدوه، فلكون المكان لم يكن مواتيا للحصول على غنيمة فقد عادوا إلى سفينتهم.
هكذا و بعد رحلة بمحاذاة الشاطئ لأيام قليلة ذهبوا إلى الشاطئ أيضا و عثروا على قرية خرج منها سكانها و كأنهم يبدون إرادة في الدفاع عن منازلهم و من بينهم رجل مسلح بترس جيد و حربة في يده. ثم إن ألفارو فرنانديز، و قد تبين له أنه هو قائد هذه العصابة، تقدم نحوه بشجاعة و أصابه بجرح بالغ برمحه، فأرداه قتيلا، ثم بعد ذلك أخذ ترسه و حربته، و قد حمل كل ذلك إلى الأمير مع أمور أخرى، كما سيتم الحديث لاحقا بخصوص ذلك.
عند ما شاهد الغينيون مقتل ذلك الرجل توقفوا عن قتالهم، لقد ارتأى رجالنا أنه لا الزمان و لا المكان مواتيان لانسحابهم من ذلك الخوف. بيد أنهم عادوا بالأحرى إلى سفينتهم، ثم نزلوا في اليوم الموالي في مكان قريب من هناك، حيث شاهدوا بعض نساء أولئك الغينيين و هن يمشين. فيبدو أنهن كن يسرن بالقرب من خليج صغير لجمع بعض المحار، فأسروا إحداهن كان عمرها حوالي ثلاثين سنة مع طفلها الذي يبلغ من العمر حوالي سنتين و أيضا طفلة عمرها أربع عشرة سنة، حيث كانت أطرافها جيدة و كان مظهرها لائقا كغينية، بيد أن قوة هذه المرأة كانت مثار استغراب، لأن كلا من الرجال الثلاثة الذين عثروا عليها وجد صعوبة كبيرة في محاولة وضعها في القارب. هكذا فإن أحد رجالنا، و قد أدرك أن التأخر الذي حصل لهم و الذي قد يتسبب في قدوم سكان ذلك المكان و مهاجمتهم لهم، قد ارتأى أنه من الأفضل أن يأخذ طفلها منها و الذهاب به إلى القارب، فقد دفع حب الطفل الأم إلى أن تتبعه، دون ضغط كبير من قبل الاثنين اللذين كانا يحملانها.

من هناك واصلوا إلى أن قطعوا مسافة أبعد حيث عثروا على نهر دخلوا فيه بواسطة القارب، فمن بعض المنازل التي عثروا عليها، اختطفوا امرأة، ثم بعد أن حملوها إلى السفينة، عادوا مرة أخرى إلى النهر بهدف السير بمحاذاته صعودا بغية محاولة الحصول على غنيمة. فبينما كانوا يواصلون رحلتهم هذه، إذ التقوا بأربعة إلى خمسة قوارب لغينيين جاهزين على ما يبدو للذود عن بلادهم، فقد كان رجالنا غير راغبين في اختبار قتالهم، بالنظر إلى التفوق الكبير للعدو، و بالأخص بسبب أنهم كانوا يرهبون الخطر الكامن في السم الذي يرمونه. هكذا فقد شرعوا في الانسحاب باتجاه سفينتهم ما وسعهم ذلك، لكن بعد أن لا حظوا أن أحد الزوارق تقدم بمسافة أكبر على الآخرين، فقد عادوا إليه، بيد أنه تراجع في اتجاه رفاقه.

فبينما كان رجالنا يحاولون الوصول إليه قبل أن يفر(إذ يبدو أنه كان متقدما مسافة أكبر عن مجموعته) فإن قاربهم أصبح على مسافة قريبة منه، لدرجة أن أحد الغينيين رماه فأصاب ألفارو فرنانديز بسهم في الساق، فنظرا لأنه كان على علم بخطورة ذلك السم، فقد سحب السهم بسرعة و غسل الجرح بالبول و زيت الزيتون ثم دهنه جيدا بالترياق، فبفضل الرب فقد نفعه ذلك، رغم أن صحته قد ساءت، ذلك أنه خلال أيام أوشك على الموت. ثم إن الآخرين الذين كانوا على متن السفينة، و رغم جرح قائدهم، لم يتخلوا عن مواصلة رحلتهم قدما بمحاذاة ذلك الشاطئ إلى أن وصلوا إلى شريط رملي ضيق يتسع قبالة بحيرة كبيرة، فهنا أخرجوا زورقهم و توغلوا في الداخل ليروا نوعية الأرض التي قد يجدون. فعند ما كانوا يرصدون الشاطئ، إذ شاهدوا مائة و عشرين من الغينيين يسيرون باتجاههم، البعض منهم له تروس و حراب و البعض الآخر يتوفر على أقواس. عند ما أصبحوا قريبين من الماء طفقوا يلعبون و يرقصون، و كأنهم لا يبالون

بشيء، بيد أن رجالنا، و قد رغبوا عن تلبية الدعوة لحضور ذلك الحفل، عادوا إلى سفينتهم.

لقد وقع ذلك على بعد مائة و عشرة فراسخ ما وراء الرأس الأخضر، فكل ذلك الشاطئ يتجه عموما نحو الجنوب. ثم إن تلك السفينة قد ذهبت هذه السنة إلى أبعد مكان أكثر من أي سفينة أخرى، فلذلك فإنها قد حصلت و باستحقاق على 200 دبلون، منها 100 أعطى الأمير السيد بدرو، الذي كان حينها وصي العرش، الأمر بصرفها، و كذلك 100 تم الحصول عليها من الأمير السيد فرناندو. فلولا مرض ألفارو فرنانديز و الذي أقعده، فإنه كان بإمكان السفينة السير إلى أبعد من ذلك، بيد أنها كانت مرغمة على العودة من هذا المكان الأخير الذي سبق أن ذكرته. لقد اتجهت مباشرة إلى جزيرة آرغين و من هناك إلى رأس التبادل، حيث عثروا على أهوده ميمام و الذي سبق أن تحدثنا عنه في هذا التاريخ. فمع أنهم لم يستطيعوا حمل مترجم، فعبر الإشارات استطاعوا الحصول على زنجية قدمها لهم البيظان مقابل بعض القماش الذي كانوا يحملونه معهم، فلو أنهم حملوا كمية أكبر منه لحصلوا على أكثر من ذلك، بالنظر إلى الرغبة التي عبر عنها البيظان. فمن هناك انطلقوا باتجاه المملكة، حيث حصلوا على الدبلونات التي ذكرت آنفا مع العديد من العطايا الأخرى من قبل مولاهم الأمير الذي سر كثيرا بمقدمهم، بالنظر إلى التقدم الذي حققوه في حملتهم.

الفصل 88

كيف انطلقت تسع سفن من لاغوس و البيظان الذين أوقعوهم في الأسر

رغم أن خبر مقتل نونو تريستاو قد أثار فزعا كبيرا في صفوف سكان المملكة من مواصلة الحرب التي بدؤوها؛ ذلك أن طرفا قد قال إن ذلك لأمر مريب أن يتم القتال برجال يحملون بوضوح حتوفهم معهم؛ مع ذلك فإنه لم يكن يوجد رجال مستعدون لمحاولة تحقيق هذا المشروع. فبما أن الخطر كان ماثلا للعيان، فإن التغلب على كافة تلك الأمور كان سيتحقق لو وجد أولئك الذين لهم قلوب تطمح للحصول على لقب الرجال الأخيار، و بالأخص إن هم سعوا إلى ذلك عن طريق فهمهم لمدى رغبة الأمير و عبر ملاحظة الترقية التي قام بها لصالح من بذلوا في ذلك مجهودا جبارا، ذلك أن فيجتيوس قد قال "يكون الرجال شجعانا حيثما تُكافؤ الشجاعة."

هكذا فإنه في هذه السنة تحرك عدد من القباطنة في تسع سفن للذهاب إلى أرض الزنوج، فكان أولهم جيل إيانيس، و هو فارس يقيم في مدينة لاغوس، أما الثاني فهو مساعد فارس نبيل نشأ في بلاط الأمير منذ نعومة أظافره. لقد كان شابا شجاعا و يتمتع بخصال حميدة، فستجد كافة أعماله مدونة بتفاصيل أكثر في تاريخ المملكة، و بالأخص عند الحديث عن الأعمال العظيمة التي تم إنجازها في سبته. لقد كان اسم هذا الرجل فرانسيسكو فلارينهو، أما الثالث فكان ستيفاو أفونسو و الذي سبق أن تحدثنا عنه في أما كن أخرى من تاريخنا هذا، و كان يقود ثلاث سفن. كان هناك لاورنس دياز الذي سبق أن تم ذكره و لاورنس برنالديز، و هو ملاح، فكلاهما كانت معه سفينته. ثم كان هناك علاوة على هذه المجموعة سفينة يملكها أسقف الغرب و يقودها مساعد فارس. سار هؤلاء بأمر من الأمير إلى جزيرة ماديرا للتزود بالمؤن، ثم

انطلقوا من هناك مع السفينتين اللتين انطلقتا من هذه البلاد[191]، يقود إحداها مالكها تريستاو، و هو أحد القباطنة الذين يعيشون في الجزيرة، أما الأخرى فيقودها غارسيا هومن، و هو صهر جوآو غونسالفيز زاركو، القبطان الآخر. فهكذا و بعد أن انطلقوا معا في رحلتهم وصلوا إلى جزيرة غوميرا، و هناك أنزلوا الكناريين التسعة عشر الذين أسروا رغم الأمان، كما سبق أن مر بك، لقد أخذوا كذلك بعض الرجال الذين بقوا هناك و الذين هم من بيت الأمير و من جزيرة ماديرا. لقد قال من كانوا على متن السفن للكناريين:"الآن سنختبر حظنا في جزيرة بالما، لعلنا نتمكن من الحصول على أي غنيمة تمكننا من خدمة الأمير مولانا، فنود أن نعرف، من أجل رسم خطة جيد لنا، هل يمكنكم أن تتفضلوا علينا بمنحنا بعض رجالكم المستعدين لمساعدتنا."

رد الكناريون عن طريق مترجميهم:" كما سبق أن عرفتم، فإننا سنبذل ما في وسعنا للقيام بأي شيء يخدم الأمير." فالواقع أنهم ذهبوا جميعا إلى تلك الجزيرة، بيد أن ذلك لم يعد عليهم بنتيجة، ذلك أن الكناريين قد استنفروا عند مشاهدة سفينة لاورنس دياز و التي وصلت إلى هناك أياما قبلهم. فبعد المشقة الكبيرة التي لاقوها في هذه العملية عادت سفينتا الجزيرة عند ما أدرك من فيهما أنهم غير قادرين على تحقيق أي غنيمة و كذلك جيل إيانيس، أحد فرسان لاغوس. بيد أن الآخرين واصلوا رحلتهم إلى أن قطعوا ستين فرسخا ما بعد الرأس الأخضر، حيث وجدوا نهرا[192] بعمق جيد، فدخلوا فيه بسفنهم، بيد أن هذا الدخول لم يكن في صالح سفينة الأسقف، ذلك أنها عند ما اصطدمت بضفة رملية بدأ الماء

---

[191] أي البرتغال.

[192] هو نهر Rio Grande، راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné (النسخة الأصلية بالبرتغالية)، مرجع سابق، ص. 414 .

يتسرب إلى داخلها، لدرجة أنهم لم يتمكنوا على الإطلاق من إخراجها، بيد أن الطاقم قد فر منها مع أخذ ما استطاع منها.
فبينما كان البعض منشغلا بها، نزل ستيفاو و أخوه على الشاطئ؛ غير أن سكان هذه البقعة لم يكونوا هناك، لذا عقدا العزم على الذهاب للبحث عنهم، فغادرا من هناك و سارا باتجاه أثر عثرا عليه بالقرب من المكان. بعد أن واصلا طريقهما لمسافة قصيرة قالا بأنهما وجدا أن غالبية الأرض مزروعة و هناك أشجار من القطن و الكثير من الحقول فيها زراعة الأرز، و أشجار أخرى من أنواع مختلفة. ثم إنه[193] ذكر أن الأرض تبدو كلها و كأنها سباخ.
يبدو أن ديغأفونسو كان يسير أمام الآخرين و معه خمسة عشر من أولئك الذين كانوا متلهفين لتحقيق إنجاز ما، فكان يوجد من ضمنهم شاب من بيت الأمير يدعى جوآو فيلس و كان معه محاسب السفينة. فعند ما دخلوا في غابة كثيفة، خرج الغينيون و هاجموهم من جانب واحد و معهم حرابهم و أقواسهم و تقدموا إلى أقرب مسافة ممكنة منهم، لقد شاء القدر أن يموت فورا خمسة من السبعة الذين أصيبوا بجراح، كان من ضمنهم برتغاليان و ثلاثة أجانب.
فبينما كان الأمر على هذا الحال، إذ وصل ستيفاو أفونسو و الآخرون الذي كانوا يسيرون خلفه. فعند مشاهدته للمكان الخطير الذي كانوا يوجدون به، قام بإرجاعهم بأسرع ما يمكن، فخلال هذا الانسحاب لم يتلقوا أي مشكل، ذلك أن الغينيين كانوا كثيرين و يحملون أسلحة ضارة، خاصة أنه في وقت وجيز، و بحسب ما رأيتم، كادت تقتل رجالنا. في هذا الوقت بالذات حصل أربعة شبان تمت تنشئتهم في بيت الأمير على مكافأة خاصة للثناء عليهم، فكان قائدهم ديغو غونسالفيز، و هو مساعد فارس نبيل سبق أن تحدثنا عنه عدة مرات في مناسبات مختلفة. كان من ضمنهم أيضا آخر يدعى هنريك لورنسو الذي كان أيضا شابا

---

[193] أي ستيفاو.

متعطشا لإنجاز عمل غير مسبوق بغية الرفع من مكانته، أما الاثنان الآخران فهما أفونسوأيانيس و فرناندإيانيس.
ففور وصولهم إلى السفينة عقدوا اجتماعا و اتفقوا على العودة، حيث أدركوا أن أمرهم قد انكشف و أن سفنهم أصبحت تقل حمولة زائدة مع الطاقم الذي أخذوه من سفينة الأسقف. فرغم أنهم قدموا هذا الدليل، فأعتقد أن السبب الرئيسي في ذهابهم هو خوفهم من أعدائهم، حيث إن طريقتهم في القتال تصيب أي عاقل بخوف رهيب. لذا فإنه لا يمكن أن نسمي ذلك شجاعة، إلا إذا توفروا على رغبة أخرى كبيرة في القتال بحيث يدخلوا المعركة عن طيب خاطر مع رجال يعلمون أن لهم القدرة على إصابتهم إصابة بالغة. فهناك بقيت جثامين أولئك الرجال الذين قتلوا بين تلك الأشجار الكثة، لتذهب أرواحهم لمشاهدة أمور ذلك العالم الآخر، فعسى الرب، إن لم يكونوا الآن في مملكته المقدسة، أن يأخذهم إليه. فمن قبيل الترحم عليهم، فواجبكم أنتم الآخرون المؤمنون بالمسيحية الصلاة من أجلهم، ذلك أنه إن تضرعتم لأجلهم فإنكم إنما تتضرعون أيضا لأنفسكم. ثم إن السفن و قد عادت كما كان مقررا وصلت إلى جزيرة آرغين للتزود بالماء الذي كانت بحاجة إليه، إثر ذلك قرروا الذهاب إلى رأس التبادل[194] فذهبوا إلى الشاطئ و عثروا على أثر بعض البيظان. فمع أن السفر عبر البر كان خطيرا بسبب الحرارة الشديدة، مع ذلك فإن حرج العودة إلى المملكة بدون غنيمة قد أجبرهم على القيام بتلك المخاطرة. هكذا بدؤوا في اقتفاء ذلك الأثر إلى أن وصلوا إلى البيظان بعد قطع مسافة فرسخين، و بسهولة أسروا ثمانية و أربعين منهم. فمن هناك قرروا مباشرة التوجه إلى المملكة.

---

[194] Cabo do Resgate أو Porto do Resgate بحسب خرائط كل من خوان دي لا كوسا و جوأو فريره. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص. 417 .

و الحقيقة أنهم فعلوا ذلك، باستثناء ستيفاو أفونسو الذي أبحر إلى جزيرة بالماء، حيث ذهب إلى الشاطئ و معه أغلبية من كان يحملهم معه. هناك حدث أنهم عثروا فجاة على بعض الكناريين فأسروا منهم امرأتين، بيد أن ذلك لم يتم دون كَرّ بالغ الخطورة من جانب العدو. لقد حملوا على رجالنا و هم يحملون الغنيمة و هاجموهم بشراسة، لدرجة أن بعضا ممن كانوا هناك ربما أصبحوا مستعدين للتخلي عن بعض الغنيمة لأي شخص يستطيع حمايتهم من التدمير. بيد أن الفارس المغوار و الخير ديغو غونسالفيز، و دون أن ينسى شجاعته، أخذ بقوة سلاح القوس[195] من أحد القواسين هناك و كذلك مسامير لولبية و كنانة، فبعد أن وضع نفسه بين رجالنا رمى الكناريين، فلمهارته الفائقة في تسديد سهامه، فقد قتل سبعة من أولئك الأعداء في ظرف وجيز و من ضمنهم ملكهم، حيث؛ تم التعرف عليه عن طريق سعفة كان يحملها في يده، ذلك أنه حسب ما يبدو فإن عادتهم تقضي بأن يكون للملك شيء يميزه عن غيره. فتعلمون أنه مع كل الناس، فمن الطبيعي أنه إذا ما مات القائد فإن الآخرين يهربون، فعند ما شاهد هؤلاء القوم أن قائدهم قد قتل، توقفوا عن القتال، فمنحوا الفرصة لرجالنا لتأمين أنفسهم. هكذا فإنهم وصلوا إلى المملكة مع غنيمتهم، مع أن إحدى النساء الكناريات قد توفيت قبل أن ينزلوا في مدينة لاغوس.

---

[195] سلاح قاذف، كما سبق و أن ذكرنا. (المترجم).

الفصل 89

كيف ذهب غوميس بيريز إلى وادي الذهب و البيظان الذين أسرهم

عند ما حلت سنة 1446 هذه، تذكر غوميس بيريز ما قاله للبيظان عند ما قدم إلى وادي الذهب في السنة السابقة، و بما أنه لا يستطيع الذهاب إلى تلك البلاد دون ترخيص من الأمير، فقد طلب منه مساعدته في الذهاب إلى حيث تعهد للبيظان بالرجوع. فمع أنه تم إغفال بعض المبررات التي دارت بينهما، فإن الأمير قد منحه الرخصة المذكورة و جهز له سفينتين، إحداهما ذات سطح مركب و الأخرى سفينة صيد حيث كان على متنهما عشرون رجلا (أو بالإضافة إلى غوميز بيريز واحد و عشرون)، فمن ضمنهم كان يوجد شاب من بيت الأمير يدعى جوآو غوريزو و الذي كان مكلفا بتقييد كافة الوصول و النفقات مع البيظان[196].

لقد كان من الأمور المعروفة أن كل السفن التي يرسلها الأمير من المملكة تذهب إلى جزيرة ماديرا للتزود بالمؤن، فعند وصولهم إلى هناك تحدث غوميز بيريز مع محاسب السفينة و قال بأنه يريد الذهاب فورا إلى وادي الذهب في السفينة الصغيرة و أن على جوآو غوريزو البقاء هناك لأخذ الأشياء التي عليه أن يحملها، فعند ما يصل هذا الأخير فإنه سيكون قد رتب تجارته مع البيظان. هكذا انطلقت السفينة الأولى و وصلت إلى مدخل وادي الذهب حيث أرسوا لبعض الوقت. ثم قال غوميز بيريز للرجال الذين يحملهم معه: "فلنذهب إلى نهاية هذا النهر، حيث تعهدت للبيظان السنة الماضية بالعودة بهدف التجارة، لذا فإن بقاءنا هنا لا مسوغ له، ما

[196] تدل هذه الفقرة على أن العلاقات التجارية مع إفرقيا بدأت تكتسي طابعا أكثر انتظاما. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص. 419

دام البيظان لم يأتوا." هكذا واصلوا رحلتهم إلى أن وصلوا إلى ميناء يدعى بورتو دا كالديرا[197] حيث أرسوا.

فمن أجل أن يعلم البيظان بوصولهم، أمر غوميز بيريز رجاله بعد يوم من وصولهم بإشعال نار صغيرة ينبعث منها الدخان على المرتفع القريب من الميناء. بعد ما رأى أنهم لم يأتوا ذلك اليوم، أمر بالقيام بعمل مماثل و بشكل متكرر نهارا و ليلا. بعد ثلاثة أيام بدأ البيظان في الوصول و شرع غوميز بيريز في الحديث معهم عبر مترجميه، طالبا منهم الحصول على بعض الغينيين الذي تم إحضارهم من هناك مقابل بعض الثياب. كان ردهم عليه: "نحن لسنا تجارا، و لا يوجد أي من هؤلاء في مكان قريب من هنا، بيد أنهم جميعا يمارسون التجارة في البراري، فرغم ذلك فإن علموا بذلك فإنهم قد يبذلوا ما بوسعهم للوصول إلى هنا، ذلك أنهم رجال يتوفرون على الكثير من الغينيين و الذهب و أمور أخرى قد تعجبك."

ثم تحدث غوميز بيريز إلى بعض هؤلاء الرجال و طلب منهم أن يذهبوا إليهم[198] و يدعونهم، قائلا لهم إنه سيمنحهم مصاريف على ذلك. لقد استلم البيظان النقود و ادعوا أنهم ذاهبون لدعوتهم، بيد أنهم في النهاية لم يتعبوا أنفسهم بذلك، رغم أن غوميز بيريز انتظر لفترة واحد و عشرين يوما. لقد كانت ثقة البيظان في رجالنا كبيرة لدرجة أن خمسة إلى ستة منهم دخلوا السفينة طواعية، فأثناء ذلك وصلت سفينة جوآو غوريزو التي بقيت في الجزيرة. بعد مرور واحد وعشرين يوما، أدرك غوميز بيريز أن البيظان كانوا يخدعونه، و أنه من المحتمل أن لا يكونوا ذهبوا إلى التجار أو دعوهم، فقال لهم إنه لحد الآن قد منحهم الأمان باسم المولى

---

[197] Porto da Caldeira. ، لا يظهر هذا الميناء في الخرائط البرتغالية القديمة، إذ يبدو أن المستكشفين البرتغاليين قد منحوه لميناء يقع في نهاية نهر وادي الذهب. انظر بهذا الخصوص نفس المرجع السابق، ص. 420 .

[198] أي إلى التجار.

الأمير، بيد أنهم ما داموا لا يتعاملون معه بنزاهة، فمن الآن فصاعد فإن عليهم أن يحذروه و يعتبروا الأمان قد انتهى.
هكذا فقد أخرج فورا كافة الرجال الذي كانوا معه في السفينة و أبحر مباشرة، إلى أن قطع مسافة أربعة فراسخ من هناك باتجاه الجانب الآخر من النهر؛ ففي اليوم الثاني بعد وصوله هناك، شاهد اثنين من البيظان متجهين إلى الشاطئ، فتم أسرهما بأمر منه في وقت وجيز. ثم تحدث إليهما غوميز بيريز منفردين، و سألهما إن كانا على علم بأي من البيظان الآخرين القريبين من هناك، فردا عليه: "نعلم أن عشرة ذهبوا إلى جزيرة تقع في نهاية هذا النهر، فهناك موقع مأهول قريب من هناك يوجد به أربعون إلى خمسين شخصا." عندها قال غوميز بيريز لجوآو غوريزو: "ما دام الأمر كذلك، فعليك أن تجهز ستة من رجالك الآخرين و تأخذ أحد هذه القوارب و تذهب إلى الشاطئ بحثا عن هؤلاء البيظان الموجودين في الجزيرة، كما ذكر لي هذا الرجل، و احذروا،"، مضيفا " كي تجدوا طريقة لمسكهم قبل أن يرموا بأنفسهم في الماء، ذلك أنه بلغني أنهم سباحون مهرة، فقد يفلتون من قبضتكم إن لم تكونوا على علم بذلك."
هكذا انطلق هؤلاء الرجال، ثم إن غوميز بيريز كان عنده قارب جاهز و ضع فيه أحد عشر رجلا علاوة عليه و سار بمحاذاة الضفة، فهناك خاطبهم على النحو التالي: "أيها الأصدقاء، تعلمون جيدا أننا جئنا إلى هذه البلاد لخدمة الرب بشكل رئيسي و من بعد ذلك خدمة مولانا الأمير قائدنا، و كل ذلك يعود علينا بالمنفعة. فبما أنني علمت أنه قبالة هذه الجزيرة، حيث أرسلت زملاءنا الآخرين، توجد قرية تضم حوالي أربعين إلى خمسين شخصا، و أن العدد الذي يمكنه أن يخوض القتال هناك هو من عشرين إلى خمسة و عشرين، فأرى أنه إن نحن هاجمناهم كما يجب، فبذلك يمكننا تحقيق غنيمة كبيرة دون وقوعنا في خطر كبير.

لذا فإن رأيي هو أن نحمل عليهم فورا، ذلك أن هروب أي شخص من هؤلاء الموجودين في الجزيرة سيمكن من إشاعة خبر قدومنا و سيجعل عدونا يستنفر و يلوذ بالفرار. لقد أطلعتكم على ذلك رغبة مني في مشورتكم و موافقتكم." لقد ردوا عليه بما يلي: "ما هو مطلوب هنا ليس المزيد من الحديث أو التشاور، بل بالأحرى الذهاب إلى حيث تريد، فيلكن الرب معك. سنمتثل كما يجب علينا، ذلك أنه بالنظر إلى أنك رجل بهذا المستوى القيادي و قد شاهدت و اختبرت الأخطار الجمة برا و بحرا، فإنه قد يكون من السذاجة أن يفكر أي منا في معارضة ما قد عزمت عليه." لذا فإن علينا أن نترك هؤلاء الرجال في مسعاهم الخير و لنتحدث عن الستة الذين ذهبوا إلى الجزيرة. فقد بذل هؤلاء قصارى جهدهم بتجديف قاربهم قبل تراجع حركة المياه، لأن البيظان قد يفرون بسهولة عند الجزر.

عند ما اقتربوا منها، اتفقوا على أن يسير اربعة منهم على الشاطئ و أن يتقدم اثنان في القارب بمحاذاة البر، بحيث إذا حاول البيظان أن يرموا بأنفسهم في الماء، عندئذ يمكنهم السيطرة عليهم بسهولة، و أيضا إن تطلب الأمر القفز لمساعدة رفاقهم، يمكنهم عندها أن يقوموا بذلك. فبينما كان الأربعة يسيرون برا إذ رصدهم البيظان، فلأنهم كانوا رجالا شجعانا أو بسبب أنهم اعتقدوا أنهم متفوقون، فقد اندفعوا صوب المسيحيين و هم يرمون برماحهم على مقربة منهم.

لقد تلقى رجالنا هذا الرمي على تروسهم، ثم دخلوا في قتال متلاحم، بحيث تركزت قوة العدو على الرجال الأربعة، غير أن الرجلين اللذين كانا في القارب، بعد أن شاهدا الجهد الكبير الذي يبذله زملاؤهم، هرعوا إلى البر لمساعدتهم، فكان وصولهم مؤشرا على هزيمة العدو، الذي بدأ فورا في التراجع و من ثم فروا كلهم. فمن ضمن البيظان الذين كان عددهم عشرة، فإن اثنين حاولا رمي

نفسيهما في الماء و قد غرقا فورا، إما لأنهما لا يعرفان السباحة أو بسبب عائق آخر. ثم إنه عند ما شاهد المسيحيون أنهم كانوا يرمون أنفسهم في الماء فقد قفزوا في قاربهم، هكذا أسروا من البر و البحر الرجال الثمانية.

بعد أن قيدوهم، قال جوآو غوريزو للآخرين: " فلنذهب إلى المكان الذي شاهدنا غوميز بيريز ذاهبا إليه في القارب الآخر، ذلك أنه انطلق فورا بعدنا، فبالتأكيد أن سبب ذلك يعود فقط إلى أنه أراد مهاجمة القرية التي ذكر له البيظان أنها تقع هناك. فبما أننا الآن قد أكملنا عمليتنا، فلنذهب و نساعده، فلعله يحتاج إلى مساعدتنا، أو يدركوا على الأقل مدى إخلاصنا." قال جوآو غوريزو إن ذلك يعود إلى أنهم عند ما كانوا ذاهبين إلى الجزيرة شاهدوا المسار الذي كان يسلكه القارب. اعتبر الجميع أن هذا الرأي صواب؛ فلنترك الآن هؤلاء الرجال و هم يقتفون أثر غوميز بيريز، و لنتحدث عن مصير الآخرين.

الفصل 90
بخصوص البيظان الذين أسرهم غوميز بيريز في القرية الأخرى

بالعودة الآن إلى ما قام به غوميز بيريز، فلنتصور أن الاجتماع انتهى و أنهم الآن سائرون في طريقهم التي دلهم عليها البيظانيان، مما أقنعهم بمغادرة سفينتهم. لقد حدث أنهم عند ما كانوا يسيرون بالقرب من المكان الذي قيل لهم إن القرية توجد به، شاهدوا البيظان و هم يخرجون من مخيمهم، فعند ما شاهدهم غوميز بيريز، صاح بأعلى صوته و بحيوية إلى الآخرين للحاق به. إذ قال : "هرولوا، فنصرنا مرتبط بسرعة أقدامنا، فكما تشاهدون، فإن الأعداء بدؤوا في الاستعداد." لقد امتثلوا لأمره بل و أكثر من ذلك، لدرجة أنه عند ما أنهى بالكاد الكلمة الأولى، كانوا قد أصبحوا وسط البيظان و هم يصرخون "سانتياغو" و "البرتغال"، و في وقت وجيز اجتاحوا القرية، فعند الهجوم الأول أسروا عشرين من هؤلاء الناس من رجال و أطفال و نساء.
أعتقد أن أغلب هؤلاء كانوا من الذين لم يستطيعوا الفرار، ذلك أنه من بين الاثني عشر من المسيحيين، فإن أربعة منهم انفصلوا عن باقي المجموعة و هرولوا لملاحقة من كانوا يفرون، مع ذلك فإن ثمرة مجهودهم كانت ضئيلة، ذلك أنهم لم يستطيعوا أخذ أي منهم، و في النهاية بدأت قواهم تخور فعادوا. فبينما كانوا عائدين إلى سفنهم تغمرهم الفرحة بنصرهم، التقوا بآخرين كانوا قادمين لمساعدتهم، و هناك اتحدوا في حبور يكاد يكون متساويا، ذلك أن كل طرف من جانبه كان مسرورا بالانتصار الذي حققه، و فوق هذا كله فإن ذلك تم دون أي خسائر.
هكذا عادوا إلى سفنهم حيث أخذوا قسطا من الراحة بالتموين الذي عندهم، إذ كان يعرب كل منهم للآخر عن مدى استعداده، تماما كما يتم في الأماكن التي تجري فيها عادة هذا النوع من اللقاءات، إذ

يقول المثل: "يرضى الفقير بالقليل." لم يسمح غوميز بيريز لنفسه مطلقا بالاستراحة بمناسبة هذا النصر و إرضاء نفسه بما قد اكتسبه بالفعل، بل إنه و عند ما كان الآخرون يناقشون، أخذ على انفراد أحد هؤلاء البيظان و سأله إن كان يعلم بأي مكان مأهول قريب من هناك. أجابه بأنه لا يعلم إلا واحدا، بيد أنه على بعد ستة فراسخ و أنه يضم ما لا يقل عن مائة شخص، عندها قال غوميز بيريز: "حتى و لو كان هناك ثلاثمائة، فإن علينا أن نذهب إليهم ما دمنا قد دخلنا في الأمر." هكذا فقد أمر بالإبحار فورا و وجه السفن إلى المكان الذي دله البيظاني على أن القرية توجد فيه.

عند ما أدرك أنه على بعد أربعة فراسخ من المكان الذي غادره، وضع قاربا على الشاطئ وحمل فيه سبعة عشر رجلا من أفضل مجموعته و أكثرهم شجاعة، كما ترك ثلاثة لحراسة السفن، ثم إنه وضع البيظاني في المقدمة كدليل. فبالنظر إلى أنهم كانوا يسيرون على ما يبدو ليلا، و بما أن البيظاني لم يكن يعرف بدقة موقع المكان، بل يمكنه تخمينه فقط، فقد كادوا يتجاوزونه لولا نباح كلب اكتشفوا عن طريقه المكان التي يوجد به البيظان، عندها عادوا إليهم.

بيد أنهم عند ما وصلوا إلى القرية، كان ضوء الصبح قد بدأ يظهر، حيث إن جزءا من البيظان كانوا قد ذهبوا بعيدا. رغم ذلك، فبصيحاتهم المعهودة، هاجموا المكان، و رغم أن البيظان دافعوا عن أنفسهم، فقد أسروا واحدا و ثلاثين منهم؛ فأعتقد أنه بسبب ذهاب غالبيتهم، فكان من بقوا من الشيوخ و النساء و الأطفال. و فورا سألوا عن مكان وجود الآخرين الذين غادروا من هنا، فأجابوهم: "يوجدون على مسافة ثلاثة فراسخ من هنا باتجاه شاطئ البحر،" فقال غوميز بيريز: "هدفي إذا هو أن نذهب لنهاجم هؤلاء، فما دمنا قد بذلنا هذا الجهد فإننا سنرتكب خطأ إن لم نكمله، لذا فإن عليكم أن تتناولوا شيئا إن كان عندكم ما تطعمون به

أنفسكم، و لنأخذ أحد هؤلاء الرجال ليدلنا على مكان وجود هؤلاء البيظان."
و الحقيقة أن البعض منهم كان يرغب في الاستراحة هناك لو لا أن مبررات القائد و الآخرين الذين وافقوا على خطته قد منعتهم من ذلك. فقد قال غوميز بيريز لجوآو فرنانديز(الملاّك الذي حدثتكم أنه أمضى سبعة أشهر في تلك البلاد): "خذ اثنين من هذه المجموعة و سق هؤلاء البيظان إلى السفن، أما نحن فسنذهب للبحث عن الآخرين الذين غادروا قبل وصولنا هذا الصباح."

الفصل 91
بخصوص ما حدث لجوآو فرنانديز عند ما كان يسوق البيظان

عند ما كان جوآو فرنانديز يسير و سجناؤه أمامه، لم يكن متأكدا من أنه لن يلتقي ببعض أعدائه الذين قد يجعلونه يخسر غنيمته؛ فبينما كان ينظر في كل الاتجاهات، حيث كان الميدان مستويا، إذ رأى عن بعد خمسة أشخاص قادمين باتجاهه. لقد فرح لمشاهدتهم، لأنه تصور أنهم قادمون مباشرة نحوهم؛ بيد أنه بدأ يفكر بهذا الخصوص، فخاطب الآخرين قائلا: "يمكنكم مشاهدة أولئك البيظان هناك و القادمين مباشرة يريدوننا.
أعتقد أنهم خمسة في حين أننا ثلاثة، فعلى أحدنا أن يقوم بحراسة الأسرى، فتلك مهمتك (مخاطبا جوآو برتولوميو)، فابق معهم في المؤخرة، أما لاورنسايانيس و أنا فإننا سنتحرك باتجاه القادمين و سنعترضهم مباشرة. ذلك أننا كلما قاتلنا بعيدا عن هؤلاء الأسرى، كلما كان ذلك في صالحنا، إذ من الممكن أن يختلطوا بمن هم في قبضتنا فتكون تلك فرصة لبعض هؤلاء الأخيرين للفرار."
عندها واصلوا طريقهم مباشرة إلى القادمين إليهم، معتقدين أنهم بيظانا مقاتلين، بيد أنهم وجدوا عكس ذلك تماما، ذلك أن الخمسة كن نساء فأخذوهن بغبطة باعتبار ذلك زيادة لرأس مالهم دون أي مشقة، ثم ساقوهن مع الآخرين إلى سفنهم.

الفصل 92
كيف أسر غومز بيريز و الآخرون الذين كانوا معه البيظان الآخرين

هكذا فقد واصل غوميز بيريز رحلته، بحسب ما قال للآخرين بعد وصولهم إلى القرية، كما مر بكم من قبل. فبعد أن كان قد قطع مسافة لا بأس بها من المكان الذي حصلوا منه على غنيمتهم، شاهد رجلا من البيظان يتجه نحوهم على ظهر حمار، فيبدو أنه غادر المكان الذي يوجد فيه البيظان الآخرون الذين بقوا. بيد أنه فور مشاهدة البيظاني لرجالنا قفز من على ظهر حماره و بدأ يهرول عائدا إلى حيث ترك زملاءه. فبما أن الميدان كان مستويا و البيظاني كان حيويا فقد تمكن من مشاهدة رجالنا قادمين بعيدا منه، فبسبب كل ذلك لم يستطع المسيحيون مطاردته، لإرهاقهم و قلة نومهم منذ يومين. بيد أنهم واصلوا رصده بقدر استطاعتهم، و في النهاية فقدوا رؤيته، مع ذلك تمكنوا من سلك طريق مباشر إلى أن وصلوا إلى أكواخ قرية، حيث يبدو أن بيظانا آخرين كانوا موجودين بها، فلم يجدوا فيها أحدا، كان ذلك حوالي وقت القداس الصباحي[199].

فبينما كانوا يدققون النظر في بر البيظان إلى أبعد مدى يمكنهم مشاهدته، إذ أبصروا البيظان الذي سبق لهم أن انطلقوا من هناك. فرغم أنهم كانوا مرهقين، فقد لاحقوهم لمسافة فرسخ و نصف، فعثروا عليهم من جهة البحر حيث دخلوا في صخور عظيمة[200]، فكابد رجالنا للعثور عليهم، فرغم أنهم كانوا كثيرين، غير أنه بسبب

---

[199] حوالي الساعة التاسعة صباحا.

[200] هي في الواقع الجبال السبعة التي لجأ إليها العرب و التي تظهر في خريطة العالم لفرا مورو / Mappamundi de Fra Mauro سنة 1460 و التي تم نسخها من قبل مارتين دي بهايم دي نورمبورغ / Martin de Behaim de Nuremberg. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، ص.434.

صعوبة الميدان، لم يستطيعوا أسر سوى سبعة منهم. هكذا فقد واصلوا في هذا المجهود كل ذلك اليوم و حتى حلول الليل، فعلاوة على إرهاقهم فقد كانوا يعانون من العطش و الجوع الشديدين، دون أن يكون بالإمكان إيجاد أي حل لذلك. فبعد أن بحثوا في كافة الأماكن التي من المفترض أن تكون مظنة لاختفاء أي منهم، فقد اتفقوا على العودة.

و الحقيقة أن بعضهم قال بأنه قد يكون من الأفضل بالنسبة لبعضهم البقاء هناك أثناء الليل ليروا إن كان البيظان المختبئين هناك سيخرجون، بيد أنه لم يكن أي منهم مستعدا للبقاء، فقد كانت أجسامهم منهكة، بل قرروا كلهم بالأحرى العودة إلى سفنهم. فيبدو أن الرب قد أشفق على وهنهم، ذلك أنه شاء أن يعثروا على جملين و عليهما رَحْلان جاهزان، لقد كانت تلك مساعدة كبيرة أسهمت في راحتهم حيث ركبوا عليهما بالتناوب إلى أن وصلوا إلى سفنهم، فهناك وجدوا أن غنيمتهم وصلت إلى تسعة و سبعين شخصا.

في اليوم الموالي اتفقوا على أنه ما دامت سفنهم لا تستطيع أن تسع هذا الكم الكبير من البيظان بسبب الملح الذي كانوا يحملونه من هذه المملكة، حيث كان ذلك بهدف تمليح جلود عجول البحر في حال عدم عثورهم على غنيمة، أو ربما للدخول في دفع فديات مع البيظان، لذا كان عليهم أن يرموا جميع الملح في البحر، و هو ما قاموا به فعلا. ثم إنهم فكروا أيضا في الانطلاق و المرور عبر ذلك الشاطئ، وبسبب العاصفة التي تعرضوا لها فقد قرروا سد منافذ سفنهم حتى تستطيع مواجهة تقلبات البحر بشكل جيد أثناء عودتهم.

عند ما أكملت سفنهم إصلاحها، أخذ غوميز بيريز أحد البيظان جانبا لمعرفة أين يمكنهم أن يعثروا على أي من البيظان يستطيع أسره، فرغم أن البيظاني أخبره بمكان وجود بعض القرى و ذهبوا إليها، موجهين مسارهم نحو الجنوب، فإنهم لم يجدوا أيا من رجال أو نساء البيظان، و لا أي كائن آخر، فاتجهوا إلى بعض الأماكن التي اعتقد

البيظاني أنهم قد يعثروا عليهم فيها، فلو واصلوا مسافة أبعد للبحث عنهم لكان ذلك مجهودا ضائعا، لذا فقد قرروا العودة إلى المملكة، ذلك أنهم أدركوا أن مؤنهم بدأت تنفد، و بالأخص الماء، حيث لا يمكنهم الحصول على تموينات من الماء الشروب في تلك البلاد. هكذا واصلوا رحلتهم إلى أن عادوا إلى لاغوس، حيث كان الأمير يقيم على حدودها في مكان يدعى مكسلهويرا.

الفصل 93
بخصوص السفينة التي ذهبت إلى مسا و المسلمين الذين تم العثور عليهم هناك

في السنة الموالية و التي كانت سنة 1447 من ميلاد عيسى المسيح، اعتزم الأمير اختبار إمكانية تحقيق الاتجار عبر المكان الذي يدعى مسا[201]، بالنظر إلى أن البيظان لم يدخلوا في التجارة في وادي الذهب، مع أنهم فكروا في القيام بها سابقا، بيد أنه قد ينقصهم الاستعداد لذلك بسبب البيظان الذين تم سبيهم من قبل غوميز بيريز، كما سبق أن رأيتم. فمن أجل أن يحصل أيضا على معرفة جيدة بتلك البلاد، أمرهم فورا بتجهيز سفينة تعود إلى أحد ملاّكه، يدعى ديغو جيل و هو رجل قد خدمه في حروبه ضد المسلمين برا و بحرا.

بعد أن تلقى الأوامر بتلك الأمور، علم أن بحوزة أحد التجار القشتاليين، و يدعى ماركوس سيسفونتيس، ستة و عشرين من المسلمين من ذلك المكان سبق و أن تم الاتفاق على افتدائهم على أساس مقايضتهم بعدد من الغينيين. فلكي تتوفر سفينته على حمولة في رحلة ذهابها فقد سأل التاجر المذكور إن كان يقبل بأن ينقل مسلميه إلى ذلك المكان في سفينته التي جهزها، شريطة أن يمنحه بعض ما سيحصل عليه من الفدية المذكورة.

و الحقيقة أنه ليس بسبب ما يؤمل من الحصول على مكسب من هؤلاء الرجال أن الأمير كان مسرورا بالقيام بذلك، و ذلك لسببين، الأول أنه سيجد الفرصة لدراسة البلاد و معرفة الطريقة التي يمكنهم بها الدخول في التبادل التجاري، أما السبب الثاني فهو إمكانية جلب أولئك الغينيين من هناك لأنه يعتقد أنهم سيعتنقون

---

[201] مدينة في إقليم السوس بالمغرب بحسب حسن الوزان / Léon l'Africain . انظر نفس المرجع السابق، ص. 436 .

الدين المسيحي. لقد اغتبط التاجر كثيرا بالشروط التي عرضها عليه الأمير. فهكذا أصبحت جاهزة للانطلاق و على متنها حمولتها، فتوجهت مباشرة إلى مسا، حيث تفاوضوا كثيرا بخصوص التبادل التجاري، بيد أنه لم يتم التوصل لأي نتيجة. لذلك فإن جوآو فرنانديز، و هو الملاّك الذي مكث سبعة أشهر مع بيظان الصحراء، كما سبق أن رأيتم، تحدث مع ديغو جيل و رودريغ إيانيس، و هو ملاّك آخر كان الأمير قد أرسله إلى هناك للقيام بالتجارة و كذلك مع تاجر قشتالي كان هناك للحصول على فدية المسلمين، فقال: "إن شئتم، سأذهب إلى البر و سأرتب هذه الفدية." فبعد أن حصل على الأمان، ذهب إليهم و تفاوض معهم حيث حصل على واحد و خمسين من الغينيين تم نقلهم إلى السفينة، مقابل تقديم ثمانية عشر من المسلمين، فحدث أن هبت رياح جنوبية عاتية أرغمته على الإبحار و العودة باتجاه المملكة. ثم إنه تم جلب أسد إلى الأمير من هناك حيث أرسله فيما بعد إلى مكان بإيرلندا يدعى غالوي إلى أحد من خدموه يقيم في تلك البلاد، ذلك أنه كان يعرف أن مثل هذا الحيوان لم يوجد قط في تلك الناحية.

فهكذا مكث جوآو فرنانديز إلى أن عادت سفينة أخرى من أجله. ففي نفس هذه السنة عاد أنتاو غونسالفيز إلى وادي الذهب ليرى إن كان بإمكانه أن يقنع البيظان بالقدوم للاتجار معهم، غير أنه تبين أن سفره إلى هناك كان خطيرا، ذلك أنه حينما كان يضع مراسيه في أعلى النهر، نزل البيظان فورا نحو الشاطئ، فمن بينهم رجل كان يتضح أنه هو قائدهم، فمنه حصل أنتاو غونسالفيز على الأمان، إلا أنه حذره من أن عليه أن لا يثق في الآخرين إلا إذا كان هو نفسه حاضرا. لقد تأكد ذلك، حيث إنه عند ما كان ذلك البيظاني بعيدا من هناك، لأن البيظان أظهروا مؤشرات على ثقتهم بالمسيحيين، أراد أنتاو غونسالفيز الذهاب إلى البر، معتقدا علاوة على ذلك أن البيظاني الذي أعطاه الأمان قد يكون هناك. فعند ما

اقترب من الشاطئ و لم يجد القبطان و لا قائد العدو فإنه لم ينزل على اليابسة. فنظرا لأنه لم يكن يستطيع الحديث معهم بشكل جيد، لبعد المسافة، فقد سحب قاربه بالقرب من الشاطئ؛ فهناك أظهر الأعداء مكرهم الدفين في نفوسهم، فرموا رماحهم كأناس يريدون إظهار عداوتهم القاتلة إزاء رجالنا.

فلو لا جرأة أنتاو غونسالفيز للقي حتفه هو و بقية الجموعة التي معه. فلأن الأمر كان كذلك، فقد أبعد القارب بجدفه بقوة، مع أن ذلك لم يتم إلا بفضل مجهود كبير، بسبب العدد الهائل من السهام التي انهالت عليهم. بيد أن الرب أنعم عليهم بأن فروا من ذلك المكان و تركوا خلفهم بعض البيظان و قد أصيبوا بجروح؛ أما من المسيحيين فقد جرح أحدهم، حيث فارق الحياة بعد أيام عند ما كانت السفينة في عرض البحر.

في هذه السنة أيضا تم إرسال سفينة لأحد خدام الأمير، يدعى جورج غونسالفيز حيث سافر فيها غونسالفيز المذكور و شخص آخر، فعادا من وادي الذهب بالكثير من الزيت و كمية كبيرة من جلود قطط البحر. لقد انتهت أمور هذه السنة في هذا الفصل، ذلك أننا لم نعثر على أحداث هامة تستحق الذكر.

الفصل 94
كيف ذهب فالارته إلى أرض غينيا و ملابسات بقائه هناك

لقد انتشر خبر هذا الأمر في مختلف أرجاء العالم، فوصل إلى بلاط ملك الدنمارك و السويد و النرويج، فكما رأيتم أن الرجال النبلاء قد خاطروا بأنفسهم بغية مشاهدة و معرفة مثل هذه الأمور، فقد حدث أن أحد النبلاء من بلاط ذلك الأمير و الذي كان متعطشا لرؤية العالم قد حصل على ترخيص و جاء إلى هذه المملكة. فبعد أن مكث في منزل الأمير هنريك، جاءه يوما و سأله إن كان سيمنحه موافقته على تجهيز سفينة له بحيث يستطيع الذهاب إلى أرض الزنوج.

فبما أن الأمير كان مستعدا لفعل أي شيء من شأنه تمكين رجل نبيل من اكتساب مكانة أو الرفع منها، فقد أمر بتجهيز سفينة بأحسن طريقة ممكنة و أمره بالذهاب إلى الرأس الأخضر و محاولة الحصول على الأمان من ملك تلك البلاد، ذلك أنه قد علم أن هذا الرجل كان سيدا عظيما، كما حمل رسائل من الأمير إليه مع إبلاغه أيضا ببعض الأمور من جانبه شخصيا من أجل خدمة الرب و الدين المسيحي. و السبب في ذلك كله أنهم أكدوا له أن الملك المذكور كان مسيحيا، فخلاصة الجميع هي أنه إن كان يعتنق الدين المسيحي بصدق فإنه قد يكون مستعدا للمساهمة في محاربة المسلمين في إفريقيا، و هو الهدف الذي كان الملك السيد أفونسو يبذل قصارى جهده لتحقيقه عند ما كان يحكم إذ ذاك البرتغال و معه الأمير باسمه، مع غيرهم من الأعوان و الرعايا. تم إعداد الأمور بشكل سريع، ثم إن الملاك الذي يدعى فالرته أبحر في هذه السفينة و معه فارس من نظام المسيح يدعى فرناندأفونسو، و الذي كان في خدمة الأمير و نشأ في كنفه و قد بعثه في تلك السفينة، لأن فالرته أجنبي و لا يعرف كثيرا عن تقاليد و طرق مفرزة السفينة.

فقد ورد في الأمر أن عليه قيادة البحارة و الشؤون الأخرى التي تتعلق بإدارة هذه السفينة، كما أن عليه أن يقوم بدور السفير في حال تم استقبالهم من قبل ذلك الملك، لذلك أخذ اثنين من سكان تلك البلاد كمترجمين، بيد أن قيادة السفينة تعود إلى فالرته. فبعد القيام بمجهودات جبارة في البحر، قاموا برحلة استغرقت ستة أشهر بعد اليوم الذي غادروا فيه لشبونه، فوصلوا إلى جزيرة بالما الواقعة في أرض الزنوج بالقرب من الرأس الأخضر. فهناك عقدوا اجتماعا بخصوص الطريقة التي عليهم التصرف بها من الآن فصاعدا، طبقا للتعليمات التي تلقوها من الأمير، بعد ذلك واصلوا رحلتهم قدما لأنهم لم يصلوا بعد المرفأ الذي عليهم الاستقرار فيه.
فعند ما كانوا في أقصى طرف الرأس، في مكان يطلق عليه السكان المحليون اسم أبرام، أخرجوا قاربهم و ذهبوا إلى الشاطئ، حيث إن فالرته ذهب معهم مع آخرين، فوجدوا العديد من الزنوج قد حضروا هناك. طلب فالرته منهم أن يسلموه أحدا من أناسهم و أن يسلمهم هو أحدا من مجموعته، حتى يتحقق الأمن بينهم و كي يتمكنوا من إجراء مفاوضات؛ بيد أنهم ردوا عليه بأن أمرا كهذا لا يمكنهم فعله إلا بترخيص من فارس يعيش هناك بوصفه حاكم تلك البلاد و اسمه غيتانيه. ثم إن هذا الأخير و عند ما علم بهذا الطلب قدم و كان مسرورا بمنح فالرته ما طلب.
ففور وصول أحد هؤلاء الزنوج إلى السفينة، شرع فرناندأفونسو، الذي كان يعرف البرتغالية جيدا، في الحديث معه، قائلا ما يلي: " إن السبب الذي جعلنا نطلب أحدكم للقدوم إلى هذه السفينة هو أنه عليكم أن تقولوا لسيدكم، باسمنا، كيف أننا رعايا أمير إسبانيا القوي و العظيم و الذي يوجد في أقصى الغرب، فبأمر منه جئنا إلى هنا للتفاوض باسمه مع ملك هذه البلاد العظيم و الخيّر." ثم إنهم جعلوه يقرأ إحدى الرسائل التي كانوا يحملونها و التي فسرت له من قبل أحد المترجمين، حيث كان عليه أن يحملها إلى ذلك الملك الذي

أرسله هناك. ثم قال: " إذا كان هدفكم الرئيسي هو مقابلة البور، ملكنا العظيم، فإنه لا يمكنكم في الوقت الراهن التواصل معه، ذلك أنه بالتأكيد بعيد من هنا و مشغول بحرب سيد آخر رفض الانصياع له." فقال فرناندأفونسو "فإن هو لا يزال في بيته، فكم من الأيام يمكنهم الذهاب إليه برسالتنا و العودة بجواب؟" رد الغيني: "قد يكون أقصى أجل من سبعة إلى ستة أيام." رد فرناندأفونسو: " إذا سيكون من المهم بالنسبة لكم أن تقولوا لهذا الفارس الذي تعيشون معه أن يرسل رجلا هناك برسالة، و تبلغوه بكل ما قلت لكم سلفا، فإن تصرف سيدكم بحكمة بعد ذلك، فقد يكون أسدى خدمة جليلة لملكه و سيجلب منفعة أهم لبلده." ثم إن الغيني قال: " سأحدث غيتانيه بكل صدق عن كل ذلك."

بعد ذلك قدموا له بعض المؤن فأكل منها و شرب، ثم قدموا له إحدى الرسائل التي يحملونها و ذلك ليسلمها لسيده و يقول له بأنها تحوى ما قد ذكروا له، فعليه أن يحملها كدليل على الصداقة. بيد أنه بعد أن وصل الغيني إلى البر، حيث يوجد الفارس الذي بعثه، كان آخر يشبهه موجودا هناك يدعى سَتَّامْ و آخر يدعى مِينَفْ قد وصلا هناك قبل فترة قليلة. لقد كان هذا الأخير بذيئا إلى أقصى حد، فقد ذكر من كانوا حاضرين هناك أنه كريه بدرجة لا يمكن وصفها، ثم إن مظهره لم يكن يعكس مكانته، ذلك أنه ظهر هناك في ثياب رثة، مع أنه يتمتع بسلطة أهم من بعض الآخرين.

فبينما كان الغيني يتحدث للفارس عن الرسالة التي يحمل، كان القارب قريبا من الشاطئ ينتظر الرد، ذلك أنه من الصعب الوصول إليه نظرا لتجمهر الغينيين حول الرجل الذي قدم من السفينة و ذلك بغية معرفة ما قال، مع الرغبة أيضا في مشاهدة الرسالة التي يحمل، لدرجة أن الفرسان وجدوا صعوبة في التنقل من هناك لبعض الوقت. في النهاية لم يستطيعوا الحصول على جواب طيلة ذلك اليوم، فالفارس ذهب بعيدا في البحر للتحدث مع

أولئك في القارب، ذلك أن حشود الغينيين لم تكن تسمح له بأن يكمل، فهكذا تم تعليق كل شيء حتى اليوم الموالي، حيث ذهب الزورق باكرا إلى الشاطئ.
غير أن الفارس كان قد تواجد هناك في مركب كان يريد أن يتنقل بواسطته إلى السفينة، بيد أنه عند ما شاهد قدوم القارب عاد إلى الشاطئ. لقد كان يحمل معزاة و جديا و عجينة و طحينا مغليا في الدسم و خبزا مع جريش، و سنابل من الحنطة، و ناب فيل و بعض الحبوب التي أعد منها الخبز و لبنا و خمر تمر. ثم كان معه فارس قدم نفس الليلة يدعى أمالام، و هو ابن أحد أعمام غيتانيه و الذي بفضله تسلم تلك البلاد، فيبدو أنه كان يرغب في الحديث مع من كانوا في القارب، بيد أن الغيني لم يسمح له بذلك، قائلين له إن ذلك ليس مناسبا، لأنه هو أول من بدأ في هذا الأمر. فبسبب ذلك أشار إلى رجالنا بالعودة و أخذ تلك الأشياء ليتناولوها، فبعد الانتهاء من الأكل يمكنهم أن يعودوا، ثم إنهم في أثناء ذلك سيعقدون اجتماعهم.
فمع أن وجهات نظرهم كانت منقسمة قبل ذلك عبر نقاشهم، فقد كانوا أكثر اختلافا في المساء؛ و لأننا كنا سنسهب إن نحن سردنا كافة تفاصيل ما جرى بين كل منهما من نقاشات، فنقول باختصار إن هذا الفارس غيتانيه جاء عدة مرات إلى السفينة، متنقلا عبر مركب و معه أربعة رجال، فتفاوض مع رجالنا بخصوص التجارة و قال إنه مستعد لترتيب كل شيء، لأنه عند ما يمنح الملك بور أرضا لفارس، فإن هذا الأخير يمكنه التصرف بها كالملك نفسه، بحيث أن كل ما يقوم به سيعتبره الملك تصرفا مناسبا.
مع ذلك، فإن رجالنا قالوا إنهم يحملون أوامر بأن لا يفعلوا شيئا قبل أن يتحدثوا إلى ذلك الملك، فحول هذا الموضوع كانت هناك الكثير من الآراء. كانت المحصلة أنه رغم ذلك سيبعث الرسالة إلى دار الملك؛ فبينما كانوا ينتظرون الرسول الذي كان هناك، إذ جاء غيتانيه إلى السفينة بكامل الأمان و قد جاء بأفضل الأطعمة التي

كانت بحوزته، مع ناب فيل و أشياء أخرى، ثم إنه حصل على بقشيش و ثياب، إضافة إلى مواد أخرى ثمينة منحها رجالنا له، و قد أظهر غبطته بمباحثاته معهم. ثم إنهم سألوه في أحد الأيام إن كان بإمكانه أن يقتل لهم فيلا و يسلخه و ينزع أنيابه و عظامه و جزءا من لحمه، فرد الغيني بأن ذلك يمكن أن يتم دون صعوبة. فقال له فالارته "طيب، إذا وفرت لنا ذلك، فستحصل عن طريق من عاد منا نحن الاثنين إلى هنا على خيمة من قماش الكَتّان تكون خفيفة بحيث تسع لخمسة و عشرين إلى ثلاثين شخصا و يمكن حملها من طرف شخص واحد على رقبته."

ثم إن رجالنا ذهبوا عدة مرات إلى البر معه بدعوة منه، بيد أنهم لم يكونوا قريبين جدا بحيث يمكن لأحد أن يوقعوهم في الأسر. فقد حدث مرة أن كان القارب قريبا من الشاطئ، و بسبب هيجان البحر فقد لمس اليابسة فأصيب من كانوا فيه بهلع شديد، فعند ما علم الفارس بذلك، قال لهم إن عليهم التحلي بالشجاعة، ذلك أن هؤلاء جميعا رجاله، و أنهم لن يمسوهم بأي سوء. هكذا فقد أظهر ذلك الفارس الغيني في كل المواقف أنه جدير بالثقة.

بيد أن القدر، و قد ساعدته في بعض الأحيان آراء البعض الخاطئة، شاء أن تكون خاتمتهم ليست سعيدة بقدر ما كانت هذه البداية. فبينما كان الغيني يبحث عن الفيل الذي وعد به، فإن فالرته و بتهور اعتزم يوما الذهاب إلى الشاطئ، ذلك أنه يبدو أن البعض قد قدم له دعوة. و الحقيقة أنه قد قيل له مسبقا أن عليه الامتناع عن الذهاب، بيد أنه كان بحاجة إلى النزول إلى اليابسة كمن يستدعيه القدر ليشهد لحظة مصيبته الكبرى. فعند ما كان بالقرب من الشاطئ، ظهر هناك زنجي يحمل مِطَرَة بها خمر أو ماء، فادعى أنه يرغب في أن يقدم له ذلك، ثم أمر فالارته من كانوا يجدفون بسحب القارب للاقتراب منه، فمع أن البعض قد قال له إن مثل هذا الاقتراب ليس سديدا، فإنه رغم ذلك كان عليهم الانصياع لأوامره،

رغم وبال ذلك عليهم جميعا. فعند ما كان القارب على الشاطئ اقتربوا من اليابسة لأخذ المطرة المذكورة من الزنجي، لدرجة أنه لامس الأرض.

فبينما كان فالرته ينظر إلى جمع من الزنوج كانوا جالسين تحت ظل شجرة، إذ حاول أحد المترجمين المرافقين لهم، و يدعى أفونسو، أخذ المطرة فانزلق و سقط. فعند ما أحس الآخرون بذلك حاولوا إعادة القارب إلى الوراء، عندها تعرضوا لموجة قلبته بالكامل، فأسرع الزنوج و دخلوا جميعا في القارب على حين غرة و هم يرشقون برماحهم، بحيث أن كل من انطلقوا من السفينة في تلك الرحلة لم يعد منهم إليها سوى واحد كان قد رمى بنفسه في الماء و سبح. بيد أننا لم نستطع معرفة مصير الآخرين، ذلك أن الرجل الذي فر سباحة قد قال إنه شاهد مقتل أحدهم، و عند ما نظر خلفه، ثلاث مرات إلى أربع، شاهد دوما فالرته و هو جالس على مؤخرة القارب. بيد أنه في الوقت الذي كنا نكتب فيه هذا التاريخ فقد خضع لسلطة الأمير بعض العبيد الذين قدموا من تلك الناحية و ذكروا أنه في قصر في أعماق البر يوجد أربعة مسيحيين، توفي أحدهم، أما الثلاثة الباقون فلا يزالون أحياء.

هكذا يعتبر البعض أن الرجال المفقودين قد يكونوا هؤلاء، وفقا للإشارات التي قدمها الزنجي. ثم إن فرناندأفونسو، و نظرا لهذا الحادث المشؤوم، و كذلك لعدم توفره على أي قارب يمكنه من العودة إلى الشاطئ لمعرفة ما وقع للآخرين، فقد رفع مراسيه و عاد إلى المملكة[202].

---

[202] بحسب رسالة انتونيوتو اوسوس دي مارد، الذي هو نفسه أنتونيو دا نول و المؤرخة في الثاني عشر من ديسمبر 1455 و التي عثر عليها في أرشيف جنوة سنة 1802 من طرف غرابرغ / Gräberg: (*Annali di geografia e di statistica*)، ج2 ، ص.285، و فيها ذكر هذا الرحالة كيف انه التقى في تلك البلاد برجل من بلده اعتبر أنه ممن كانوا في عداد حملة فيفالدي التي انطلقت قرنا و سبعين سنة قبل ذلك و التي لم يسمع عنها أي شيء منذ انطلاقها بحسب الكتاب الإيطاليين. بعكس ذلك يرى دي شانترن أن هذا الرجل المذكور هو بالفعل أحد عناصر رحلة أفونسو و فالارته، و يبرر ذلك بأن رحلة فيفالدي قد مضى عليها زهاء قرنان من الزمن، عند ما تم العثور

الفصل 95
كيف ذهب أنتاو غونسالفيز و استلم جزيرة لانساروته باسم الأمير

لحد الآن فإن سكان لاغوس هم من حاولوا استغلال أرض البيظان، ذلك أنهم لم يكتفوا فقط بالذهاب إلى هناك و محاربة السكان، بل إن منهم أيضا من حاول الذهاب و الاصطياد في مياه ذلك الشاطئ، غير مكتفين بالصيد في مواطن أبائهم و أجدادهم. فقد سعوا إلى الحصول على ترخيص من الأمير و وعدوه بمبلغ من المال مقابل ذلك، بحيث يتركهم يذهبون بغية إقامة مصايد لهم هناك. فأعتقد أن ذلك لم يتم اعتباطا، فمن المنطقي أن بعضا ممن ذهبوا إلى هناك قد أدركوا أن البحر غني بالأسماك، مما دفعهم لتقديم مثل هذا الطلب. فلأنهم اتفقوا مع الأمير على أنهم سيدفعون له مبلغا من المال لقاء الحق الذي له هناك، فقد سيروا حملة و أبحروا إلى أن وصلوا إلى رأس يدعى رويفوس[203]. فهناك بدؤوا في تنظيم صيدهم حيث وجدوا كميات هائلة من الأسماك.

فعند ما أمضوا أياما هناك و جففوا كمية هامة من الأسماك و وضعوا كمية أخرى على أعمدة لتجفيفها، هاجمهم البيظان بحنق و إقدام، فكادوا يقتلون جميع الصيادين، إذ كانوا سيقومون بذلك بالفعل لولا سرعة انسحابهم. هكذا و في النهاية صبوا جام غضبهم على السمك الذي كان منثورا ليجفف، فطفقوا يقطعونه إربا إربا بأسلحتهم بغضب لا يقل عما كانوا سيفعلونه بأعدائهم لو أنهم

على الرجل الأوربي المذكور في غرب إفريقيا، لذا فمن غير المعقول أنه بعد هذا الزمن ستحافظ ذرية البحارة الإيطاليين على لونهم بعد اختلاطهم بالأفارقة، لذا يؤكد أن الرجل المذكور هو بالفعل احد عناصر رحلة أفونسو و فالارته المذكورة. راجع بهذا الخصوص: Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné، مرجع سابق، صفحات 449 - 450 .

[203] أو Angra dos ruivos، انظر نفس المرجع السابق، الصفحات 59 و 452.

ظفروا بهم. لقد جرح اثنان من الصيادين في ذلك الانسحاب، مع أن جراحهم لم تكن خطيرة، ذلك أنهما شفيا منها في ظرف وجيز. لقد عادوا إلى مدينتهم الأصلية، غير نادمين على تلك الرحلة، حيث جلبوا معهم كمية كافية من السمك كانوا قد جففوها و علبوها في سفينتهم تحسبا لأي طارئ، كما حدث لهم بعد ذلك. ثم إن الأمير في هذه السنة، و هو من كان يرغب في متابعة مشروعه الأول أكثر فأكثر و بالنظر إلى أنه ينوي القيام بمشاريع مستقبلية و تطويرها، فإنه يحتاج إلى إحدى جزر الكناري، لذا فقد تعاقد مع السيد ماسيو، الذي سبق أن تحدثنا عنه، و الذي كانت له السلطة على جزيرة لانساروته، كي يتنازل له عنها.

ثم إنه و قد قبل بعطية أو ريع سنوي ثابت، فقد تخلى عن الجزيرة المذكورة مع سيادتها الكاملة إلى الأمير، فعين هذا الأخير أولا و قبل كل شيء ذلك الفارس النبيل أنتاو غونسالفيزقائدا لها. لقد ذهب و تولى أمر تلك الجزيرة باسمه و بقي هناك لبعض الوقت يشجع سكانها على خدمة و طاعة مولاه بلطف و طيب، حتى شهد له الجميع بالفضل في وقت وجيز.

الفصل 96
حيث يذكر فيه الكاتب عدد السبايا الذين جلبوا إلى المملكة منذ بداية الغزو

لقد أوضحت في بداية هذا الكتاب الأسباب الخمسة التي دفعت أميرنا ذا الروح النبيلة لإرسال السفن مرارا للقيام بهذا الغزو، و لأني أعتقد أني قد قدمت شرحا شاملا للأربعة الأولى في الفصول التي تحدثت فيها بخصوص مختلف النواحي التي يمكن أن تقسم تلك الأراضي الشرقية إليها، فبقي لي أن أتحدث عن السبب الخامس و أن أحدد عدد الأشخاص غير المؤمنين بالمسيحية الذين جاؤوا من تلك البلاد إلى هذه، بفضل و عبقرية أميرنا المجيد.

لقد أحصيت هؤلاء الأشخاص فوجدت عددهم تسعمائة و سبعة و عشرين، حيث إن غالبيتهم قد اهتدوا إلى طريق الخلاص، كما سبق و أن ذكرت. فانظر الآن كيف أن أعداد الجيل الذي سينحدر من هؤلاء ستكون كبيرة، فهل إن السيطرة على مدينة أو حاضرة ستكون أكثر أهمية مما قد تطرقت إليه لحد الآن؟ فعند ما نضع جانبا هؤلاء الأوائل و أولئك الذين سينحدرون معهم و ما قد يكون لهم من نسل و حتى نهاية العالم، فإن أعدادا أخرى ستأتي بعد ذلك، في الكتاب القادم الذي يمكنكم أن تطالعوه. لذا فإنه من الضروري أن ننهي الإنجازات التي تمت و إلى غاية سنة 1448 من ميلاد المسيح؛ ذلك أنه ابتداء من هذا التاريخ أصبح الملك السيد أفونسو البرتغال، الخامس من حيث الاسم و الثاني عشر من حيث عدد الملوك، يحكم بشكل كامل مملكته لبلوغه سبع عشرة سنة، ثم إنه تزوج من الأميرة الفاضلة و المشهورة، الملكة دونا إيزابيل التي هي ابنة الأمير السيد بدرو، دوق كويمبرا و سيد مونتمور، و هو نفسه الذي حكم المملكة خلال السنوات المنصرمة، باسم الملك،

كما بينا في بعض أجزاء هذا التاريخ، و كما ستجدون تفاصيل أكثر بخصوص ذلك في التاريخ العام للمملكة.
هكذا و بالنظر إلى أن كافة الأمور الأخرى ستصبح جديدة مع الحاكم الجديد، فيبدو لي من المناسب أن كل الكتب الخاصة بتلك المآثر و التواريخ يجب أن تبدأ من هنا. و علاوة على ذلك، يبدو لي أن حجم الجزء الذي كتبنا أصبح كافيا، لذا وضعنا خاتمة له، كما سبق و أن قلنا، بغية إعداد كتاب آخر سيشمل نهاية أعمال الأمير، مع أن الأمور التي ستأتي لم يتم إنجازها بالمجهود و الشجاعة التي حدثت بها في الماضي، ذلك أنه ابتداء من هذن السنة، فإن الشؤون في تلك النواحي سيتم التعامل معها بمنطق الاتجار و مساومة البضائع بدل منطق الشجاعة و قوة السلاح[204].

---

[204] [لم يستطع باروس Barros مواصلة الإرادة التي عبر عنها نص أزورارا (Dec. I، الكتاب الأول، الفصل 1 ، ص.32). لقد أقر هذا المؤرخ العظيم بأن كل ما رواه بخصوص مواصلة هذه الكشوفات قد استقاه من مذكرة عثر عليها في توريه [دو تومبو] و من خزينة كتب الملك أفونسو الخامس. فكدليل على أنه من المؤسف حقا أن أزورارا لم يكمل هذا التاريخ، على الأقل حتى وفاة الأمير و يضمنه الكشوفات التي تمت من 1448 و حتى 1460، يكفي القول بأنه ابتداء من هذه السنة فقد اتسمت كافة التواريخ و الأحداث المتعلقة بهذه المواصلة بالغموض، سواء منها ما يتعلق بباروس أو بغونيس Goes [في كتابه]:
(Chronica do principe D. João)، الفصل الثامن المخصص لتلك الكشوفات.
[لقد اقتصر باروس على ذكر الترخيص الذي منحه الملك السيد هنريك سنة 1449 لتعمير جزر الأزور السبع. فقفز من تلك السنة إلى سنة 1457 و التي تحدث فيها فقط عن منحة الملك للأمير السيد فرناندو، و ذكر فقط أنه في سنة 1460 جاء إلى المملكة أنتوني ودي نولي، و هو نبيل من مدينة جنوة " و ذلك بسبب اضطرابات في بلده الأصلي " رفقة برتولميو دي نولي و هو أخوه و كذا رفائيل دي نولي، ابن أخته، و حصل على ترخيص من الأمير للذهاب و اكتشاف جزر الرأس الأخضر، و أن بعض خدم الأمير السيد فرناندو ذهبوا في نفس الرحلة الاستكشافية و في نفس الوقت بأمر من الأمير هنريك.
هكذا فإنه [أي باروس] يتركنا في جهل بخصوص التقدم المنتظم لكشوفاتنا في الساحل الإفريقي الغربي ابتداء من سنة 1448، و هي السنة التي أنهى فيها أزورارا تاريخه، و إلى غاية سنة 1460 التي توفي فيها الأمير. تركنا أيضا داميأو دي غونيس Damião de Goes، و الذي يدعي أنه يروي بشكل أدق و أشمل هذه الأحداث، في نفس الغموض في الفصل الثامن من كتابه *Chronica do principe D. João*، حيث يتناول فيه كشوفات الأمير هنريك. ثم إنه علاوة على ذلك ارتكب خطأ جسيما بخصوص الجزء الذي تم اكتشافه من الشاطئ إلى غاية 1458 (انظر الفصل 16 ، ص ص.39 و 40 من الكتاب المذكور)، و هو خطأ مناف لما قاله أزورارا في الفصل 78 من التاريخ الحالي.] دي شانترن، انظر بهذا الخصوص المرجع السابق، ص. ص.456 - 457 .

الفصل 97
و فيه يضع المؤلف خاتمة نهائية لعمله

إن أي عمل، كي يكون مكتملا، يجب أن يخضع لقاعدة التركيب الثلاثي، أي يجب أن تكون له بداية و هيكل و خاتمة. فمن أجل فهم ذلك بشكل جيد، قد يكون من المفيد معرفة أن هناك تركيبا ثلاثيا للحقيقة العامة الشاملة للعالم.
فأوله نسميه "الامتياز الأسمى"، فلا يمكننا أن نجد تسمية قطعية للدلالة على كماله بالنسبة لنا، ذلك أنه غير معلوم حسيا، فالطبائع العامة لا يمكنها إدراكه. بيد أن إيماننا منقادا، مع تواضع شديد و أكثر حيوية بفضل نعمة الرب، يضع فيه قوة راسخة. هكذا فإن الفيلسوف و اللاهوتي ألبرت الأكبر، في الفصل الأول من كتاب *التراتبية الروحية*[205] قدم ثلاثة مستويات للإدراك يمكن عن طريقها معرفة الرب.
فقد قارن المستوى الأول بالطيور التي تطير ليلا، كالخفاشات و الأبوام[206] و ما شاكلها و التي لا تتحمل رؤيتها بأي حال من الأحوال ضوء الشمس؛ ثم إن أمير الفلاسفة قد أكد ذلك في كتابه *ما وراء الطبيعة*، قائلا إن إدراكنا هو بمثابة (مقارنة مع الأشياء التي في جوهرها بديهية، حسب انتظام الطبيعة) عين البومة أو الخفاش، بالمقارنة مع ضوء الشمس. يتوفر على مثل هذه الرؤية من شغلوا أنفسهم بأهواء الحياة الدنيا، حيث وضعوا كل اهتمامهم بما يتلقونه من الصور المحسوسة، فذلك ما يعيق إدراكهم، و هذا هو السبب في أنهم لا يعرفون شيئا عن الوجود الإلهي. أما المستوى الثاني فإنه يقارن بين الطيور الأخرى التي لها إحساس قوي و تتحمل حرارة الشمس، بيد أنها إن نظرت إلى توهجها فإن

---

[205] *Celestial Hierarchy.*
[206] جمع بوم و بومة.

أبصارها ترتعد بقوة، فعلى هذا المنوال يتصرف البعض، حيث إنهم بتخلصهم من الأشياء الخارجية و استبدالهم التأمل بالإدراك، مع الانتقال بتفكيرهم بعيدا عن المادية، فإنهم يشاهدون الألوهية عن بعد و بارتعاش. بيد أنهم برغبتهم في الفهم عبر التفكير البشري، فقد كان ذلك مدعاة لفشلهم المتكرر و سقوطهم في الخطأ، تماما كما سقط بعض الفلاسفة الذين لم يستنيروا بنور الإيمان. أما الرؤية الثالثة فيمتلكها العقبان المتصفون بالجمال و الذين يمكنهم رصد الفلك المتوهج لهذا الكوكب، فعبر هؤلاء يمكننا إدراك أولئك الذين يقرؤون في كتاب الحياة يعرفون كافة الأشياء بحسب مدى إدراكهم دون تحر آخر.

فمن يرغبون في الحصول على قوة كاملة بمعرفة الرب ينصاعون للكتاب المقدس، كما أنهم يجدون العزاء بما أدركوا و يعبدون بتواضع و خشوع عظيم من لا يستطيعون الوصول إليه لتساميه، كما يقرون مع الحبر القديس توماس في المادة التاسعة من مسألته العاشرة من كتابه الموسوم *حول قوة الرب*[207]، أن في الرب توجد دائرة فعلية مغلقة تتضمن تركيبا ثلاثيا كاملا، فلأنه يعرف ذاته يتحدث و يُحْدِث كلاما سرمديا، حيث تُرى فيه ذاته و كافة الأشياء. فمن الأب و الابن يتأتى روح عطوف يجل جوهر الألوهية التي هي مصدر كل شيء.

هكذا كانت بداية الإدراك و هناك منتهى إرادة الحب. فلدينا مثال بذلك في أنفسنا، ذلك أنه إن نحن تمعنا فيما ندرك، فإن معرفة ما تتولد في روحنا، و من ثم فإن الإدراك يُقدِّم للإرادة التي يمكنها أن تأخذ بكل حرية ما يروق لها أكثر؛ فبما أنها مهيأة لتقبل كل ما هو محبب، فهي تنزع بعطف إلى ما يشكل الباعث الأول للإدراك.

فعلى هذا النحو تنتهي الدائرة التي هي روحانية علوية و غير متناهية التسامي، و لا يمكنها أن تتجاوز نطاق التركيب الثلاثي

---

[207] *De Potentia Dei* .

الذي يرسم حدودها. أما الثلاثي الدائري الثاني فهو ثلاثي الطبيعة الذي يشمل كافة المخلوقات، و يمكن تصوره على هذا النحو: لنأخذ ينبوعا لا ينضب بحيث يشكل منبع نهر، فبتتبع مجراه انطلاقا من القوة التي يستمدها من منشئه، فإنه يعود إلى ذلك الينبوع في النهاية و الذي منه نشأ أصلا. هكذا فإن كافة الأشياء لها بداياتها في المولى الرب، العلة العامة والمتواصلة للحياة التي تستمدها منه، ثم إن خاتمتها النهائية تتم فيما بدأت منه.
فعبر هذا التركيب الثلاثي (الموجود فيها من البداية و الوسط و الخاتمة النهائية)،كما قال الفيلسوف في الكتاب الذي ألفه و الذي تناول فيه الفردوس و العالم، فإن التركيب الثلاثي رقم في كل شيء و يشمل البداية و الوسط و النهاية، كما أنه لا يستثنى منه كائن. فبحسب ذلك تم منذ القدم إثبات أن الرب يحمد على أساس تركيب ثلاثي.
أما الدائرة الثلاثية التي نسميها الدائرة الأخلاقية، فإنها تنتمي إلى الأعمال التي نقوم بها نحن و التي تبدأ من الاعتقاد بأن المولى الرب أراد منحها لنا، ذلك أنه هو من يفعلها بشكل رئيسي، أما نحن فأدوات وسيطة يستخدمها هو وفق مشيئته، تعمل ما يريد و تنجز ما يشاء؛ فتأكيدا لذلك، ورد في إنجيل القديس لوقا أننا حين نقوم بكل ما أمرنا به، فعلينا أن نعترف بأننا عباد عديمو الجدوائية، ذلك أننا لا نقوم إلا بما فرض علينا. فبالتأكيد أن كل ما نستطيع فعله هو ادعاء، ما دام يمكن إنجازه بدوننا، فلا نستحق أي شيء سوى ما يشاء الخالق أن يمنحنا بفضله، عبر المنة العظمى باستخدامه لنا في أفعاله، فأراد أن نكون أدوات في بعض الأشياء التي يفعل.
لقد شاء حلمه ذلك، لأنه وجد فينا بعضا من عمله نستطيع من خلاله أن نحصل على جزاء قيم. لذا فإن الحكماء، و قد أدركوا فضله اللامتناهي، قد صنع منهم ما صنع، فبإدراكهم أن كافة

الأعمال الصالحة تأتي منه عبر مشيئته القاهرة، فقد أقروا أنهم لا يستحقون شيئا لقاء ما قد يقومون به؛ فهم يبذلون ما بوسعهم لإكمال هذه الدائرة، حتى ينتهي أي عمل يقومون به في البداية التي نشأ منها.

*****

و بما أنكم، أيها الأمير الأسمى و الأنبل بين البشر، و طبقا لما أعتقد، السيد الأفضل، و تيمنا بالأساس بعيد الشكر، قد أمرتموني، أنا غوميس إيانيس دي آزورارا، خادمكم و مطيعكم و عبر جودكم، فارس و قائد في نظام المسيح، بتأليف هذا الكتاب كعمل هدفه الاعتراف بالجميل، فأعتقد أنه من المنطقي و المناسب أن أختمه بالشكران. فلأن الحواري القديس بولس علمنا أن نشكر الرب في كل الأمور، كما ورد في الرسالة التي بعث بها لشعب تسولونيكا. فباتباع الدائرة في عملي، فإني أختم بذلك المُعين الذي تضرعت إليه إرادتي في البداية، و أتقدم بما أستطيع من حمد إلى المولى الرب، ذلك أني لم أتمكن من حمده كما يجب: أولا إلى الأب ذي الجوهر الأسمى و خالق كل شيء، أشكره على الموهبة التي منحني إياها للشروع في هذا الكتاب، ثم إلى الابن ذي الروحانية الأسمى، الذي ليس لوجوده بداية و الذي أشكره على ما منحني لمواصلة ما قد بدأته، ثم إلى الروح القدس ذي الطبيعة الأسمى و الذي به حصلت على كل الأمور الخيرة بفضل عطفه، فأشكره على الإلهام الذي بعث فيكم لتكليفي بهذه المهمة و ليس غيري من رعاياكم و أتباعكم، الذين يمكن أن تجدوا منهم الكثيرين. فإلى كافة الأشخاص الثلاثة الذين يشكلون الثالوث المتعذر على الوصف و الوحدة الجوهرية الأسمى، مولانا الرب الواحد، أقدم الشكر على الاختتام، لأن كل الأمور انتهت بشكل أفضل أكثر مما توقعت من قبل.

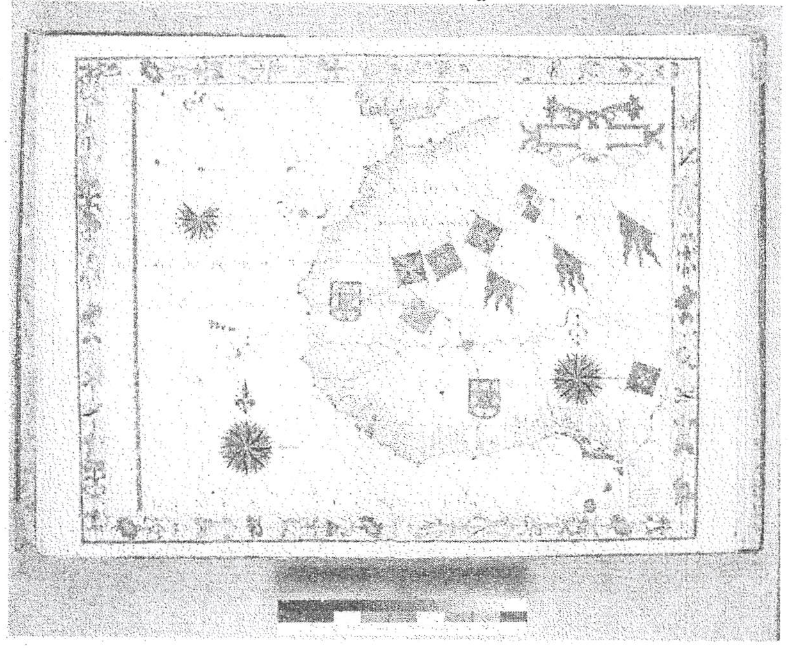
*****

لقد انتهى هذا العمل في المكتبة التي أنشأها الملك السيد أفونسو بلشبونه في الثامن عشر من شهر فبراير، في هذا الجزء الأول بخط حضرة جوآو غونسالفيز، ناسخ كتب المولى الملك المذكور، فأتوسل إلى الرب المهيمن ذي الفضل و اللطف أن يمنح هذا السيد المزيد و المزيد من أعمال البر و الفضائل كل أيام و سنوات حياته، و أن يمده بثمرة بركته حتى يشكره دوما و يحمده، لأنه هو الصانع و الخالق. في سنة 1453 من ميلاد المسيح.

الشكر للرب.

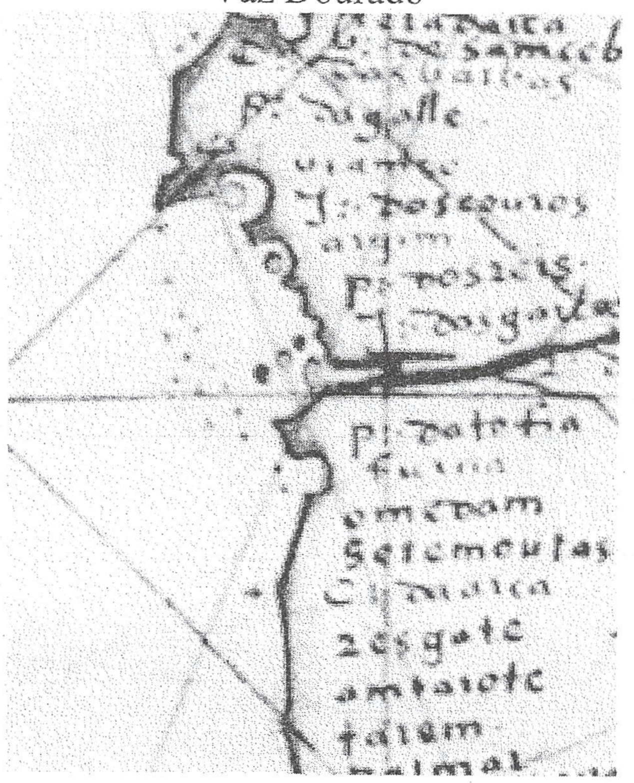
قائمة الملاحق

ملحق 1 : خريطة غرب إفريقيا كما رسمها فرناو فاز دورادو Fernão Vaz Dourado / 1571 و يظهر فيها بوضوح الساحل الموريتاني و بالأخص حوض آرغين*

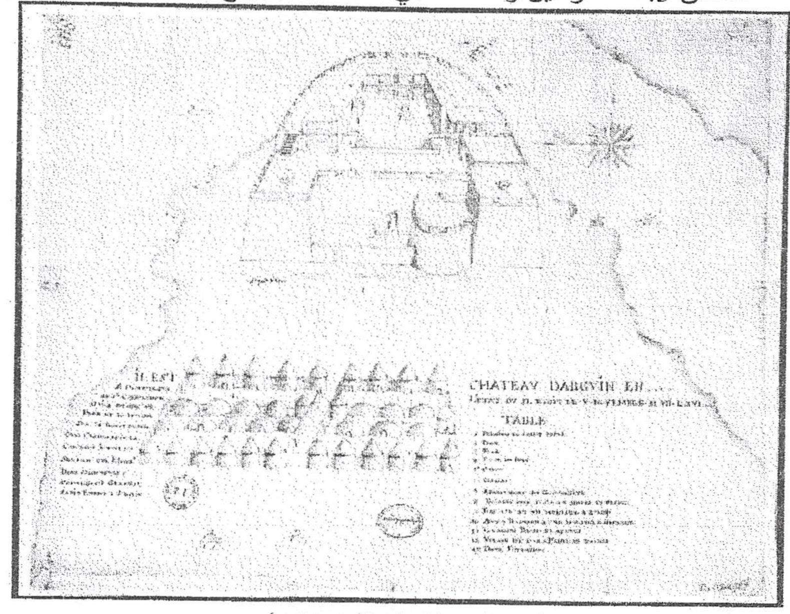


*المصدر: الأرشيف الوطني البرتغالي في توريه دو تومبو / لشبونة.

ملحق 2 : مقطع حوض آرغين من خريطة فاز دورادو / Fernão Vaz Dourado

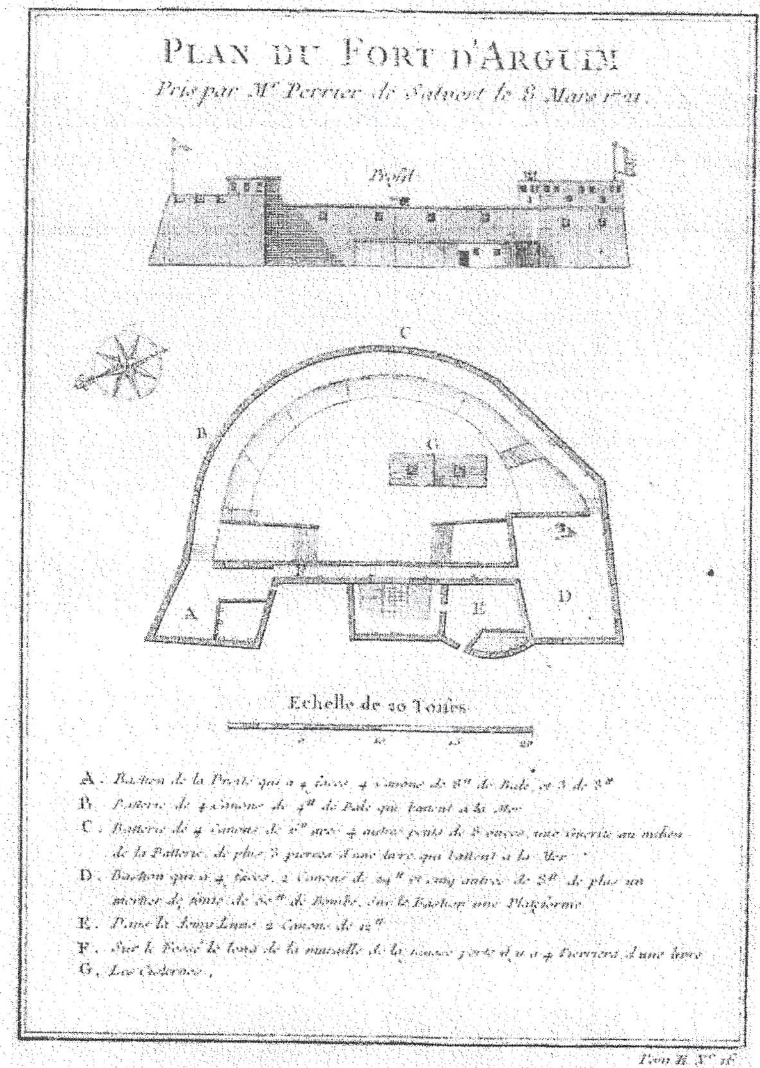


الملحق 3: قلعة آرغين و الحالة التي كانت فيها بتاريخ 05 نوفمبر 1716*



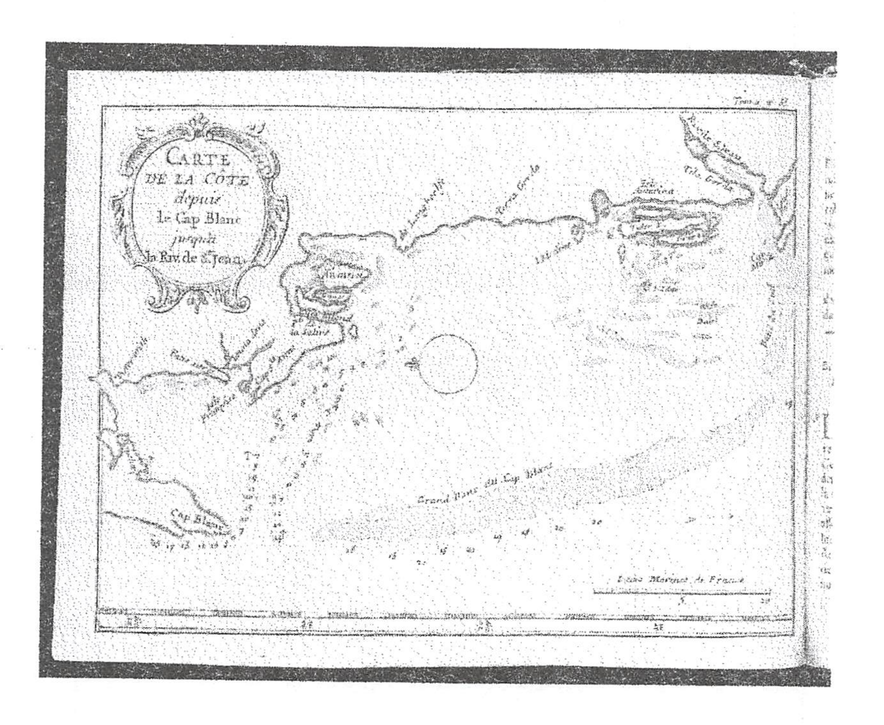
*المصدر: المكتبة الوطنية / فرنسا:
http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b7759784v

ملحق 4: رسم بياني لقلعة آرغين بحسب السيد بيرييه دي سالفرت / de Salvert M. Perrier بتاريخ 08 مارس 1721

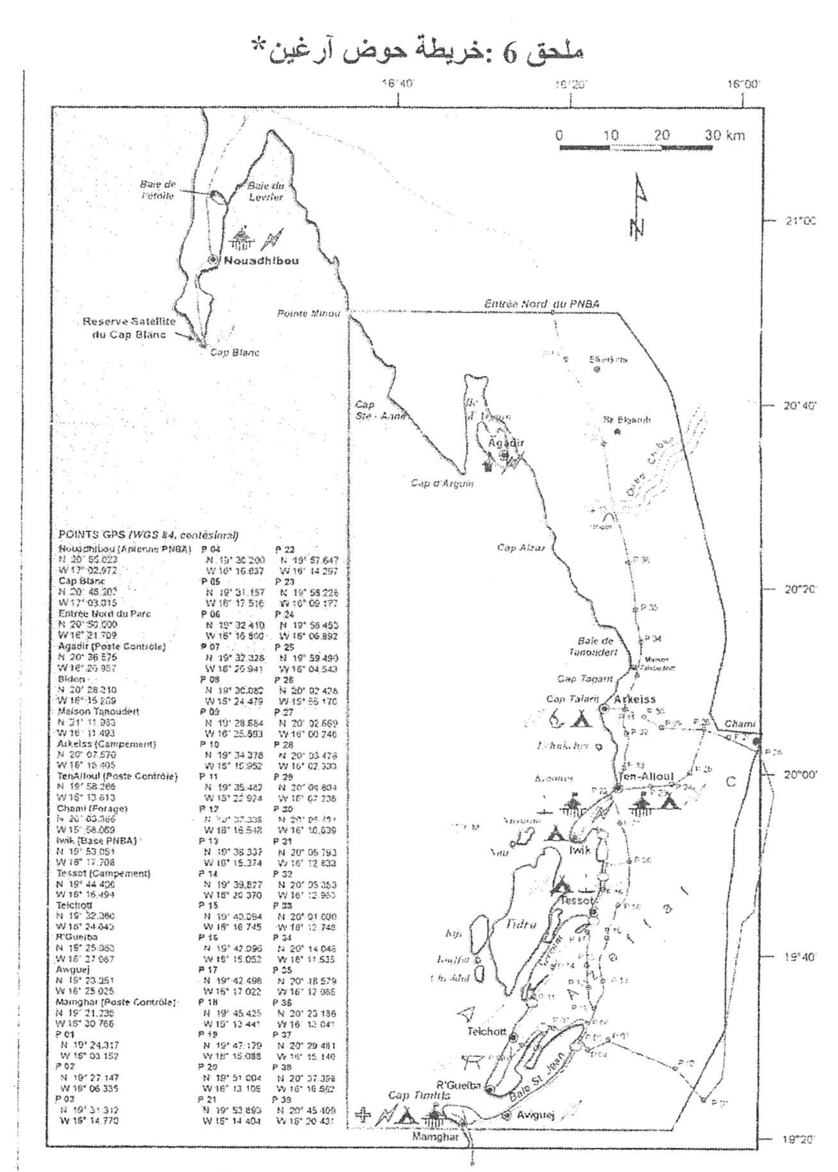


المصدر: https://www.raremaps.com/gallery/detail/18723

ملحق 5 : خريطة الساحل الموريتاني من الرأس الأبيض و حتى بحيرة سانت جان / Baie St. Jean كما ظهرت في كتاب الأب لابات / Père Labat : Nouvelle relation de l'Afrique Occidentale/ 1728، الجزء 2 ، ص.55.



ملحق 6 :خريطة حوض آرغين*



*المصدر: موقع مكتبات جامعة تكساس/ الولايات المتحدة الأمريكية
http://www.lib.utexas.edu/maps/africa/arguin_map.jpg

قائمة المراجع

- Gomes Eannes de Azurara: *Chronica do Descobrimento e Conquista de Guiné*
الذي تم نسخه حرفيا من النسخة الأصلية الموجودة في المكتبة الملكية بباريس و نشر لأول مرة من قبل دو فيسكونده دا كريرا، المبعوث فوق العادة و الوزير مطلق التفويض لجلالة الملك لدى عرش فرنسا، مع التقديم و بعض الهوامش من قبل فيسكونده دي شانترن، الملحق بالأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونه و بعدد كبير من المؤسسات العلمية في إسبانيا و فرنسا و إيطاليا و إنجلترا و هولندا و السويد و أمريكا، دار النشر ج. ب أيو (J.P. Aillaud)، باريس 1841.

- Gomes Eannes de Azurara: *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea*
ترجمة كل من: Charles Raymond Beazley عضو معهد ميرلون، أكسفورد و عضو مراسل لجمعية لشبونه الجغرافية و EDGAR PRESTAGE، فارس من نظام القديس ثياغو الأنبل في البرتغال و عضو مراسل لأكاديمية لشبونه الملكية للعلوم و لمؤسسة لشبونه الجغرافية، الناشر: The Hakluyt Society، الجزء الأول، نيويورك، أكتوبر 1896، المنشور من قبل مشروع غوتنبرغ لاكتشاف الكتاب الإلكتروني، ابريل 2011 على موقعه الإلكتروني.

- Gomes Eannes de Azurara: *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea*
ترجمة كل من: Charles Raymond Beazley عضو معهد ميرلون، أكسفورد و عضو مراسل لجمعية لشبونه الجغرافية و EDGAR PRESTAGE، فارس من نظام القديس ثياغو الأنبل

في البرتغال و عضو مراسل لأكاديمية لشبونه الملكية للعلوم و لمؤسسة لشبونه الجغرافية، الناشر: The Hakluyt Society، الجزء الثاني، نيويورك، ابريل 1899 ، المنشور من قبل مشروع غوتنبرغ لاكتشاف الكتاب الإلكتروني، ابريل 2011 على موقعه الإلكتروني.

- *Chronique de Guinée (1453)* de Gomes Eanes de Zurara, présentée par Jacques Paviot, traduite et annotée par Léon Bourdon avec la participation de : Robert Ricard, Théodore Monod, Raymond Mauny et Elias Sera Rafols, édition Chandeigne- Librairie Portugaise, 1994.

- Prosper Cultru : *Premier voyage du Sieur de la Courbe Fait a la Coste d'Afrique 1685*
المنشور من طرف ب. كولترو، الناشر: أميل لاروز و أدوارد شامبيون، باريس 1913 .

- Père Labat : *Nouvelle Relation de l'Afrique Occidentale*, Tome II, éditeur : Guillaume Cavalier, Paris, 1728.

فهرس الكتاب